

الحركة الصليبية

صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي

في العصور الوسطى

الجزء الأول

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشر



الحركة الصليبية

صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الاسلامى
فى العصور الوسطى

الجزء الأول

تأليف

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور

أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة السادسة

(منقحة)

٢٠٠٢

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم الكتاب : الحركة الصليبية
اسم المؤلف : د. سعيد عبد الفتاح عاشور
اسم الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
التنسيق الفني : ميجا سنتر
اسم الطابع : مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقم الايداع : ١٤٩٠٠
الترقيم الدولي : 0-977-05-1657 I.S.B.N

الإهداء

إلى

المؤمنين بقوله تعالى

«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد
الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله
لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

،انجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية،
(الحاقة ، ١٢)

(١)

ترجع أهمية الحركة الصليبية بالنسبة لأمتنا إلى أنها تشكل تجربة في تاريخ العروبة والإسلام جميعاً، سواء في المشرق أو في المغرب. وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبرى، خطيرة المغزى عميقة الأثر، مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا أن نستيقظها ونتدارسها في كل وقت - الآن وفي المستقبل - لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وبذلك نحفظ لأمة الإسلام حقوقها، وللعروبة كيانها، ونحقق لأبنائنا حياة حرة كريمة على أرض الآباء والأجداد.

ثم إن ذبول الحركة الصليبية أوشكت على الإنتهاء في القرن الخامس عشر للميلاد تقريباً لتتمخض عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للوطن العربي الإسلامي من ناحية والغرب الأوربي المسيحي من ناحية أخرى. فإذا كانت هذه الحركة تعبر في مضمونها عن صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى، فما السر في أنها إنتهت بتدهور وركود وانحلال في العالم الإسلامي في حين أنها جاءت مصحوبة، بنهضة عامة شاملة في الغرب المسيحي، هي أساس نهضته الحديثة؟؟

الواقع إن هذه ظاهرة تسترعى الانتباه وتستحق منا وقفة للتفكير والتعليل. قد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسئولة عن الإنهيار الذي تعرضت له معظم البلدان العربية الإسلامية، في أواخر العصور الوسطى، بعد أن إستنفدت الحرب جهود هذه البلدان وإمكاناتها البشرية والمادية. ذلك أنه من الواضح أن الأخطبوط الصليبي الغربي ثبت أقدامه ونشر أذرعه في بقعة هي بمثابة القلب من عالم الإسلام والعروبة؛ ومن ذلك المركز المتوسط أخذ يسعى لتهديد الشام ومصر والعراق والحجاز. هذا في الوقت الذي كانت تتعرض بلاد المسلمين في الأندلس والمغرب وجزر البحر المتوسط لعدوان صليبي هو في حقيقة أمره جزء من الحركة الصليبية التي استهدفت تطويق عالم الإسلام في المغرب والمشرق جميعاً، وضرب المسلمين برأ وبحراً أينما وجدوا. ومن الواضح أنه كان يصعب على المسلمين أن يواصلوا مسيرتهم الحضارية وسط تلك الأخطار الجسيمة الشاملة، فاضطروا إلى الإنصراف عن الإنشاء والتعمير والنشاط الحضاري بأوسع معانيه، والتفرغ للحرب والدفاع عن الأرض والتراث، مما أدى بهم إلى التخلف.

على أننا نجد لزماً علينا من باب الأمانة التاريخية أن نشير إلى أن مظاهر الضعف والانحلال السياسى والركود الحضارى بدت فعلاً فى بعض أجزاء الوطن الإسلامى قبل بداية حركة الإسترداد المسيحية فى أسبانيا بكثير، وقبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق بكثير أيضاً. وإن من يتأمل أحوال عالم الإسلام منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد، ليسترعى نظره كثرة الثورات السياسية والصراعات الفكرية والخلافات المذهبية والحزابات العنصرية ... التى قامت فى جوف الأمة ؛ مما أدى إلى قيام ثلاث خلاقات بدلاً من خلافة واحدة، وعديد من الدول المستقلة المتنايزة بدلاً من دولة واحدة متماسكة.

وبعبارة أخرى، فإن جذور الضعف فى دولة الإسلام إمتدت إلى ما قبل الحروب الصليبية. وليس حقيقاً ما يظنه البعض من أن تلك الحروب وحدها هى المسئولة عن حالة الذبول التى تعرض لها عالم الإسلام فى أواخر العصور الوسطى. وربما كان أقرب إلى الحقيقة التاريخية أن نقول أنه لولا ما أصاب عالم الإسلام من تفكك وضعف ما جرؤ الغرب الأوربى المسيحى على التفكير فى شن تلك الهجمات الواسعة على بلاد المسلمين. وإذا كان الضعف قد إستشرى فى جسد الدولة الإسلامية قبل أن تبدأ الحركة الصليبية فإن هذه الحركة جاءت لتستنفد ما بقى لتلك الدولة من طاقة وجهد، مما أوقعها فى نهاية العصور الوسطى فريسة للتخلف والخور. هذا وإن كان ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث فى تلك المرحلة قد أفلح فى إقامة درع واق، أدى بصفة مؤقتة - قرابة قرون ثلاثة - إلى حماية أجزاء واسعة من العالم الإسلامى من هجمات الغرب الأوربى المسيحى.

ومن جهة أخرى، فإنه من المعروف أن هناك معابر أساسية إنتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب الأوربى. ولكن الثابت أن حركة ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية نشطت بالذات على عصر الحروب الصليبية، وأن المركز الأول لتلك الحركة كان أسبانيا حيث أخذ المسيحيون يحاربون المسلمين فى شراسة وعنف. وكلما إستولى المسيحيون على بلد إسلامى، وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة، من مئات المخطوطات العربية فى العلوم والفنون والآداب وغيرها من الدراسات، فأقبلوا على هذا التراث فى نهم وشغف، يدرسونه ويتعلمون فيه وينهلون منه. وهذا هو التفسير الصحيح لحقيقة أصول النهضة الحضارية التى شهدتها الغرب الأوربى إبان عصر الحركة الصليبية، وهى النهضة التى تعتبر أساساً لنهضته الحديثة. هذا كله بالإضافة إلى أن الحركة الصليبية ألهمت الغرب الأوربى نظرة واسعة إلى الحياة. وكان هذا الإتساع فى الأفق، والخروج بغرب

أوريا من نطاق العزلة الواضحة التي عاش فيها المجتمع الأوربي في الشطر الأول من العصور الوسطى - المعروف باسم العصور المظلمة - كان ذلك هو أهم ما أفادته أوريا من الحركة الصليبية، وهو الأمر الذي جاء مصحوباً بنمو روح الكشف والمغامرة عند الأوربيين.

(٢)

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد، فمن الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم الاسلامي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه إجدادنا منذ تسعة قرون تقريباً؛ الأمر الذي يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية أمينة.

فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التي قامت على أرض فلسطين المباركة، والتي تحرص بعض قوى الغرب المسيحي على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح لتمكينها من الثبات والبقاء... فإن إجدادنا في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد وجدوا أنفسهم أمام دولة غربية قامت على نفس البقعة من بلاد الشام، وحرص الغرب المسيحي أيضاً على زرعها ورعايتها وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من مساعدات بشرية ومادية ليضمن لها البقاء والاستمرار.

وإذا كانت دولة إسرائيل تستهدف اليوم - تحت ستار إقامة وطن قومي لليهود - السيطرة على البلاد العربية الاسلامية، الممتدة من الفرات إلى النيل، فإن الصليبيين في العصور الوسطى ما كادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً في إقليم الجزيرة، وجنوباً في اتجاه مصر ودلتا نهر النيل، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطئ الحجاز في محاولة لهدم مقدسات المسلمين في تلك البلاد.

وإذا كان التاريخ لا يبدي عكاساً لحكام الدول العربية الاسلامية في منطقة الشرق الأدنى بسبب موقفهم المتخاذل حتى تمكنت إسرائيل من الوقوف على قدميها، فإن التاريخ أيضاً لم ينس لحكام المسلمين في الشام والعراق ومصر، عدم اكتراثهم بالفرنج، عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام قبيل نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، حتى أن المؤرخ المعروف أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردي يتعجب من عدم خروج بعض هؤلاء الحكام لدفع الصليبيين «مع قدرتهم في المال والرجال»!!

وإذا كانت بعض البلدان العربية الإسلامية، قد إبتليت اليوم بحكام دفعتهم شهوة التسلط وبريق الحكم وجنون الزعامة إلى التكرار للإسلام تحت ستار العروبة، والسقوط تحت أقدام كتلة الالحاد في الشرق أو الإرتواء بين أحضان الإستعمار الجديد في الغرب، والتخلص من معارضيهم بالإرهاب والإغتيال ... فإننا نسمع في عصر الحروب الصليبية عن معين الدين أنر حاكم دمشق الذي دفعته شهوة الحكم والخوف على سلطانه من تيار الوحدة، إلى محالفة الصليبيين في بيت المقدس، والتردد على حصونهم وقلاعهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء وطنه ودينه . وما يقال عن معين الدين أنر في دمشق، يقال أيضا عن ضرغام وشاور - من وزراء الخلافة الفاطمية المتداعية في مصر - وعن الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق، وكلهم حالفوا الصليبيين، وطلبوا معونتهم ضد منافسيهم . وإن المشتغل بتاريخ الحركة الصليبية ليتملكه العجب والأسف عندما يجد بعض أبطال الجهاد الاسلامي مثل مودود وجناح الدولة وصلاح الدين الأيوبي يتعرضون لطعنات بخناجر مسمومة، نقشت على مقابضها عبارة «لا إله إلا الله، وإدعى أصحابها أنهم مسلمون . بل إن بعض هؤلاء الأبطال سقطوا صرعى فريسة الإغتيال داخل المساجد وبيوت الله، مثل الجامع الأموي بدمشق، وجامع حمص !!

وإذا كان أشد ما تخشاه إسرائيل اليوم هو قيام وحدة عربية أو إسلامية، تحيط بها وتخنقها، فإن الصليبيين في العصور الوسطى إستماتوا لعدم تحقيق وحدة من هذا النوع في منطقة الشرق الأدنى، فقاوموا أي اتجاه وحدوي بين مدن بلاد الشام الاسلامية بعضها وبعض، وقاوموا أية حركة وحدوية بين المسلمين في الشام والمسلمين في مصر وإقليم الجزيرة والعراق، أو بين المسلمين في الشام وإخوانهم في آسيا الصغرى . وعندما رأوا أن نور الدين محمود نجح في إقامة وحدة إمتدت من الفرات إلى دمشق - مرورا بحلب - خشوا أن تكتمل تلك الدائرة بإستقطاب مصر، فحاولوا بشتى الطرق منع الوحدة بين مصر والشام والعراق، لأنه إذا تم هذا الأمر، فلن يبق لهم (أي للصليبيين) في بلادهم مقام، على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

وإذا كان الإستعمار العالمي قد مهد لقيام إسرائيل، فحرص في ختام الحرب العالمية الأولى على أن يمد نفوذه إلى إقليم الأردن ليستغل تلك المنطقة ذات الموقع الاستراتيجي الحساس في الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر،

وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية إسلامية في الشرق الأدنى، فإن الصليبيين ماكدوا يقيمون لأنفسهم دولة في بيت المقدس، حتى قاموا بالمحاولة نفسها، فسعى أول ملوكهم بلدوين الأول إلى السيطرة على الأردن ووادي عربة، وشيد حصن الشوبك جنوبي البحر الميت، ومن ذلك المركز الحساس سعى الصليبيون إلى قطع طرق الإتصال بين مصر والجزيرة العربية والشام والعراق.

وهكذا يبدو أن التجارب التي تمر بها الأمة الإسلامية اليوم، من أفغانستان إلى فلسطين وأرض الشام، ومن الفلبين إلى شبه القارة الهندية، ومن الحبشة وشرق إفريقيا إلى قلبها وغربها ومن شيشان إلى البلقان وأقاليم البوسنة والهرسك ... هذه التجارب تبدو في ضوء دراسة التاريخ غير جديدة، إذ سبق أن تعرضت هذه الأمة - من الداخل والخارج - لنفس الأساليب من العدوان والخيانة والألاعيب والدسائس في عصر الحركة الصليبية. وبقي علينا اليوم أن نتعلم ونستفيد من دروس التاريخ لنجتاز حاضراً مليئاً بالصعاب والمخاطر، إلى ما نرجوه من مستقبل مشرق يفيض بالخير والعزة.

(٣)

والواقع إن عالم الإسلام شهد في عصر الحركة الصليبية مؤامرات عدة من الخارج والداخل : مؤامرات من الغرب المسيحي لسلب المسلمين أرضهم وديارهم ؛ ومؤامرات من الصليبيين بالشام لتمزيق وحدة الصف الإسلامي والتنكيل بأبناء الأمة الإسلامية، ثم مؤامرات من بعض حكام المسلمين أنفسهم وبعض الجماعات والفرق والنحل التي إدعت الانتساب إلى الإسلام ، ضد إخوانهم في الوطن والأصول.

ولكن هل نجحت تلك المؤامرات ؟ وإلى أي حد كان نجاحها أو فشلها ؟ إن العبرة في تحديد النجاح أو الفشل تكون دائماً بالنتائج. وهنا نجد الحركة الصليبية وقد إنتهت - بعد قرون عدة، من الجهود التي إستنفدت الكثير من الأرواح والأموال - بطرد الصليبيين تماماً من الشام، وتطهير الأرض الطيبة من الدخلاء الغاصبين. وإذا كانت تلك الحركة قد إنتهت في الأندلس على وجه آخر مخالف، فإن السبب في ذلك يرجع أساساً لتطرف بلاد الأندلس في الموقع، وبعدها عن قلب عالم الإسلام، في الوقت الذي كانت تلك البلاد على مقربة شديدة من قلب العالم المسيحي، مصدر الحركة الصليبية ومنطلقها.

أما بالنسبة لقلب الدولة الإسلامية، في الشرق الأدنى، فإن المسلمين ظلوا مؤمنين بالله وبأنفسهم وبحقهم، فلم يستكينوا لحاكم خائن، ولم يأمنوا لشر ذمة هدامة متطرفة تتمسح بالإسلام، والإسلام برىء من أهلها، ولم يخافوا عدواً طاعياً نفذ إلى عقر بلادهم في حين غفلة.

وهكذا يحكى التاريخ أن أهل دمشق لم يرضوا عن حاكمهم الخائن معين الدين أنر الذى حالف عدو الله وعدوهم، فثاروا ضده، واتصلوا سرّاً بنور الدين محمود لتسليمه بلادهم تحقيقاً لوحدة إسلامية شاملة تستهدف الجهاد في سبيل الله.

وعندما حاول الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يتآمر مع الصليبيين لغزو مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٤)، وجمع جيشاً من أهل الشام سار به جنباً إلى جنب مع الجيش الصليبي في اتجاه أرض النيل، حدثت المفاجأة النابعة من ضمير هذه الأمة، إذ ما كاد الجيش الشامي يصل قرب غزة ويرى أمامه الجيش المصري، حتى إنفض أهل الشام عن حاكمهم الخائن، ورفضوا أن يشتركوا مع العدو الدخيل ضد إخوانهم في الدين، فسأقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم، !! ؛ على قول بعض المؤرخين المعاصرين.

وبفضل هذا الإيمان بالله، وبوحدة الهدف، والتمسك بوحدة الصف أمكن للمسلمين في الشرق الأدنى أن ينتصروا في معركة الحروب الصليبية في العصور الوسطى. وقد أثبت التاريخ دائماً أن هذه الوحدة المنبثقة من صميم الواقع الاسلامي؛ المعبرة عن روح الإسلام وتعاليمه ومثله، لا بد وأن تنتصر في تحقيق أهدافها رغم ما يصادفها من عقاب يضعها في طريقها أعداء الله في الداخل والخارج.

والواقع إن أهم ما يسترعى إنتباهنا في دراسة تاريخ الحركة الصليبية هو ذلك التوافق الشديد بين عناصر الأمة - عرب وأتراك وأكراد وبربر وغيرهم - ؛ وتلك الإستجابة السريعة التي ربطت كل عضو من أعضاء ذلك الجسد الكبير ببقية الأعضاء : فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش من العراق لمنازلة الغزاه المعتدين، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ؛ ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها وطاقاتها البشرية والمادية لطرد الصليبيين من الشام، ولا يكاد أرناط صاحب حصن الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر على رأس حملة لضرب مقدسات المسلمين في الحجاز حتى تخرج السفن والرجال من مصر

لمطاردته وإفساد خطته ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس حملة لغزو تونس سنة ١٢٧٠م حتى تتحرك الجيوش من مصر للدفاع عن المغرب ودفع الغزاة عنه

وهكذا ظل التجارب سريعاً وتاماً بين كافة أجزاء الأمة الإسلامية في المشرق والمغرب، الكل جسد واحد يحس بإحساس واحد، بحيث لا يشكو عضو إلا استجاب له بقية الأعضاء في سرعة وإيمان.

(٤)

وفي هذا الكتاب حاولت أن أقدم دراسة علمية أمينة للحركة الصليبية بمختلف أدوارها ومراحلها، وهي دراسة استنفدت من الجهد والوقت ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وسيلمس القاريء أنني أعتمد في هذه الدراسة على عدد ضخم من المصادر المعاصرة - عربية وغير عربية - فضلاً عن بعض المراجع الحديثة.

وقد ظلت المكتبة العربية شبه خالية من مؤلف واحد يعالج الحركة الصليبية من بدايتها حتى نهايتها علاجاً علمياً، مع ما لهذه الحركة من أهمية بالغة في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية وعلاقاتها بالغرب الأوربي في العصور الوسطى. وبعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ أكثر من ربع قرن، بدأت تظهر بعض الدراسات الطيبة بالعربية في جوانب من تاريخ الحركة الصليبية. ونحن نبارك هذا النوع من الدراسات الجديدة التي تتصف بالجهد والأمانة، وتستهدف خدمة العلم والكشف عن صفحات مستترة من التاريخ.

ولكن ما ينبغي أن نشير إليه هو أن البعض لم يلتزم بأصول الأمانة العلمية، وربما استغل التشابه بين اسمه واسم المؤلف ليسطو على ما في هذا الكتاب من مادة علمية محاولاً أن يخفي سوء عمله بشيء من الحذف والتقديم والتأخير. حتى الأخطاء المطبعية نقلها كما هي دون وعي أو ادراك، لأن لصوص الفكر والكتب - شأنهم شأن بقية أصناف اللصوص - يتصفون عادة بصفات مشتركة، منها أنهم في عجلة من أمرهم، وأنهم أثناء مباشرة نشاطهم في السطو على ما للغير لا يميزون بين نوعيات ما يسطون عليه وإنما يختطفون بسرعة ما يصادفهم دون تمييز، وهم في الغالب لا يقدرّون القيمة الحقيقية لما يستولون عليه بغير جهد، فضلاً عن أنهم يحاولون إخفاء جرائمهم بتغيير بعض معالم ما يسرقونه. ولكن هذا

السلوك لا يؤدي في النهاية إلا إلى انتاج سييء غير أصيل، مشوه الخلق، مصطنع الصورة، مهلهل غير مترابط الأجزاء، وصدق الله العظيم حين يقول «فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

واننى إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة المنقحة الجديدة من كتاب الحركة الصليبية، أحمد الله على ما حققه هذا الكتاب من نجاح كبير منذ أن صدرت طبعته الأولى في الستينات. وفي تلك السنوات أعيد طبع الكتاب أكثر من مرة، ولكن ظروفى الخاصة حالت بينى وبين مراجعة أصول تلك الطبعات بنفسى، الأمر الذى ترتب عليه حدوث تحريفات مطبعية عديدة وبخاصة فى الحواشى والهوامش. وأحمد الله الذى مكنتى أخيراً من مراجعة مادة الكتاب فى هذه الطبعة مراجعة دقيقة، ومطابقة النصوص على أرقام الصفحات بالرجوع إلى المصادر الأصلية التى أعتمدنا عليها ؛ مما يجعل هذه الطبعة فى صورتها المنقحة المزيدة مرجعاً يستطيع أن يعتمد عليه الباحثون فى موضوع الحركة الصليبية.

ولا أدعى أننى وفيت هذا الموضوع حقّه من البحث، وإنما هى محاولة أولى لدراسة تاريخ حلقة من أخطر حلقات الحقبة الوسيطة وأكثرها ازدحاماً بالأحداث. ومرة أخرى نكرر أننا نرجو أن تتبّع هذه المحاولة محاولات جديدة لإستكمال جوانب الموضوع على أيدي الباحثين الجادين الشرفاء الامناء، وما أكثرهم فى أمتنا والحمد لله.

وقد دفعتنى رغبتى فى تسهيل مهمة من يرغب فى متابعة البحث فى موضوع الحروب الصليبية على أساس الخوض فى أعماق المصادر الأولى، لالسطو على المؤلفات الحديثة وإغتصاب ما للغير، إلى تذييل هذا الكتاب بقائمة كاملة للمصادر التى أعتمدنا عليها فى تأليف الكتاب، فضلاً عن عدد من الجداول المفيدة والخرائط والملاحق.

وما زال بعض الكتاب الذين يتعرضون لموضوع الحروب الصليبية، يقعون فى كثير من الأخطاء عند تدوين أسماء بعض المدن والمواضع الجغرافية، وهى أخطاء تسبب فيها ترجمة تلك الاسماء من الكتب والمراجع الأوربية دون التحقق من الصيغ السليمة التى وردت فى المصادر العربية المعاصرة. لذلك وضعنا فى نهاية الكتاب كشافاً أبجدي الترتيب، بأسماء أهم المدن والمواضع الجغرافية كما وردت فى الخوليات والمصادر غير العربية وأمام كل إسم الصيغة العربية، الصحيحة له.

نسأل الله أن يوفقنا إلى العمل النافع الأصيل لخدمة هذه الأمة التي أراد لها
الله عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

والله ولي التوفيق

سعيد عبد الفتاح عاشور

الباب الأول

فلسفة الحركة الصليبية

لقد نبأ مستقر وسوف تعلمون

(الأنعام، ٦٧)

الفصل الأول

ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربي عند بداية الحركة الصليبية :

إعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى في القرنين الرابع والخامس للهجرة، أى العاشر والحادى عشر للميلاد، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة، ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين أو الروم فى آسيا الصغرى وكيف أدت إستغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربي وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحروب الصليبية.

ومع إعترافنا بوجاهة إتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلاً للحروب الصليبية، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعى للموضوع يأتى من ناحية الغرب لا الشرق. حقيقة أن الإستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق، ولكن البواعث التى دفعت الغرب الأوربي إلى تلبية تلك الإستغاثة، والإسراع بالإستجابة لها والرد عليها رداً عملياً، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربي وقت قيام الحروب الصليبية. ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوربا في العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التى حركت الحركة الصليبية.

أعقب سقوط الأمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م فترة قائمة إمتدت حتى القرن الحادى عشر، وأطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة فى التاريخ الأوربي إسم «العصور المظلمة». ولم تقتصر مظاهر التأخر والإنحلال التى أصابت المجتمع الأوربي فى تلك الفترة على الإنحلال السياسى، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الإجتماعية والثقافية والإقتصادية. وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر. ولم تلبث جموع الفايكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها فى غرب أوربا، فى الوقت الذى أوغل الهنغارىون فى وسط القارة حتى شرق ألمانيا، يخربون ويفسدون. وفى وسط تلك الأزمت تحايل الغرب الأوربي بالنظام الإقطاعى

للحصول على قدر من الأمان والحماية، فإنحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، واضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع. ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً في ظل نظام يعتمد في فلاحه الأرض على الأقتان رقيق الأرض، وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف.

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع، لأن الكنيسة نفسها - التي ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي - تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر، فجرف التيار الاقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة (١).

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف في القرن الحادي عشر. ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة في تاريخ أوربا، على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى في تاريخ الغرب الأوربي (٢). ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة معينها لتحديد بداية حركة حضارية في التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التي تعرض لها غرب أوربا منذ القرن الحادي عشر، وهي الصحوة التي بلغت ذروتها في القرن الثاني عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبعت منها النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر (٣).

ويطلق المؤرخون على هذه الصحوة التي تعرض لها المجتمع الغربي منذ القرن الحادي عشر إسم «النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر». وليس هذا مجال الخوض في تفاصيل هذه النهضة، وإنما تكفي الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة في غرب أوربا. ففي المجال السياسي بدأت أوربا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفايكنج، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعياً حثيثاً لدعم سلطانهم في بلادهم. وفي المجال الثقافي أخذ الأوربيون يعملون في نهم لتحصيل

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٩ (القاهرة، ١٩٦٦)

(2) Archer : The Crusades, p. 14 & Pognon (E) : L'An Mille.

(٣) سعيد عاشور : النهضة الأوربية ١١١ - ١١٢.

أكبر قدر من العلوم والمعارف التي إستقوها وترجموها عن الكتب العربية، وبالتالي فقد بدأ التطور الذي نبتت منه الجامعات لأول مرة في غرب أوروبا. وفي المجالين الاجتماعي والاقتصادي ظهرت صحوة المدن ونشاطها وبخاصة في شمال إيطاليا. وصحب هذا النشاط هجرة كثيرين من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها، مما أدى إلى تطور اجتماعي وإقتصادي خطير^(١).

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التي تعرض لها المجتمع الأوربي الغربي منذ القرن الحادي عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح في مجال الدين. ذلك أن الكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الكلونية. وقد بدأت هذه الحركة في القرن العاشر بقصد إصلاح الحياة الديرية، ولكن لم يلبث أن اتسع نطاقها في القرن الحادي عشر حتى صار هدفها الرئيسي إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التي شكت منها الكنيسة عندئذ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني^(٢) وإذا كانت الكنيسة قد أفلحت في علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخلياً عن طريق عدة مجامع عقدت في القرن الحادي عشر، فإن السعي لحل مشكلة التقليد العلماني أوقع الكنيسة في صراع عنيف مع السلطة العلمانية، وهو الصراع الذي نطلق عليه «النزاع بين البابوية والامبراطورية في العصور الوسطى»^(٣) وقد إتخذ هذا الصراع شكلاً عنيفاً منذ سنة ١٠٧٦ أي قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً - واستمر بعد ذلك سنوات طويلة. وفيه حشدت كل من البابوية والامبراطورية جميع قواها وإمكاناتها للتغلب على الطرف الآخر.

وخلاصة القول أن النهضة التي بدأت مظاهرها في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة، وأمدت الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من إستنفادها ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية إنما جاء وسيلة لإستنفاد الطاقة التي تزود بها المجتمع الغربي منذ القرن الحادي عشر. على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محلياً وفي صراع داخلي، وصار لابد من البحث عن منفس خارجي لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه. وعندئذ ظهرت فكرة الحرب الصليبية لتتهيء للغرب الأوربي ميداناً واسعاً يستغل فيه نشاطه المكبوت وحماسه المنطلقة.

(1) Thompson : The Middle Ages, vol 1 pp. 427 - 428.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص ٢٤١ وما بعدها (١٩٦٦).

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها (طبعة القاهرة، ١٩٦٦)

ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع أن الاجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون على الموضوع، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم. ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأي عامل ديني، حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين. وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين. ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية. وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قوياً للخلاف بين الشرق والغرب، هو الخلاف الدينى بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية.

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن الإسلامى - وبخاصة فى الشرق الأدنى - ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى صحبت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية^(١). وذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية سنة ٤٧٦م صحبتته موجات من الهجرات التى قام بها أهالى بلاد الإمبراطورية الغربية. وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى اتجاهاتها وأثرها، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الامبراطورية، ودخول عناصر جديدة من البرابرة داخل أراضيها. وكان الناس فى غرب أوربا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها، ولا حياة لهم بدونها، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة. وفى ضوء هذا التصور يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى إنتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية فى الغرب، إذ رأوا فى ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه، وظنوا أن الساعة لا بد وأن تقترب. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع البرابرة

(1) King : The knights Hospitallers in the Holy Land p. 15.

وبخاصة من الجرمان وقبائلهم داخل أراضي الإمبراطورية، الأمر الذي ترتبت عليه زعزعة أركان المجتمع الروماني القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان. ولم يلبث الجرمان أن إعتنقوا المسيحية تدريجياً فأمدوا العالم الروماني بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها في كثير من الهجرات التي إتجهت إلى شمال إفريقية، وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا. وينادي بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية في حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس.

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا إنطلاقة كبرى *decumanus fluctus* نتجت عن عملية الإحياء الديني التي بدأت في غرب أوربا في القرن العاشر والتي بلغت أشدها في القرن الحادي عشر، كما سبق أن أشرنا. ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكل معاني الكلمة، ترتبت عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة وتحقيق نوع من الإشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية، وتقوية الجهاز الكنسي ودعمه، وربط أطرافه بالمركز الرئيسي في روما، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام في الغرب الأوربي. ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية، وعنفت تلك الحرب، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بالألّا يحارب الأخ أخاه. ولذلك ظهر شعور قوى في القرن الحادي عشر بالرغبة في العثور على منفس خارجي تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التي نجمت عن حركة الإحياء الديني في غرب أوربا في القرنين العاشر والحادي عشر، وإذا كان الغربيون عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية، وإذا خرجت جماعة من غرب أوربا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة^(١). أما القرن الحادي عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة "en masse"، فكان يخرج للحج بضع مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل، ويتجهون سويًا من غرب أوربا في صورة مظاهرة دينية سليمة قاصدين الأراضي المقدسة بالشام^(٢). ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى، تلك التي خرجت من نورمانديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز، ثم تلك التي خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩^(٣).

(1) Lorga : Hist des Croisades, pp. 3 - 11.

(2) Setton : A Hist of the Crusades, vol. 1, p. 76.

(3) Cam Med. Hist. vol 5, p. 269.

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التي بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب، وهو أن الحج الجماعي صار حربياً بعد أن كان سلمياً. ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة للدفاع عن أرواحهم في الطريق، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام؟ أما ذلك التطور في الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد إستيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم إستيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين المسيحيين منها، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من إستخدام القوة لتأمين عملية الحج إلي الشام^(١).

وأخيراً، فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين، ورأى في الحروب الصليبية الوسيلة التي تحايل بها الغرب الأوربي للفكاك من قيود العصور الوسطى والإنطلاق إلى حياة أوسع أفقاً. ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً. وكان كل من يحاول الخروج عن هذا الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها، وبئس المصير. على أن الإتصالات التي تمت بين الغرب الأوربي والمسلمين - سواء المسلمين في الاندلس أو في المشرق - أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون، فأخذت نسبة كبيرة من الناس في غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها. وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة في القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس في التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل. وكان من المتعذر في الظروف التي أحاطت بالناس في غرب أوربا في ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة في حركة ضخمة - مثل الحركة الصليبية - تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة، وفي الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل. وبعبارة أخرى فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتاحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة.

(1) Setton : op . cit., vol, I, P. 78.

هذه هي أهم النوافذ التي أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية. ونستطيع نحن في ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها :

«حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي إستيطاني على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد إمتلاكها. وقد إنبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادى عشر، واتخذت من إستغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق .»

أدوار الحركة الصليبية ومداها الزمنى :

جرى الوضع فى كتب التاريخ على تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٥، ١٢٩١. ولكن هذا التحديد فى الواقع لا يعنى سوى الدور الحاسم التقليدى النشط فى تلك الحركة، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام. وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً، كما أن التيار الصليبي إستمر بعد إسترداد عكا سنة ١٢٩١، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشرط من القرن الخامس عشر. ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٥، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطيء لا يقوم على أساس سليم، ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزء من تلك الحركة، لا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيلها وبقاياها من ناحية أخرى.

ومن جهة أخرى يلاحظ عدم صحة ما جرى العرف عليه من تحديد عدد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر، بثمان حملات. والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر. فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية ما حققتة من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التى فازت بأرقام فى التاريخ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاماً

تصنف عليها قسماً من الأهمية في التاريخ^(١).

أما الحملات الثمان التي فازت بأرقام عديدة ميزتها في التاريخ، فقد إتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال إفريقيا (الثامنة). ولا يعرف على وجه التحديد السبب في تميز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عديدة دون غيرها من الحملات، وإن كان يبدو أن السرف في هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح في الأراضي المقدسة (مثل الحملة الأولى) أو ما منيت به من فشل ذريع إسترعى الإنتباه (الثانية)؛ أو ما كان لها من إتجاه خاص جديد غير مألوف في غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) أو لخروجها تحت زعامة بعض كبار ملوك الغرب (الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة).

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, P. 3.

الفصل الثانى

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة دفعتها بواعث حقيقية وأسباب قوية، إنبعثت من صميم المجتمع الأوروبي الغربي. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط من السلاجقة وغزوهم لأراضى الإمبراطورية استعانوا بالبابوية، وطلبوا النجدة من الغرب الأوربي. ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك، لما لبى نداء الإستغاثة ولما إستجاب لدعوة الإمبراطورية البيزنطية فى تلك السرعة والقوة.

وسنحاول فى هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التى أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات فى تاريخ البشرية بوجه عام وفى تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد.

الباعث الدينى :

إعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هى زاوية الدين، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً فى ضوء العامل الدينى وحده، متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية. من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها «حروب دينية إستهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام»^(١).

حقيقة إن الحركة الصليبية لها فى إسمها وطريقة الدعوة لها والروح التى كلفت كثيراً من أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها. ولكن ليس معنى هذا أن التيار الدينى هو المسئول الوحيد عن إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها. وإن المدقق فى تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت فى بعض حلقاتها، وأن الباعث الدينى كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسية والإقتصادية بوجه خاص^(٢).

(1) Archives de L' Orient Latin I. ps. 2 - 22.

(2) Iorga : Breve Hist des Croisades. pp. 1 - 2.

والوقوف على قيمة الباعث الدينى فى الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى، وما إعتري تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر، وذلك حتى لا ننزلق فى الطريق نفسه الذى إنزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين، وهم الذين إعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من إضطهادات وحشية، وكيف أن كنائسهم خربت، وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت ... فضلاً عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات، وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها.

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة، بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفىل بأن يصرف الباحث عن رؤية المدخل الحقيقى للموضوع. فالحقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للإضطهاد الذى تعرض له المسيحيون - الشرقيون والغربيون - فى البلدان الإسلامية، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية وعناية، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ء أسلمتكم فإن أسلموا فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد»^(١).

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة، تشهد عليها الرسالة التى بعث بها ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطريرك القسطنطينية، والتى إمتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة. وذكر بطريرك بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت،^(٢) حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان

(١) آل عمران، ٢٠. وكذلك قوله تعالى «وإن الذين أوردوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم : الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير». (سورة الشورى ١٤ ، ١٥).

(2) Thompson : Economic and Social Hist., vol. I, p. 385.

الإسلامية لنوع من الضغط والإضطهاد، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها، وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب. وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية، ففعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب إنتشار المسيحية ذاتها من إضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى. وحسبنا ما قام به خلفاء الأمبراطور قسطنطين الأول من إضطهادات لإرغام غير المسيحيين على إعتناق المسيحية، وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريتين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم في مذبحة فردن الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة، وما إرتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطي^(١). وهذا كله فضلاً عما أتاة المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند،^(٢).

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الإضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشيد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت^(٣). ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه - مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي - من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس، ثم

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩ ، ١٩٤ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩ .

(٢) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣١ .

(3) Vasiliev : Byzantine Empire, p. 393.

وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام^(١).

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وأن ما إعتري المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين^(٢).

ولكن هل يعنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر في تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامنا السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند معالجة القوة التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننا لم نقصد ذلك مطلقاً وإنما أردنا أن نصحح إعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية، أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاداً فريداً في نوعه حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لإستثارة الغرب الأوروبى. وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى - وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه - قد إستغلوا فكرة الإضطهاد هذه للاستهلاك المحلى في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا، فإن عامة الناس في مختلف بلدان الغرب الأوروبى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية. والإعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية التى ظلت سائدة أمداً طويلاً والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوربا الى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر في صورة المسيحيين المخلصين، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والإستشهاد في سبيله.

(1) Setton, op. cit., vol I, p. 74.

(2) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol I, p. 391.

حقيقة إن العصور الوسطى في الغرب الأوربي عرفت في التاريخ باسم «عصور الايمان»، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس في غرب أوربا في تلك العصور، وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة في شخص زعيمها البابا هي التي دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا في شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى. ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضي المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذي دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة، ودفع جموع الناس - من أمراء وعامة - إلى تلبية نداء البابا في سهولة ويسر، والخروج أفواجا من غرب أوربا قاصدين الشرق الأدنى.

أما عن البابوية فكانت قد بلغت في القرن الحادي عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ، مما فتح أمامها آفاقاً واسعة لتجعل سلطاتها عالمية، بمعنى أن يكون البابا - بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس - الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب^(١). والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب في إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها، ولكن النزاع الذي استحكمت حلقاته بين الباباوية البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما من شقاق^(٢). وأخيراً جاء إستنجد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي كافة في صراعة ضد المسلمين، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين^(٣).

هذا عن البابوية، أما عن جمهرة الصليبيين الذين إستجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى، فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيسي الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية. وقد اعترف كثير

(1) Vasiliev. op. cit. II, p. 397.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٦٢ وما بعدها، ص ٤٠٧ وما بعدها (١٩٦٦)

(3) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية، وإما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحيونها في بلادهم في ظل النظام الإقطاعي، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها، وإما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق^(١). وأى وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة، والذين إتجهوا نحو القسطنطينية - وهو البلد المسيحي الآمن - لينهبوا كنائسها، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم جميعاً إخوانهم في الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية، فعلىنا بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوربا في القرن الحادي عشر.

الباعث الاقتصادي :

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والثورات والحروب الهامة في التاريخ. ونحن مع إعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة.

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوربا - وبخاصة فرنسا - في أواخر القرن الحادي عشر. فالمؤرخ المعاصر جيوربت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى، فنذر وجود الغلال وارتفعت ثمناتها إرتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نرى لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشاركين في الحملة الصليبية الأولى تفوق نسبة الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوربا.

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة، إفتعلها التجار المستغلون - وجلهم من اليهود - فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا في الغرب الأوربي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى، وأن هذه الأزمة كانت طاحنة، بلغ من قسوتها أنها الجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش^(٢) وزاد من

(1) Thompson : op. cit., vol. I, p. 302.

(2) Thompson : op. cit., vol. I, p. 392.

سوء الأحوال الاقتصادية في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الاقطاعيين، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها، مما أضر بالتجارة وطرقها، والزراعة وحقولها، أبلغ الضرر. وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في غرب أوربا باباً جديداً للهجرة والحياة، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم.

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون. وجميعهم كانوا يفكرون بدافع من بطونهم لا بوحى من دينهم، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التي مروا بأراضيها، مما يتعارض مع أى وازع ديني.

ثم إن الباحث في تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب أهالى المدن التجارية - في إيطاليا وغير إيطاليا من بلاد الغرب الأوربي - للمساهمة في تلك الحركة، سواء بعرض خدماتهم لنقل الصليبيين عن طريق البحر الى الشرق، أو في نقل المؤن والأسلحة وكافة الامدادات الى الصليبيين بالشام، أو مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانى ضد هجمات الأساطيل الإسلامية. وهنا أيضا نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً⁽¹⁾. وسنرى في صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى فوجتها نحو غزو القسطنطينية قلعة الكنيسة الشرقية بدلاً من أن تتركها تسير في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين. وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر.

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الإستغناء عن مساعدة أساطيل «الثلاثة الكبار» - البندقية وجنوة وبيزة - حيث أن الأساطيل قامت بدور فعال في

(1) Heyd : Hist du Commerce I, 132 - 133

ربط الصليبيين في بلاد الشام بالغرب الأوربي. وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين، فإنها لم تفعل ذلك إكراماً للكنيسة وإبتغاء لمرضاة الرب، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على إمتيازات إقتصادية هامة. ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي إستولى عليها الصليبيون، تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة، فضلا عن شارع وسوق وفندق به حمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي أسهمت في الاستيلاء على ذلك الميناء أو تلك المدينة. ولم تلبث مرسلها بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية، فحصلت على إمتيازات كبيرة لتجارها في عديد من المدن الصليبية بالشام، إذ منح الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسلها حياً خاصاً بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧، ثم إعفاهم الملك من الضرائب بعد ذلك، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ إلى منحهم إمتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ التابعة لمملكة بيت المقدس في فلسطين.

وهكذا إصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة إقتصادية إستغلالية واضحة فكثير من المدن والجماعات والأفراد اللذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب ومحاربة المسلمين، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستوطنات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن الإسلامي، بغية إستغلال موارده والمتاجرة فيها، والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة. حقيقة أن الإستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الإنقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الإستعمار في صورة أو أخرى منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى. وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية، أول تجربة في تاريخ الإستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادهم لتحقيق مكاسب إقتصادية واسعة النطاق، وذلك على حد قول أحد المؤرخين المحدثين^(١).

وليس أدل على سيطرة النزعة الإستعمارية الإستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات - بل حروب أهلية - بين الصليبيين بعضهم وبعض في بلاد الشام. وقد إستمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار - البندقية وجنوة وبيزة - في أشد الأوقات حرجا

(1) Thompson : Economic and Social History, I, p. 397

بالنسبة للصليبيين، أى فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط فى أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى.

وعبثاً ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذى يوشك أن يعصف بهم جميعاً، فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الإستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعاً من شعور الولاء للدين والكنيسة.

الباعث الاجتماعى :

تألف المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين - من الكنسيين والديرين - ، وطبقة المحاربين - من النبلاء والفرسان - ، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض. وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل فى مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الإجتماعية، فى حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها، والتى كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين^(١).

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا فى غرب أوربا عيشة منحطة فى ظل نظام الضيعة. حيث شيدوا لأنفسهم أكواخا من جذوع الأشجار وفروعها ، غطيت سقفها وأرضيتها بالطين والقش، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية. وكان معظم أولئك الفلاحين من الرقيق والأقنان الذين إرتبطوا إرتباطاً وراثياً بالأرض التى يعملون عليها، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعى لأن القن محروم، حتى من الملكية الشخصية^(٢).

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الإلتزامات والخدمات، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعى مثل فلاحه أرضه الخاصة، فضلاً عن تسخيرهم فى أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر. كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة

(١) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٢٧٦ (١٩٨٦).

(2) Boissonade : Life and Work in Med Europe, p. 85.

الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنوياً رمزاً لتبعيته . هذا عدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات ^(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية المجتمع الأوربي في القرن الحادي عشر . فالسيد الإقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة وفرنًا ومعصرة بل أحياناً البئر الوحيد في الضيعة . وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً باحضار غلاته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ^(٢) . .. كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأبقان والفلاحون لسيدهم الإقطاعي، وهم صاغرون . فإذا إمتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التي من حق السيد الإقطاعي وحده أن يحتكرها، صار ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه ^(٣) .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان . وكان ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية، فوجدت تلك الألوف من البؤساء في الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التي كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها في غرب أوربا دون أمل في الخلاص . فإذا ماتوا في تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلاً في بلادهم الأصلية .

ومن هذا يبدو جلياً أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوربا قد أسهموا في الحركة الصليبية، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل إجتماعية وإقتصادية هامة، فوجدوا في تلك الحركة أملاً في حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وقدر مناسب من كرامة العيش، لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٨٩ (١٩٨٦) .

(2) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95.

(3) Painter : Med. Society, p. 51.

الباعث السياسي :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل، فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لمحاربة المسلمين إلا تحت ضغط البابوية والحاحها، بل تهديدها. وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى أنه لقب بالقدّيس، والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة. أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية نفسها يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين. وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً، وإلا تعرض للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه. وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين. ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان. وعندئذ خرج الإمبراطور - مكرها لا بطل - على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأنه ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج،^(١).

هذا عن الملوك، أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية، فمعظمهم كان يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيه. والمعروف أن النظام الإقطاعي إرتبط دائماً بالأرض، ويقدر ما

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص. ٢٢.

يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ. وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الإبن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع إنتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه ^(١) ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء بقية الأبناء بدون أرض، وهو وضع معقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع. وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلمهم بنجاحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب. حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيتهم في بلادهم الأصلية، وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم.

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي. وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في طريقهم إلى الشام، أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وكيف إستحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلي من مواصلة المسيرة ومشاركة إخوانه في الزحف على بيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة. كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن إستقروا في بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم وبين بعض حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة. وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام بأن المسلمين يحيطون بهم، وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم. ولكن تلك الصيحات

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٦٣ (١٩٨٦).

ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه. بل أن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن مخالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين، مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية.

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربي على المشاركة في الحركة الصليبية. ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة، وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب. وعندما كثرت الحروب الإقطاعية، وهددت المجتمع الغربي تهديداً خطيراً، تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم «هدنة الله» وهي أوقات معلومة يحرم فيها القتال. وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم، فابتكروا المبارزة. ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية إستعراضية إستهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء^(١) لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية، فضلاً عما في المشاركة في تلك الحركة الجديدة من سعي مشكور وذنب مغفور.

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٨١ (١٩٨٦).

الباب الثاني

المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادي عشر

لتبذل أشد الناس عداوة للذين آمنوا
اليهود والذين أشركوا ولتجلدن أقربهم
مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.
ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم
لا يستحيون

(المائدة ، ٨٢)

الفصل الأول

الإسلام والمسيحية

التوسع الإسلامى وأثره فى العالم المسيحى :

شهد القرن السادس للميلاد حدثاً خطيراً فى تاريخ البشرية، هو مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعثه للتبشير بديانة جديدة شعارها (لا إله إلا الله - محمد رسول الله) . ولم تلبث هذه الدعوة أن نجحت فى وضع حد للفوضى الاجتماعية والسياسية التى عاش فيها عرب شبه الجزيرة قروناً عديدة، فصاروا يخضعون جميعاً لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد فى جو من الوثام والألفة.

ولكن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً شاهداً ومبشراً ونذيراً ليهدى الناس كافة إلى الإسلام (١) . ولذلك غدت مهمة الرسول بعد أن استقرت له الأمور فى شبه الجزيرة العربية أن يدعو بقية الأمم لإعتناق الإسلام والإيمان برسالته . ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراساً وأذى مما جعل النبي يعد العدة لجهادهم وإن كانت موجة الفتوح الإسلامية لم تشتد وتتسع إلا بعد وفاة النبي نفسه ٦٣٢ م (٢) .

وكان أن أخذ العرب المسلمون يهاجمون الفرس والروم فى وقت واحد، وهم أصحاب أكبر إمبراطوريتين شهدهما التاريخ فى ذلك الوقت. وإذا كان الاحتكاك بين المسلمين والروم قد بدأ فعلاً فى بادية الشام سنة ٦٢٩، إلا أن الحرب بين الطرفين لم تتخذ طابعاً جدياً إلا فى عهد الخليفة أبى بكر الذى عهد إلى أبى عبيدة الجراح بمحاربة الروم وغزو الشام سنة ٦٣٢ . وقد حاول هرقل إمبراطور الروم إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لإنقاذ موقف الإمبراطورية المتداعى فى فلسطين، ولكن القائد العربى خالد بن الوليد - الذى كان يعمل ضد الفرس فى العراق - أتى

(١) "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً" (سبأ، ٢٨)
(٢) حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٢ وما بعدها (١٩٦٤).

مسرعاً مما أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤^(١). وعندما توفي أبو بكر السنة السابقة خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي إتسعت الفتوح الإسلامية في عهده، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل. وهنا أدرك هرقل خطر تلك الحركة الجديدة، فحشد ثمانين ألفاً من رجاله لقتال العرب. ولكن خالداً أنزل هزيمة جديدة بالجيش البيزنطي عند اليرموك سنة ٦٣٦^(٢). وقد خيل لهرقل في تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما أحس بعجزه عن النهوض بذلك الحمل الشاق بعد أن جاوز الخمسين من عمره ودب الخور في جسده. وإذا كان هرقل قد قضى سنتي ٦٣٥، ٦٣٦ في جبهة الشام، إلا أنه أيقن صعوبة مقاومة العرب المسلمين فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨). ولم تلبث المدن والمعازل الهامة الموجودة في أطراف العراق والشام - مثل ماردين والرها وميافارقين أن سقطت في قبضة المسلمين (٦٣٨ - ٦٣٩) ثم استولوا على قيصريّة سنة ٦٤٠، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى جبال طوروس^(٣).

وبعد ذلك جا دور مصر ففتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١. ويعتبر فتح مصر بالذات دليلاً واضحاً على مدى نجاح تلك القوة الجديدة، كما يتخذ برهانا قوياً على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسى^(٤) وبعد أن فتح المسلمون برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح الإسلامية قليلاً بسبب ما قام في جوف الدولة الإسلامية الناشئة من فتنة إنتهت بقيام الخلافة الأموية في دمشق سنة ٦٦٠، ومن ثم إستأنف المسلمون فتوحاتهم بنفس القوة والنشاط. ثم أخذ المسلمون في فتح إفريقية سنة ٦٦٤ حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة البلاد، فدخل كثير من البربر في الإسلام وإتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود، بمدينة القيروان،^(٥) وكانت حروب المسلمين في إفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٦، ١٦٢ (تحقيق المنجد) وكذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٢ هـ.

(٢) الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥.

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 211.

(4) Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 205.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠ هـ.

البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً إخضاع البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت أخيراً في يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧، وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماماً في شمال إفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير.

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي، وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق الذي عرف باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١، ٧١٣^(١). وفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلاداً ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلاً عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية في العالم المسيحي مثل شمال إفريقية وأسبانيا. وفي جميع البلاد التي فتحها المسلمون أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الإسلام عن إختيار وإرادة حرة كما يقول أحد المستشرقين^(٢).

والمعروف أن الإسلام إحترم المسيحية إحتراماً بالغاً، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد غيره من الأنبياء السابقين، فنأدى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويم يبعث حياً، ووصفه بأنه وجيه في الدنيا والآخرة. ولكن المسيحيين المعاصرين لم يفهموا طبيعة الديانة الجديدة التي بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام، وكل ما أدركوه هو أن أتباع محمد خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليلبتلوا بلاداً بعد آخر من البلدان التي كانت المسيحية قد سبقت إليها، وانتشرت فيها، وصارت تعزز ببقائها في حوزتها. وبعبارة أخرى فإن الكنيسة ورجالها لم يروا في الإسلام والمسلمين إلا خطراً جاثماً هددهم وهدد كياناتهم، فراحت الكنيسة تدعى أن الإسلام إنما إنتشر بحد السيف، وأن الغزوات الإسلامية إنما إستهدفت إجبار الناس على إعتناق الديانة الجديدة. وهكذا خلطت الكنيسة ورجالها بين إنتشار الديانة الإسلامية وانتشار نفوذ العرب السياسي، وتجاهلت حقيقة كبرى إعترف بها جمهرة المستشرقين اليوم، هي أن نفوذ العرب السياسي هو الذي إنتشر بحد السيف، أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحجة ما جعل غالبية أهالي البلاد المفتوحة يدخلون في دين الله أفواجا^(٣).

(1) Dozy : Moslems in Spain, p. 233

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥١ .

(3) Cam Med Hist. vol. 4, p. 330.

ولو حاول رجال الكنيسة المعاصرون أن يتفهموا طبيعة الديانة الإسلامية وروحها لوجدوا أكثر من آية في القرآن الكريم - وهو دستور الإسلام والمسلمين - تأمر الرسول بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن «فإن أسلموا فقد إهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد»^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لإنتشار الإسلام ؛ مما جعلهم يشعرون دائماً بالرغبة في الانتقام من الاسلام والمسلمين.

الصراع بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرن العاشر للميلاد:

ولما كانت الدولة البيزنطية - أو دولة الروم - أقرب القوى المسيحية الى قلب الدولة الإسلامية فقد ربطتها بالدولة الإسلامية الناشئة علاقات مباشرة وفصلت بينهما حدود مباشرة أيضاً، مما جعل الإحتكاك لا ينقطع بين القوتين. وعندما وجد المسلمون أن خصومهم يمتلكون قوة بحرية كبيرة هددت شواطئ دولتهم الجديدة سارعوا بممارسة ركوب البحر والإهتمام بأمر الأساطيل البحرية. ولم يلبث أن أصبح المسلمون قوة بحرية لها حسابها في البحر المتوسط، فغزوا جزيرة قبرص سنة ٦٤٨ وأغاروا على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات، حتى تمكنوا من إنزال هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصواري سنة ٦٥٥^(٢).

وإذا كانت الظروف التي تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام المسلمين بمهاجمة القسطنطينية نفسها عقب موقعة ذات الصواري مباشرة، فإن الأمويين لم يلبثوا أن إستأنفوا مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً على نطاق واسع، حتى وصلت إغارتهم إلى بحر إيجة سنة ٦٦٥. ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذ خبرة كافية بفنون البحر، جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها. كذلك أفاد المسلمون من إستيلائهم على قبرص ورودس وغيرها من المواقع البحرية الحصينة فى بحر إيجة، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات

(١) آل عمران ، ٢٠ . ويقول عز وجل « ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » العنكبوت

(2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 104.

(٦٧٣ - ٦٧٨)، ولم ينقذ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عندئذ من السقوط في أيدي المسلمين سوى إختراع النار الإغريقية التي أنزلت بالسفن الإسلامية ضرراً جسيماً^(١).

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن، وعندئذ إعتقد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت حان للقيام بحملة كبرى تمكن المسلمين من الإستيلاء على القسطنطينية والإحاطة بالإمبراطورية البيزنطية. وقد إختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على رأس تلك الحملة التي شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطئ الأوربي سنة ٧١٧ وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر، أحكم الاسطول الإسلامي حصاره على المدينة من ناحية البحر، حتى كادت القسطنطينية تقع في أيدي المسلمين لولا صمود الإمبراطور ليو الأيسوري وإستعانتته بالنار الإغريقية التي لعبت دورها مرة أخرى في تشتيت سفن المسلمين. وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف القوات الإسلامية، أرسل إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقول بمن معه من المسلمين، فانسحب المسلمون سنة ٧١٨، بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام^(٢).

ويبدو أن فشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية في أوائل القرن الثامن شجع البيزنطيين على دفع خطر المسلمين تدريجياً عن آسيا الصغرى، حتى غامر الإمبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزاً فرصة الضعف الذي أمست فيه الخلافة الأموية في خريف عمرها. وفي العام التالي أحرز البيزنطيون نصراً بحرياً على المسلمين وإستردوا منهم جزيرة قبرص^(٣). ثم لم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في بغداد. وهنا نلاحظ أن إتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضي البيزنطية، بحيث كان الخطر الإسلامي على الدولة البيزنطية شديداً وملموساً في العصر الأموي. ولكن إتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعداً عن قلب الدولة الإسلامية

(1) Vasiliev : op. cit, vol. I, p. 214.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة ٩٩ هـ، وكذلك ابن الأثير الكامل، سنة ٩٩ هـ.

(3) Cam. Med Hist. vol. p. 12.

ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية نسبياً وبصورة واضحة في العصر العباسي.

وليس معنى هذا أن العداء توقف بين المسلمين والبيزنطيين بعد سنة ٧٥٠، إذ نسمع أن الامبراطور البيزنطي ليو الرابع هاجم المسلمين شرقي الأناضول سنة ٧٧٨، فرد عليه الخليفة المهدي العباسي بمهاجمة أراضي البيزنطيين في العام التالي^(١) ثم اشتدت إغارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد، فاجتاحت الجيوش العباسية آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى بلغت البسفور، دون أن تستطيع الإمبراطورة إيرين التغلب على ذلك الخطر، مما دفعها إلى شراء الصلح من المسلمين مرة بعد أخرى مقابل تعدها بدفع جزية سنوية ضخمة من المال.

وقد رفض الإمبراطور البيزنطي نفقور الأول (٨٠٢ - ٨١١) الإستمرار في دفع الجزية التي تعهدت بها إيرين، مما جعل العباسيين يجددون هجماتهم على الدولة البيزنطية^(٢). وفي ذلك الوقت استطاع مسلمو الأندلس الاستيلاء على جزيرة كريت (٨٢٣ - ٨٢٥)، فظلت الجزيرة بأيدي المسلمين مدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الأباطرة البيزنطيون إسترداد الجزيرة. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت جاء ضربة قاسية للتجارة الامبراطورية في بحر إيجه، لا سيما وأن المسلمين في شمال أفريقية غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧، مما مكنهم من السيطرة على طرق الملاحة في البحر المتوسط^(٣) هذا إلى أن المسلمين الذين سيطروا على كريت إستغلوا موقع تلك الجزيرة في تهديد قلب الامبراطورية البيزنطية كما حدث سنة ٩٠٤ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو مدينة سالونيقا في البلقان، ونجح المسلمون فعلاً في السيطرة على هذه المدينة بعض الوقت في أوائل القرن العاشر^(٤).

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، وابن الاثير : الكامل، حوادث ١٦٢ هـ، ١٦٥ هـ.

(٢) يروي ابن الاثير أن نفقور بعد أن استتبعت له الأمور كتب إلى الرشيد يقول " من نفقور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي إقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك".

(3) Ostrogorosky : op cit., p. 182 - 185.

(4) Schlumberger : Recits de Byzance et des Croisades I, pp. 13 - 23.

وعندما ظن الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢م) أن العباسيين أمسوا بعد وفاة الرشيد في حالة من الضعف لا تمكنهم من الدفاع عن دولتهم أخذ يهاجم الدولة العباسية، واستفز الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) بايواء بعض الهاربين من وجه الخليفة، مما أثار حرباً متقطعة بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة. وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله سنة ٨٣١، في الوقت الذي أغارت الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى^(١) ويبدو أن حماسة الخليفة المأمون لمحاربة البيزنطيين دفعته إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات في آسيا الصغرى، فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة (Tyana) العظيمة التي اتخذها قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات^(٢). على أن حسن حظ الامبراطور شاء أن يموت المأمون في تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلاً يطلبون الصلح، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التي فتحتها وراء جبال طوروس^(٣).

وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحاً في عصر الخليفة المعتصم، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم، فهاجم أعالي الشام وما بين النهرين حتى بلغ زبيرة وقتل من فيها من المسلمين، وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة (وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم). ولم تلبث جرأة البيزنطيين في مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية وإغاراتهم على مدنية زبيرة - مسقط رأس الخليفة المعتصم - أن استثارت الخليفة، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف، بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية - مسقط رأس الإمبراطور وأسرته - (وهي أشرف عندهم من القسطنطينية). وقد أسرع ثيوفيل لانقاذ بلده، ولكن الهزيمة حلت بجيوشه واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها، فضلاً عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا^(٤).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنتي ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ.

(2) Cam Med Hist., vol 4 pp. 707 - 710 (1966).

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ.

(4) Diehl, Marcais, Le Monde Oriental, pp. 312 - §

ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٢٢٣ هـ

على أن وصول الجيوش الإسلامية إلى جوف آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن التاسع لم تعقبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ثم قفل راجعاً من حيث أتى، وبذلك عادت الإمبراطورية وإستردت أراضيها في آسيا الصغرى حتى جبال طوروس. ولم يلبث أن ساعدت مشاغل كل من الخليفة المعتصم والإمبراطور ثيوفيل علي عقد هدنة بين الطرفين إستمرت حتى وفاة الإثنين سنة ٨٤٢^(١).

ضعف الدولة الإسلامية وإنقسامها :

على أن الموقف بين البيزنطيين والعباسيين في الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدل في نهاية القرن التاسع للميلاد، عندما فقدت الخلافة العباسية هيبتها وإنحلت قوتها. ذلك أن الخليفة المعتصم العباسي، أفرط في الاعتماد على الترك، الأمر الذي جعله يهجر بغداد وينقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦ ولم يلبث أن أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة في أيدي أمراء الأتراك، حتى غدت السلطة الفعلية في القرن العاشر في يد كبير أولئك الأمراء الذي اتخذ لقب « أمير الأمراء »^(٢) وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي (٨١٦ - ٨٣٧) وحركة المعتزلة، فضلاً عن نشاط الشيعة في جوف الدولة. فإذا أضفنا إلى ثورة الزنج في جنوب العراق (٨٧٧ - ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠، إستطعنا أن نكون فكرة عامة من عوامل، إنحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال^(٣).

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها في تلك الفترة من الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة، والتي أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة، مثل الدولة السامانية (٩٧١ - ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٩ - ١٠٠٣) والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦) والدولة الحمدانية، (٩٢٩ - ١٠١٥) والدولة البويهية (٩٣٢ - ١٠٥٥). ويهنا من هذه البيوت في المشرق السامانيون والبويهيون. أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقي من بلاد فارس، أعنى خراسان وبلخ وما وراء النهر فضلاً عن فرغانة وخوارزم. وقد إتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين لحكمهم، وإستثمروا

(1) Cam Med. Hist. vol. i.p. 711 (1966).

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حوادث ٢٢٠ هـ.

Diehl, Marcais : op. cit., pp. 378 - 381.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 276

يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكماً مستقلاً معظم القرن العاشر. وأما البويهيون - وهم من أصل فارسي أيضاً - فقد سيطروا على الجزء الغربى من بلاد فارس - أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان - كما سيطروا على العراق العربى بما فيه بغداد بين سنتى ٩٤٥ ، ١٠٥٥ وفى تلك الفترة إتخذ أمراء بنى بويه لقب إمرة الأمراء، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ، حتى صار أمير الأمراء من بنى بويه هو الحاكم الفعلى فى الدولة (١).

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين - السامانيون والبويهيون - كانوا من أصل فارسي، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر. والواقع أن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضاً للفوضى والإنقسام من بقية أجزاء الخلافة. ذلك أن الإخشيديين إستقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام - حتى طرابلس وبغروت شمالاً - (٩٣٥ - ٩٦٩) أما شمال الشام - وإقليم الموصل فقد إستقل بهما الحمدانيون (٩٢٩ - ١٠٠٣) الذين ظلوا فى منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى (٢) وزاد من الفوضى التى تعرضت لها بلاد الشام فى تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمانيون على جنوب الشام ووسطه حيث صارت الغلبة فى فلسطين لبنى طى وفى وسط الشام لبنى كلب. أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل. وجميع هذه القبائل العربية ربطتها علاقات بالقرامطة، بل إن بنى طى وبنى كلب شاركوا فى ثورة القرامطة التى حدثت فى مستهل القرن العاشر للميلاد (٣).

أما الخلافة العباسية نفسها، فاستمرت تنتقل فى القرن التاسع من سيء إلى أسوأ، حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات (٨٦١ - ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم إثنان مقتولين، هما أبو عبد الله محمد المعتز بالله، وأبو إسحق محمد المهتدى بالله.

صحوة الدولة البيزنطية فى القرن العاشر :

ولعل ذلك الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى إعتري وحدة الدولة الإسلامية هو الذى مكن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن

(١) ابن الأثير، الكامل سنة ٢٢١ هـ.

(2) Cam Med Hist, vol, 4, p. 245.

(3) Setton : A Hist of the Crusades, p. 87.

التاسع من الوقوف موقفاً أكثر حزمًا وصلابة من جيرانهم المسلمين. ولم يلبث أن تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الإنقاسامات السياسية والمذهبية. وكان ذلك فى الوقت الذى إستولت على العرش فى القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر فى التاريخ البيزنطى، هى الأسرة المقدونية التى نفخت فى الدولة روحاً جديدة بفضل ما وفرته لها من إستقرار داخلى وقيادة رشيدة^(١).

وهنا نلاحظ أن البلقان لم يعد فى ذلك العصر مركز الروح الهلينية فى العالم البيزنطى، بعد أن إجتاح أراضى البلقان كثير من الشعوب السلافية، فضلا عن البلغار. وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتخلف البلقان وتصبح مركزاً للروح الهلينية منذ القرن التاسع. وفى آسيا الصغرى بالذات ظلت التقاليد اليونانية قائمة خالصة، ومن آسيا الصغرى إستمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المالية والبشرية. ثم إن آسيا الصغرى هى التى أمدت الامبراطورية بخبرة البيوت الحاكمة والقادة الأقوياء مثل آل فوقاس وآل شمشقيق (تزيستكيس) وآل كومنين^(٢).

وكان أن بدأت جهود الدولة البيزنطية للتوسع على حساب المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى والشام فى عهد قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) ثالث أباطرة الأسرة المقدونية. من ذلك أن الجيوش البيزنطية إستطاعت تحت قيادة قائد أرمنى الأصل - إسمه حنا كوراكوس Henna Coracous - الاستيلاء على أرضروم من المسلمين، كما أجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إتأوة للبيزنطيين^(٣). وعندما ثارت ملطية على ذلك الوضع دمرها كوراكوس سنة ٩٣٤ واستولى على الجهات المحيطة بها^(٤). وفى سنة ٩٤١ - ٩٤٢ إستولى البيزنطيون على ميافارقين، وعندئذ أسرع حاكم الرها المسلم إلى شراء مسالمة حنا كوراكوس. ولم يلبث البيزنطيون أن إستولوا على مرعش (٩٤٨ - ٩٤٩)، كما إستطاع القائد البيزنطى الجديد ليوفوقاس الإستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم

(١) سعيد عاشور : أوربا للعصور الوسطى، ج ١، ص ٤١٧، وما بعدها.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, pp. 179 - 180.

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٣١٥ هـ.

(4) Vasiliev : op. cit., I, p. 306.

قيليقية، ثم على ديار بكر وسميساط سنة ٩٥٨. وهكذا لم تحل سنة ٩٥٩ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد سيطرت على العديد من مدن إقليم الجزيرة^(١).

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها للإنتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة. وكان أن نجح القائد نقفور فوقاس في طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٩٦١، ثم قام بغزو إقليم قيليقية الذي كان تابعاً لسيف الدولة الحمداني، واستولى سنة ٩٦٢ على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس، ومن هناك إتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج^(٢). ثم إختار نقفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للإستعداد، فزحف مباشرة - وبصحبه القائد حنا شمشقيق - على حلب، واستولى عليها في أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢. وعندما عجز نقفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب، إكتفى بتدمير المدينة وأحرق المساجد، ثم قفل راجعاً إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين^(٣).

وبعد أن عاد نقفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً، رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة ٩٦٤. وفي ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لطعنة من الخلف من جانب بنى بويه، إذ قام الأمير معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بإنتزاع الموصل ونصيبين من الحمدانيين، ولم يرد الموصل إليهم إلا بعد أن تسلم مبلغاً طائلاً من المال^(٤). وهكذا ظهر جلياً أن الظروف في العالم الإسلامي صارت مواتية لأن يقوم الإمبراطور البيزنطي بهجوم جديد، فأرسل إنذاراً إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى جوف شبه الجزيرة العربية ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين. ويهمننا في هذا الإنذار أنه كان يفيض بالروح الصليبية، إذ ضمنه الإمبراطور عبارات دينية حماسية، وتهديداً صريحاً بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعاً^(٥).

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 250.

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٣١٥ هـ.

(3) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 232 - 251 - §

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥١ هـ وما بعدها.

(5) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 427 - 430.

وكان جديراً بالمسلمين في تلك الظروف أن يفيقوا لأنفسهم وينتبهوا لحقيقة الروح الجديدة التي أخذ يعمل بها البيزنطيون، ولكن المسلمين ظلوا غارقين في خلافاتهم الداخلية التي أنهكتهم وأضعفت قواهم. من ذلك أن السامانيين في خراسان أرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم في صد الخطر البيزنطي، ولكن بدلاً من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة في غرض الجهاد، أرادوا إستخدامها في محاربة خصومهم أمراء بني بويه، وعندئذ خمدت حماسة أولئك الخراسانيين وتفرقوا دون أن يشتركوا في قتال. وهكذا ثبت أن الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين كانت أقوى من أن تؤلف بين قلوبهم في مواجهة الخطر المسيحي. وفي ضوء تلك الإنقسامات يمكن أن تفسر الانتصارات التي أحرزها البيزنطيون في القرن العاشر، ثم تلك التي أحرزها الصليبيون الغربيون بعد ذلك منذ نهاية القرن الحادي عشر.

أما نقفور فوقاس، فقد أرسل أحد قواده لإسترداد جزيرة قبرص من المسلمين (٩٦٤ - ٩٦٥)، حتى إذا ما تم له ذلك، عاد مرة أخرى إلى غزو قيليقية بغية القضاء على نفوذ الحمدانيين فيها، فاستولى على المصيصة وطرسوس. والواقع أن هاتين المدينتين لم تسقطا في أيدي البيزنطيين إلا بعد حصار طويل (١٣ يولية ٩٦٥)، وعندئذ أرسل الإخشيدون نجدة لإنقاذ الموقف، ولكن النجدة وصلت بعد فوات الأوان^(١). وفي سنة ٩٦٦ عاد نقفور فوقاس إلى الإغارة على بلاد النهرين، فهاجم آمد ولم يمكنهم فتحها، فانصرف إلى دارا وقارب نصيبين حيث صادف البيزنطيون قافلة للمسلمين آتية من ميفارقين فنهبوا. ثم اتجه نقفور إلى أطراف الشام حيث نازلوا أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها، فلم يمكنهم فتحها، فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس^(٢). وفي تلك الأثناء توفي سيف الدولة الحمداني في يناير سنة ٩٦٧، وخلفه في حكم حلب ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول) الذي عجز عن صد خطر البيزنطيين، فضلاً عن المنازعات التي دبت في تلك الفترة بين أبناء البيت الحمداني^(٣).

وفي سنة ٩٦٨ عاد نقفور فوقاس إلى الشام فلم يمنعه أحد ولا قاتله، فأغار على معرة النعمان وكفر طاب وشيزر التي أحرق مسجدها وحوله إلى رماد. ثم

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥٤ هـ. ويروي ابن الأثير أن نقفور فتح المصيصة عنوة بالسيف، فقتل منهم مقتلة عظيمة، في حين إستولى على طرطوس صلحا فلقبهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XIII.

(3) Cam Med. Hist. vol. 5, pp. 246 - 250.

استولى على حماة وحمص وأحرقهما أيضا. وبعد أن عاث نقفور فوقاس فسادا في حوض نهر العاصي، عبر الجبال إلى ساحل الشام فاستولى على جبلة وعرقنة وانطرطوس. أما اللاذقية فقد سارع واليها بإعلان خضوعه للامبراطور الذي لم يلبث أن عاد بعد قليل إلى القسطنطينية وصحبته خمسة آلاف أسير، بعد أن أقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد،^(١). وعند عودة نقفور ترك خلفه في بلاد الشام قوة كبيرة قرب أنطاكية. ولم تلبث هذه القوة أن تمكنت من الاستيلاء على أنطاكية في أول نوفمبر سنة ٩٦٩ فطرد البيزنطيون أهل أنطاكية المسلمين وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد وقالوا لهم : «أذهبوا حيث شئتم، وأحلوا محلهم جموعاً غفيرة من المسيحيين»^(٢).

وكان لاستيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوى هائل في العالم المسيحي - الشرقي والغربي - نظرا لما لهذه المدينة من مكانة في تاريخ المسيحية. وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين في القرن العاشر. وكان المفروض أن يأتي دور حلب بعد ذلك، ولا سيما أن النزاع الداخلي بين صاحب الحق الشرعي في الحكم - سعد الدولة الحمداني - ومغتصب السلطة فيها - قرغوية (مولى سيف الدولة) - أثر تأثيراً خطيراً في أحوال حلب. ولكن يبدو أن أمر حلب استعصى على البيزنطيين، فصالحوا قرغوية في يناير سنة ٩٧٠ على هدنة مؤبدة بشرط أن يدفع لهم مالا معيناً ويسهل لهم تموين جيوشهم في حالة خروجهم لغزو الشام^(٣). ثم أن نقفور استولى في السنة نفسها على ملازكرد من أعمال أرمينية فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة. وهكذا لم يمت نقفور فوقاس سنة ٩٦٩م إلا بعد أن دخل الجزء الشمالي من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين الذين قويت هيبتهم وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد،^(٤).

وشاءت الظروف أن يشهد العالم الإسلامي في ذلك الوقت تطورا خطيرا، إذ نجح الفاطميون في غزو مصر سنة ٩٦٩ والقضاء على حكم الإخشيديين فيها، وبذلك أصبحت مصر - وملحقاتها في الشام حتى دمشق - مركزاً لخلافة شيعية

(١) ابن الأثير، الكامل حوادث سنة ٢٥٨ هـ.

(2) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au Dixieme Siecle, Nice - phore phocas, p. 723 §

ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٢٥٩ هـ .

(٢) يحيى بن سعيد الانطاكي : التاريخ ١٢٤ - ١٣٦، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٢٥٩ هـ.

(٤) ابن الأثير : الكامل. حوادث سنة ٢٥٩ هـ.

مناقسة لخلافة بغداد السنية . وهكذا قدر للعالم الاسلامى فى الشرق الأوسط أن يظل طوال قرنين (٩٦٩ - ١١٧١) منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين مختلفين ، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، مما ترك أثراً خطيراً فى قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ، ظهرت نتائجها فيما بعد على عصر الحروب الصليبية ^(١) .

وقد أعقب نفقور فوقاس فى عرش القسطنطينية الإمبراطور حنا شمشقيق (تزمستكيس ٩٦٩ - ٩٧٦) الذى وجد فى حروب سلفه ضد المسلمين سابقة إستند إليها . وصادف حسن حظ ذلك الإمبراطور أن الفاطميين واجهوا عندئذ متاعب فى ممتلكاتهم بالشام ، مما قلل من خطرهم على البيزنطيين فى ذلك الدور . هذا إلى أن دمشق وقعت سنة ٩٧٤ فى قبضة أحد المغامرين الأتراك اسمه إفتكين - الذى كان تابعاً للخليفة العباسى فى بغداد ، ثم تظاهر بالدخول فى طاعة الفاطميين ^(٢) ، حتى رأى أخيراً أن يستفيد من الخصومة بين العباسيين والفاطميين ، فيعمل لحسابه الخاص ويستقل بدمشق لنفسه ^(٣) . ومن الواضح أن تلك الأحداث وما نجم عنها من فرقة فى العالم الإسلامى أمدت الإمبراطور حنا الشمشقيق إمبراطور القسطنطينية الجديد (٩٦٩ - ٩٧٦) بفرصة مناسبة لتحقيق أطماعه .

وقد قام حنا بحملته الحربية الأولى فى آسيا الصغرى سنة ٩٧٤ ، فبلغ حدود أرمينية التى كانت تحكمها عندئذ أسرة ملكية إقطاعية . وعندما علم ملك أرمينية - آشوت الثالث - بنية الإمبراطور البيزنطى فى القيام بحرب صليبية ضد المسلمين ، أظهر رغبته فى مشاركة الأمبراطور مشاريعه وجهوده ، وقدم للإمبراطور قوة حربية ضخمة تألفت من عشرة آلاف جندى لمساعدته فى حملة ^(٤) . وكان أن إتجه الإمبراطور حنا على رأس تلك القوة المسيحية الضاربة إلى أطراف بلاد النهرين فى خريف سنة ٩٧٤ ، حيث اضطرت ميفارقين وديار بكر إلى دفع إتاوة ، ثم دخل البيزنطيون نصيبين فى ١٢ أكتوبر

(1) Setton : A Hist of the Crusades, vol. I, pp. 85 - 86.

(٢) وكاتب المعز (الفاطمى) مكاتبة على سبيل المداجاة والمغالطة والمداجمة والتمويه والانقياد له والطاعة لأوامره ، (ابن القلانسى ص ١٢) .

(٣) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٢ .

(٤) ويثبت الخطاب الذى أرسله حنا الشمشقيق إلى حليفه ملك أرمينية عندئذ أن الإمبراطور البيزنطى كان يصدد القيام بحملة صليبية فعلا ضد المسلمين ، ليسترد البيت المقدس وكنيسة القيامة من المسلمين .

(Vaslliev : op. cit., I p 3 10)

بعد أن هجرها أهلها ، فغنموا وسبوا وأحرقوا وأخربوا البلاد،^(١) . هذا في الوقت الذي اضطّر أمير الموصل أيضاً إلى دفع إتاوة للإمبراطورية البيزنطية . وهكذا حقق الإمبراطور حنا الشمشيق كثيراً من المكاسب دون عناء ، مما جعله يحلم حينئذ بالزحف على بغداد والاستيلاء عليها^(٢) .

وفي ربيع سنة ٩٧٥ إتجه حنا الشمشيق نحو الشام ، فغادر أنطاكية في أبريل مخترقاً وادي نهر العاصي ، وعندئذ بادرت حمص إلى دفع الإتاوة دون مقاومة . أما بعلبك التي أبدت نوعاً من المقاومة فقد عاقبها الإمبراطور في قسوة ، ومنها إتجه صوب دمشق . وكانت دمشق - كما سبق أن أشرنا - تحت سيطرة الأمير أفتكين التركي الذي ظل يتأرجح بين إعلان ولائه للفاطميين حيناً وللعباسيين أحياناً ، حتى إذا ما أحس باقتراب البيزنطيين من مدينته ، رأى في تلك القوة الجديدة مأمكته من التخلص من نفوذ الفاطميين والعباسيين جميعاً ، فأعلن ولاءه للإمبراطور البيزنطي ، وتعهد بدفع الجزية له^(٣) . ولا شك في أن هذه الخطوة من جانب أفتكين ساعدته على الوقوف في وجه أطماع الفاطميين بوجه خاص ، في حين غدت سيادة الإمبراطور البيزنطي على الأجزاء الداخلية من بلاد الشام شبه تامة بعد أن اعترفت له دمشق بالسيادة ودخلت أنطاكية تحت سيطرته الفعلية ، كما أعلنت حلب تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية^(٤) .

ومن دمشق إتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية ، حيث إتخذ الزحف البيزنطي طابعاً ليبيّاً واضحاً ظهر بجلاء في الرسالة التي أرسلها الإمبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشوت الثالث ، والتي ذكر له في عبارات عاطفية كيف أن رجاله يزحفون نحو الأرض المقدسة التي شهدت مولد المسيح والتي دفن فيها ، مما يثبت صدق الروح الصليبية في تلك الحملة^(٥) . وكان أن شق حنا طريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر ، فتعهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزاً للتبعية ، وسقطت قيسارية في قبضة القوات الإمبراطورية . وإذا كانت الحامية الفاطمية في بيروت قد قاومت إلا أنه نجح في إخضاعها وأسر جزءاً كبيراً منها . وبعد ذلك إتجه الإمبراطور صوب صيدا التي بادرت بالخضوع ودفع الأموال . ولم

(١) ابن الاثير ، الكامل حوادث سنة ٣٦١ هـ .

(2) Ostrogorsky : Ip. cit., p. 263.

(٣) يحيى بن سعيد الانطاكي التاريخ ص ١٤٦ .

(٤) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ص ١٤١ - ١٤٤ .

(5) Grousset : Hist, de l'Armenie, p. 484 f. & Cam. Med Vol. 4, p. 148.

يستعص على الإمبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمى الهزيمة بالجيش الإمبراطورية، فعبر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون^(١). على أن الإمبراطور حنا لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس، فاكتفى بإخضاع بعض القلاع والمراكز مثل بانياس، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات فى أوائل ٩٧٦. وكانت أقصى نقطة وصل إليها فى بلاد الشام جنوباً هى مرج ابن عامر^(٢).

ومن الواضح أن الحرب التى شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحقق هدفها الصليبي سوى تحقيقاً جزئياً. نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أطراف حوض نهر العاصي، فضلاً عن دمشق وطبرية والجزء الشمالى من ساحل بلاد الشام؛ ولكن الإمبراطور البيزنطى حنا شمشقيق ارتد مسرعاً قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس، فضلاً عن بقاء طرابلس - ذات الموقع الهام - فى أيدي الفاطميين. لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال عصر الحروب الصليبية هى أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل فى إسترداد بيت المقدس من المسلمين، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق فى ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحملات المبتورة التى قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد (١٠٩٨ - ١٠٩٩) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام. وإذا كان البيزنطيون قد إستطاعوا إثبات حقهم الشرعى فى ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها فى القرن العاشر، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس^(٣).

أما عن الإمبراطورية البيزنطية، فإن الإمبراطور باسل الثانى - خليفة حنا الشمشقيق - قنع بالسيطرة المباشرة على أنطاكية، وسيادته غير المباشرة على حلب. وقد استطاع سعد الدولة الحمدانى أن يتغلب على منافسيه داخل حلب، ولكنه لم يستطع مقاومة النفوذ البيزنطى، فاعترف هو الآخر بالتبعية للدولة البيزنطية.

(١) يحيى بن سعيد الانطاكى : التاريخ ص ١٤٦.

Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 148.

(2) Cam. Med. Hist vol. 4, p. 148 & vol. 5, p. 249.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. XV.

وربما رأى الحمدانيون عندئذ في تلك التبعية ضماناً كافياً لحماية أنفسهم من مطامع الفاطميين^(١).

وفي ذلك الدور أخذ الفاطميون يشددون هجماتهم على دمشق، الأمر الذي جعل افتكين يستنجد بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة. ولكن الخليفة العزيز الفاطمي خرج بنفسه إلى الشام - ومعه القائد جوهر - واستطاع أن ينزل الهزيمة بقوات افتكين والقرامطة عند الرملة سنة ٩٧٨، وبذل سقط افتكين ونجح الفاطميون في تثبيت نفوذهم في دمشق. وبعد أن نجح الفاطميون في بسط سيطرتهم على دمشق وجنوب الشام، شرعوا في القيام بعدة هجمات ضد حلب، ولكن البيزنطيين قاموا بحماية أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل^(٢).

وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين. ويبدو أن مشاغل باسل الثاني في البلقان - وبخاصة من ناحية البلغار الذين هددوا الإمبراطورية عندئذ تهديداً خطيراً - جعلته يحرص على عدم الدخول في حرب مكشوفة ضد الفاطميين، فسعى لعقد هدنة سنة ٩٨٧ لمدة سبع سنوات مع الخلافة الفاطمية، وتعهد بإطلاق سراح من لديه من أسرى المسلمين، فضلاً عن الدعاء للخليفة العزيز الفاطمي في جامع القسطنطينية^(٣). على أن هذه الهدنة لم تستمر طويلاً، إذ أمر الخليفة العزيز قائدة منجوتكين بالزحف على حلب بعد قليل، فتعرضت حلب لحصار الجيوش الفاطمية حتى اضطر صاحبها سعيد الدولة أبو الفضائل إلى الاستنجد مرة أخرى بالإمبراطور البيزنطي باسل الثاني، فكتب إليه يستثيره ويقول: «متى أخذت انطاكية أخذت حلب، ومتى أخذت حلب، أخذت قسطنطينية»^(٤) وكان باسل الثاني قد فرغ عندئذ من مشاكله في البلقان واطمأن مؤقتاً إلى جانب البلغار، فحضر بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٥ (٣٨٥ هـ) واستولى على شيزر من الفاطميين، كما استولى على حمص ودمرها، وكذلك

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 250.

(٢) قائمة الحمدانيين في حلب :

٩٤٤ - ٩٦٧

٩٦٧ - ٩٩١

٩٩١ - ١٠٠١

سيف الدولة أبو الحسن على

سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول)

سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد

(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠١)

(٣) أبو المحاسن : النجوم الراهرة ج ٤ ص ١٥١ - ١٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠.

أنطرطوس، فى حين صمدت طرابلس تلك المرة أيضا وإستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها^(١).

ولكن لم يكد الإمبراطور باسل الثانى يرجع إلى بلاده، حتى تمكنت الجيوش الفاطمية من إنزال هزيمة بحاكم أنطاكية البيزنطى، مما إستدعى عودة باسل الثانى الى الشام سنة ٩٩٩، فإسترد شيزر ووطن فيها جالية من الأرمن، وأحرق حمص وإستولى على بعلبك. ولم يصادف باسل الثانى توفيقاً فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية، كما فشل مرة أخرى أمام طرابلس^(٢). وكان أن أرتد الإمبراطور البيزنطى إلى أرمينية، وفى تلك المرة أثر عقد الصلح مع الفاطميين ليتفرغ مرة زخرى لخطر البلغار. وقد تم الصلح بين الطرفين فعلاً، وإن ظلت العلاقة سيئة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة. وهكذا ظلت العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين تصفو حيناً وتسوء أحياناً حتى قيام الحروب الصليبية^(٣).

والواقع أن جهود باسل الثانى فى الشام تعتبر خاتمة للحرب التى قام بها البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر، وهى الحرب التى حالت دون إمتداد النفوذ الفاطمى بالشام إلى ما وراء أنطاكية، مع إحتفاظ البيزنطيين بنوع غير واضح من السيادة على إقليم حلب. ويبدو أن سياسة التقاعس التى إتبعتها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر أدت إلى تمكين الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب سنة ١٠١٥، وظلّ النفوذ الفاطمى قائماً فيها حتى إستطاع أحد زعماء قبيلة بنى كلاب - وهو صالح بن مرداس - أن يطرد الفاطميين منها ويؤسس إمارة لبني مرداس فيها سنة ١٠٢٣^(٤). وقد ظل بنو مرداس يسيطرون على حلب من سنة ١٠٢٣ حتى سنة ١٠٧٩، أى قرابة نصف قرن^(٥)، لم تبطل فيه المنازعات بينهم وبين الفاطميين بسبب السيادة على حلب. أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذ لهم فى حلب. لا سيما بعد أن إستطاع شبل الدولة المرداسى أن ينزل

(1) Cam. Med Hist. vol. 4. p. 149 & Setton : op. cit., pp. 72 - 90.

(2) Cam. Med Hist. vol. 4. p. 149 & Setton : op. cit., pp. 72 - 90.

(3) Vasiliev, op. cit., I, p. 311.

(٤) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ١٢٥، زامباور : معجم الأسرات ص ٥١، ٤٥.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ حواشي سنة ٤٧٢ هـ.

هزيمة بالجيش البيزنطية سنة ١٠٣٠ ، وغنم المسلمون جميع ما كان معهم،^(١) .

على أن أحد القادة البيزنطيين - وهو جورج مانياكس Georges Maniakes حاكم سميساط - نجح في أن يحول دون إمتداد نفوذ بنى مرداس إلى أنطاكية^(٢) ولم يلبث هذا القائد البيزنطى أن أستغل فرصة المنازعات الداخلية في الرها - حيث تولى الحكم فرع آخر من بنى كلاب - ليستولى عليها من المسلمين سنة ١٠٣١ ، وعندئذ قتل الروم المسلمين وخربوا المساجد،^(٣) ولم تفلح النجدة السريعة التى أرسلها الفاطميون وبنو مرداس لإنقاذ الرها، إذ تمكن القائد البيزنطى من تحقيق نجاح سريع بفضل المعونة الفعالة التى قدمها له أهل الرها من المسيحيين، وهم خليط من السريان والنساطرة والأرمن. وهكذا ظلت الرها من الناحية العملية فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية حتى وصول الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر، مما أثار حول ملكيتها مشكلة قانونية بين البيزنطيين والصليبيين، لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن قوة الفاطميين لم تكن العامل الوحيد الذى صرف البيزنطيين منذ أوائل القرن الحادى عشر عن التركيز على بلاد الشام، وإنما كان هناك عامل آخر يتمثل فى إنشغال الإمبراطورية البيزنطية بشئون أرمينية. وكان ملوك أرمينية بحكم جوارهم للخلافة العباسية من ناحية وللدولة البيزنطية من ناحية أخرى يقسمون ولاءهم بين الطرفين^(٤). وعلى الرغم مما إنتاب أرمينية من ضعف وانحلال سياسى، إلا أن هذه المملكة بلغت فى أواخر القرن العاشر درجة من الرخاء لم تتحقق لدولة أخرى مجاورة فى الشرق. وقد ظهر أثر هذا الرخاء فى التقدم الحضارى الذى أحرزته أرمينية فى تلك الفترة، وبخاصة فى ميادين العمارة والأدب والشعر وتدوين التاريخ^(٥). ويبدو أن هذا الرخاء كان من العوامل التى أغرت الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى على السعى فى ضم أرمينية إلى ممتلكاته. وقد ساعد باسل الثانى على تحقيق غرضه المنازعات والخلافات الداخلية فى أرمينية من ناحية، وتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الحدود الشرقية لبلادهم من ناحية أخرى، مما جعل أرمينية

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٢١ هـ.

(2) Cam, Med. Hist., op. cit. 4, p. 150.

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 312 &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٢١ هـ.

(4) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 314.

(5) Grousset. Hist. de l'Armenie, p. 217 f.

تلقى بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية ١٠٢١^(١). وقد تبدو هذه الخطورة مصدر قوة للطرفين، وضماناً لحماية أرمينية من خطر السلاجقة، ولكن الحقيقة هي أن أرمينية ألقت عبئاً جديداً على الإمبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى ترتب على وضع أرمينية الجديد عدم إستطاعتها القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها دون الرجوع إلى القسطنطينية، مما جعلها طريقاً سهلاً مفتوحاً أمام الغزاة المسلمين الوافدين من الشرق إلى جوف آسيا الصغرى.

الحروب الصليبية فى الأندلس :

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب، بل ظهرت واضحة فى المغرب أيضاً، حيث دارت منذ القرن الحادى عشر حرب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا.

ومن الملاحظات التى إسترعت نظرنا أن المؤرخ ابن الأثير حرص على أن يفتح كلامه عن الحروب الصليبية واستيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ بالإشارة أولاً إلى الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وصقلية، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية فى أسبانيا وصقلية وشمال إفريقية والشام، واتخذ الحروب الصليبية فى الأندلس مدخلاً للحروب الصليبية بالشام^(٢).

والواقع إن استيلاء المسلمين على أسبانيا فى أوائل القرن الثامن للميلاد، وأقامة دولة إسلامية قوية فيها، كان أمراً لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوروبا المسيحية. فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التى وصلتها المسيحية، وغدت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربي. لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوروبا تتحين الفرصة المناسبة

(1) Ostrogorsky : op cit., p. 278 & Vasiliev : op. cit. I, p. 315.

(٢) قال ابن الأثير الجزرى فى حوادث سنة ٤٩١ هـ "وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستيلاءهم وأمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها - سنة ٤٧٨ هـ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس. وقد تقدم ذكر ذلك ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها - وقد ذكرته أيضاً - وتطرقوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره على ما تراه. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام". (الكامل - حوادث سنة ٤٩١ هـ).

لإسترداد ذلك الجزء المفقود من الوطن المسيحي . وحسبنا ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلمين في أسبانيا في أواخر القرن الثامن للميلاد، وهي الحرب التي حرصت أغنية رولان في القرن الحادي عشر على إكسابها طابعاً صليبيّاً واضحاً^(١).

والملاحظ أن المسلمين في الأندلس لم يستطيعوا مطلقاً في وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبيريا، وإنما ظلت بعض الجهات - وبخاصة في الشمال الغربي - خارجة عن نفوذ المسلمين فقامت بها أربع دويلات مسيحية هي : مملكة ليون ومملكة نافاري وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة^(٢). ومن هذه الوحدات المسيحية إنبعث الخطر الذي هدد المسلمين في الأندلس، في الوقت الذي تدهورت الخلافة الأموية في قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣١^(٣). ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحي على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة في عهد الفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ - ١١٠٩)، وهو الذي أوغل في وادي نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم في الأندلس^(٤).

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل في جميع أرجاء العالم المسيحي الغربي، إذ إستثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من الأندلس. أما في الجانب الإسلامي فإن ضياع تلك المدينة - التي هي «من أكبر البلاد وأحصنها»^(٥) هز المسلمين جميعاً في المشرق والمغرب، وجعل مسلمي الأندلس يفكرون في طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحي من ناحية وإسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من ناحية أخرى. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف في الإستعانة بالمرابطين في شمال إفريقية، وهم أقرب قوة إسلامية، يمكنها أن تدفع خطر المسيحيين عن مسلمي الأندلس^(٦). ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس جيش كبير من البربر

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٠٢، ج ٢ ص ٤٤٧.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 366.

(3) Dozy : Spanish Islam, pp. 589 - 592.

(4) Chapman : A Hist of Spain, p. 72.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٧٨ هـ.

(6) Dozy : op. cit., pp. 694 - 695.

الأشداء ؛ حيث التقى مع الفونس السادس في موقعة الزلاقة في أكتوبر سنة ١٠٨٦ . وفي تلك الموقعة حلت الهزيمة بالقشتاليين ففر الفونس السادس مع قلوب جيشه، تاركاً خلفه عدة آلاف من القتلى والأسرى، في حين قفل يوسف بن تاشفين راجعاً إلى شمال إفريقية^(١) .

وقد أدى تجدد الخطر المسيحي علي المسلمين بالأندلس من ناحية، واتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية أخرى إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ١٠٩٠ ليشن حرباً على ملوك الطوائف المسلمين، فضلاً عن المسيحيين . ولم يلبث المرابطون أن إستولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة . وعندما دالت دولة المرابطين وحلت محلها دولة الموحيدين في شمال إفريقية، فكر الموحدون - بوصفهم ورثة المرابطين - في ضم الأندلس إلى ملكهم، وإستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح في ذلك سنة ١١٤٦^(٢) .

وفي ذلك الوقت كان المسيحيون في أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً في شخص الفونس الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤) . وقد إستطاع الفونس الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين في الأندلس، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤^(٣) . ولم تقتصر جهود المسيحيين في تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها، إذ إستطاع ريمون برنجار الرابع - كونت برشلونة - أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨ . أما في الجبهة الغربية، فقد تمكن الفونس الأول ملك البرتغال (١١٣٩ - ١١٨٥) من التوغل داخل الأراضي الإسلامية وراء نهر تاجة^(٤) .

وثمة أهمية خاصة للجهود الصليبية التي قام بها الفونس الأول ملك البرتغال ضد المسلمين بالأندلس، هي أنه إستعان سنة ١١٤٧ بأسطول صليبي يحمل جماعة من الانجليز والفلمنكيين والألمان - كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية - فإستوقفهم الفونس الأول، وتمكن بمساعدتهم من طرد

(1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 398 - 399. & Watts : Spain, p. 67 &

حسن أحمد محمود. قيام دولة المرابطين ص ٢٧٦ .

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 406.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.

(4) Stephenson : Portugal, pp. 18 - 19 & Chapman, op. cit. 76.

المسلمين من لشبونة التي غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة^(١). وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية في ذلك العصر على المشرق والأراضي المقدسة، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا، فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا في فتح لشبونة، كما إشتراك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس. هذا في الوقت الذي مد فرسان الداوية والإسبتارية نشاطهم إلى وادي نهر إيرو بأسبانيا، فضلاً عن بلاد الشام^(٢). ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لنفسها مركزاً في أسبانيا سنة ١١٤٩، حيث أقاموا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية أخرى. ثم تكاثرت بعد ذلك في أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية، مثل هيئة القديس جوليان التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢، والتي إتخذت بعد ذلك - سنة ١٢١٨ - إسم منظمة القنطرة، وذلك عندما إستولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجه واتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم^(٣).

ولم تتردد البابوية في تشجيع تلك المنظمات التي نهضت في أسبانيا بالدور نفسه الذي قامت به الإسبتارية والداوية والتيتون في بلاد الشام، بل إن الفضل يرجع إلى البابا إسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا، وهي منظمة سنتياجو. وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها إشتدت حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس، كما أخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية لا تقل أهمية في نظر الأوروبيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة عندئذ في المشرق^(٤). وهكذا دخل الصراع بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين، وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين، ظلاً يتقاسمان ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوربا طوال عدة قرون^(٥).

وفي هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥^(٦). على أن البابا

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.

(2) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 133.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.

(4) Chapman : op. cit, pp. 94 - 96.

(5) Tout : op. cit., p. 471.

(6) Com. Med. Hist. vol. 6, p. 409.

أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) - وهو صاحب الفضل في إثارة الحماسة الصليبية في أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالي البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا البابا أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوروبا للمشاركة في تلك الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة ناربون^(١) . وكان أن تضافرت في تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتالة، مما ساعد على أنزال هزيمة كبرى بالموحدين في موقعة العقاب سنة ١٢١٢^(٢) .

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس، فأخذت المدن والمعازل الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة المسيحيين، بحيث لم يتبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة . وفي تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحواً من قرنين ونصف^(٣) .

(1) Painter : op. cit., p. 195.

(2) Cam. Med. vol. 6, p. 410 &

والعقاب بالضم الصخرة العظيمة في عرض الجبل.

(٣) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٨٤ - ١٨٥ .

الفصل الثاني

الأتراك وقوة المسلمين

ظهور السلاجقة - طغرل بك :

فى الوقت الذى تنازعت السيادة على المسلمين فى الشرق الأدنى خلافتان، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية، وفى الوقت الذى ساءت أحوال هاتين الدولتين الأولى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله وسوء الأحوال الإقتصادية وإزدياد نفوذ الوزراء العظام، والثانية بسبب تفاقم سلطة بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة، فى ذلك الوقت ظهرت قوة فنية على مسرح الشرق الأدنى - هى قوة الأتراك - لتبث فى العالم الإسلامى روحاً جديدة، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى^(١).

والملاحظ أن بنى بويه اعتراهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمرائهم. وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى فى إيران - هى قوة الغزنويين الأتراك - الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩. ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوى (٩٩٨ - ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله، كما إنتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم، مما يشير إلى إزدياد نفوذ العنصر التركى فى الجناح الشرقى من العالم الإسلامى^(٢). وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم فى شرق إيران والهند، إذا بقبيلة أخرى من الأتراك - هى قبيلة السلاجقة - تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتتوغل فى إقليم خراسان.

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز، نسبوا إلى جدهم سلجون بن دقاق، وعاشوا أول أمرهم فى إقليم تركستان، حتى نزحوا صوب بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون، وهناك إعتنقوا الديانة الإسلامية. وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302.

(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 139 - 140.

إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة، حتى ثاروا عليهم فى نهاية الأمر، واستطاع زعيمهم طغرل بك الإستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) فى الوقت الذى كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة فى الهند^(١). وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوى إلى خطر السلاجقة، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر، ولكن بعد فوات الأوان إذ أنزل به طغرل بك الهزيمة فى مايو ١٠٤٠ وغنم السلاجقة من العسكر المسعودى مالا يدخل تحت الإحصاء، وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان، واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان^(٢). وعندما أدرك مسعود الغزنوى أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة، حاول إستمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة، فكتب إليهم «يعدهم بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط - وهى مدينة على جيحون - ونهاهم عن الشر والفساد، ولكن السلاجقة إستخفوا بالرسول، ولم يطمئنوا إلى نوايا السلطان مسعود ووعوده، وقالوا «نحن لا نطيعه ولا نثق إليه»^(٣).

وفى ذلك الوقت إختار بقية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص. فأخذوا يتوسعون على حساب القوى الإسلامية والبيزنطيين جميعاً ونجحوا فعلاً فى بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى. أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ - ١٠٤٣، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠، واتخذ الأخيرة حاضرة لدولته^(٤). ومن ذلك المركز الجديد، أخذ طغرل بك يتدخل فى شئون الخلافة العباسية.

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية، بعد أن ظلت قرابة قرن - أى منذ سنة ٩٤٥ - ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم. ذلك أن بنى بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد، فضلاً عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية. ثم إن إعتناق بنى بويه للمذهب الشيعى وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنيين على الإشتراك فى أعياد الشيعة، كل ذلك أدى

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٢٢ هـ.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 4, pp. 303 - 304.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٢٢ هـ.

(٤) المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٢٤ هـ، سنة ٤٤١ هـ.

إلى إنتشار الفتن المذهبية في العراق ^(١) . ويبدو الخلل واضحاً في تلك المرحلة في أن الخليفة العباسي وهو رأس جهاز أهل السنة كان يخضع لسيطرة الشيعة، مما أثار خللاً في أوضاع المجتمع الإسلامي . وكان أمير الأمراء من بني بويه في أواسط القرن الحادي عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨ - ١٠٥٥) ، الذي ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه، ظهر منهم رجل مغامر إسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري ^(٢) . ولم يحجم البساسيري هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية، بل أنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمي في هذا الشأن ^(٣) . وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسي سوى أن يستجد بالسلاجقة السنيين، لمساعدته في إنقاذ الخلافة العباسية . وفي الوقت الذي قصد البساسيري دار الخلافة في بغداد ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها، سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضي على البساسيري ويقتله . وهكذا حل السلاجقة السنة محل البويهيين الشعية في الوصاية علي الخلافة العباسية ، وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد، فخطب له يوم الجمعة، ^(٤) (رمضان سنة ٤٤٧ هـ) .

ولا شك في أن ما قام به طغرل بك من أنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي . هذا إلى إن طغرل بك استطاع بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها عندئذ، فصارت إيران والعراق تؤلفان وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وبالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقي ^(٥) . أما طغرل بك نفسه فقد خلع عليه الخليفة العباسي وأضفى عليه ألقاب التشريف كما زوجه الخليفة من ابنته ^(٦) .

(١) يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٥ هـ (في هذه السنة في المحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة، كان ابتداءها أواخر سنة أربع وأربعين فلما كان الآن عظم الشر وأطرح المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك)
(٢) وصفه ابن القلانسي (ص ٨٧) بأنه "واحد من القلمان الأتراك عظم أمره واستحفل شأنه .. واستولى على العباد والبلاد".

(٣) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ - ١٠٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٧ هـ .

(5) Cam. Med. Hist., vol. 4. p. 304.

(٦) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا في ذلك النور الأول من تاريخهم قوة واحدة كبرى، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلى خمسة بيوت : =

وهكذا تبدل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣، فبعد أن كانت الإمبراطورية البيزنطية تجد على حدودها الشرقية في القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً، ومنقسمة على نفسها مذهبياً وحربياً، إذا بالعنصر التركي الذي ظهر على مسرح الأحداث في القرن الحادي عشر يبيت في الدولة الإسلامية بالشرق، روحاً جديدة وعزيمة قوية، ويهيء للمسلمين في الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من إستئناف التوسع من جديد، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين^(١). وكان ذلك في الوقت الذي دخلت الدولة البيزنطية، دور ركود جديد بعد الصحو التي مرت بها في القرن العاشر، مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى توسعاً آمناً مطرداً في القرن الحادي عشر^(٢).

على أنه ينبغي ألا نعتقد أن الغزو السلجوقي لأراضي الدولة البيزنطية إتخذ طابعاً اجتماعياً مفاجئاً. فمنذ النصف الأول للقرن الحادي عشر إعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة، أمثال إبراهيم بن إينال وقتلمش^(٣) من ذلك ما قام به إبراهيم بن إينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينية - التي كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموها إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا - فأوغل السلاجقة في الأراضي البيزنطية حتى

١ - بيت طغرل بك وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والاهواز، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٢٨ (٤٢٩ هـ) حتى سنة ١١٢٨ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت على يد الخوارزمية.

٢ - بيت سلاجقة كرمان، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وهو أخو ألب أرسلان واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ هـ) حتى سقطت على يد الغز التركمان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ).

٣ - سلاجقة عراق العجم وكرديستان، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) حتى سقطت على يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ).

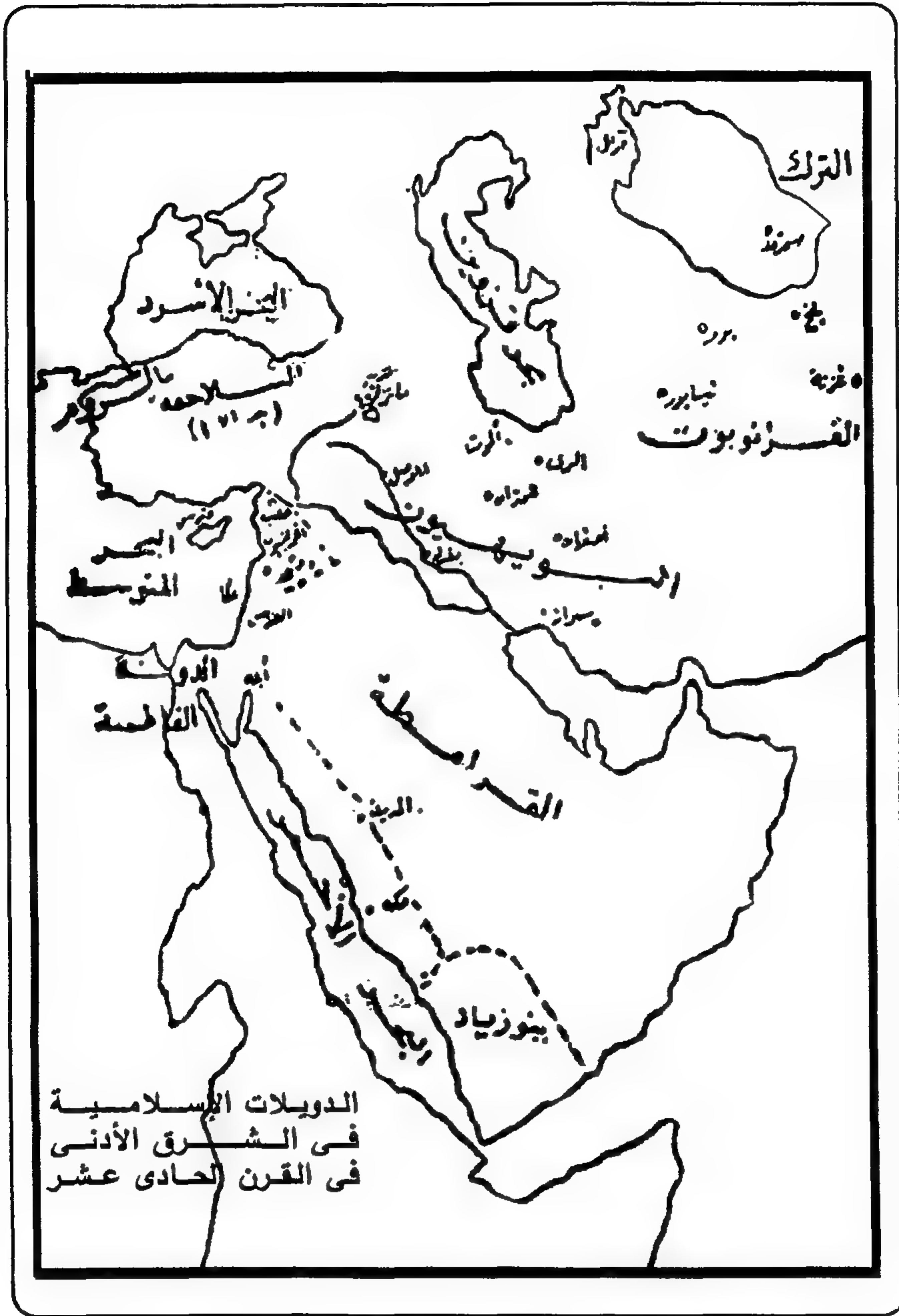
٤ - سلاجقة الشام، وهم من بيت تتش بن ألب أرسلان، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ هـ).

٥ - سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وكانوا من بيت قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠١ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً.

(1) Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 304.

(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355.

(3) Grousset : Hist. de l'Arménie, pp. 595 - 596.



الدويلات الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر

وصلوا إلى ملازكرد وأرزن وبلغوا طراييزون على شاطئ البحر الأسود، وعندئذ أكثر السلاجقة من القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم،^(١).

ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً فى فتح باب العداء عندئذ مع القسطنطينية، فأمر بإطلاق سراح القائد البيزنطى الذى أسره إبراهيم بن إينال^(٢). وأرسل بعثة إلى القسطنطينية، لعقد الصلح^(٣). وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت بين السلاجقة والبيزنطيين، إذا استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينية سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن^(٤)، وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تمكنه بأى حال من الإستيلاء على مانزكرت، فاكتمل بأن حاصرها وضيق على أهلها، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها^(٥).

ومع أن الأتراك السلاجقة إستطاعوا فى عهد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينية بغية السلب والنهب، إلا أنهم لم ينجحوا فى احتلال مركز قوى يثبتون فيه. على أن الموقف تغير عندما إستدت هجمات السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٧، ١٠٨١ فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية (أكتوبر ١٠٥٧)^(٦). وفى سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم. ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة إستمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الإستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضى الدولة البيزنطية^(٧).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٠ هـ.

(٢) يذكر ابن الأثير أن إبراهيم بن إينال أسر "قاريط ملك الأبخاز. فبذل فى نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك" (حوادث سنة ٤٤٠ هـ).

(٣) ويقول المقرئى أن ملك الروم هو الذى أرسل بطلب هدنة من طغرل بك وهاداه "وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرك بك" (السلوك ج ١ ص ٢٢).

(4) Grousset : Hist. de l'Arménie, pp. 496 - 597.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٦ هـ.

(6) Setton. op. I, pp. 144 - 147.

(7) Grousset, Hist, des Croisades, I, p. XXX.

ألب أرسلان وموقعة مانزكرت :

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) مكانه في الحكم^(١)، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديداً، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الإستيلاء على أراضي تلك الدولة وإملاكها، بدلاً من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب ثم العودة. ففي سنة ١٠٦٥ إستولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى^(٢). وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده. ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول، بعد أن استولوا على قلب أرمينية، فاستمروا منذئذ - دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة - يجتاحون القرى والضياح، متجنبين بقدر الإمكان المراكز القوية المحصنة، حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله ثم وصلوا إلى قيصرية فحربوها سنة ١٠٦٧، واعتدوا على كنيسة القديس باسل^(٣). كل ذلك، والامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) جامد لا يتحرك، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذي شيده أسلافه في القرن العاشر، وبخاصة باسل الثاني.

على إنه لم يلبث أن تولى عرش الإمبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الآسيويين فضلاً عن الفرنجة الغربيين. وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الإمبراطور رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة. وعلى الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت برومانوس ومهمته، إلا أنه نجح إلى حد كبير في تحقيق غرضه. هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركاتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهي^(٤).

(١) ألب أرسلان أبو شجاع محمد بن جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، ثاني سلاطين الدولة السلجوقية. ومعنى ألب أرسلان (رجل أسد).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٥٦ هـ.

(3) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 304.

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصريّة للوصول إلى مرعش علي الحدود بين الشام وقيليقية (سنة ١٠٦٨) . ولم تكد تمر تلك السنة حتى كان الإمبراطور قد وصل إلى منبج ، في عسكر كثيف، علي الضفة الغربية لنهر الفرات - وهناك ترك حامية في أرتاح شرقي أنطاكية^(١) ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها في تلك الأثناء، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية في قلب فريجيا، وبذلك لم تعد أرمينية تقف حاجزاً بين السلاجقة وقلب آسيا الصغري، وصارت مسالك البلاد مألوفة لهم^(٢) . علي أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة في قلب آسيا الصغري، إلا أنهم حرصوا دائماً إلى عدم الإصطدام بالجيش الإمبراطوري، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان أن استطاع رومانوس الرابع - علي الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة في قيليقية - أن يطارد السلاجقة حول قيصريّة وأن يوغل في غرب أرمينية، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التي أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطي، ثم إستيلاء السلاجقة علي تلك المدينة . وفي سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة أخرى بالقائد البيزنطي مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد . هذا مع ملاحظة أن الرها - في بلاد النهرين - ظلت طول تلك الأثناء في قبضة البيزنطيين، فصمدت لجميع الهجمات التي تعرضت لها من جانب السلاجقة^(٣) .

أما ألب أرسلان فكان قد أنتهى في ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية في دولته، فعاد من أذربيجان وقد صمم علي إتباع سياسة الجهاد الديني العام ضد الروم . وكان أن إستولى ألب أرسلان علي ملازكرد (مانزكرت) سنة ١٠٧٠ وهي تقع شمالي بحيرة فان، وكانت من البقايا الأخيرة التي تبقت للدولة البيزنطية في أرمينية، ثم أتبع ذلك بإسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً قصد الرها ، فحصرها فلم يظفر منها بطائل، . وعندئذ إتجه ألب أرسلان علي رأس قواته ضد حلب - وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسي - فخضعت حلب للسلاجقة، وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذي «خلع علي محمود (المرداسي) وأعادته إلى بلده»^(٤) .

(1) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 626, &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٢ هـ.

(2) Vasiliev : op. cit. I, p. 355.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 165.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٢ هـ.

وفى تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع فى القيام بمحاولة جديدة لإسترداد أرمينية - وكان ذلك فى ربيع سنة ١٠٧١ - فخرج على رأس جيش ضخم يتألف من مائتى ألف مقاتل، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان، مما جعله مفتقراً إلى التجانس وحسن التنظيم^(١). وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن إرتكب خطأ كبيراً بتقسيم قواته، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خلاط، فى حين سار هو على رأس بقية الجيش تجاه مانزكرت وإستولى عليها فعلاً. ولم يكد ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية، حيث إتبع السياسة التقليدية للسلاجقة، وهى تجنب الإصطدام بالجيوش البيزنطية. وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته، رد الإمبراطور قائلاً: لا هدنة إلا بالرى، أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى، وعندئذ إنزعج السلطان ألب أرسلان، ولم يعد هناك مفر من القتال^(٢).

وفى ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ إلتقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوبى ملازكرد (مانزكرت)، أو على وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط. وفى الموقعة الحاسمة التى دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً، وقتل من الروم ما لا يحصى حتى إمتلأت الأرض بجثث القتلى^(٣). ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أبلى بلاءاً حسناً وحارب بشجاعة ورسالة حتى سقط فرسه قتيلاً من تحته. ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ فى أضعاف قوة البيزنطيين، إذ إنقض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان وإستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة. بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم فى تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة مازالت دائرة، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقع فى قبضة أعدائه^(٤).

ومهما يكن من أمر، فإن موقعة ملازكرد (مانزكرت) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية فى أواخر القرن الحادى عشر. وليس هذا مجال

(١) يذكر المؤرخ ابن الأثير أن رومانوس الرابع خرج "فى مائتى ألف من الروم والفرنج والروس والبجناك والكرج وغيرهم" ويبدو أن الروس المرتزقة كانوا فى مقدمة الجيش. (الكامل، حوادث سنة ٤٦٢ هـ).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٢ هـ.

(٣) المصدر السابق والسنة نفسها.

(4) Vasiliev, op. cit I, p. 356.

الإفاضة فى أثر الموقعة فى التاريخ البيزنطى، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية فى حماية العالم المسيحى فى الشرق من ضغط المسلمين، وفى حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو الآسيويين، وبذلك صار على الغرب الأوربى أن يقوم بدوره فى هذا المضمار بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية. وبعبارة أخرى فإن موقعة مانزكرت تبرر - فى نظر كثير من المؤرخين - ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية فى الغرب الأوربى، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١^(١). على أنه ثمة حقيقة أخرى أكسبت موقعة ملازكرد (مانزكرت) أهميتها الخطيرة فى التاريخ، هى أن المجتمع البيزنطى كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة. حقيقة أن إنتصار السلاجقة فى ملازكرد كان لا يعنى - بالنسبة لأفقه المحدود فى ذلك الوقت - أكثر من امتلاك المسلمين أرمينية ثم أنطاكية والرها. وقوى هذا الاعتقاد أن السلطان ألب أرسلان عامل أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره، وأعادته إلى بلاده معزراً، بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر^(٢) ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الإمبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية فى الشرق الأدنى، وأن يقوم الإمبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضى البيزنطية^(٣). وهكذا بدلاً من أن يستغل ألب أرسلان إنتصاره فى محاولة إحتلال بقية آسيا الصغرى، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢ إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جیحون)^(٤) ولكن البيزنطيين - بإنشاقهم وإنقسامهم على أنفسهم - هم الذين وسعوا الخرق وضاعفوا

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 305.

(٢) يروى ابن العبرى أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير وبخه وقال له : "ألم أرسل لك فى المهادنة فأبيت ؟" فقال "دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد" فقال السلطان "ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ فقال "القيح" قال له "فما تظن أنى أفعل بك ؟" قال "إما أن تقتلنى وإما أن تشهر بى فى بلادك والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك". قال "ما عزمت على غير هذا". ففداه بالف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين (ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ١٨٥).

(3) Setton : op. cit, I, pp. 149 - 193.

(٤) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٦٣ - ٤٦٥ هـ.

من خطر الهزيمة، فلم يكفهم ضياع أرمينية، وإنما تسببوا في فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريحها أمام السلاجقة. ذلك أن أخبار كارثة ملازكرد لم تكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع إمبراطوراً (١٠٧١ - ١٠٧٨). وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه وسلمت عيناه، وعلى تلك الصورة توفي رومانوس بعدما أبداه من شجاعة في مانزكرت^(١).

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر (جیحون) فخلفه ابنه ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) الذي ثبت دعائم دولة السلاجقة حتى اتسعت في عهده وامتدت من حدود الصين شرقاً حتى بحر مرمرية غرباً^(٢) ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد في أن إمتداد دولة السلاجقة غرباً على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية، لأنه من الحقائق التي تسترعى انتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلмыш الذي تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريباً^(٣). وساعد سليمان بن قتلмыш في تحقيق سياسته الحالة التي أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال إجتماعي ونقص في السكان، بعد أن هجر كثيرون أرضهم، وبخاصة في الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة، مما ترك الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة لإحتلال الضياع الخربة التي هجرها أصحابها من البيزنطيين في آسيا الصغرى.

توسع السلاجقة في آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية، مكنت السلاجقة من الإستيلاء على فريجيا وبيثنيا حتى بحر مرمرية، ومن الإستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجه. وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في القرن الحادي عشر أنه تولى عرش الإمبراطورية في مدى ست

(1) Vasiliev, op. cit., I, p. 356.

(2) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٦٥ هـ. ، ابن العبري ص ١٨٦.

(3) حدث في أواخر أيام السلطان طغرل بك أن إنشق عليه أحد أبناء عمومته وهو قتلмыш بن اسرائيل بن سلجوق ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة حنوبي بحر قزوين ومعه بعض التركمان. ولم يلبث قتلмыш أن أعلن الثورة على ألب أرسلان، واختار أبناء قتلмыш - ومع كل منهم عصبية من التركمان - أن يحتموا بجمال آسيا الصغرى وقيامها وقد ظهر من هؤلاء الأبناء سليمان بن قتلмыш الذي أخذ يعمل على التوسع في آسيا الصغرى لحسابه الخاص ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً، مما يعتبر البذور الأولى لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى. "Setton, op. cit., I, 150"

وخمسين سنة (١٠٢٥ - ١٠٨١) ثلاثة عشر إمبراطوراً منهم إمرأتان، بمعدل أربع سنوات تقريباً لكل إمبراطور، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التي كانت تعيش فيها الإمبراطورية في ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة - باستثناء واحد أو اثنين - كانوا على قدر ضئيل من المقدرة والكفاية، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والإستقلال عن الحكومة المركزية في القسطنطينية ^(١).

وقد حدث في مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نقفور الثالث (Nicephorus Botaniates) حاكم إقليم عمورية في فريجيا - على الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس . ولم يتردد نقفور الثالث في إعلان نفسه إمبراطوراً باسم نقفور الثالث، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم الثائر على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الإمبراطورية، أي باسم الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨) ^(٢) . وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للإمبراطورية البيزنطية، إلا أن الحاميات الجديدة التي قامت فيها جاءت من نوع غريب إذ تألفت من رجال يدينون بالاسلام ويغيرون على القرى والضياح المجاورة، فضلاً عن أنهم قطعوا الإتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول . ولم تكد تمر سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد رفعت رايه العصيان في وجه نقفور الثالث الذي أقامها في تلك المدينة ^(٣) . وفي تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطي جديد - إسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melissenus عقد إتفاقية مع سليمان بن قتلمش، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر في الإستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا نقفور الثالث في الإستيلاء عليها ^(٤) .

وكان أن أقلع نقفور الثالث من جزيرة قوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة، فاحتلوا نيقية وبيثينيا بأكملها، وكان إحتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً في تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشرُوا نشاطهم الحربي عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثالث، إلا أنه حدث في السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الإمبراطورية مشاكلها الداخلية بإعلان الكسيوس كومنين إمبراطوراً أوحداً،

(1) Chalandon : Règne d' Alexis Comnene p. i, f.

(2) Vasiliev : ip. cit. I, pp. 357.

(3) Ostrogorsky : op. cit., pp. 308 - 309.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 308.

ودخول نقفور الثائر في طاعة الإمبراطور الجديد. وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلش الإعراف بأي حق للإمبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي احتلوها في آسيا الصغرى^(١) وقد إختار سليمان بن قتلش السلجوقي مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهي المدينة التي أصبحت أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول، حتى حلت محلها قونية فيما بعد (١٠٩٧ - ١٣٠٢) كذلك خسر البيزنطيون في ذلك الوقت نيقوميديا التي لم يستطع الإمبراطور الكسيوس كومنين إستردادها إلا بعد أن توفي سليمان سنة ١٠٨٦. ثم كان أن إحتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير علي بحر إيجة، فقام أميرها التركي زاخاس بإنشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطئ آسيا الصغرى، بل لقد هدد القسطنطينية ذاتها^(٢) وفي الشمال الشرقي من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة^(٣) ولا شك في أن هذه الإمارات العديدة التي نشأت في ظل حركة التوسع السلجوقي، والتي أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقي عام، أقول إن هذه الإمارات جعلت مهمة إسترداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين^(٤).

وهكذا كان الأتراك - عند قيام الكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ - هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً^(٥). على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك بعضهم ببعض، وإنما ظل الأمراء المحليون - مثل زاخاس أمير أزمير ودانشمند في كبادوكيا - لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلش. وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية على يد قلع أرسلان الأول، ابن سليمان^(٦).

أما سواحل آسيا الصغرى - السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية - فقد ظلت في قبضة البيزنطيين. ولعله مما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١، فإن هناك مدناً أخرى

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 357.

(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 319.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 170 - 173.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 331.

(5) Setton : op. cit., vol. I p. 213.

(6) Cam. Med. Hist. vol., 4 pp. 331 - 332.

متطرفة فى الشرق - فى الشام مثل انطاكية، وشرقى الفرات مثل الرها - بقيت تابعة للدولة البيزنطية، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧ (١).

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى فى آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضى المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات، مما جعل كثيراً من أهالى المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها، قاعاً صفصفاً ليحتلها الأتراك. ويبدو أن سليمان بن قتلش حرر كثيراً من رقيق الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين فى آسيا الصغرى، وبذلك إكتسب ولاء تلك الفئة التى طالما قاست الكثير من الإستعباد والظلم. ولعل هذه الحقائق كلها هى التى جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التى أخذت تغد من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر إسترداد أراضى الأناضول من الأتراك، بعد أن إنتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان وضربوا خيامهم بين ربوعها حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرغيز (٢).

(1) Chalandon : Règne d' Alexis Comnene, p. 12.

(2) Grousset : l'Empire du Levant. p. 113.

الفصل الثالث

الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر

النورمان في آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع بجموع من النورمان المرتزقة ، الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من صد خطر السلاجقة في آسيا الصغرى ^(١) . وقد برز من هؤلاء المغامرين النورمان رجل طموح اسمه رسل باليل Roussel de Bailleul أراد أن يستغل الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة في الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر في إنشاء دولة مستقلة في الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . ^(٢) . ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجهات المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً . وهكذا وجد القائد البيزنطي إسحق كومنين - الذي كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة في آسيا الصغرى - نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً في قبضة السلاجقة ^(٣) .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ، وهو المفروض أن يكون أجيراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنا دوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه الحملة منيت هي الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية ، وأسر القائد البيزنطي تلك المرة أيضاً ^(٤) . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل ويطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه الى البسفور في مواجهة القسطنطينية حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم أن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس

(1) Setton : op. cit., I, p. 200

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I, p. 283 .

(3) Schlumberger : Récits de Byzance et des Croisades, p. 82.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 307

إمبراطوراً حتى يكسب حكمه صبغة شرعية (١) .

وهنا خشى الإمبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا فى البلقان ، لذلك إستنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما أنزل أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطى ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى (٢) . ذلك أن سليمان بن قتلش عقد إتفاقية مع الإمبراطور البيزنطى سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقديم المساعدة المطلوبة للإمبراطورية ، بشرط إستيلائهم على الأراضى التى يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود فى وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد إستطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانى البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد سلجوقى جديد إلى الأناضول - تتش - الذى أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فإستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطى الجديد فى آسيا الصغرى ، وهو الكسيوس كومنين الذى غدا إمبراطوراً فيما بعد (٣) .

وهكذا إستسلم أتباع رسل من النورمان فى آسيا الصغرى ، وقشلت تلك المحاولة التى قام بها النورمان لإقامة دولة لهم فى الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم الصليبيون النورمان إمارة لهم فى أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، فضلاً عما ترتب عليها من إزدياد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى (٤) .

دولة الارمن الاولى فى طوروس :

أما حركة إنتشار السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد اتخذت إتجاهاً أفقياً من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية وكابادوكيا وفريجيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى - حول طوروس وأنطاكية وملطية ثم الرها - فلم يتجه إليها

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284.

(2) Schlumberger : Recits de Byzance, pp. 84- 85 .

(3) Brehier : op. cit., p. 284.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 168 - 169 .

السلاجقة فى أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزاً لحركة إحياء أرمينية فريدة فى نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التى إستطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية ^(١) .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعاً واسعة فى إقليم كبادوكيا ، مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم فى شرق آسيا الصغرى ^(٢) . ولكن توسع الأتراك السلاجقة فى كبادوكيا وإستقرارهم فى ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى جديد ، فأتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلية فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، كما تركزوا فى الجهات المحيطة بمطية والرها وأنطاكية ^(٣) .

وليس هناك من شك فى أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة ، فضلاً عن أن الحكومة البيزنطية - رغم عدائها التقليدى للأرمن بسبب الخلاف المذهبى بين الكنيستين ^(٤) - إستطاعت أن تجد فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى جنوداً إعتمدت عليهم فى مواجهة الغزو السلجوقى . ويأتى فيلاريتوس براخاموس Philaretos Brakhamios ^(٥) على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الإمبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى . وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الامبراطور سنة ١٠٧١ ، رفض فيلاريتوس الإعتراف بالإمبراطور الجديد ميخائيل السابع ^(٦) .

وهنا يلاحظ أن الأرمن فى شرق آسيا الصغرى إستخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وفى الوقت نفسه عمل الأرمن على إسترضاء

(1) Grousset : Hist. de l'Armenie, 554.

(2) Setton : op. cit., p. 179.

(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, pp. 7-88.

(4) Idem, p. 89.

(٥) أطلق عليه ابن الأثير اسم الفلادروس (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ)

(6) Brehier : op. cit., p. 284.

السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم^(١). ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والإبلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية ، إزدادت منعة بعد أن نجح في إسترداد ملطية التي كان السلاجقة قد إستولوا عليها سنة ١٠٦٩ . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته ، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ، الذين كانوا بدورهم قد إنتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية . ولم يلبث أن أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية في قيليقية ، هي طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين ، فحاصرها ستة أشهر ، حتى إستسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطي عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشي أمراء المدينة وأهلها - ومعظمهم من الأرمن - أن يستولي السلاجقة المسلمون عليها ، ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس^(٢).

والواقع أن المسيحيين في أنطاكية والرها وغيرهما من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة ، الذين قطعوا الطريق بينهم وبين قلب الإمبراطورية البيزنطية ، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية . لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم ، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين في تلك المنطقة الذين إحتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية^(٣).

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمينية جديدة في جنوب شرق آسيا الصغرى ، وهي الدولة التي اكتمل نموها فيما بعد - أي في القرن الثالث عشر - على عصر رومان وهيثوم ملوك أرمينية الصغرى^(٤). حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين - أو على وجه التحديد - الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١ - ١١٨٠) إستردوا جزء من تلك الدولة الأرمينية التي وضع أساسها فيلاريتوس ، ولكن ذلك لم يحل دون إستمرار دولة الأرمن في طوروس^(٥) . ولم يلبث

(1) Cam. Med. Hist. vol. p. 260.

(2) Brehier : op. cit., p. 285 .

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 180 .

(4) Iorga : l'Arménie Cilicienne , p. 89.

(5) Vasiliev : op. cit., vol. 2, p. 415 .

الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ - ١٠٨١) أن إتبع سياسة حكيمة إستهدفت دعم العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، فى الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه إعتدالا وحكمة ، فإعترف بسيادة الإمبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف فى حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ، وهم أمراء الموصل العرب ^(١) . ويذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضاً ، وأنه كان مستعداً - إذا دعى الأمر - لأن يعلن إعتناق الإسلام فى سبيل خدمة مصلحة الخاصة ^(٢) .

على أن سلاجقة الروم كانوا لا يمكن أن يغضوا البصر تماماً عن تلك الإمارة الأرمينية التى اعترضت طريق توسعهم إلى الشام ، لذلك انتهز سليمان بن قتلمش السلجوقى فرصة الإضطراب الذى حدث فى دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر إبنه ضده ، وباغت أنطاكية ، وملكها سرقة، سنة ١٠٨٥ . أى قبل إستيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة ^(٣) . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالاته بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى ، وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية من المدينة مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية ، وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية ^(٤) .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماماً من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدي المسلمين ثم الصليبيين ، إحتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس - واسمه جبريل - بملطية وإن كان قد أعلن ولاءه للسلاجقة ^(٥) .

(١) سيطر العقيليون على الموصل سنة ٩٩٦ على يد الأمير حسام الدولة المقتد أو ظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كريفا (كريوقا) السلجوقى . وفى الفترة التى نتكلم عنها كان حاكم الموصل من بنى عقيل وهو شرف الدولة ابو المكارم مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) يؤكد المؤرخ ابن الأثير ان فيلاريتوس (الفلادروس) أسلم على يد السلطان ملكشاه ، وأن الأخير أمره على الرها فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير نزار (بزاق) بعده . (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ) .

(٣) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق س ١١٧ .

(4) Grousset : Hist. de Croisades I, p. XL III .

(5) Setton, op cit I, p. 299.

ومثل ذلك حدث فى الرها أيضا ، فباستثناء فترة قصيرة إحتل فيها الأمير التركى بزان (١٠٨٧ - ١٠٩٤) مدينة الرها ، إستطاع ثوروس - وهو قائد أرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس - أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين ^(١) . حقيقة إن تتش - أخو السلطان ملكشاه - إستولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة ^(٢) .

وهكذا مهد الحكم الأرمنى المسيحى فى شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحكم الأرمنى لنشأة مملكة أرمينية الصغرى الصليبية فى القرن الثانى عشر ، وهى المملكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية ، بل فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فما بعد .

السلاجقة وبلاد الشام :

يلاحظ أن إستيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات فى صفوف المسلمين فى الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس كان قد رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفة تابعاً لأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية ، إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الإستقرار السائدة فى المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ، ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للإستيلاء على حلب من بنى مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن ^(٣) .

وفى ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقى تاج الدولة أبو سعيد تتش ابن السلطان العادل ألب أرسلان ، وأخو ملكشاه ^(٤) . وكان سبب حضوره إلى الشام

(١) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 175.

Runciman : A Hist. of the Crusades., I, p. 75.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) كان أمير بنى مرداس فى حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .

(أنظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤) .

(٤) يلقب ابن القلانسى تاج الدولة تتش بلقب السلطان (نيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

أن أخاه ملكشاه ، أقطعه الشام وما يفتح في تلك النواحي،^(١) . وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة في بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلي بالتخلي عن تتش الذي لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها واتجه جنوباً صوب دمشق .

وكان أن أسرع مسلم بالاستفادة من الموقف في شمال الشام عقب انسحاب تتش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسي ، وبذلك أصبح مسلم العقيلي سيد حلب والموصل ، واعتقد أن في استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم . ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأن خدع تتش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة ، وإنما دخل أيضاً في صراع مكشوف مع سليمان بن قتلش الذي سبق أن رأينا جهوده في فتح الأناضول . ذلك أن سليمان استولى في أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس ، وهي المدينة التي ادعى بنو عقيل أحقيتهم في ملكيتها ، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى ، وهو الصراع الذي لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام^(٢) . وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية في صيف سنة ١٠٨٥ أنهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله ، وعندئذ إتجه سليمان بن قتلش لحصار حلب^(٣) التي قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحتيتي^(٤) .

أما تتش - أخو ملكشاه - فكان في تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام ، فإتجه بعد فشله في الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصاراً للسلاجقة .

ذلك أن أحد القادة الأتراك من إتباع السلطان ألب أرسلان - واسمه أئسز بن أوق (الأقسيس) - كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص^(٥) . ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أئسز قد استولى من الفاطميين

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٤ تحقيق سعيد عاشور - القاهرة ، ١٩٨٥ وكذلك ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(2) Setton : op. cit I, pp. 150 - 152 .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ (مطبوع) .

(٤) وهو الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف الحتيتي .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ - ٩٩ .

على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها ، عدا أرسوف . وفي سنة ١٠٧٥ - ١٠٧٦ إستولى أّتسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها ، وعندما ثارت بيت المقدس ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمي ، أخضعها أّتسز في عنف وأحدث فيها مذبحة رهيبة سنة ١٠٧٦ - ١٠٧٧ .

على أن أّتسز لم يلبث أن فشل في محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالي وأنزل به الهزيمة ^(١) . ويبدو أن هذا النصر الذي أحرزه بدر الجمالي شجعه على إرسال حملة لإسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون في حصارها فعلا ، في الوقت الذي أخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما جعل الفاطميين يؤثرون الإنسحاب ، في حين رحب أّتسز بمقدم تتش ، وخدمه وبذل له الطاعة والمناصفة وسلم البلاد اليه ^(٢) . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض بأن يكون أّتسز إلى جانبه في دمشق ، ففكر في التخلص منه ، وقتله فعلاً سنة ١٠٧٩ وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش في دمشق ، فأحسن السيرة في أهله وعدل فيهم ^(٣) وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ، وكان ذلك في الوقت الذي إستنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان بن قتلمش الذي أخذ يحاصر مدينتهم في شدة وعنف ^(٤) .

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة في شمال الشام محصورة بين إثنين من أمراء السلاجقة ، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول ^(٥) ، من نيقية إلى أنطاكية ، والثاني هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن إصطحب تتش قائده ارتق بن اكسب - الذي أقطعه بيت المقدس - وإتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك المدينة الهامة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين قرب حلب ، إنهزمت قوات سليمان الذي خر قتيلاً في المعركة سنة ١٠٨٦ ^(٦) . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلمش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف

(١) Setton : op. cit., I, p. 94..

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ - ١١٢ . ويروي النويري أن أّتسز صاحب دمشق أرسل إلى تتش (يستنجد ، على العساكر المصرية لأنها قد حاصرت دمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي) (نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٤) (تحقيق المؤلف) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ (مطبوع) .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (مطبوع) .

(٦) ويذكر النويري أنه عندما انهزم اصحاب سليمان بن قتلمش و " عاين الهلكة ، قتل نفسه بسكين " (نهاية الأرب ، ج ٢٧ ص ٩٣ - تحقيق المؤلف) .

سوى طفلاً صغيراً هو قلج أرسلان داود ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتى ١٠٨٦ ، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتاحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة فى الأناضول فى تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى ، لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم فى غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، وأحرزوا إنتصارهم على السلاجقة فى موقعة ضورليوم ، كما سىلى . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلمش عند حلب أثار الفرقة فى صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقاً أن يتحدوا جميعاً لمواجهة الخطر الصليبي ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتنش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم - أعنى خلفاء سليمان ابن قتلمش - لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بنى سلجوق على انفراد ، مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة^(١) .

أما عن تنش فيبدو أن إنتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف فى بلاد الشام بأكملها هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من إتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفرداً . وقد إستغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، وإتجه من عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام^(٢) . ولم يلبث أن إستولى على قلعة جعبر وعلى منبج^(٣) ، حتى إذا ما إقترب ملكشاه من حلب رأى تنش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها^(٤) . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية . فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة أفسنقر مؤسس البيت الزنكى (سنة ١٠٨٧) فعمرها وأحسن السيرة فيها^(٥) . ثم توجه ملكشاه

(١) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XLVI .

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٤) يروى ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تنش (بأن يكبس السلطان) ولكن تنش رد قائلاً : (لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن أولاً) .

() ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ (مطبوع) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

بعد ذلك إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش . ثم اتجه إلى السويدية - وهى ميناء أنطاكية القريب - فصلى على شاطئ البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب ^(١) .

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بزان) ، فى حين صارت أنطاكية - التى ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلمش - من نصيب قائد تركى آخر هو مؤيد الدولة ياغى سيان ^(٢) . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، الذى خلفه بعد وفاته سنة ١٠٩١ ابنه سكرمان الأول وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام ^(٣) . وكما أن ظهور تتش على مسرح الأحداث فى شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تتش حائلاً دون قيام سلطنة للأتراك فى الشام ، مما جعل هذه البلاد تعاني الكثير من فوضى الإنقسامات . وفى كلتا الحالتين إستفاد الصليبيون من ذلك النزاع والإنقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام . هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اضطرب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش ^(٤) .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تتش ، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه فى بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه ، واستأذنه فى التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين . وعندئذ أذن له ملكشاه بالعودة ، وأمر أفسنقر صاحب حلب وتوازن (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا فى خدمة أخيه (تتش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها ^(٥) . وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حمص حتى إستولى عليها من صاحبها ابن ملاعب ، وكان الضرر به وبأولاده عظيماً

(١) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٠١ (مطبوع) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ (مطبوع) .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, pp. 263 - 264 .

(٤) استطاع قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذى ورثه عن أبيه بآسيا الصغرى ، وقد عرف قلج هذا فى التاريخ باسم " ابن سليمان " كما أطلقت عليه

الحوليات الصليبية المعاصرة اسم (سليمان) انظر . Setton : op. cit. I, p. 163 .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٥ (تحقيق المؤلف)

على المسلمين وأسر ابن ملاعب نفسه وولديه ، ثم إستولى تتش على عرقة وأقامية وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن إنصرف عنها ^(١) .

وهكذا غرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين من ناحية والبيوت العربية التى كونت إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التى عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ الخطر الصليبي يلوح فى سماء الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى .

تفكك دولة السلاجقة :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو فى بلاد الشام سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية كبرى تركية - عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربى والفارسى - أيام إزدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلاً بشئون الحكم فى دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو على الحسن بن اسحق الطوسى . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركى فى تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين ، مما أغضب العنصر الفارسى الشيعى فى الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ بيد رجل ديلمى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ، بل هزة عنيفة ، بجسم دولة السلاجقة ^(٢) ، وذلك لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وأثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة ، ^(٣) أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسى المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلاً صغيراً اسمه جعفر ^(٤) ، مما أثار فى نفس ملكشاه رغبة قوية فى أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكى العباسيين والسلاجقة . ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفى ، فى حين نقل مقره الشتوى إلى بغداد . ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسى إلى التنازل عن الخلافة لابنة جعفر ، ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام حتى

(١) المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ١٩٢ .

(٣) ابن القلانسى : نيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ .

توفى ملكشاه فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل أن الخليفة العباسى دس له السم^(١) .
وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه نذيراً بتفكك إمبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء . هم بركياروق (بركيارق) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ ابناً رابعاً هو محمود الذى كان فى الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان ما دب النزاع بين محمود الصغير وأمه ترکان خاتون من ناحية ، وبركياروق (بركيارق) أكبر أبناء ملكشاه - وكان فى الخامسة عشر من عمره - من ناحية أخرى^(٢) وانتهى النزاع بأن يحتفظ محمود بأصبهان وفارس على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل - خلال سنة ١٠٩٤ - وعندئذ إتجه بركياروق فى الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها^(٣) .

ولكن الخطر الأكبر الذى هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش ، الذى لم يرض عن التنظيم الذى أجراه أخوه ملكشاه فى بلاد الشام سنة ١٠٨٦ - ١٠٨٧ . ففي الوقت الذى كان تتش يؤمل أن تكون الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه - كما مر بنا - يعطى حلب لحاجبه أقسنقر ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يكد تتش يسمع بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة^(٤) وبعد أن جمع تتش عساكره ، وأخرج الأموال ، إتجه نحو حلب حيث طلب من أقسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمه أقسنقر من عدااء لتتش ، إلا أنه لم يجرؤ على المعارضة ، لأنه رأى ، إختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم ، فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران ، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير مثلاً (حوادث سنة ٤٨٥هـ) أنه خرج للصيد فعاد مريضاً ، وإن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد بن أن يستوفى اللحم النضج (فقتل مرضه ، وكانت حمى محرقة) . أنظر أيضاً ابن العبرى ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، أنظر ابن الأثير : حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ ، ويذكر ابن الأثير أن تتش كان فى طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو فى هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق . أنظر أيضاً : التويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٦ (تحقيق المؤلف) .

حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه^(١)، وهكذا خضع آقسنقر وياغى سيان وبوزان - أى حلب وأنطاكية والرها - للأمير تتش، وخطبوا له فى بلادهم، فجمع تتش هذه القوى الثلاث وزحف بها على فارس ييغى الحصول على السلطنة. وفى الطريق إستولى تتش على الرحبة، وخطب لنفسه بالسلطنة، ثم صار إلى نصيبين، ففتحهما عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، (فبراير ١٠٩٣) وكان إبراهيم بن قريش العقيلي قد عاد إلى بلاده وتسلم الموصل وأعمالها. ولكن تتش غافله بالهجوم، فانهزمت العرب وأخذهم السيف، وقتل الأمير إبراهيم بن قريش العقيلي. (ابريل ١٠٩٣) وبذلك أوشكت أسرة بنى عقيل فى الموصل^(٢) على الانتهاء. كذلك إستولى تتش على ميفارقين من حكامها بنى مروان والأكراد^(٣). وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركياروق.

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة، إذ تخلى عنه آقسنقر أمير حلب. وبوزان أمير الرها وسارا إلى بركياروق. وبذلك لم يبق مع تتش إلا ياغى سيان أمير أنطاكية. وكان انسحاب آقسنقر وبوزان محطماً لخطة تتش، الذى أثر أن يتراجع بسرعة عائداً إلى الشام فى حين انبسطت يد بركياروق واستقامت أحواله ودخل بغداد دخول الظافر فى نهاية سنة ١٠٩٣^(٤).

وكان أول ما فكر فيه تتش عند عودته إلى الشام هو الإنتقام من آقسنقر أمير حلب، وبوزان أمير الرها، بعد أن خاناه وتخليا عنه وقت الشدة. لذلك بدأ تتش بمهاجمة حلب فى صيف سنة ١٠٩٤، وعندئذ إتحد آقسنقر وبوزان، فى حين أرسل بركياروق إليهما نجدة قوية بقيادة الأمير كريغا (كربوقا)^(٥). ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب، فانتصر تتش إنتصاراً حاسماً ووقع آقسنقر فى يده فقتله على الفور^(٦)، فى حين فرت قلوب الجند المنهزمين إلى حلب حيث إعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة. على أن تتش أسرع

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٨٦ هـ.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨.

(٣) كان آخر حكام بنى مروان فى ميفارقين هو أبو المظفر منصور، (١٠٧٩ - ١٠٩٣) - أنظر.

امبار : معجم الأنساب ص ٢٠٧.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠ (مطبوع).

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع).

(٦) يروى ابن العديم انه عندما وقع آقسنقر فى يد تتش، سأله الأخير "لو ظفرت بى ما كنت صنعت؟" قال : كنت أقتلك "فقال له : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم به على" فقتله.

إلى اللحاق بهم فاستولى علي حلب، وعندئذ وقع في يده كريغا وبوزان، فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كريغا أسيراً إلى حمص^(١).

وبعد أن قضى تتش في حلب بضعة أيام زحف على الفرات، فاستولى على حران والرها، ثم سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعاً، ثم ملك ديار بكر و خلاط، وبعد ذلك قصد فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل همذان والري^(٢). وكان الموقف حاسماً بالنسبة لبركياروق، فاتجه من أصبهان إلى الري لمواجهة خصمه، ودارت المعركة قرب الري في أوائل سنة ١٠٩٥. وللمرة الثانية تعرض تتش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه، فانهزم عسكر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب، وقتل في ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه في الحرب^(٣). وهنا نلاحظ أن أعوان تتش وأمرائه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لقسوته وعنفه وبأسه، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطاعمهم منه. وعلى العكس أدى ضعف بروكياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمراء نحوه، حيث أن شخصيته من الممكن أن تساعدهم في تحقيق مطاعمهم الشخصية. وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذاناً بانحلال قوة السلاجقة في الوقت الذي بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى في الغرب الأوربي^(٤).

ثم إن بركياروق (بركيارق) إكتفى بحكم فارس وبغداد، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه. وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثاني ملك دمشق^(٥)، وذلك دون أي إعتراض أو تدخل من جانب بركياروق. وكان كل ما طلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كريغا، الذي كان تتش قد سجنه بعد أسره. ولم يكد يفرج عنه حتى حصل كريغا علي إذن من بركياروق للإستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع).

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٨ - ٦٩ (تحقيق المؤلف).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١١١ (مطبوع).

ويروي ابن القلانسي أن رأس تتش قطع وطيف به في العسكر، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها (ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠).

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. LI.

(٥) قتل رضوان أخوية أبا طالب وبهرام. أما أخوه الثالث دقاق فقد أرسله ساوتكين الخادم - نائب تتش في دمشق - ودعاه لتسليم المدينة. وكان أن غادر دقاق حلب سراً وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد، وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به، ولكن تتش وصل سالماً وصارت دمشق وبلادها بحكمه، (ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٠ - (مطبوع).

أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بنى عقيل، وهو الذي كان تتش قد تركه بالموصل. أما في القطاع الشرقي من دولة السلاجقة، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر^(١).

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة، هي : سلطنة فارس (أصبهان) وعلي رأسها السلطان بركياروق نفسه الذي كانت له السيطرة على بغداد، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلي رأسها أبو الحرث سنجر، ومملكة حلب وعلي رأسها رضوان بن تتش، ومملكة دمشق وعلي رأسها دقاق بن تتش، وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلي رأسها قلع أرسلان بن سليمان بن قلمش. هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركمانى فى كبادوكيا أفاد من الفترة التى قضاها قلع أرسلان فى الأسر لتحقيق إستقلال ذاتي، مما زاد من حدة الانقسام فى آسيا الصغرى. وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا فى وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه، فإن هذه القوة لم تلبث أن إنفلتت وتفتت عند فجر الحركة الصليبية، مما صار له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى^(٢).

وليت الانقسام والانحلال الداخلى فى دولة السلاجقة قد وقف عن ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر، وهو أخ ثالث لبركياروق^(٣)، مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الأخوين، حتى إنتهى الأمر بالصلح بينهما فى أوائل سنة ١١٠٤، فاحتفظ بركياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون السلطنة له، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل^(٤)، فى حين ظل الأخ الثالث - هو أبو الحرث سنجر - يحكم خراسان وما وراء النهر^(٥). ولا شك فى أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة أدت إلى تحطيم البيت السلجوقى من ناحية، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى. أما الخليفة العباسى فى بغداد فقد

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٠ هـ.

(2) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(٤) ذكر ابن العبري أن ممتلكات محمد تبر هي "نيار بكر والجزيرة والموصل والشام" ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب فى حوزة ابني تتش. (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧).

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

إنتهز فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً، وقطع دعوة الترك من بغداد،^(١).

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بنى مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات إستغلت الظروف التي أحاطت بالسلطان بركياروق وإستقلت عن سلطانه. وقد بنى شيخ هذه القبيلة - وهو صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي - منزلة الحلة ١١٠١ واتخذها مقراً له. وبذلك قامت إمارة عربية إمتدت من هيت إلى الكوفة وواسط، وصارت خطراً هدد الأتراك وحال دون إستمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها^(٢) ولم يتردد أمراء الحلة في سبيل تحقيق هذه الغاية في محالفة الصليبيين كما سيلي فيما بعد.

أما في بلاد الشام، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً. ذلك أن ابني تتش - وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥ - ١١١٣) ودقاق صاحب دمشق (١٠٩٥ - ١١٠٤) لم يتمتعا بالقدرة السياسية التي تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشت فيها بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر. ولعل أكبر مظهر لإنحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الإتصال بالبيت السلجوقي. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة، وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. وأتابك لفظ تركي معناه مربى الملك فكان آل سلجوق إذا إمتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً في تكريمه^(٣) ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين الذي كان مملوكاً ثم قائداً للملك تتش، وأتابكا لابنه دقاق أي مربياً له. وقد إستمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤ أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكي ابن أقسنقر، وقد إستمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢^(٤). وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التي أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة في الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها^(٥).

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤١ - ٤٢.

(3) Setton : op cit., vol. I. p. 162.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر في النولة الأتابكية ص ٦٤ وما بعدها.

(5) Gibb : op. cit., p. 23, f.

أما فلسطين، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكمان) وإيلغازى (إيل غازي). ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الوزير الأفضل لمحاصرة بيت المقدس ونصب عليه المناجيق، حتى اضطر الأراتقة إلى الإنسحاب من المدينة فى أغسطس من العام نفسه، ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك فى أيدي الفاطميين^(١). هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى بالله الفاطمى وإقامة الدعوة له، ووعد الأفضل رضوان أن يمدّه بالمساعدة ضد خصومه، فاستجاب رضوان لذلك، وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التى بيده.. للمستعلى ثم للأفضل ثم لرضوان... هذا وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة للامام المستظهر (العباسي) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه^(٢).

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين إستغلوا تفوقهم البحرى على السلاجقة وظلوا يسيطرون على موانى الشام^(٣). هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر عندما إستقل بها أحد أتباعهم، وهو القاضى الشيعى ابن عمار أبو طالب. وقد إستطاع ابن عمار هذا وخليفته جلال الملك أبو الحسن على (ت ١٠٩٨) ثم فخر الملك أبو على عمار (١٠٩٨ - ١١٠٨) أن يجعلوا من طرابلس إمارة غنية إشتهرت بمدارسها التى حوت مكتبة ضمت عشرة آلاف مجلد. على أن قيام هذه الإمارة العربية الصغيرة لا يخفى الحقيقة الواقعة، وهى زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً. ولا شك فى أن عملية التجزئة التى تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه، فى الوقت الذى شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام، كانت من العوامل الرئيسية التى ساعدت الصليبيين فى تحقيق أطماعهم وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبي وليم الصورى^(٤).

ولم يكن ملك السلاجقة فى الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة فى الشرقين الأدنى والأوسط. ذلك أن مملكة السلاجقة فى آسيا الصغرى

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٢٩ (مطبوع). والمقصود بالمصريين هنا الفاطميين.

(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل، حوادث سنة ٤٨٢ هـ) أن الجيش الفاطمى الذى خرج من مصر فى تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال.

(4) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. cr. Occid. II) 1015 - 1016.

لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلش، وهو الذى قتله تتش - كما سبق أن ذكرنا - سنة ١٠٨٦^(١). ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٢ ظل ابن سليمان الصغير، وهو قلع أرسلان، شبه أسير فى فارس، تحت رقابة ملكشاه. وفى تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغرى دون سلطان، عمل الأمراء المحليون - مثل أبى القاسم أمير نيقية، وزاخاس أمير أزمير، والملك غازى بن دانشمند أمير كابادوكيا - على الإستقلال عملياً^(٢). وكانت نيقية عاصمة السلاجقة فى الأناضول، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلش فى حكم آسيا الصغرى. ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد، بل بات يحلم أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية، وشيد أسطولاً لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله^(٣) ..

وعندما إسترعت أطماع أبى القاسم نظر السلطان ملكشاه، أرسل ضده حملة حاصرته فى نيقية سنة ١٠٨٦، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين. وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرها، للقضاء على أبى القاسم والاستيلاء على نيقية^(٤). وقد حاول بوزان أن يقنع الكسيوس كومنين بالتخلى عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين^(٥). ولكن الكسيوس أدرك أنه من الخير أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلا من السلطان ملكشاه. وفعلا قدم الامبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم، وبفضل هذه المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية، ورفع حصار بوزان عنها. ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل فى طاعته، فقتله الأخير سنة ١٠٩٢^(٦).

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ (٤٨٥ هـ) أطلق خليفته بركياروق سراح قلع أرسلان بن سليمان بن قتلش، الذى غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم^(٧). وإذا

(١) النويرى : نهاية الأب ، ج ٢٧ ص ٩٢ وما بعدها (تحقيق المؤلف).

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4 p. 331.

(3) Setton : op. cit., vol. I, 215 - 216.

(4) Chalandon, Alexis Comnene p. 102.

(5) Idem., p. 125.

(6) Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 331.

(٧) حكم قلع أرسلان (الأول) داود بن سليمان من سنة ٤٨٥ هـ حتى سنة ٥٠٠ هـ (١٠٩٢ - ١١٠٧ م) أنظر زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمه فى الاسلام ص ٢١٥.

كان الإمبراطور الكسيوس كومنين قد نجح في تلك الفترة في انزاع بعض مراكز من السلاجقة في آسيا الصغرى، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة على الإمبراطورية البيزنطية، إذ شيد أسطولاً واستولى به على عدة جزر هامة مثل لسبوس وخيوس وساموس ورودس. ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية عندما تزوج قلعج أرسلان من إينة زاخاس أمير أزمير. على أن إسحق كومنين استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين أي بين قلعج أرسلان وحميه، وأن يجعل قلعج أرسلان ينقلب ضد حميه، في الوقت الذي كان زاخاس يحاصر أبيدوس، وهي مفتاح الدردنيل. ولم يلبث أن إستدرج قلعج أرسلان زاخاس وقتله. وبعد ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلعج أرسلان من ناحية والأمبراطور الكسيوس كومنين من ناحية أخرى^(١).

أما الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلعج أرسلان أي نفوذ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند (١٠٦٣ - ١١٧٤) التي أسسها الأمير التركماني أحمد غازي، والتي قامت على حساب الممتلكات البيزنطية في كابادوكيا وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)^(٢). وكان الدانشمند يعترف بالتبعية للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس، وبالتالي لم يعترف مطلقاً بسيادة سليمان بن قتلмыш. وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازي كمشتكين (١٠٨٤ - ١١٢٠) بالاستيلاء على قسطنطيني من البيزنطيين. وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكماً دائماً بين السلاجقة في الأناضول من ناحية، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحستا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعاً^(٣).

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ م (٤٩٠ هـ)، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية في بيثنيا وأيونيا. وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين في القوة في ذلك الوقت علي الرغم من إنقسام الأتراك على أنفسهم. ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين.

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance. p. 304.

(2) Setton : op. cit. vol I, pp. 163 - 164.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, LVII - LIII.

الشقاق بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الإنقسام بين البيوت العربية والتركية في العالم الإسلامي قد مهد لإنصار الصليبيين، فإن الشقاق في العالم المسيحي بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك في الشرق. ذلك أن العداء المذهبي بلغ أشده بين الروم البيزنطيين والأرمن والسريان اليعاقة والنساطرة، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية في الشرق في القرن العاشر، مما جعلهم يتعرضون جميعاً لكارثة مشتركة في القرن الحادي عشر، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك^(١).

من ذلك أنه لم يكد يمضى قليل على ضم أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية في عهد حنا شمشقيق، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون الأرثوذكس حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن. كذلك حدث بعد أن إتخذ الأرمن، أنى عاصمة لهم^(٢)، أن تعرض بطرس الأرمني ثم ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠ - ١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم علي التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية. أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثة للإمبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلاً منها إقطاعات في كابادوكيا، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية. ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الرهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التي حلت بالبيزنطيين في مانزكرت، بل لقد بلغ الأمر إلى مديح ملكشاه والأطراء عليه لما حققه من راحة بال للأرمن^(٣). وقد إتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التي إشتراك في

(١) عن أصول الانشقاق بين الكنيستين الأرمينية والبيزنطية أنظر Grousset : L'Empire du Levant, pp. 76 - 78.

واليعاقة من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، نسبوا إلى يعقوب برادايوس (البرادعى) الذي نصب اسقفا مونوفيزتيا على الرها سنة ٥٤١م.

أما النساطرة فينسبون إلى نسطوروس بطرق القسطنطينية (٤٢٨ - ٤٣١) وقد قال بأن طبيعة المسيح الالهية منفصلة عن طبيعته البشرية، وعلى ذلك فإن مريم العذراء ليست أما للمسيح في صورته الالهية وإنما هي أمه في صورته البشرية.

(٢) كانت مدينة أنى أول عاصمة للأرمن في مقرهم الجديد في جنوب شرق آسيا الصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سيس فيما بعد، وما زالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى في القرنين العاشر والحادي عشر. انظر :

Schlumberger : Recits I, 127 & Vasiliev, op. cit. I, 314.

(3) Grousset : Hist. de l'Armenie, pp. 620 - 622.

موقعة ملازكرت بأنها تفهقرت ولم تثبت، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن إنتقم المهاجرون الأرمن في كابادوكيا لأنفسهم بإضطهاد رجال الدين الأرثوذكس. من ذلك أن جاجك الثانى ملك أنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه في جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه. وكان أن رد البيزنطيون علي ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجك الثانى حتى تصيدوه وقتلوه سنة ١٠٧٩^(١).

ولم يكن حنق المسيحيين السريان اليعاقبة علي البيزنطيين أقل شدة، لاسميا بعد أن إسترد البيزنطيون أنطاكية والرها. وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيون الارثوذكس إلى الكنيسة المحلية. لذلك لم يتمالك ميخائيل السريانى نفسه من إعلان الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠^(٢). وتعبّر كتابات ميخائيل السريانى تعبيراً صادقا عن إستيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين، لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة، في حين أن إضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً.

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التى قامت بها الإمبراطورية البيزنطية فى القرن ، العاشر لإسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرق آسيا الصغرى وفى بلاد الشام أدت إلى إستياء مختلف العناصر التى كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للإمبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك. وقد كان لهذا الشعور أثره فى تسهيل قيام الإمارات اللاتينية فى الشرق، لأن الأرمن والسريان اليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين وهم الروم الأرثوذكس. وكان أن نظر الأرمن فى قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين علي أنهم محرروهم وحلفاؤهم، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمينية والبابوية^(٣) هذا فى الوقت الذى أحسن الصليبيون الغربيون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب، بل ضد البيزنطيين^(٤).

(1) Runciman : A History of the Crusades, I. p. 75.

(2) Mathieu d' Edesse (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. pp. 46 - 48).

(3) Lorga : L'Armenie Cilicienne, p. 91.

(4) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان :

لم تقتصر الكوارث التى تعرضت لها الدولة البيزنطية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للإمبراطورية، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية فى ذلك الوقت أيضا لخطر النورمان، مما أوقع القسطنطينية بين نارين.

والمعروف أن القرن الحادى عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمانديا فى غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها، فضلاً عن صقلية. وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ وليم هوتفيل، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد فى تأسيس دولة النورمان فى إيطاليا وصقلية، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩^(١). وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه إنتزع من البيزنطيين آخر معاقلم فى إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١، أى فى نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية فى آسيا الصغرى لكارثة مانزكرت على أيدي السلاجقة^(٢). ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات فى التاريخ البيزنطى بأجمعه^(٣). وبعد أن نجح النورمان أيضاً فى إنتزاع صقلية من المسلمين، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطيء الشرقى للبحر الأدرياتي للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا، بل لقد طمعوا فى القسطنطينية نفسها، ثم باتوا يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين فى الشرق، إتماماً لحربهم ضد المسلمين فى صقلية^(٤).

وفى الوقت الذى نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد فى إيطاليا البيزنطية، إتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا فى خدمتها جنداً مرتزقة. وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التى حلت بالبيزنطيين على أيدي السلاجقة، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة فى آسيا الصغرى. وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذى سبق أن أشرنا إليه، ، والذى صار فى وقت

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4 part I, p.p. 208 - 209 (1966).

(3) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, vol I p. 361 (Medison, 1961).

(4) Longman : Les Francais d' outremer au Moyen - Age, p.p. 26 - 28.

ما مهيمنا على إقليم كابادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ - ١٠٧٤) (١) .

. وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحدو حذو رسل باليل ، ويقيم دولة نورمانية في الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته في صيف سنة ١٠٨١ عند اقلونا ، ومنها إتجه إلى دورازو حيث هزم قوات الكسيوس كومنين ، واستولى على ذلك الموقع الهام في أوائل سنة ١٠٨٢ . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه إضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعي وجوده ، فترك قيادة قواته في البلقان في صيف سنة ١٠٨٢ لإبنة بوهيموند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى (٢) .

وقد استطاع بوهيموند أن ينزل الهزيمة بالكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة في أبيروس ومقدونيا وتساليا ، بحيث أوشكت الإمبراطورية على السقوط في أيدي النورمان ، مما جعل الكسيوس كومنين يسرع إلى الإستنجاد بسليمان بن قتلش زعيم سلاجقة الروم ، الذي أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل . وبفضل هذه النجدة استطاع الإمبراطور البيزنطي أن يواجه الموقف ، وأن يحرز إنتصاراً على بوهيموند في تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة (سنة ١٠٨٣) (٣) .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وإبنة بوهيموند معاودة الكرة ، وتحدياً الأسطول البندقي - المحالف للبيزنطيين - قرب كورفو . ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل أبيروس حتى توفي روبرت في صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا (٤) .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان - وبخاصة بوهيموند - لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق ، وهو الطريق الذي لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لإختراقه . والواقع إن المشاركة في الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديداً لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان في الشرق ، وهو الأمر الذي تحقق فعلاً باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها (٥) .

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p-p. 168-169 .

(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 317.

(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 381 .

(4) Chalandon : Règne d'Alexis Comnene, pp. 70-71 .

(5) Cam. Med. Hist. 4, part I, p. 213 (1966) .

الباب الثالث الحملة الصليبية الأولى

”واستفتوا وفارب مجله جبار عنيد“

(إبراهيم : ١٥)

الفصل الأول

الدعوة للحملة

البابا أوربان الثانى وإعلان الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها العام بدأت فعلا قبل بدايتها الرسمية فى أواخر القرن الحادى عشر ، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمذ توسع المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، فى القرن السابع للميلاد ، والدعوة لم تنقطع فى غرب أوربا لمحاربة المسلمين . وقد إتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهر من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال إفريقيا ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط ، مثل صقلية وكريت ^(١) .

على أنه حدث فى أواخر القرن الحادى عشر أن اتجه الغرب الأوروبى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين وعندئذ بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع أنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة القسطنطينية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧٩ - ١٠٨٥) ألح على البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعده ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ^(٢) .

ويقال إن البابا جريجورى السابع - بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة - استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ، ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح . هذا إلى أن البابوية

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15 & L'Armenie Cilicienne, pp. 1-17.

(2) Cam. Med. Hist. vol 5, p. 270 .

شغلت في ذلك الدور بالصراع ضد هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلماني ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة ^(١) . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ - ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان ألكسيوس كومنين إمبراطورا (١٠٨١-١١١٨) ^(٢) .

وكان الإمبراطور ألكسيوس رجلا قديراً ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه ألكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) تتصف بالمرونة المطلقة واللباقة الفائقة ^(٣) . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق - بالصورة التى تم عليها الأمر فعلا - هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما يرجع الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها إلى البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ما سمعه هذا البابا من أخبار مبالغ فيها عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من غرب آسيا ، بنفس الجهد والعزيمة التى يجرى بها طردهم عندئذ من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان ، مما جعلها تفكر فى انتهاز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية ^(٤) .

والواقع إن البابا أوربان الثانى كان أصحح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي الجديد ، إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ، فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة فى اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم . ثم إن البابا أوربان الثانى لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، فلم يكد ذلك البابا يلى منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ، كما

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 358 .

(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, pp. 47 - 50 .

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 316 - 320 .

(4) Setton : op. cit. I, pp. 226 - 227 .

رفع قرار الحرمان الذي كان موقعا على ذلك الإمبراطور^(١) الأمر الذي أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وإلى منح الكنائس الكاثوليكية في البلاد الأرثوذكسية قسما من الحرية في تصريف شئونها . وفي سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان الثاني تحمل له إخلاص الإمبراطور ومحبه^(٢) .

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من خطر السلاجقة . لذلك أراد الإمبراطور البيزنطي استغلال تلك العلاقات الطيبة مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانتهاز فرصة عقد مجمع ديني برئاسة البابا في بياكنزا - بشمال إيطاليا - في مارس سنة ١٠٩٥ وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا^(٣) . وقد نجح مبعوثو الإمبراطور في إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت في الضعف والانحلال بحيث تكفى ضربة واحدة قوية للأجهزة عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة في حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثاني بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين ، فضلا عما وجدته في هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم في غرب أوربا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام في المجمع للتدليل على سلامة وجهة نظرهم^(٤) .

على أن البابا أوربان الثاني اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة في ذهنه ، وهو في طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع ديني للنظر في بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيليب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الديني في كليرمونت في

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance . p. 307 .

عندما عزل الإمبراطور ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ أصدر البابا جريجوري السابع قرار الحرمان ضد نقفور الثالث مغتصب العرش البيزنطي . وعندما حل ألكسيوس كومنين محل نقفور في العرش البيزنطي ، مد البابا قرار الحرمان ليشمل ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١ . وهكذا حتى جاء البابا أوربان الثاني فألغى القرار . انظر : Runciman : op. cit. vol. I, p. 99 .

(2) Runciman : op. cit. I, pp. 101 - 102 .

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156 .

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272 .

نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه في مناقشة المسائل الكنسية المتعددة ، حتى إذا ما تم ذلك وجه البابا دعوته في اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً لتوحيد الجهود لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين^(١) . وقد عرض البابا على المجتمعين - في أسلوب حماسي جذاب - مدى ما تعانيه الأراضي المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذي صار يتطلب من المسيحيين الغربيين والإسراع لنجدة إخوانهم في الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثاني وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليترك الجميع مشاحناتهم في غرب أوربا ويوجهون جهودهم ضد المسلمين في الشرق ، حيث يرعاهم الرب ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم . وقد نادى البابا بالإسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف^(٢) .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم بأن فكرة الحرب الصليبية نبتت من خطبة البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ - كما ظن البعض - من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين في كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الرب Deus lo volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون^(٣) .

ولم يكد البابا أوربان الثاني يفرغ من خطبته التي دعا فيها لمحاربة المسلمين ، حتى جثا أدهمار - أسقف بوي Puy - أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوباً بابوياً في الحملة الأولى^(٤) . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين في رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة الغربية على الحركة الصليبية وعلى الأراضي التي سيفتحها الصليبيون . وفعلًا حدث بعد ذلك - عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس - أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل في نزاع بسبب ذلك

(1) Michaud : Hist. des Croisades, I. p.p 92 - 94 .

(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade. p.p. 37 - 41 .

(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 402 .

(4) Cam. Med. Hist., vol. 5 p. 273 .

الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بين المقدس الصليبية^(١).

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداداه للمشاركة في تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين في الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثاني من أول الأمر بأن مشروعه الصليبي في حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية . فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين في الغرب ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طول مدة غيابهم^(٢) . كذلك استقر الرأي على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على رداءه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان^(٣) .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا - وهو ريموند الرابع أمير تولوز وبرفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥) - عزيمة على المشاركة في المشروع الصليبي الذي دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق أن شارك في حربهم في أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السرياني أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس^(٤) . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند ، على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوي أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثاني فلم يكتف بما قاله في كليرمونت ، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجعماً في ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز ومان وتورز وبواتييه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونيو ١٠٩٦) . وأخيراً أصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع في مجمع نيم (يوليو ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جدير في الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً

(1) Grousset : Hist . des Croisades, I, p. 4 .

(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p.p. 44-45 .

(3) Runciman : op. cit. I, p.p. 108 - 109 .

(4) Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr Doc. Arm), I. p. 372 .

قائداً لتلك الحملة ^(١) . ثم إن ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثاني مبعوثين إلى جنوة طالبا مشاركتهما في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث الجنوة أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا أثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقله كبيرة ^(٢) . وبذلك حققت جنوة لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق وامتيازات في بلاد الشام ، وهي حقوق وامتيازات لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل ^(٣) .

وأخيراً عاد البابا أوربان الثاني إلى روما في أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة - مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا - بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل ، سكتلندا ودانمرك وغيرهما ^(٤) .

حملات العامة . الدعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق في الدعاية لمشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم في السن قيل إنه حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ، ولكنه تعرض في الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً في نفسه ^(٥) . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة - بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج وجسده الضخم - جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العوام والاهماء في غرب أوربا ، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يرونه ويستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيستجيبون له في سرعة غريبة ، ويشرعون في الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيماً جيداً من الناحيتين السياسية والحربية ^(٦) .

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 273 .

(2) Heyd. : Hist. du Commerce I, p. 133 .

(3) Setton : op. cit. : I, p. 252 .

(4) Runciman : op. cit. I, p. 112 .

(5) Setton : op. cit. I, p. 78.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 5.

وقد مضى بطرس الناسك في دعوته بقوة، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبني واللورين، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع - حوالي خمسة عشر ألفاً - اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم. وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وهيئته وقوة تأثيره لم تكن فقط العوامل التي أدت إلى استجابة تلك الجموع الغفيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية فهناك الظروف القاسية التي عاش فيها الفلاحون في غرب أوربا في تلك الفترة، والتي كان لها أكبر الأثر في ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسونه من أهوال. فكثير من الأراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفايكنج وغيرهم من البرابرة، فقلت الأقوات في الوقت الذي ازدادت أعداد السكان. ثم إن الحروب والمنازعات المحلية بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت في الإخلال بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك، وممتلكاتهم للنهب، مما جعل الغالبية العظمى من أهالي غرب أوربا يعيشون في حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أي ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم^(١). فإذا أضفنا إلى ذلك كله س النكبات الطبيعية والاقتصادية التي عانى منها الغرب الأوربي زمن الدعوة للحرب الصليبية، أدركنا السر الحقيقي لإقبال كثير من الفلاحين والمعدمين على المشاركة في تلك الحرب، إذ لا داعي للخوف من الموت ومن محاربة المسلمين وهم في حال أقرب إلى الموت فعلاً. وكل ما هنالك هو أنه بدلاً من أن يموت الفرد من الجوع في بلده محملاً بما عساه ارتكبه من ذنوب في حياته، فإن من الأفضل له أن يموت في حرب مقدسة مما يحقق له سعياً مشكوراً وذنوباً مغفوراً^(٢).

وفي الوقت الذي كان بطرس الناسك ماضياً في دعوته في الغرب الأوربي، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة إسمه والتر الملقب بالمفلس. وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضي الدولة البيزنطية. وفي الطريق نسيت تلك الجموع أنهم يخرقون بلاداً مسيحية، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الأمنين^(٣). ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون في أول الأمر في البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال. وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا

(1) Michaud : op. cit. Tome I, p.p. 105 - 106.

(2) Runciman : op. cit. p.p. 114 - 155.

(3) Vasiliv : op. cit., vol. II, p. 404.

وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية في يولييه سنة ١٠٩٦، وهناك سمح لهم الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك. ولا بد أن يكون الإمبراطور قد تأكد في تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم^(١).

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جمع غفير مخترقاً ألمانيا وهنغاريا، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية. وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغاريين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة في تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء^(٢). ولا شك في أن هذه الجريمة البشعة التي أتاها الصليبيون كان لها أثرها في إثارة ريبة البيزنطيين وتشككهم في تلك الجموع التي أتت إلى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية، وفي الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء. لذلك رأى الإمبراطور البيزنطي ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة العبث بأراضي الإمبراطورية ومدنها، ووضع خطة استهدفت تخليص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم في أقصر مدة ممكنة. وفعلت تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا في طريقهم إلى البسفور ينهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم، فنهبوا بلجراد ونيش وغيرها من المدن والقرى الآهلة، حتى وصلوا في نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية في أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والثر المفلس وجموعه في انتظارهم^(٣).

وعلى الرغم من البوادر السيئة التي بدرت من الصليبيين أثناء عبورهم أراضي الإمبراطورية الشرقية، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين تذرّع بالصبر وأحسن استقبال بطرس الناسك، وقدم له ولأتباعه النصيح بألا يتعجلوا في العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعد على الصمود في وجه الأتراك السلاجقة^(٤). على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة، إذ أخذ الصليبيون

(1) Chalandon : Première Croisade, p. 61 - 62.

(2) Albert d' Aix : Rec. Hist. cr) Hist. Occid., IV, p. 279.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p.p. 275 - 276.

(4) Chalandon : Première Croisade, p.p. 76 - 77.

يوصلون نهب القرى والضياع المجاورة، ويعتدون على الأهالي ويسلبونهم أقاتهم وأمتعتهم، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعايا^(١).

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعد في دفع خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء، دخلوا أراضي الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء، إن لم يكن بالطريق السلمي فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمينين^(٢). وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ الكسيوس كومنين يعيد النظر في سياسته، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطئ الآسيوي للبسفور، وبدأت هذه العملية فعلاً في أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦. ومع ذلك فإن الإمبراطور الكسيوس استمر يحسن النصيح للصليبيين، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب^(٣). ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية - قاعدة السلطان قلع أرسلان بن سليمان بن قتلش - على بعد عدة كيلو مترات فقط منهم^(٤).

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى. وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية في تلك المناوشات الأولى، مما جعلهم يغترون بقوتهم ويتمادون في الإغارة على أراضي السلاجقة. وفي أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطي وقرروا الزحف على نيقية^(٥). وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير، والباقي من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة. وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم، لم تستطع غالبية العامة المقاومة، فأعمل السلاجقة السيف فيهم ذبحاً وتقتيلاً بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف. وقد أسرع الإمبراطور الكسيوس كومنين -

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance p. 310.

(2) Runciman : op. cit. I, p.p. 115 - 116.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 276.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.

(5) Vasiliev : op. cit., p. 405.

عندما سمع بنبا الكارثة - إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، فحملت قلوب الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء^(١).

وهكذا أخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس. ولم تكن بقية الحملات المماثلة التي قادها فولكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk وإميخ Emich أحسن حالا، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية^(٢).

الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على امتداد الطرق التجارية في غرب أوربا في العصور الوسطى. وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة باخوانهم يهود الشرق - في البلدان الإسلامية أو في الدولة البيزنطية - مما قوى مركزهم التجاري والاقتصادي، ومكنهم من القيام بنشاط مالي كبير وتأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمراء والفرسان وغيرهم. ومن المعروف عن اليهود قدرتهم على استغلال من يتعامل معهم، فوقع في شباكه عدد كبير من الأهالي في أوربا العصور الوسطى، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التي فرضها اليهود عليهم. ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدينين عدداً كبيراً من الفرسان، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة، مما أثار نوعاً من الاستياء العام ضد أولئك المرابين المستغلين في غرب أوربا على عصر الحركة الصليبية^(٣).

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفاً معادياً. ففي ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود في شمال فرنسا إلى إخوانهم في ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود، وبالتالي فقد أخذ اليهود - عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة في مختلف أجزاء الغرب الأوربي - يعرفون جهود الصليبيين. وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفري بوايون - الذي كان يعد عدته للمشاركة في الحرب الصليبية - قد أقسم على أن ينتقم للمسيح

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 321.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

(3) Thompson : Economic and Social Hist of the Middle Ages p. 394.

بقتل جميع اليهود. وعندما انتشرت هذه الشائعة، لجأ يهود مينزوكولونيا في حوض الراين إلى أسلوبهم المعروف، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفري بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه^(١).

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح في جعل أتباع الكنيسة - وهم في موجة حماسهم الدينية - يغفرون لليهود مسلكهم تجاه المسيحيين والمسيحية. وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت في المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم، فلماذا يختص المسيحيون المسلمين بذلك العداء ويتركون اليهود؟ أليس اليهود في عرفهم هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهي في المهد؟ اليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرصوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلاً وتذبيحاً؟^(٢) وهكذا لم يكن منتظراً أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود في أوربا شيئاً من رشاشها.

وكان أن تجمع في حوض الراين في إبريل سنة ١٠٩٦ جمع من الصليبيين الألمان، زاد عددهم على عشرة آلاف، تحت قيادة فولكمار، ومن هناك شرعوا في الزحف شرقاً للحاق ببطرس الناسك. وفي الوقت الذي شقت تلك المجموعة طريقها نحو براغ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل في حوض الراين بزعامة الأمير إميك Emich^(٣). وقد استهل إميك هذا نشاطه الصليبي في أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود في مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل أثنى عشر يهودياً في حين لم ينقذ الباقيين سوى أسقف المدينة الذي استظلمهم بحمايته. ولم يكد إميك وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا مسيحياً وحفظوا جثته في إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء في تسميم آبار المدينة^(٤). وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحي القريبة مع رجال إميك في إحداث مذبحه كبرى باليهود (٢٠ مايو)؛ هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودي^(٥). ثم اتجه إميك بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس

(1) Runciman : op.cit., I, p.p. 135 - 136.

(2) Cary : A. Hist. of Rome, pp. 589 - 590.

وعن تأمر اليهود ضد السيد المسيح عليه السلام ومطارتهم له، انظر : انجيل متى (الاصحاح ٢٦ ، ٢٧)

(3) Setton : op. cit. I, pp. 263 - 265.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 10.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 277.

الأساقفة أبواب المدينة في وجه الصليبيين. على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى حركة داخل المدينة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود؛ وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المباني التي اختبأ فيها اليهود وقتلهم، في حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب. وقد قدر عدد قتلى اليهود في حوادث مينز وحدها بألف قتيل^(١). ولم تكن حوادث مينز هي الأخيرة بالنسبة لليهود في حوض الراين؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم، وبعد ذلك شقوا طريقهم صوب القسطنطينية عن طريق هنغاريا.

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التي سبقت إلى الشرق، ففعل فولكمار وأتباعه باليهود في براغ مثلما فعله إميخ بهم في مدن الراين (٣٠ يونيو). وقد حاول فولكمار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود في مدن هنغاريا، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك، وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففرقوهم وقتلوا كثيراً منهم. وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب، مما أدى إلى تدمير حملتي إميخ وفولكمار في هنغاريا^(٢).

هذا، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود في غرب أوروبا طوال عصر الحروب الصليبية. ولم تكن البابوية نفسها أقل عداء لليهود، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك^(٣).

(1) Albert d'Aix IV, p.p. 292 - 293.

(2) Runciman : op. cit., I, p.p. 134 - 141.

(3) Thompson : Economic and Social Hist. p. 409.

الفصل الثاني الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفرى بوايون وألكسيوس كومنين :

فى الوقت الذى أخذت حملات العامة من المعدمين والغوغاء يذبحون اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التى سلکوا أراضىها، جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى - وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء - وإعداده إعداداً منظماً. والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء فى الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع، لكل منها طابعها المميز الذى لازمها منذ أول الأمر، وميز نشاطها فى الشرق^(١). وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة فى الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولى، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وفرسانه وجنده وسياسته الخاصة، مما جعل تلك الحملة فى حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحياناً فى اتجاهات متعارضة^(٢).

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفرى بوايون أمير لوثرنجيا ويرفقتة أخوه بلدوين البولونى، فضلاً عن عدد آخر من كبار الأمراء^(٣). ويبدو أن المكانة البارزة التى تمتع بها جودفرى بوايون فى الإمبراطورية المقدسة، وأهمية الإمارات التى شارك أصحابها فى حملته جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها، فاكتملت طابعاً مميزاً من أول الأمر^(٤). هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين فى هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتينى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولم يكن من القطاع الألماني سوى القليل، مما جعل الطابع العام لحملة جودفرى بوايون فرنجيا، أى فرنسياً. وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام، إذ سرعان ما ذبلت

(1) Cam. Med. Hist. vol 5, p.p. 279 - 280.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥.

(3) Michaud : Hist. des Croisades, I, p.p. 146 - 147.

(4) Runciman : op. cit., I, p. 147.

العلاقات الإقطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنجية، أى الفرنسية^(١)، حتى أن العرب المعاصرين أطلقوا على الصليبيين عموماً اسم (الفرنج).

وكانت حملة جودفرى بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق. وقد سلكت طريق هنغاريا - مثل حملات العامه التي سبقتها - وفي وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من شعور النعمة والضغينة للصليبيين، بعد الضرر الذى لحق بهم على أيدي جموع بطرس الناسك وفولكمار وإميخ^(٢). وقد رأى جودفرى أن يبدد تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم، فعقد اجتماعاً مع كولمان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية. وفي ذلك الاجتماع قدم جودفرى أخاه بلدوين البولونى ليظل رهينة لدى الملك الهنغارى حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضى الهنغارية، وفي الوقت نفسه أصدر جودفرى أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالى أو ممتلكاتهم^(٣).

وبوصول جودفرى بوايون إلى الحدود البيزنطية في أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت المسألة الصليبية في تاريخ الدولة البيزنطية. ففي ذلك الدور بالذات وضع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين، وهى السياسة التى لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان. ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة، فلما فشل في ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عدااء صريح^(٤). وقد بدأ الإمبراطور البيزنطى بإرسال رسل إلى جودفرى بوايون لاستقباله فيما بين بلجراد ونيش، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور، تعهد فيها جودفرى بمنع رجاله من القيام بأى عمل تخريبى من أعمال السلب والنهب داخل أراضى الإمبراطورية، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامه. وفي مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بإمداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ومساعدات، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة^(٥).

(1) Grousset : op.cit., I, 12.

(2) Setton : op. cit. I, p. 12.

(3) Albert d'Aix, IV, pp. 299 - 305.

(4) Chalandon : Règne d'Alexis Comnene, p.p. 164 - 165.

(5) Albert d'Aix, IV, p.p. 299 - 305.

وعلى أساس الإتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطيء بحر مرمرة حيث توقفوا للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر ١٠٩٦. على أنه حدث فى ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفرى، وفقدوا روح النظام التى تحلوا بها حتى ذلك الوقت، فقام رجال جودفرى بنهب سليمبريا^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الدور هو تحديد الجانب القانونى للعلاقة بينه وبين الصليبيين. فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً على الغرب الأوربي، فى حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع. وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطى أن يتصور حملة جودفرى بوايون فى صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة ضد المسلمين، لنصرة المسيحية وطرده السلاجقة من الأراضى التى احتلوها فى آسيا^(٢).

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطئ البحر المتوسط فى القرن السابع، والدولة البيزنطية فى صراع ضد المسلمين لا يكاد يهدأ قليلاً حتى يشتد طويلاً. ومنذ توسع السلاجقة فى الشرق الأدنى، والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع. وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية - وليس الغرب الأوربي - هى التى تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة فى الشرق ومحاولة استردادها من المسلمين طوال عدة قرون، فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطى رئاسة الجيوش الصليبية التى أخذت تفد من الغرب الأوربي منذ أواخر القرن الحادى عشر لمحاربة المسلمين وبعبارة أخرى لا أقل من أن يدخل الأمراء الصليبيون تحت لواء الإمبراطور البيزنطى^(٣).

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفرى بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر على رأس مجموعة من النورمان لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطى. وكل ما هنالك هو أن جودفرى جاء أكثر قوة وعتاداً من سلفه رسل باليل، مما جعله يبدو أعظم نفعا للإمبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها. وفى الوقت نفسه أدرك

(1) Idem, p.p. 304 - 305.

(2) Brehier : op. cit., p. 310.

(3) Grousset : op.cit., I, p. 16.

ألكسيوس أن قوة جودفري من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحتها^(١). ولعل الدرس الذي أخذته الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نسيتَه بعد عندما وصل جودفري بوايون على رأس جيوشه إلى أراضي الإمبراطورية في أواخر القرن الحادي عشر. لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل، وبدأ يتصرف تجاه جودفري في شيء من الحزم، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور، بمعنى أن يقسم القائد الصليبي على أن يكون تابعا للإمبراطور البيزنطي في الأراضي الآسيوية التي عساه ينجح في استردادها من المسلمين^(٢).

هذه هي وجهة نظر الإمبراطور ألكسيوس كومنين. ويبدو أنه لم يستهدف أي هدف آخر عدا إقناع جودفري بالولاء للإمبراطورية ورد الأراضي التي يستردها من السلاجقة في آسيا. وهذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى. وكان الإمبراطور ألكسيوس - عندما سمع بما فعله الصليبيون في سليمبريا - قد أرسل إلى جودفري طالبا منه ردع قواته عن الذهب، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية، فحضر جودفري على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة في ديسمبر سنة ١٠٩٦، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفري مرحباً داعياً إياه لمقابلته، ليقسم له يمين الولاء^(٣). على أن جودفري بوايون رفض تلك الدعوة، لأنه بحكم مركزه في الإمبراطورية المقدسة، وبحكم تبعيته للإمبراطور الغربي كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للإمبراطور البيزنطي^(٤). وكيف كان يستطيع أمير إقطاعي أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنري الرابع في الغرب

(1) Chalandon : Première Croisade, p.p. 119 - 121.

(2) Runciman : op. cit., p. 149.

(3) Chalandon : Alexis Commene, p. 179.

(٤) أشار ابن الأثير إشارة سريعة إلى مانشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطي، واشترط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحونه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء. فقال في حوادث سنة ٤٩١ هـ : (فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا إلى البر فيكون أسهل عليهم. فلما وصلوا إليها، منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده، وقال. لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا أنكم تسلموا إلى أنطاكية) (الكامل : حوادث سنة ٤٩١ هـ).

(4) Runciman, op. cit., 1 p.p. 140 - 150.

والامبراطور الكسيوس كومتين في الشرق، مع ما بين الامبراطوريتين من تنافر ؟ وأخطر من هذا، كيف يستطيع جودفرى - وهو الأمير الكاثوليكي الذي وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثاني رأس الكنيسة الكاثوليكية - أن يقدم ولاءه للإمبراطور البيزنطي حامى الكنيسة الأرثوذكسية، مع ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى في عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي^(١). لذلك أخذ جودفرى يماطل في تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب. فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطي ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه. هذا وإن كانت بعض المصادر تعال تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور وأنه طلب رهائن تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالماً، وهو الطلب الذي اعتبره الإمبراطور إهانة له وماساً بشرفه^(٢).

وعندما ضاق الكسيوس بتسويق جودفرى، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين، فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحي المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره^(٣). وفي الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالأقامة في ضاحية بيرأ Pera - من ضواحي القسطنطينية - حتى يحتموا من قسوة الشتاء من ناحية، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى^(٤).

على أن هذه الإجراءات من جانب الكيسوس لم تحل المشكلة، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابلاً مع جنوده في بيرأ، ورفض أن يؤدي يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي أو حتى يقبل دعوته لمقابلته. وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند في طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا، فكر في إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين، فمنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى (أوائل إبريل سنة ١٠٩٧) مما أدى إلى صدام جديد بين

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 281.

(2) Brehier, op. cit., p. 311.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 178 - 179.

البيزنطيين والصليبيين. وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين في بيرا ، وبعد ذلك انسحبت قوات جودفري منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيثُ فساداً في المناطق القريبة من القرن الذهبي، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها (١). وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم، ففر رجال جودفري ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطي. وهكذا أدرك جودفري بوايون حقيقة قدر نفسه ولم يجد بداً من مسالمة الإمبراطور (٢).

وأخيراً اضطر جودفري بوايون إلى قبول شروط ألكسيوس كومنين، فقصده القصر الإمبراطوري لتقديم ولاءه للإمبراطور البيزنطي، وإعلان وضع حملته الصليبية في خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضي التي اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية (٣). وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفري بوايون بتسليم الإمبراطور جميع الأراضي التي كانت ملكاً للإمبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت، والتي سيستردها الصليبيون من السلاجقة. ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة في الأناضول مثل نيقية، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة في أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها. وهكذا جاءت تلك الاتفاقية التي تمت في إبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتمسك بها في المطالبة بحقوقها قبل الصليبيين طوال القرن الثاني عشر. وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة في ضوء ما كان للأمبراطورية من ممتلكات في القرن الحادي عشر - على عهد باسل الثاني - وإنما في ضوء ما كان للإمبراطورية قديماً من أملاك واسعة في الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان. وفي تلك الحالة لم تكف الإمبراطورية بالمطالبة بحقوقها في أنطاكية والرها وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس. على أننا سنرى أن الصليبيين ما كادوا يثبتون أقدامهم في تلك المدن ويستولون عليها، حتى تناسوا كل ما للأمبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكل طويلة بين الجانبين طوال القرن الثاني عشر (٤).

ومهما يكن من أمر، فإن يمين الولاء الذي أقسمه جودفري بوايون جعل منه - ولو من الناحية الأدبية الشكلية - تابعاً للإمبراطورية البيزنطية. وكان أن

(1) Albert d'Aix, p.p. 307 - 308.

(2) Runciman : op. cit., I, p. 151.

(3) Guillaume de Tyr, I, p.p. 87 - 88.

(4) Grousset : op. cit. I, p. 19.

غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفري بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة، كما غالى في إمداد الجيش الصليبي بالإمدادات السخية^(١). وفي عاشر إبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين ينقل جودفري وجيشه الى الشاطيء الآسيوى حيث انتظر جودفري وصول الحملة النورمانية. ولم يكد يتم نقل جيش جودفري إلى البر الآسيوى حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية. وبذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح في تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين - حملة جودفري وحملة بوهيموند - أمام أسوار عاصمته، ليتمكن من إملاء شروطه على كل فريق علي حدة^(٢).

بوهيموند النورمانى وألكسيوس كومنين :

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى - أكبر أبناء روبرت جويسكارد - يحاصر مدينة أمالفى فى جنوب إيطاليا، وكانت قد ثارت ضد النورمان فى إيطاليا. وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشا غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس^(٣). ولم يكد بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة، وبصحبه ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية. وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية فى أفلونا Avlona على شاطيء ألبانيا، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية^(٤).

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفري. فهل حقيقة أن الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت محاربة المسلمين ؟ أم أن لها أغراضاً وأهدافاً وأطماعاً أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى العدوان على الامبراطورية البيزنطية، فضلاً عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى مازالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين^(٥). هذه هى المخاوف

(1) Michaud : Hist. des Croisades, I, p. 176.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.

(3) Setton : op. cit., p. 155.

(4) Runciman : op. cit. I, 155.

(5) Cam. Med. Hist vol. vol. 5 p. 282.

التي أثارته حملة بوهيموند في نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية، وهي مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها، لأن بوهيموند نفسه كان يدرك تماماً عدم مناسبة الظروف والوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية في البلقان، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان في جميع أنحاء العالم المسيحي وستسيء إلى النورمان إساءة بالغة. وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى في الحروب الصليبية في الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه، وهو إقامة إمارة للنورمان في الشرق على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً، ولتكن هذه الإمارة الجديدة في أنطاكية (١)!

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية. وفي أثناء سيرهم في البلقان نجح بوهيموند في كبح جماحهم، فمنعهم من الاعتداء على الأهالي وأموالهم، بل علي العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداوتهم للنورمان، في الوقت الذي قابل بوهيموند تلك الإساءات بشيء من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية (٢). وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند في كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين، الذي أمر بامداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية (٣).

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية في إبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الإمبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة، فوافق الإمبراطور علي شرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها. والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين في نظر الإمبراطور البيزنطي، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التي عانتها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب، وإنما أيضاً بسبب كفاية قوات بوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبية يعمل لها حساب داخل أراضي الدولة البيزنطية (٤).

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق، إذ أطاع بوهيموند رغبة الإمبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده، تاركاً قيادة

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 21.

(2) Chalandon : Première Croisade, p.p. 133 - 136.

(3) Gesta Francorum, p.p. 20 - 21.

(4) Runciman : op. cit., I, p. 157.

الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد. والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة فى ذلك الدور، إذ كان يدرك قوة الإمبراطورية البيزنطية، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم فى الشرق، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين، فى حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين. هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الإمبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه فى الشرق، وهى الأطماع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية، وفى إنشاء مملكة لبوهيموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد، من ناحية أخرى (١).

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والإمبراطور الكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم. وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للإمبراطور وأعلن تبعيته له، فغمره - هو الآخر - بالأموال والهدايا الثمينة. ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحد من أطماع بوهيموند ونشاطه فى الشرق، لأنه سيفتح ما يفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى، فإن بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله، فطلب من الكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى إقليم أنطاكية. وهنا لى الإمبراطور طلب بوهيموند، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوماً وعرضها مسيرة ثمانية أيام (٢). وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية، وهى الامارة التى صار لها شأن كبير فيما بعد فى تاريخ الصليبيين بالشام.

أما ما طلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائداً عاماً للقوات الإمبراطورية فى آسيا، فإن الكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه فى الصليبيين عامة والنورمان خاصة. ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت فى ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته (٣).

(1) Chalandon : Première Croisade, p. 132.

(2) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.

(3) Brehier : op. cit., p. 311.

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير ما يرام، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطيء الآسيوي في ٢٦ أبريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفري بوايون. هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية - وبخاصة ريتشارد دي سالرنو وتنكرد - تجنبوا قسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور^(١).

ريموند دي تولوز وألكسيوس كومنين :

أما الجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروفانس، فقد وصلت إلى الأراضى البيزنطية فى الوقت نفسه تقريباً الذى شهد وصول حملة النورمان. وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس. ولما كانت البابوية تطمع دائماً فى الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية، فقد أوفد البابا مع ريموند الأسقف أدهمار - أسقف بوى - ليكون مندوباً يمثل البابوية فى زعامة الصليبيين بالشرق^(٢). وقد بارحت الحملة الغرب فى أكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية، دون أن تصادف عقبات كثيرة فى الطريق فيما يختص بأمور التمويل. وكل ما هناك هو أن الأهالى فى الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحياناً شعور العداء تجاه الصليبيين، لاسمياً وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لا يترددون فى ردعهم^(٣).

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور الكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده فى العاصمة، فتمت المقابلة فى أواخر إبريل سنة ١٠٩٧، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلاً فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية، فوجد ريموند نفسه فى مركز لا يحسد عليه. ذلك أنه كان يطمع فى الحصول على زعامة الصليبيين جميعاً فى الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقة المندوب البابوى لحملته، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقة. ولكن هذه الزعامة التى اعتمدت على تأييد البابوية لا

(1) Cam. Med. Hist. vol, 5, p. 281.

(2) Lorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p.p. 24 - 25.

يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، راعى الكنيسة الأرثوذكسية. هذا إلى أن ريموند كان يرى في بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول. فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا في اكتساب صداقة الإمبراطور البيزنطي وتأبيده، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم ويمين الولاء للإمبراطور هو أنه سيضطر في المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند، وهو مالا يمكن أن يقبله^(١). لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الإمبراطور، وقالها في صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح^(٢) ثم إن ريموند استنكر أن يدخل في تبعية الإمبراطور، في حين يظل الأخير قابعا في القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين في محاربة المسلمين. لذلك أعلن ريموند أنه مستعد لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطي إذا خرج الإمبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم في الحرب الصليبية^(٣).

وسرعان ما تأزم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة أخرى، مما أنذر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين. وهنا تدخل جودفري بوايون، وقال لريموند أنه من الحماسة أن يفكر في شن الحرب على المسيحيين في القسطنطينية، في الوقت الذي يربط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من نيقية^(٤). أما بوهيموند النورمانى الذي كان قد سوى أموره مع الإمبراطور، فقد أعلن في صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين في حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين. وأخيراً اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطي. حقيقة إن ريموند أبى بناتاً أن يقسم ويمين الولاء والتبعية للإمبراطور، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الإمبراطور وشرفه، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسيء إلى الإمبراطور^(٥).

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الإمبراطور البيزنطي وريموند بفضل وساطة أدهمار المندوب البابوي^(٦). هذا إلى أن ريموند أتيجت له فرصة عقد اجتماع منفرد مع ألكسيوس كومنين، وفي ذلك الاجتماع صرح الإمبراطور

(1) Runciman : op. cit. I, p. 163.

(2) Raymond d'Aigles : Hist. Occid. III, p. 238.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

(4) Raymond d'Aigles, p. 238.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

(6) Setton : op. cit. I. p.p. 287 - 288.

بتخوفه من بوهيموند والنورمان، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية في آسيا. وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الإمبراطور طاب قلباً وهدأ نفسياً، وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد في الإمبراطور البيزنطي حليفاً قوياً ضد بوهيموند وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الإمبراطورية البيزنطية تبديلاً تاماً^(١).

الحملة الفرنسية وألكسيوس كومنين :

وأخيراً وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على شاطئ البسفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمانديا - وهو ابن وليم الفاتح - ، وصهره إتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر^(٢). وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثاني، استقلت السفن من برنديزي إلى البلقان في أوائل إبريل سنة ١٠٩٧، حيث أرسى في دورازو ومنها اخترقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن الكسيوس كومنين لم يصادف من تلك الحملة متاعب وصعوبات مثلما صادف من الحملات السابقة^(٣). ولم يمانع زعيما هذه الحملة - كونت نورمانديا، وكونت بلوا - مطلقاً في أن يقسما يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي، ولذا حرص الإمبراطور على أن يغدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإنعامات فضلاً عن الأموال والخيول المطهمة^(٤). وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين في القسطنطينية، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا في اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلاً في حصار نيقية^(٥).

(1) Runciman : op. cit. I. p. 164.

(2) Michaud : Hist. des Croisades, I, p. 178.

(3) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 331 - 332.

(4) Chalandon : alexis Comnene, p.p. 188 - 189.

(5) Brehier : op. cit., p. 312.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى - باستثناء ريموند وتنكرد - يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى أنطاكية . وفي مقابل ذلك تعهد الإمبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين في مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره في الحرب الصليبية ، وأن يمدّهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصياً^(١) . ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى ، تم إبرامها في سنة ١٠٩٧ بين الإمبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند ، الذي كان يحاول الظهور دائماً في صورة الرجل الأول بين أمراء الحملة الصليبية الأولى والحليف الرئيسي للإمبراطور البيزنطي^(٢) .

وأخيراً تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي ، حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسي لقلج أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة مما يهددهم ويهدد خطوط مواصلاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية بخطر جسيم ، لذلك صدرت الأوامر إلى الصليبيين في أواخر إبريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الإمبراطور البيزنطي الصليبيين بآلات الحصار والسلاح والمؤن ، ولكن لم تشترك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية في حصار نيقية ، وهي المدينة القوية التحصين^(٣) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27 .

(2) Chalandon : Alexis Comnene, 188 .

(3) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 285 .

فى ذلك الوقت كان قلع أرسلان متغيباً عن نيقية ، حيث دخل فى نزاع فى كبادوقيا مع التركمان من بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلع أرسلان لم يهتم كثيراً بأنباء الغزو الصليبي ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من نوعية أتباع بطرس الناسك الذين سبق أن قضى عليهم السلاجقة فى سهولة تامة^(١) . هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطى وجواسيسه أعطوا قلع أرسلان صورة مبالغ فيها عن الخلافات المستحكمة بين الإمبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقى يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها^(٢) .

ولكن قلع أرسلان لم يلبث أن أدرك خطورة الوضع ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك فى المرة السابقة ، فأرسل قواته على عجل للدفاع عن نيقية وإنقاذها . على أن تلك القوات لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان ، لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية فى ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع^(٣) . ثم كان أن حضر السلطان قلع أرسلان نفسه فى حوالى ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعد معركة قصيرة غير موفقة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة فى تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضاً . ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم روحاً جديدة^(٤) .

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولاً صغيراً من السفن إلى البحيرة التى تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات^(٥) . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلع أرسلان بدأت تفكر فى الاستسلام . ولكن أهل نيقية من الأتراك المسلمين خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الإمبراطور البيزنطى لعله

(1) Setton : op. cit I, p.p. 288 - 289 .

(2) Runciman, op. cit. I. p.p. 176 - 177 .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 29 .

(4) Albert d'Aix, p.p. 320 - 321 .

(5) Gesta Francorum, p. 37.

يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا في الوقت الذي كان ألكسيوس كومنين متخوفاً من نوايا ريموند وتتكرد - بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية - وخشى أن يعارض هذان الأميران في تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو أن يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتخريب والتدمير^(١) . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطي بسرعة وفاوض حامية نيقية سراً على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجئ الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئاً عن المحادثات السرية التي دارت بين حامية المدينة من ناحية والإمبراطور البيزنطي من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية في ٢٦ يولية سنة ١٠٩٧ ، أي بعد ستة عشر عاماً من احتلال السلاجقة لها^(٢) .

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطي تجاه أسرى نيقية ، إذ ضايقهم تسامح الإمبراطور مع الأسرى المسلمين واستعداداه لإطلاق سراح زوجة قلع أرسلان وأولاده دون فدية . وكان الإمبراطور ألكسيوس - من واقع تجاربه وسابق معاملاته العديدة مع المسلمين - يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية^(٣) .

وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين إلى دعوة زعماء الحملة الصليبية - غداة الاستيلاء على نيقية - للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل في آسيا الصغرى . وفي ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء للإمبراطور . وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الإمبراطور والاستجابة له ، في حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء للإمبراطور^(٤) . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين - باستثناء تنكرد وريموند - أدركوا أهمية الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم في مشروعهم الخطير^(٥) . حقيقة إن الإمبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على قونية ، ولكنه أمدهم بفرق محدودة من الجيش البيزنطي لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلاً عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم . وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين تقاسموا مهمة محاربة

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 190 .

(2) Brehier : op. cit., p. 312 .

(3) Runciman, op. cit., p. 180 - 182 .

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193 .

(5) Chalandon : Première Croisades, p. 167 .

الأتراك في الأناضول . فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة السلاجقة في جوف آسيا الصغرى ، أى فى إقليم فريجيا واختاروا الزحف على ضورليوم وقونية ، إذا بالإمبراطور ألكسيوس كومنين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى أى من أقاليم Mysia وأيونيا وليديا ^(١) .

وخلاصة القول أنه مهما يقال فى استياء الصليبيين من مسلك الإمبراطور البيزنطى - سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم ، أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين - فإن سقوط نيقية نفخ فى الصليبيين روحا وعزيمة شجعتهم على المضى قدما فى طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون ^(٢) . ثم إن الغرب الأوربي قابل أنباء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجماً عن المشاركة فى الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم فى طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفاً حذراً من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جدية جعلتها تسهم إسهاما فعليا فى تلك الحرب حتى تفوز بقسط من المكاسب ^(٣) .

موقعة ضورليوم والاستيلاء على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا مسيرتهم عبر فريجيا فى أواخر يونيه سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على جيوب سلاجقة الروم فى أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ، فسارت إحدى الشعبتين فى الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيا فى ضورليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعاً ، أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت ، فى حين كان على رأس الشعبة الثانية المندوب البابوى أدهمار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 31 .

(٢) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا تتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولدة محددة .

"Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 285"

(3) Runciman : op. cit. I, p.p. 182-183 & Setton : op. cit. I, p. 201 .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه فى مأزق خطير^(١). ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من المسلمين فى آسيا الصغرى - وهما البيت السلجوقى من الأتراك وبنو دانشمند من التركمان - يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلع أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت قوى المسلمين فى آسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين فى سهل ضورليوم (٣٠ يونية) وعندئذ وجد بوهيموند نفسه فى خطر محقق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول^(٢). وسرعان ما أدى وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، إلى تغيير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذ دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولاتخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذ جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة الأتراك السلاجقة^(٣).

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب قسوة الطبيعة وصعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ، ولم يجدوا ما يحمل متاعهم وأثقالهم^(٤). ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين فى زحفهم حتى وصلوا أخيراً - حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ - إلى سهل قونية الغنية بكلها وشجرها .

ولم ير الصليبيون مايدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التى وضعها قلع أرسلان عقب الكارثة التى حلت بجيوشه فى ضورليوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ، اللهم إلا من

(1) Albert d'Aix, p.p. 328-329 .

(2) Guillaume de Tyr. I, p.p. 129 - 130 .

(3) Grousset : op. cit., I, p. 35 .

(4) Gesta Francorum, p. 55.

بعض الأرمن الذين قدموا النصيح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقدموا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقة^(١).

وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عند هرقة ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل^(٢). وبعد أن أستراح الصليبيون بضعة أيام قليلة في هرقة انقسموا إلى شعبتين ، فانشق تنكرد ومعه بلدوين - شقيق جودفري بوايون - واتجهوا في حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، فى حين اتخذ بقية الصليبيين - وعلى رأسهم المندوب البابوى وجودفري نفسه وبوهيموند وريموند - طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التى استولوا عليها فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧^(٣). ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى ، فاستولوا فى أوائل أكتوبر على بلاكنتيا - وهى قلعة أرمينية فى جبال طوروس ذات موقع هام - كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطى المرافق للصليبيين تسليمه تلك القلعة باسم الإمبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للإمبراطور حتى تلك المرحلة^(٤).

وبعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياح الأرمينية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصداقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل جبال طوروس العالية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية فى تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية^(٥). ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصى شرقى أنطاكية فى ٢٠ أكتوبر ، وبذلك بدأ الغزو الصليبي للشام^(٦).

وقبل أن نتتبع الغزو الصليبي للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الإمبراطور ألكسيوس كومنين فى استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد وبلدوين البولونى فى قيليقية وإقليم الرها .

(1) Gesta Francorum, pp. 55-57 .

(2) Setton: op. cit., vol. I, p. 295 .

(3) Gesta Francorum, p. 61 .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 38 .

(5) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 287 .

(6) Michaud : op. cit., p.p. 237 - 239 .

حملة ألكسيوس كومنين في أيونيا وفريجيا :

لاشك في أن سقوط نيقية عاصمة قلع أرسلان ، ثم هزيمة قلع أرسلان نفسه في موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كانا بمثابة طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها في الأناضول . وكما أن سقوط نيقية في أيدي السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم في سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ، فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الإمبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربي من الأناضول برمته ^(١) .

وعندما أوغل الصليبيون في قلب دولة قلع أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وجد صغار الأمراء الأتراك على شاطئ بحر إيجه - مثل أمير أزمير وأمير إفسوس - أنفسهم مقطوعين عن الدولة السلجوقية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلاً ^(٢) . ولاشك في أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذي أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشاً يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازياكس Kaspax ^(٣) . كذلك صحبت ذلك مجموعة من أسرى السلاجقة في نيقية ، وبصفة خاصة زوجة السلطان قلع أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحاً كبيراً ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس ^(٤) .

وفي ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . وبعد أن نجح القائد البيزنطي في إسترداد تلك الجهات حتى أنطاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقي حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور البيزنطي قد احتل بثنيا التي أخلاها الأتراك عقب موقعة ضورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربي من الأناضول (يونية ١٠٩٨) . ولم يبق أمام الإمبراطور ألكسيوس سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية ^(٥) .

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية في إسترداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهي نتيجة لها من الأهمية

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 41 .

(2) Chalandon : Alexis Comnene , p. 195 .

(3) Runciman : op. cit. I, p. 194 .

(4) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 196 - 198 .

(5) Brehier, op. cit., pp. 312 - 313 .

التاريخية مالا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدي الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ماكانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ماصارَت إليه سنة ١٠٩٨ ففي سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرة والبسفور ، فى حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما فى سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من أقاليم بثنيا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش فى ظلها من جديد مدة ثلاثة قرون ونصف . ويكفى للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم يجد الكيان البيزنطى والحضارة البيزنطية اليونانية والتراث البيزنطى مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التى تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تثار بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ (١) .

(1) Grousset : Hist, des Croisades, I, pp. 41 - 43 .

الفصل الرابع

تأسيس إمارة الرها الصليبية

النزاع بين تنكرد وبلدوين البولوني حول قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولوني - أخو جودفري بوايون - ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى - أن ينفصلا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة (١).

والواقع أن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حبا للمخاطرة والمجازفة، حتى أن الحرب الصليبية كانت فى نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق. وقد رأى هذان الزعيمان أنه من الخطأ إتخاذ الطريق الطويل حول كابادوقيا مارين بقيصرية ومرعش، لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها مبرر إلا الرغبة فى تنفيذ الإتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماماً فى الأناضول، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التى عرفت فيما بعد اسم «أرمينية الصغرى» التى كانت تسكنها عناصر مسيحية، والتى تقع فى الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى.

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين، ومن ثم كان حراً فى تصرفاته (٢). ويبدو أن بلدوين البولوني شارك تنكرد فى كثير من آرائه ووجهة نظره، ومن ثم تجنب الاثنان طريق كابادوقيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبة التى كانت دائماً موضع نزاع بين زعماء الأرمن فى طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى، بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها فى تلك المنطقة (٣).

(1) Chalandon : Première Croisades, p. 172.

(2) Setton : op. cit. I, p. 296.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

وكان إقليم قيليقية، الذي طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين، قد عمرته هجرة أرمنييه ضخمة في القرن الحادي عشر، عندما اضطرت جموع غفيرة من الأرمن - أمام غزو السلاجقة - إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان في أواخر القرن الحادي عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية. ولم يلبث أن صار ذلك الإقليم فيما بين سنتي ١٠٧٧، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس - المغامر الأرمني الذي سبق الكلام عنه - والذي استطاع أن يؤسس أول دولة أرمنية في تلك المنطقة^(١). ويسقط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة أن يخضعوا الجزء الأكبر من سهول قيليقية، وبخاصة مدينتي المصيصة وطرسوس. ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن من الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال طوروس. ومن هؤلاء روبان Roupen الذي كان من رجال كاكج الثاني آخر ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالي سنة ١٠٨٠ داخل جبال طوروس إلى الشمال الشرقي من سيس. وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول (١٠٩٢ - ١١٠٠) الذي استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة نفوذه في جميع أنحاء قيليقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال طوروس في تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير في تاريخ أرمنييه الصغرى ؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه^(٢).

وعلى هذه الصورة وجد تنكرد وبلدوين البولوني قيليقية عند وصولهما إليهما في أواخر سنة ١٠٩٧، وبصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا لهما مهمة الزحف^(٣). وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين في قيليقية من العوامل الرئيسية التي سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولوني، لأن معظم سكان المدن والقلاع في ذلك الإقليم - كما لاحظ المؤرخ الصليبي وليم الصوري - كانوا من الأرمن، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للأتراك وبها حاميات تركية^(٤).

لذلك كان أول ما فعله تنكرد عندما شرع في حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن (٢١ سبتمبر سنة ١٠٩٧). ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولوني قد أفزع حامية المدينة التركية، فانتهزت

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

(2) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p.p. 88 - 91.

(3) Kaoul de Caen : (Hist. Occid., Tome III) p. 634 & Albert d'Aix : (Hist. Occid) IV, p. 183.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 140.

فرصة الليل وفرت منها، وعندئذ أسرع سكان المدينة - من الأرمن والبيزنطيين - إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم. وللمرة الأولى تردد تنكرد في تسليم طرسوس لمندوبى الإمبراطور البيزنطى - أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت فى كافة المدن التى استولوا عليها - لأن تنكرد كان يطمع فى فتح قيليقية لحسابه الخاص، لاسيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية (١).

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية، بدأت تظهر فى وضوح أطماع الأمراء فى تأسيس إمارات خاصة بهم فى الشرق. من ذلك أن بلدوين البولونى عز عليه أن يتفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هو نحو إقامة إمارة لنفسه فى مدينة الرها. على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح فترك طرسوس واتجه صوب أذنه (٢). وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من أتباع تنكرد قد تخلفوا عند طرسوس، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدهم بالزاد، وأجبرهم على المبيت فى ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلهم عن آخرهم (٣). وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولونى وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك.

على أنه مما دعم نفوذ بلدوين فى تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطئى قيليقية، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين، معظمهم من الأراضى المنخفضة بزعامة ونمار البولونى Winemar of Bologne - وهو قرصان محترف - قدم لبلدوين البولونى ثلثمائة جنديا لمساعدته، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد فى الاستيلاء على الاسكندرونة (٤) أما تنكرد فكان فى تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه، ومنها إلى المصيصة التى كانت فى قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الأرمن (أوائل أكتوبر ١٠٩٧) (٥). وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة وبلدوين البولونى من جهة أخرى، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد فى

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 41.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 288.

(3) Albert d'Aix, (Hist Occid) IV, p.p. 346 - 347.

(4) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.

(5) Cam. : Med Hist. vol. 5, p. 288.

الاستيلاء عليها^(١). ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن، فأغلق أبوابها في وجه بلدوين الذي اضطر إلى المرافقة بقواته خارجها. وكان أن حدث صدام بين القوتين، ولكنه انتهى بالصلح السريع^(٢).

وهنا نؤكد مرة أخرى أن الصدام بين تنكرد وبلدوين البولوني إنما كان يحمل بين طياته معنى خفياً، هو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم في الشرق^(٣). ولكن المفروض - حسب الاتفاقية المعقودة بين الإمبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين - أن تسلم قيليقية للإمبراطورية، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون في المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث في قيليقية - وهي طرسوس وأذنه والمصيصة - سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية. وحوالي سنة ١١٠٠ أرسل الإمبراطور الكسيوس كومنين قوة تسلمت المدن الثلاث السابقة. وإذا كان تنكرد قد استولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوها سنة ١١٠٤^(٤) وهكذا استمر الحال حتى أدى النزاع بين الزعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، وهي مملكة أرمينية الصغرى.

بلدوين البولوني وأمراء الارمن في طوروس والجزيرة :

لم يستطع بلدوين البولوني أن ينفذ في قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ؛ ولكنه ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفري بوايون وبقية الجيش الصليبي الكبير عند مرعش. ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين علي أنطاكية، ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة في البلاد الأرمينية^(٥).

والملاحظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن في القرن الحادي عشر قد غيرت وجه قيليقية، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً في الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات، أي في الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين

(1) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p.p. 172 - 173.

(2) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 28.

(3) Setton : op. cit., vol. I, 296.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 221 - 223.

(5) Albert d'Aix : (Hist. Occid) III, p. XXVII.

تاب وتل باشر والرها. على إنه لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الأرمنية التي أقامها فيلاريتوس والتي سبق أن أشرنا إليها، حتى إذا ما سقط فيلاريتوس، حل محله في تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه^(١) وفي ذلك الميدان صمم بلدوين على أن يعمل، لاسيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجيء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم مما يلاقونه من ضغط القوى الإسلامية المحيطة بهم. وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجاه بلدوين إلى تلك المنطقة الأرمنية لم يكن اعتباطاً وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمنية فيها واتصال بعضهم ببلدوين أثناء وجوده في قيليقية، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع - قبل ذلك بعشرين سنة - لطلب مساعدته، عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر في إرسال حملة لمساعدة المسيحيين في الشرق^(٢). ولا أقل من أن تلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن، في تلك المنطقة الممتدة من شمال الشام إلى شمال الجزيرة، لنذكر الأساس الذي قامت عليه أولى الإمارات الصليبية في منطقة الشرق الأدنى.

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس، واسمه جبريل. وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين جنسه الأرمنى والمذهب الارثوذكسى البيزنطى (مذهب الروم الأرثوذكس)^(٣). على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحي، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول في تبعية السلطان السلجوقى والخليفة العباسي. ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية، وعادت الزوجة وهى تحمل لزوجها تأكيداً بضمان بقائه في إمارته^(٤). ثم أن جبريل لم يتردد في مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته. من ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، وعندئذ أبى جبريل فى إصرار تسليم

(1) Grousset : L'Empire du Levant; p.p. 182 - 183.

(2) Runciman : op. cit I, p.p. 202 - 203.

والمعروف أن الأرمن لهم كنيسة مستقلة قائمة بذاتها لا ترتبط بأية كنيسة أخرى في الشرق أو الغرب. وقد خرجت هذه الكنيسة على قرارات مجمع خلقونية سنة ٤٥١ الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة.

(3) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tome, I, p. 437.

(4) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.

مدينته . وإذا كان السريان في ملطية قد أظهروا دائماً عداءاً للحكم البيزنطي الأرمني ، حتى أن حنا سعيد زعيم السريان في ملطية اتصل فعلاً بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا في أوائل يوليو سنة ١٠٩٦ (١) . وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلع أرسلان في نيقية وضوريوم وغيرهما ، فخف ضغط السلاجقة مؤقتاً عن ملطية ليهدها خطر المسلمين من ناحية أخرى ، هي ناحية التركمان من بني دانشمند في سيواس . ذلك أن صاحب سيواس - الملك غازي كمشتكين - لم يلبث أن انتهز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازي يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالباً المساعدة .

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لمندوبى الإمبراطور البيزنطي بعد أن خلصوها من الأتراك في أكتوبر سنة ١٠٩٧ على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن المدينة أرمنية قلباً وقالياً ، من ثم رأى أن يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثاتول Thatoul الذي ظل يحكم مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤ (٢) .

وفي شرقي مرعش ظهر مغامر أرمني آخر - هو كوغ باسيل - الذي بسط سيادته على قلعتي كيسون (كيسوم) ورعبان ، قرب بهسنا . وكوغ باسيل هذا أخو باكراد الذي رافق بلدوين البولوني بعد نيقية (٣) ، والذي وجه نظره نحو تلك المنطقة الأرمنية . ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع ومكانة خاصة في تلك المنطقة (٤) .

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمني آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم الذي كان أيضاً من رجال فيلاريتوس . وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد خضعت للسلاجقة فترة عصيبة من تاريخها عندما منحها السلطان ملكشاه للأمير بوزان سنة ١٠٨٧ . على أن النزاع الذي استحكم في تلك الفترة بين أمراء السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها ١٠٩٥ ؛ وإن كان قد تجنب

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 50.

(2) Chalandon : Les comnènes, II, p. 105.

(٣) يذكر ابن العبري أن كوغ باسيل معناها "اللس باسيل لأنه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها الأرمن إلى الآن" (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .

(4) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

الدخول في صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم، ولو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال^(١). وفي الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعي في حكم الرها هو الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي^(٢). ومع كل ذلك فإن الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى.

هذا من ناحية الأرمن، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضاً كانوا في حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن في تلك المنطقة. وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى أمام الصليبيين، لاسيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلاً من الأرمن المسيحيين، رغم تفوق الأتراك الحربي والسياسي في تلك الجهات^(٣). وكانت هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحاً في منطقة تل باشر - علي الطريق بين الرها وأنطاكية - وفي منطقة الرواندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية. وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد - الرفيق الأرمني لبلدوين البولوني - أن يوجهه عندما ترك الأخير مرعش^(٤).

بلدوين البولوني والرها :

إستطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدماً كبيراً، وأن يستولي على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمني الذي كانت له السيادة في تلك الجهات، والذي نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين^(٥). وهكذا لم يصادف بلدوين البولوني صعوبة في الاستيلاء على تل باشر والرواندان، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى. وقد أراد بلدوين أن يكافئ رفيقه الأرمني باكراد، فمنحه حكم الرواندان، ولكنه عاد وتشكك في ولاء باكراد له فاعتقله^(٦).

وفي تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين في الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة، فأرسل إلى بلدوين يدعو للحضور إلى

(1) Guibert de Nogent. III. p. 156.

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm) I, p. 35.

(3) Guillaume de Tyr : I, p. 123.

(4) Stevenson : op. cit., p. 23.

(5) Ibid.

(6) Michaud : op. cit. I, 228.

الرها لمساعدته (فبراير ١٠٩٨) . وكان ثوروس رجلاً مسناً، ليس له ولد يرثه في إمارته، فخشى أن تضيق الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون ^(١) . وزاد من مخاوف ثوروس أن كريغا (كربوقا) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشاً كبيراً لإنقاذ أنطاكية من الخطر الصليبي، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش - هو في طريقه إلى الشام - الرها وغيرها من الإمارات الأرمينية ^(٢) .

ومهما يكن من أمر، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى في نفس بلدوين البولوني، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية، فأسرع إلى الرها في فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوة صغيرة من ثمانين فارساً، واستطاعت تلك القوة أن تغتلب من الوقوع في قبضة حامية سميّساط التركية. وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة، فاستقبلوها استقبالا حافلاً ^(٣) كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمينية والكاثوليكية اللاتينية، مثلما كان بين الكنيسة الأرمينية من ناحية والأرثوذكسية الرومية من ناحية أخرى ^(٤) .

والواقع أن سميّساط - بمن فيها من أتراك - كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمينية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدوين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة، فاستجاب بلدوين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميّساط في النصف الثاني من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين في تلك العملية جيش من الأرمن، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميّساط. وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع، إذا بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن ^(٥) .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولوني من ثوروس أمير الرها في تلك المرحلة، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميّساط

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.) I, p. 35.

(2) Runciman : op. cit., p.p. 203 - 204.

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 36.

(4) Guillaume de Tyr I, p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عندما أشار إلى إمتلاك الصليبيين الرها قال "إنهم ملكوا مدينة الرها مكاتبه من أهلها لأن أكثرهم أرمن، وليس بها من المسلمين إلا القليل"
(الكامل : حوادث سنة ٤٩٤ هـ)

(5) Grousset : op. cit., I, p. 55.

جعل بلدوين يفكر في ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمينية إلى إمارة لاتينية - أرمينية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عندما استنجد ببلدوين هي أن يجعل منه قائداً لجيشه ، وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ، ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه . ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذي يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث في هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين في تل باشر قبل حضوره إلى الرها ، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذه ابناً ووريثاً وشريكاً له في حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه في حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى ^(١) . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلدوين ، فقد انتهى الموقف بأن تبني ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له في حكم الرها ، وتمت مراسم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الأرمينية في القرن الحادي عشر ^(٢) .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمينية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتيني هو البديل الطبيعي للعنصر الأرمني في حكم الرها . على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها . بل لقد نقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي . هذا فضلاً عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالي ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه في جمع الضرائب والأموال من الأهالي الخاضعين له ^(٣) . ولم تلبث أن أتاحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلدوين إليهم ، فقامت ثورة عارمة في الرها في مارس سنة ١٠٩٨ ، وهي الثورة التي انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور في الرها إلى يد بلدوين البولوني .

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن ^(٤) ، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماماً من تهمة المشاركة - ولو بنصيب محدود - في تحريض الثوار ، أو علي الأقل من تهمة التفريط في حياة ثوروس ودمه ، وعدم القيام بواجبه كاملاً في

(1) Runciman : op. cit. I, p. 204.

(2) Guibert de Nogent : (Hist. Occid.,) IV, p. 165.

(3) Michaud : op cit. I, p. 233.

(4) Albert d'Aix, pp. 345 - 356. & Guillaume de Tyr ; I, p. 206.

حمايته . ولا أدل علي صحة هذا الاتهام من سياسة بلدوين في الرها، إذ حرص دائماً على أن يكتسب مكانة شعبية في نفوس الأهالي، فضلاً عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار، بل علي العكس نصحه بالاستسلام^(١). بالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المصادر إلى إتصال المتآمرين علي حياة ثوروس ببلدوين سراً في ليلة من ذات الليالي، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم في المدينة عقب التخلص من ثوروس^(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح بلدوين البولوني سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها. وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه، بل أنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه في الشرق ويحقق أطماعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها. حقيقة أن الرها لم تكن في الأراضي المقدسة ذاتها، ولكن أهميتها في تاريخ المسيحية الأول معروفة^(٣). هذا فضلاً عن أن موقعها في شمال الجزيرة جعل تلك الإمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية في حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أي هجوم يأتي من الشرق.

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصاً على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطي، فتناسى أنه وريث ثوروس الذي ربطته بالامبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة^(٤). ثم إن الظروف التي أصبح فيها بلدوين البولوني سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الإمبراطورية البيزنطية، لأنه تولى مقاليد الأمور في الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة، مما جعله يتحلى من أي قيد يربطه بالعرش البيزنطي، في الوقت الذي كان بلدوين قد أخذ يتحرر فعلاً من التزامات الاتفاقية التي عقدها زعماء الصليبيين في القسطنطينية مع الإمبراطور ألكسيوس كومنين. وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمينية، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمينية.

(1) Runciman : op. cit., I, p. 206.

(2) Matthieu d'Edesse, I, pp. 37 - 38.

(٣) كانت مدينة الرها من أولى البلدان التي قامت بها جالية مسيحية كبيرة في الشرق الأدنى، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية في القرن الثاني للميلاد وأسهمت مدرستها إسهاماً ضخماً في تطور الفكر المسيحي.

أنظر Wand (J.W.C) : AHistory of the Early Church to A.D.500

Ps. 48, 62, 244, 246, 259 f.

Burkit Early Eastern Christianity

(4) Grousset : op. cit., I, p.p. 60 - 61.

وتبدو أهمية ذلك كله في إن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والإمبراطور البيزنطي تم إعدامها فعلاً في الرها قبل أن يستولى الصليبيون على أنطاكية ويدخلوا في نزاع حول ملكيتها مع الإمبراطورية البيزنطية^(١). أما الإمبراطور الكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ في مركز يسمح له بتأكيد حقوقه في الرها، لبعدها عن مركز قوة الإمبراطور، لذلك فضل الكسيوس أن يتغاضى مؤقتاً عما جرى في الرها من أحداث وعن إستقلال بلدوين بها حتى تمكنه الظروف في المستقبل من تأكيد حقوق الإمبراطور في تلك المنطقة بصورة عملية^(٢).

وسرعان ما أحس بلدوين بضرورة القيام بعض الأعمال التي تعلو من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الأرمن، وتضفي على حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والأهمية. لذلك أخذ بلدوين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط، وهي المدنية التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات، مهدداً الرها. وكان أن وفر أمير سميساط التركي على بلدوين عشاء الحرب، إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، فعرض على بلدوين بيعه سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب. ولم يجد بلدوين صعوبة في الحصول على هذا المبلغ، إذا كان في خزانة أمير الرها الراحل - ثوروس - مبالغ طائلة، دفع منها بلدوين الثمن المطلوب واستولى على سميساط. وقد وجد بلدوين في قلعة سميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهائن الأرمن - معظمهم من أبناء الرها - فردهم إلى أهلهم وذوئهم، مما أكسبه شعبية بين أهل الرها^(٣).

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا في إخضاع مركز آخر قريب في الجنوب الشرقي، هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب. وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق، أي أنه انتمى إلى الأراتقة، وهم بيت من التركمان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقي، حيث أسسوا - عدة إمارات في ديار بكر وشمال الجزيرة^(٤). ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التي قامت في الرها، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامراً من نوع رسل باليل، فأرسل إليه يطلب منه المعونة ضد

(1) Runciman : op. cit., I, p. 206.

(2) Setton : op. cit., I, p. 304.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 159.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٧ ، ٢٠٢.

رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال. وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم في تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية. وهكذا استولى بلدوين على سروج، فعزل بلك وضمها إلى أملاكه^(١). ولا شك في أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذا الإمارة الجديدة^(٢).

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة ١٠٩٩، وهي قلعة على نهر الفرات ذات موقع حربي هام، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب)^(٣). على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين كما سنرى فيما بعد.

أما عن سياسة بلدوين في حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التي صارت تتألف منها الإمارة، وبخاصة الصليبيين الغربيين من ناحية والأرمن من ناحية أخرى. وقد ضرب بلدوين نفسه مثلاً لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda، وهي ابنة أحد زعماء الأرمن^(٤). على أنه إذا كانت سياسة بلدوين قد أستهدفت الربط بين العنصرين، إلا أنه من الواضح أن بلدوين نفسه كان حريصاً في الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمني خاضعاً للعنصر اللاتيني الغربي، لذلك جذب بلدوين إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال. ولكن هؤلاء عاشوا بعيدين عن الاختلاط بالأرمن، مما أساء كثيراً إلى شعورهم^(٥). ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية في الرها تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفرادهم بالتجارة والزراعة. حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً – مثلما كان يفعل البيزنطيون – فظل التسامح المذهبي يسود العلاقات بين اللاتين

(1) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV). pp. 356 - 357 . 445 - 446.

(2) أما رواية الأبن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج، فيقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وملك بن بهرام، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكمان) بن أرتق نفسه وهو الذي كان في وقت ما صاحب بيت المقدس. ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركمان ولكنه هزم واستولى الفرنج على سروج، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمها ونهبوا أموالها.

(ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٤ هـ.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 402.

(4) Guillaume de Tyr, p. 402.

(5) Michaud : op. cit. I, p. 235.

والأرمن ولكن سرعان ما استولى الواقدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل في ظل قيود النظم الإقطاعية المعروفة في الغرب الأوربي، فضلاً عن أن الضرائب التي كان يدفعها أهل الرها لم تخف، عما كانت عليه أيام ثوروس^(١).

لذلك لا عجب إذا استاء الأرمن من حكم السادة الصليبيين وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم، فاتصلوا بالأراراتقة سراً للحصول على المساعدة. ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعمائها عقاباً قاسياً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨^(٢).

(1) Runciman : op. cit., I, p. 211.

(2) Albert d'Aix, p. 443, & Guillaume de tyrp. 285.

الفصل الخامس

الحملة الصليبية الأولى

وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفي الوقت الذي كان بلدوين البولوني يعمل في محيط الأرمن بالجزيرة زحف بقية الجيش الصليبي الكبير على الشام قاصداً أنطاكية، وهي العاصمة البيزنطية القديمة لشمال الشام. وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعاً كبيراً في قلوب الأهالي، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادي. وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله إن الصليبيين وصلوا في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها،^(١) وكان الصليبيون قد غادروا مرعش في أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء. ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة أرتاح في الطريق. ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند أمام مدينة أنطاكية في ٢١ أكتوبر^(٢).

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الإمبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمني، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش في فبراير سنة ١٠٨٥. وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تتش، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله من التركمان، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧^(٣). وكان ياغي سيان هذا على درجة من الكفاية السياسية مكنته من اكتساب رضا تتش بعد وفاة ملكشاه، حتى إذا ما توفي تتش ظل ياغي سيان

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤.

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٣١ (مطبوع)

(٣) ذكرته بعض المصادر باسم ياغي بسان ؛ ويقول الدكتور زكي محمد حسن : إن هذا النطق

للإسم هو الأصح (زامباور : معجم الانساب ص ٢٢١)

ومع اعترافنا بجواز هذا الرأي ؛ إلا أننا أثرتنا استخدام الصيغة الشائعة للإسم في غالبية المصادر المعاصرة.

محتفظاً بأنطاكية، دون أن يستطيع ملك حلب - رضوان بن تنش - انتزاعها منه. وهكذا قدر لذلك الأمير التركمانى - ياغى سيان - أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى مسئولية الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين (١).

ولم يكن الشقاق بين ياغى سيان أمير أنطاكية وسيده رضوان بن تنش ملك حلب هو العامل الوحيد الذى سهل مهمة الصليبيين فى شمال الشام ؛ وإنما حدث فى الفترة نفسها التى أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوربا إلى الشرق (١٠٩٦ - ١٠٩٨) أن قامت حرب أهلية بين ابني تنش - رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق - بسبب رغبة الأول فى انتزاع دمشق من أخيه (٢). وكان أن زحف رضوان - يصحبه ياغى سيان - على دمشق لطرد دقاق منها، ولكنه فشل فى ذلك، وارتد عائداً إلى حلب خائباً فى الأمر الذى طلب، (٣) ولم يلبث أن ترك ياغى سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان فى حلب. ولكن دقاق فشل هو الآخر فى هجومه على حلب على الرغم من مساعدة ياغى سيان له (٤).

هذه هى بعض الأحداث التى كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين إليه فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ (٥) ومنها يتبين أن ياغى سيان بخيانتة لسيدته ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي فى أنطاكية. ويقول ابن العديم أن استبداد ياغى سيان وتعسفه أثارا استياء المسيحيين فى شمال الشام وبخاصة فى أرتاح، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم (٦).

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها فى مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية (٧) .. ذلك أن الجبال

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١١١ - ١١٢.

(٢) "وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلاً إلى دمشق ومحبا لها ومؤثراً للعود إليها، ولا يختار عليها سواها، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها". (ابن القلانسي : ١٢١ - ١٢٢).

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٢٢.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(5) Stevenson : the Crusaders, p. 25.

(٦) "وفعل أهل أرتاح مثل ذلك، واستدعوا المدد من الفرنج. وهذا كله لقبح سيرة ياغى سيان وظلمه فى بلاده".

(ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٢١ - (مطبوع).

(7) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 72.

العالية أحاطت بها من جهتي الجنوب والشرق، في حين كان يحدها من جهة الغرب مجرى نهر العاصي، ومن الشمال مستنقعات وأحراش، فضلا عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها^(١). وعندما وصل بوهيموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا موقعهم في الجهة الشمالية للمدينة، أي عند باب بولس. ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز، وروبرت أمير نورمانديا، وهيو أمير فرمندوا، وستفن (إتين) أمير بلوا، فاتخذوا جميعهم موقعهم بين باب بولس وباب الكلب. أما ريموند والمندوب البابوي أدهمار ومعهم فرسان بروفانس، فاستقروا أيضا على مقربة من باب الكلب، إلى الجهة الغربية منه. وأخيرا عسكر جودفري بوايون في الجهة الشمالية الغربية، أي في مواجهة باب الجنينة^(٢).

وكانت غالبية أهل أنطاكية في ذلك الوقت من السريان والأرمن. وعندما علم ياغي سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين، خاف من النصاري الذين بها، ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمي المدينة. ولما أرادوا دخول أنطاكية، عند العصر، منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين في حصارهم، في حين تحفظ هو على أهلهم، وكف أيدي المتطرفة إليهم^(٣).

هذه هي الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين. أما الرواية اللاتينية فتختلف تماما، لأنها تقول أن الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين نساءهم وأولادهم بالمدينة فاستفسروا منا عن هذفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة^(٤). ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه. هذا إلى أنه من المحتمل أن يكون ياغي سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين في أنطاكية عندما علم باقتراب الصليبيين فزج بالبطرق في السجن وطرده كثيرا من أعيان المسيحيين، واستولى رجاله على

(١) ذكر ياقوت الحموي عن أنطاكية "ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم. من الثغور الشامية. وهي من أعيان البلاد وأمهاؤها... وأنطاكية بلد عظيم نو سور وفصيل. ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم الدائرة..." (معجم البلدان، مادة أنطاكية)

(2) Guillaume de Tyr I, pp. 174 - 175.

(٣) ابن الأثير : الكامل (حوادث ٤٩١ هـ)

(4) Gesta Francorum, p. 69 .

كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلًا لخيوله ، وفقاً للروايات الصليبية ، التي لا تخلو من مبالغة (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر - من ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونية ١٠٩٨ (٢) - وكان من الممكن ألا تطول مدة الحصار على هذا النحو ، لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ، ولم يضيعوا وقتاً طويلاً في الانتظار والتفكير ، لاسيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التي استولت على الأتراك داخل أنطاكية عندما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمّنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطئ البحر ، وذلك عندما وصل إلى ميناء السويدية - عند مصب نهر العاصي - في حوالي ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٧ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين (٣) .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخترق الأناضول في طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندناوية على مساعدة الصليبيين . من ذلك أن المغامر ونمار البولوني استطاع أن يستولى في أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور - أي في ربيع سنة ١٠٩٨ - زار اللاذقية أسطول إنجليزي بقيادة إدجار اثلنج وروبرت جودفنسن (٤) .

أما ياغي سيان ، فقد حاول في تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعي ألا يأمل في مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه في العام السابق ، فارسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكريغا أتابك الموصل ، فضلاً عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسي ، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجد والبعث على الخوف إلى الجهاد . وقصد تحصين أنطاكية وإخراج النصارى منها (٥) . وفي الوقت نفسه أعد ياغي سيان عدته لحصار طويل ، فشحن

(١) Runciman : op. ct., I, p. 214 - 215 .

(٢) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل ، حوادث ٤٩١ هـ) .

(٣) Raymond d'Agiles (Hist. Occid. III), p. 242 & Carfo (Hist., Occid V) , p.50 .

(٤) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133 .

(٥) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ .

القلاع بالجند والمقاتلين ، واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية (١) .

وعندما طال حصار أنطاكية ، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيراً من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة - وبخاصة في حوض نهر العاصي - لتهبها والحصول على الميرة والغذاء . ويبدو أن ياغي سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين ، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين . وكاد ينجح في تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التي أنقذت الموقف ، وعندئذ عاد ياغي سيان ورجاله إلى داخل المدينة (٢) . وفي ذلك الوقت تجمعت قرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية ، على رأسها دقاق السلجوقي ملك دمشق وبصحبه طغتكين أتابك ، وأمير حمص العربي جناح الدولة حسين بن ملاعب . وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءاً من الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت أمير فلاندرز - يزحف على امتداد نهر العاصي ، قرروا الخروج لملاقاتهم ، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧ (٣) . ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين في ذلك الاشتباك ، وأنهم قتلوا منهم جماعة (٤) .

ويبدو أن تلك المعركة نبهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوباً ، فاكتفوا بالإغارة شرقاً حتى معرة مصرين حيث قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها (٥) . على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا يرجونه من زاد وطعام ، فعادوا إلى أنطاكية منتصرين ولكن الأيدي خاوية والبطون خالية ، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين (٦) .

وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية ، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرص والغرب حيناً ، وتنقطع أحياناً . وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند (٧) . وفي تلك الظروف

(1) Runciman : op. cit. I, p. 215 .

(2) Idem. p. 202 .

(3) Stevenson : op. cit., p. 26 .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٢ (مطبوع) .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٢ .

(6) Raymond d'Aigles (Hist, Occid. III) p. 245 .

(7) Guillaume de Tyr, I, p. 188 .

والمعروف أن بطرق بيت المقدس السابق - واسمه سيمون - كان مقيماً عندئذ بقبرص فدأب على إرسال المال والمأكولات والنبذ من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية لانه رأى في انتصار الصليبيين الغربيين - رغم اختلاف المذاهب - انتصاراً للمسيحية ، ونيلاً من المسلمين . أنظر (Runciman : op. cit., pp. 222 - 223) .

الحرجة والأوضاع الصعبة ، أخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون عائدين خفية . ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين ، بل أن بطرس الناسك نفسه ووليم التجار أمير ميلون اختفيا فجأة ، فجد تنكرد في إثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذي وبخهما علناً لهروبهما ، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس (١) .

بوهيموند ومشكلة أنطاكية :

وفي وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التي أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية ، أخذ بوهيموند يبدو في صورة الرجل القوي الذي تركزت فيه آمال الصليبيين ، ولكن بوهيموند لم يعمل في ذلك الدور لوجه الرب والصليب فحسب ، ولم يبذل ما بذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطي وليسلمه إلى ماشاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين . وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذي قطعه على نفسه في القسطنطينية للامبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للامبراطور كل ما استولى عليه من بلاد في آسيا الصغرى ، فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغير الذي ترتب عليه حدوث تحول خطير في تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطي لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلم يبق إذاً سوى أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور (٢) .

وقد نفذ بوهيموند خطته في براعة فائقة ، فاختر أصعب أوقات الحصار وأشدّها حرجاً - في أوائل يناير سنة ١٠٩٨ - ليعلن أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لا يستطيع الاستمرار في تلك العملية الحربية الطويلة التي لم يكن مستعداً لها . ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع والبرد أمام أسوار أنطاكية (٣) . ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعرض الصليبيين جميعاً لكارثة محققة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العصب الرئيسي والعمود الفقري للقوات الصليبية

(1) Gesta Francorum, pp. 77-79 .

(٢) أشار ابن القلانسي إلى نقض الصليبيين للعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .
(ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٥) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 70 .

المحاصرة لأنطاكية ، لذلك أسرع جميع الزعماء الصليبيين - فيما عدا ريموند - وتوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية ، ووعده بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفايته في الاستيلاء على أنطاكية (١) .

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikios أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على المدينة ، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطي سيطالب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذي قطعه الزعماء الصليبيون على أنفسهم للامبراطور البيزنطي (٢) . لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطي . وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساندة من بقية الزعماء الصليبيين ، كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية في الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر في النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرص (٣) . والواقع أن إتهام تاتكيوس كان يعنى إتهام الإمبراطورية البيزنطية كلها . فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداوة ، وأخذوا في أزمتهم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطي ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم بإخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التي أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التناكر لعودهم للامبراطور البيزنطي ، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذين بدأوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتخلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلاً عن أن مندوب الإمبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام أنطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار (٤) . وبذلك نجح بوهيموند في إحكام خطته ولم يبق في طريقه ما يحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها في أيدي الصليبيين .

مشروع التحالف بين الصليبيين والفاطميين :

على أن الشئ الذي يسترعى العجب حقاً ، هو أن معظم المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين في

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Première Croisade p. 193

(2) Brehier : op. cit., p. 312 .

(3) Setton : op. cit., pp. 313 - 314 .

(4) Runciman : op. cit., I, p. 224 .

مصر فكروا في مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام^(١).

وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الأمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية في أنه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة - أعداء الدولة الفاطمية الألداء - فكر في أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين^(٢) . وربما استند الأفضل في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها في القرن العاشر لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادى عشر ليلعبوا على مسرح بلاد الشام نفس الدور الذى لعبه نقفور فوقاس وحنا الشمشقيق في أواخر القرن العاشر^(٣).

ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر، نتيجة لوصول الصليبيين، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٧ وملكه وتسلم محراب داود من سكمان^(٤) . وفى تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير - فبراير ١٠٩٨) . وهناك فى المصادر ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وصولهم إلى القسطنطينية، بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر. ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت، إلا أن بعض المصادر الصليبية أشارت إلى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر^(٥) . وإذا كان هذا الرأى ليس له ما يؤيده فى بقية المصادر الصليبية، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الإمبراطور البيزنطى مما جعلهم

(1) Chalandon : Première Croisade, p, 196 .

(2) Stevenson : op. cit., I, p. 26 .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 83 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٥ .

(5) Runciman, op. cit., I, p. 230.

يرحبون بالسفارة التي أرسلها الأفضل في أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية^(١). ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة، وترك وعرب، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع. وتصور لنا المصادر اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين^(٢).

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل في أول الأمر، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لأقربائهم من بيت المقدس ترد عادية الفاطميين. وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون، لأن غزو الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكاً للأتراك السلاجقة في أشد الأوقات حرجاً^(٣). هذا فضلاً عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية، أكسبت أولئك الأخيرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي. ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم في مهارة بالغة عندئذ، فلم يكتفوا ببث الطمأنينة في نفوس الفاطميين، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام؛ وإنما حاولوا أيضاً أن يسدّوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق، فأرسلوا إلى دقاق يطمئنونه على مصيره، ويؤكدون له أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى، أي الرها وأنطاكية واللاذقية^(٤) وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة رضوان ملك حلب، حتى إذا ما فرغوا من أمره هو الآخر، استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام.

تدخل رضوان ملك حلب. موقعة العمق :

ويبدو أن تلك الخطة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير، إذ هدأ دقاق في دمشق، وظل حيناً بعد هزيمته في البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين

(1) Riant : Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, I, p. 162.

(2) Guillaume de Tyr, I, pp. 191 - 192.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 84 - 85.

(٤) "وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، ولا نطلب سواها، مكرًا منهم وخديعة حتى لا يساعوا أصحاب أنطاكية" (ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٩١ : هـ)

عن أنطاكية. أما أخوه رضوان ملك حلب، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغي سيان، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلاً في موقفه السلبي تجاه أنطاكية. ذلك أن ياغي سيان كان قبل كل شيء تابعاً وفصلاً لرضوان، في الوقت الذي كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان في الدولة السلجوقية (١).

وكان ياغي سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية، فأتجه الإبن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والاعتذار له عما فات. وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد من أن يتناسى الماضي، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية، وصاحبه في حملته سكران (سقمان) بن أرتق من ديار بكر، وأمير حماة، فضلاً عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة في إقليم الجزيرة (٢). وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها في حارم وهي قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أنطاكية، إلى الشرق منها. أما الخطة التي وضعها المسلمون فخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأة في الوقت الذي تخرج جيوش ياغي سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين (٣).

على أن المسيحيين في حلب وحارم - وبخاصة السريان والأرمن - علموا بتلك الخطة. فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية في أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذون على غرة (٤) وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف، فترك المشاة يحرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية في حين خرج هو على رأس حوالي سبعمائة فارس لصد المسلمين (٨ فبراير ١٠٩٨). واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصي من ناحية أخرى (٥). وفي اليوم التالي دارت الموقعة وانتهت في سرعة باندحار المسلمين الذين أرتدوا نحو حصن حارم، وفي أعقابهم الصليبيون. وعندما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هي الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار في الحصن، وبذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن (٦). وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً

(1) Setton : op. cit., I, p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Première Croisade pp. 195.

Guillaume de Tyr, I, p. 196 &

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ.

لأهميتها في حماية أنطاكية من ناحية حلب^(١).

وفي تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغي سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجيء في غيبة الفرسان الصليبيين، فخرج ياغي سيان فعلاً وقام بهجومه، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه. واستمر الصراع حاداً بين الطرفين لحين عودة فرسان الصليبيين ظافرين يحملون رءوس ضحاياهم في معركة العمق، فقدفوا بها داخل أسوار أنطاكية ليعلم ياغي سيان بما حل بحلفائه^(٢).

سقوط انطاكية :

وعندما رأى ياغي أن الهزيمة حلت بالحلبين مثلما حلت بالدماشقة من قبل، أرسل نداء جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس، وتابعه كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل. وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم، مما جعل الصليبيين يفكرون في طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس في صالحهم^(٣).

والواقع أن كربوغا كان قد أعد عدته فعلاً لنجدة أنطاكية، ولكنه توقف في الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدين، وبذلك أضاع الأسابيع الأخيرة من شهر مايو في حصار الرها دون جدوي، مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت^(٤). وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت به مقابر للمسلمين، فاستغلوا ما عليه من أحجار في بناء تلك القلعة التي مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة^(٥). وعندما تم بناء القلعة في ١٩ مارس، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والامدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعى ماشيتهم في المراعي القريبة^(٦). وصادف عندئذ وصول أسطول إنجليزي من عدة سفن إلى ميناء السويدية في ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيراً مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك - أي في أواخر نوفمبر من العام السابق - أسطول جنوى من

(1) Stevenson : op. cit., pp. 80 - 86.

(2) Gesta Francorum. pp. 80 - 86.

(3) Michaud : op. cit., pp. 264 - 267.

(4) Runciman : op. cit. I, p. 231.

(5) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 291.

(6) Runciman : op. cit., I, pp. 228 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 292.

ثلاث عشرة سفينة - مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحري تدريجياً في خدمة الصليبيين ومساعدتهم^(١).

وفي تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى. ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هي الراجحة في تلك الاشتباكات، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية صار تاماً، بعد أن أمّنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبامارة الرها التي غدا يحكمها واحد منهم - هو بلدوين البولوني - من جهة أخرى.

ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغي سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة، وأنه أظهر من الشجاعة وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره،^(٢). على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها في سقوط أنطاكية. ذلك أنه وجد في المدينة رجل أرمني الأصل اسمه نيروز - ويعرف بالزراد - كان ياغي سيان قد صادره وأخذ ماله وغلته، فحملة الحق على أن كاتب بيمند (بوهيموند)^(٣). ويبدو أن نيروز هذا كان قد تظاهر بإعتناق الإسلام ونال ثقة ياغي سيان، حتى عهد إليه بحراسة أبراج المدينة في الجهة الجنوبية. ولم يلبث ذلك الأرمني المسيحي الأصل، أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سراً^(٤)، فقال له «أنا في البرج الفلاني، وأنا أسلم أنطاكية إن أمنتني وأعطينتني كذا وكذا، وكان أن وافقه بوهيموند وبذل له «مالاً وإقطاعاً»^(٥) على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة، ورفض أن يذيعه على الأمراء «وكنتم أمره عن باقي الفرنج، كما أخذ يجسم لأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين، ويطلب منهم الموافقة على تحقيق حلمه الكبير، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها، ثمناً لجهوده في إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير^(٦). ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 198.

(2) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ. وقد وصفه ابن العديم بأنه كان حسن التدبير في سياسة العسكر (زبدة الطلب، ٤٩١ هـ) وقال عنه أبو الفدا أنه أظهر في الدفاع عن أنطاكية «شجاعة عظيمة» (المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢١٠).

(3) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٤ (مطبوع).

ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن نيروز هذا أرمني الأصل، انظر

Guillaume de Tyr, I, p. 212.

(4) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٢٤ (مطبوع).

(5) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(6) Gesta Francorum. p. 100.

تأثير الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون، فضلا عن الخوف من الإشاعات التي انتشرت بين صفوف الصليبيين، والتي أكدت أن كربوغا أتاك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف في طريقه إلى أنطاكية لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو) .

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت في عضدهم، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم^(١). ومن هؤلاء إيتين دي بلوا الذي اتجه إلى اسكندرونه في ٢ يونيو على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار في تلك الظروف الصعبة، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذي أوشك أن يحل بهم على يد كربوغا. ولو كان إيتين دي بلوا أنتظر عدة ساعات لغير رأيه في الانسحاب، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذي انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذي كان به الخائن نيروز الزراد. ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية في صباح اليوم التالي بعد أن فتحت أمامهم أبوابها، فهرع إليهم أهل المدينة السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم في التعرف على خفاياها وفي قتل من فيها من المسلمين^(٢). وقد حاول ياغي سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك؛ ولكنه سقط عن فرسه فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج^(٣) وكان أن تطرف الصليبيون في قتل من وجوده بأنطاكية من المسلمين فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر^(٤).

ولم يلبث أن أثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن^(٥). ولاشك في أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل في العالم المسيحي، لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها في أيدي الصليبيين فيما بعد. فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها وأهميتها الكبرى في نظر المسيحيين. ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الإمبراطورية الرومانية، فضلا عن أنها المدينة التي أطلق فيها على اتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين^(٦)، والتي أسس فيها القديس بطرس أول اسقفية له. وقد

(١) Runciman : op. cit., I, 233 .

Guillaume de Tyr I, p. 231. &

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع)

(٤) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع)

(٦) "دعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا" (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٦٢) .

ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتي استولى عليها المسلمون في القرن السابع، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية، والمركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية (١).

تدخل سلاجقة فارس. حملة كربوغا :

رأينا كيف أضاع كربوغا عدة أسابيع في حصار الرها، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية. وقد دفع ذلك المؤرخ وليم الصوري إلى القول بأن صمود بلدوين أمير الرها ومقاومته هي التي أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية (٢). ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم غداة استيلائهم على أنطاكية أمام مهام عاجلة خطيرة، فأسرعوا إلى اعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التي أحدثوها في أهلها من المسلمين، فعجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها في التراب حتى لا تكون سبباً في إنتشار الوباء (٣) وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار - ومعه رجال الدين - علي إعداد كتدرائية القديس بطرس وغيرها من الكنائس القديمة التي كانت بالمدينة لتزاول وظائفها بوصفها دور عبادة للمسيحيين. كذلك أخرج البطريرك الأرثوذكسي حنا الرابع من سجنه الذي وضعه فيه ياغي سيان، وأعيد إلى كرسي البطريركية في أنطاكية - رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية - وذلك حتى ترد تعليمات من البابوية في ذلك الشأن (٤).

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على أنطاكية، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا. وكان كربوغا بعد مغادرته إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تنش ملك دمشق، وطغتكين أتابك، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسكمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم (٥). أما رضوان ملك حلب فظل معادياً لأخيه دقاق في تلك الأوقات الحرجة التي شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية.

(1) Runciman : op. cit. I, p. 213.

(2) Guillaume de Tyr I, pp. 216 - 217.

(٣) قدرت المصادر الصليبية عدد المسلمين الذين نبههم الصليبيون في أنطاكية بعشرة الاف.
(Michaud : op. cit., I, 292).

(4) Runciman, op. cit., I, p. 237.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

ولكى يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلي الحلف الإسلامي لإنقاذ أنطاكية، ضم إليه الأمير العربي جناح الدولة حسين صاحب حمص، وهو من قبيلة بنى ملاعب، وكان قد تزوج أم رضوان أي أرملة تتش^(١).

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقي الكبير في مرج دابق، ومنها أخذ يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصي. وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة عند جسر الحديد - إلى الشمال الشرقي من أنطاكية - فقتل المسلمون رجالها عن آخرهم في ٤ يونية سنة ١٠٩٨^(٢). ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش السلجوقي أمام أنطاكية. وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التي كانت لاتزال باقية في أيدي المسلمين، وساعدهم في ذلك شمس الدولة بن ياغي سيان. ولكن كربوغا فشل في تحقيق تلك الخطة، وعندئذ لجأ إلي تجويع الصليبيين داخل المدينة بأحكام الحصار عليها^(٣) ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر في السهل الممتد جنوبي أنطاكية عند باب البحر^(٤)، كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان. وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية، فرابة ثلاثة أسابيع (٨ - ٢٨ يونية)، فساءت حالتهم وبدأ بعض زعمائهم في الفرار، في حين أخذت السفن الرأسية بالسويدية تقلع عائدة وعليها من استطاعت حمله من الفارين^(٥).

ولعله من الواضح كيف انقلب الوضع، فصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها، وذلك بعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغي سيان وحاميته من السلاجقة المسلمين^(٦). وتشير المصادر إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن فعدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين. ولم تكن هذه الأسعار في متناول غالبية الصليبيين، فاضطر بعضهم إلى العيش على

(١) ذكر ابن العديم أن رسل رضوان كثر ترددها في تلك الأثناء على كربوغا، الأمر الذي أخاف دقاق وأثار الظنون في نفسه.

(زبدة الطب ٢ ص ١٥٦) (مطبوع)

(٢) ابن العديم : زبدة الطب ص ١٣٦ (مطبوع)

(٣) المصدر السابق ص ١٣٦ - ١٣٧، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(٤) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع)

(٥) Cam. Med Hist. : vol. 5, p. 292.

(٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦.

أوراق الأشجار، وفضلاً، عن الميتات والدواب،^(١). وفي وسط تلك الأزمة أخذ كثير من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم والحضور إلى الشرق، بل لقد جاهر بعضهم بأن إيتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده^(٢).

ولم يبق أمل للصليبيين في أنطاكية للخلاص من تلك المحنة التي ألمت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ليضعن كربوغا وجيوشه من الخلف. لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذي استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقاً آسيا الصغرى^(٣) ولكن لم يلبث أن التقى بالإمبراطور في آسيا الصغرى إيتين دى بلوا وبعض زملائه، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكية^(٤). وكان أن اهتز الإمبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعاً، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين، ولذلك قفل راجعاً ولم تفلح الجهود التي بذلها لحمله على المضى في طريقه إلى أنطاكية^(٥). ولا شك في أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين داخل أنطاكية. كذلك كان لتلك العودة أثرها في تشجيع كربوغا. وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيراً من الصليبيين، فخارت قواهم وتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشعال النار في المدينة في ١٢ يولية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة^(٦).

ويروى ابن القلانسي وابن العبري أن الصليبيين داخل أنطاكية يلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية، وقال لهم «لا تخرجون إلا بالسيف»^(٧). وعندما مرض ريموند - القائد الأعلى للقوات الصليبية - حل محله بوهيموند في حوالي ٢٠

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٧. أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ «ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر» (الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ).

(2) Runciman, op. cit., I, p. 238.

(3) Guillaume de Tyr, pp. 250 - 254 & Gesta Francorum, pp. 141 - 147.

(4) Michaud : op. cit., I, pp. 300 - 302.

(5) Gesta Francorum, pp. 147 - 148.

(6) Guillaume de Tyr, I, p. 255.

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص ٩٦.

يونية، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسة المعروفة، يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين^(١).

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجبهة متماسكة، بل على العكس ظل المسلمون في ذلك الدور الحاسم يعانون خلافاً واضحاً في صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة. ذلك أن رضوان ملك حلب رفض - كما سبق أن ذكرنا - المشاركة في الحلف الإسلامي للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين ؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل أمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب، وكلاهما سقط في قبضة الصليبيين^(٢). ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذي رافق كربوغا، كانا من العوامل التي خلقت جواً من القلق والاستياء في صفوف المسلمين. ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان، بدأ يسعى للاتصال به، وعندئذ توهم دقاق من ذلك^(٣) وفي الوقت نفسه أحس دقاق برغبته في العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين في بلاد الشام، وهو التوسع الذي سبب له قلقاً بالغاً^(٤). ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين بن ملاعب - أمير حمص العربي الذي أسهم مع كربوغا في حصار أنطاكية - ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذي كان على اتفاق مع رضوان. بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الشقاق بين أتراك كربوغا من ناحية والعرب بزعامه وثاب بن محمود المرداسي من ناحية أخرى، وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادية لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته^(٥). أما المؤرخ أبو الفداء، فعلا روح التباعد والفرقة التي سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم فخبثت نياتهم على كربوغا^(٦).

وفي الوقت الذي كان معسكر المسلمين يعاني ذلك التصدع والشقاق، أخذ

(1) Michaud : op. cit., I, p. 304.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 93.

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٢٦ (مطبوع).

(4) Runciman : op. cit., I, p. 249.

(٥) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٢٦ (مطبوع).

(٦) أبو الفداء : المختصر، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

بوهيموند ينفخ في الصليبيين روحاً جديدة. وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين - أحدهما بطرس الناسك - إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لأقناعاته بترك الحصار، ولكن كربوغا - رغم ما كان يعانيه من تفكك في معسكره - أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط (١). وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية في ٢٨ يونية سنة ١٠٩٧ للدخول في معركة فاصلة ضد المسلمين. وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة، إذ خرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوغا «ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال : لا تفعلوا ! أمهلهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم» (٢). وبذلك أضاع كربوغا الفرصة، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين لما عاملهم كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم (٣).

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا، فانفض عنه كثير من الأمراء. وكان التركمان أول من «عاث في المعسكر فانهزم» (٤). في حين ظل سكمان بن أرتق وجناح الدولة آخر من انهزم من الأمراء. وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغا هو الآخر إلى الفرار، وبذلك عمت الكارثة (٥). ثم إن التعليمات التي صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين، واشترك معهم في تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلاً، حتى جسر الحديد وحارم شرقاً (٦). ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصى، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن (٧).

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصاراً على سلاجقة الروم وحدهم، وإنما أيضاً

(١) Chalandon : Première Croisade, p. 220.

(٢) ابن الأثير : الكامل (سنة ٤٩١ هـ).

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج ويقتلوهم أولاً فتول - فلم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظفر بالفرنجة وخرجوا بأنجمعهم في خلق عظيم ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٧.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٧.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(6) Gesta Francorum, p. 159.

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٢٧ (مطبوع).

على سلاجقة الشام وفارس، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل. وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل. أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة، ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه^(١).

التنافس بين بوهيموند النورمانى وريموند الصنجيل حول أنطاكية:

تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقي، واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركيارق (بركيارق) قد هزم أدبيا في شخص تابعه كربوغا، فإن دقاق هزم شخصياً أمام أنطاكية. وبانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين، لأن أنطاكية بالذات تعتبر مفتاح بلاد الشام على قول بعض المؤرخين^(٢). وكان يجب على الصليبيين - برأ بقسمهم الصليبي - ألا يضيعوا وقتاً طويلاً وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون في مشاكلهم الداخلية^(٣).

والواقع أن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ضخمة عقب هدوء موجة الفرح الأولى التي عمتهم بعد الإنتصار على خطر كربوغا وضمان الاستيلاء على أنطاكية. حقيقة أنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكاماتها وأسوارها سليمة، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تطلبت عدداً كبيراً من الرجال المحاربين، في الوقت الذي تناقص عدد الصليبيين، فضلاً عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل مالهديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس. ثم إن الصليبيين لم يجدوا في أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التي ظنوا يحلمون بها طويلاً. وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين، وهؤلاء - وبخاصة السريان - لم يطمئن الصليبيون إلى شعورهم وإخلاصهم^(١). وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التي استنفدت كثيراً من الوقت

(١) يروى ابن العديم أن الصليبيين آمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في دار بانطاكية وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل.

ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٢٧ - ١٢٨.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 108

والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فلمن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين ؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من أمرائهم أولى بها ؟ (٢) .

والواقع أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية في إقليم أنطاكية، كانت واضحة لا شبهة فيها، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقي سنة ١٠٨٥ ، بل أيضا وفقاً للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهي الاتفاقية التي كان بوهيموند نفسه أول من أقرها (٣) . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الإمبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل ان يعينه الكسيوس كومنين نائباً عنه في حكم بلاد الشام التي كانت قديماً جزءاً من الإمبراطورية . فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه وحده تحمل العبء الأكبر في الاستيلاء على أنطاكية، قرر هو نفسه أن يتحال من تعهده السابق للإمبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحتها (٤) .

وكان أن طلب بوهيموند في أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدنية وأبراجها وتحصيناتها، فقبلوا جميعاً باستثناء ريموند الصنجيل الذي أخذ ينازع بوهيموند أنطاكية (٥) . وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكربوغا، أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب «أمير أنطاكية»، إعترافاً منهم بأن الفضل الأول في الاستيلاء على المدنية من المسلمين إنما يرجع إليه (٦) .

ولكن ريموند الصنجيل لم يكن أقل من بوهيموند النورمانى رغبة في الاستئثار بأنطاكية . ولذلك رفض ان يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله في المدينة . وهكذا صارت أنطاكية، قسمة بين بوهيموند وريموند، فاحتل الأول

(1) Runciman : op. cit., I, p. 236.

(2) Cam. Med. Hist. vol 2, pp. 294 - 295.

(3) Chalandon : alexis Comnene, pp. 203 - 205.

(4) Vasiliev : op. cit., I, pp. 408 - 409 &

Ostrogorsky : op. cit., 323, and

Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 294.

(5) Raymond d'Agiles, p. 262.

وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب الى مقاطعة Saint - Gilles بفرنسا، فحرف العرب هذه النسبة الى الصنجيل .

(6) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 109.

الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة (١).

على أن الانقسام الداخلي بين بوهيموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانوني لمشكلة أنطاكية، أي أحقية الدولة البيزنطية في تملك المدينة وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧. وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا في الاستيلاء على أنطاكية، فإن الإمبراطور البيزنطي نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهد؛ لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة، ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين، وبخاصة في المحنة التي تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كبروغا أمام أنطاكية (٢). لذلك عقد الصليبيون مجلساً في مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨، حضره جميع زعمائهم، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الإمبراطور ألكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية وفقاً للاتفاقية المعقودة بين الطرفين. وقد هلك أحد هذين الرسولين في الطريق، في حين وصل الآخر إلى القسطنطينية في أواخر يولية (٣). على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الإمبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهي تعرض على الإمبراطور استلام أنطاكية، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصياً على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس (٤).

ولو اغتنم الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فوراً على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع بوهيموند وريموند جميعاً. ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا درجة شديدة من الوهن والضعف بعد مالمقوة من مشاق أثناء زحفهم في آسيا الصغرى، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكية، مما جعلهم في حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور

(1) Guillaume de Tyr, p. 274.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 294.

(3) Gesta Francorum, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة. إذ قال : إن الرسولين الذين أوفدهما الصليبيون إلى الإمبراطور كلفا باخطاره أنه حثث بوعوده للصليبيين، وبناء على ذلك فاتهم صاروا في حل من تعهداتهم له.

(Albert d'Aix, p. 434).

(4) Guillaume de Tyr, p. 277.

البيزنطي تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس^(١). كذلك لا يخفى علينا أن موافقة بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للامبراطور البيزنطي بالشرط السابق لم يكن الدافع إليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التي قطعوها على أنفسهم في القسطنطينية سنة ١٠٩٧، بقدر ما كان الأمل في الحصول من الإمبراطور البيزنطي على المساعدة التي كانوا في أمس الحاجة إليها، مقابل إعطائه المدينة^(٢).

والواقع إنه من الصعب تفسير موقف الكسيوس كومنين السلبي من ذلك العرض السخي الذي يمكنه من استرداد شمال بلاد الشام، فضلاً عن تمكنه من الإشراف على فتح بيت المقدس، لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاحت له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضي الامبراطورية السليبية في الأناضول. ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم، وظن أنهم سيستمرون في سياستهم التي اتبعوها في آسيا الصغرى، فيفتحون البلاد ليسلمونها للإمبراطورية لقمة سائغة، وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين، ستكون هذه البلاد - بحكم موقعها الجغرافي وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية - تابعة للقسطنطينية، أو على الأقل سيكون حكامها من الصليبيين تابعين للامبراطور ومعترفين له بالولاء. ولذلك ختار الإمبراطور أن يصمت مؤقتاً ولا يرد على رسالة الصليبيين^(٣).

وأخيراً أفاق الإمبراطور الكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة. ذلك أن الصليبيين قرروا في أبريل سنة ١٠٩٨ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا في أنطاكية أكثر من تسعة أشهر. وفي الوقت الذي اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس، تلقوا رد الإمبراطور البيزنطي على رسالتهم^(٤). وفي تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكيه، ولكنه طلب منهم إنتظاره حتى شهر يوليو^(٥). ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطي جاء متأخراً، أي بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه في أنطاكيه، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطي زحزحته من ذلك المركز. هذا إلى أنه في الوقت الذي أخذ الإمبراطور الكسيوس كومنين يعد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم في انتزاع

(1) Brehier, op. cit., 314.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 204 - 205.

(3) Grousset : Hist de Croisades I, p. 112.

(4) Setton : op. cit., I, p. 329.

(5) Raymond d'Agiles, p. 286, and Guillaume de Tyr, p. 307.

فلسطين من الفاطميين، إذا به يعقد إتفاقاً سرياً مع الفاطميين في مصر ضد الصليبيين. وشاء سوء حظه أن تقع رساله بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل في أيدي الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة^(١).

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون في حكمة بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية. ولا أدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاملتهم لبطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسي، الذي قبض عليه الأتراك وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة، حتى إذا ما سقطت أنطاكية في أيديهم احتفى به الصليبيون حفافة بالغة، وأقاموا له حفلاً كبيراً ثبتوه فيه رئيساً لكنيسة أنطاكية^(٢). كذلك لم يتعرض الصليبيون لاتباع المذهب الأرثوذكسي في البلاد التي استولوا عليها، وإنما أطلقوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين، بما في ذلك السريان والأرمن، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيساء والأيقونات والصور وغيرها. أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم، فقد تركهم الصليبيون في مناصبهم ولم يتعرضوا لهم، وكل ما هنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين الكاثوليك في الأسقفيات الشاغرة^(٣).

على أن هذه السياسة الودية تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين في الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون إتصالاته مع الفاطميين في مصر. ومن ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه في أنطاكية لجأ الى خلع حنا الرابع بطرق أنطاكية الأرثوذكسي وأحل محله بطرقاً كاثوليكياً^(٤).

ومهما يكن من أمر، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا ان ينتظروا الإمبراطور ألكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يولية ١٠٩٨ ولم يحضر عقد زعمائهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس، واختير أول شهر نوفمبر لذلك حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدة وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية^(٥).

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 207.

(2) Albert d'Aix, p. 433.

(3) Guillaume de Tyr, p. 274.

(4) Grousset : Hist. des Coisades I, p. 114.

(5) Runciman : op. cit. I, p. 250.

احتلال البارة ومعة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التي قضوها في شمال الشام، ففترت الحماسة الصليبية في نفوسهم، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم، وبدأ كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره في الحرب الصليبية ينتهي بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه في الشرق، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت في شمال الشام. وقد حرص بوهيموند في تلك المرحلة على أن يبدو دائما في صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحده، فمُنح الجنوية في ١٤ يولية براءة خولتهم الحق في سوق خاص بهم وكنيسة، فضلا عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية، تشكل حياً صغيراً لنشاطهم التجاري. وبذلك ضمن مناصرة الجنوية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للاحتفاظ بمواصلاته مع إمارة النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا (١).

وربما كان الرجل الوحيد الذي ظل يوحد بين صفوف الصليبيين في ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوي أدهمار الذي حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين وبوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التي أتوا من أجلها إلى الشرق. على أن تعدد المعارك في ساحة أنطاكية وكثرة القتلى والجيف، نتج عنه انتشار وباء في المعسكر الصليبي، ذهب صحبته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنة ١٠٩٨). وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية - ليبعدوا عن منطقة الوباء (٢).

ومن تلك الغزوات الصغيرة التي قام بها الصليبيون عندئذ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجيل - إسمه ريموند بليه Raymond Pilet - على رأس قوة صغيرة في منتصف يولية سنة ١٠٩٨ مخترقاً طريق معرة مصرين بقصد إحتلال معرة النعمان وتل منس (تلمنس)، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، أي داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي. ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي قبل أن يقوم بحملته، وأنهم شاركوه في الزحف، مما سهل له مهمته (٣). ولكن رضوان أسرع بإرسال قطعة من عسكر حلب إليهم، فالتقى الحلبيون بالصليبيين

(1) Heyd : op. cit., Tome I, p. 134.

(2) Cam. Med Hist vol. 5, p. 295. and Michaud : op. cit., I, p. 333 & Gesta Francorum pp. 162 - 165.

(٣) "وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلاد المعرة على المعرة وقتلوا". ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٨ (مطبوع).

بين تل منس ومعرة النعمان، وعندها لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبى من جهة، وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى، فانهزم الفرنج وبقي الرجال منهم، فقتل منهم زائداً عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان في حين ارتد ريموند إلى تل منس^(١).

أما جودفرى بوايون فقد خشى على نفسه من الوباء الذى انتشر فى أنطاكية فقصده أخاه بلدوين فى الرها، الذى أعطاه تل باشر والراوندان (أوائل أغسطس ١٠٩٨)^(٢). هذا فى حين اتجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التى تركها تنكرد فى طرسوس وأذنه والمصيصة ومرسين فى الخريف السابق، وتأكد من ولائها له، مما يشير إلى أنه كان ينوى إدخال إقليم قيليقية فى حيز الإمارة التى يعتزم إقامتها لنفسه فى أنطاكية^(٣).

وفى سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفرى بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيل حملة اكتسبت طابعاً غريباً، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب^(٤). وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد أربعين كيلو متراً تقريباً شمالى حلب، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى. وعندما عصي عمر والى عزاز سيده رضوان، أرسل الأخير جيشاً لمحاصرته، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفرى^(٥). وأكثر من هذا أن عمر أرسل إليه محمود ليظل رهينة عند جودفرى ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته فى التغرير بالصليبيين^(٦). ولم يكن فى وسع جودفرى أن يشن حرباً على حلب دون الاستعداد الكافى، فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين فى الرها، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب. على أن جودفرى بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية فى شمال الشام. ولذلك استمر فى طريقه إلى عزاز، حيث خرج عمر والى الحصن لاستقباله، وترجل

(١) المصدر السابق - نفس الجراء والصفحة .

(2) Setton : op. cit., I, p. 325.

(3) Runciman : op. cit., I, p. 254 and Stevenson : The Crusaders, p. 29.

(4) Setton : op. cit., I, p. 325.

(٥) ابن العديم. زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ (مطبوع).

(6) Michaud : op. cit., I, p. 339.

ويرى ابن العديم أن هذا الابن ظل رهينة إلى أن مات عند الفرنج (زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٤١).

أمامه من فوق فرسه، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨) ^(١). ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر فعلته هذه، فما زال به حتى أخذ عزاز منه ثم قتله في حلب ^(٢).

وفي نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيل بحملة على البارة، وهي مدينة تابعة لمملكة حلب تقع شرقي نهر العاصي بين جسر الشغور (الشغور) ومعرة النعمان ^(٣). ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند في حوالي ٢٥ سبتمبر وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا. فضلال عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة ^(٤).

على أن تلك الغزوات المحلية التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن في حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس. ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة، فعقد الصليبيون مجلساً في ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس، ما عدا بلدوين الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته في الرها ^(٥).

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمام الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانوني، لاسيما وأن بوهيموند - يساعده معظم الأمراء - ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على المدينة، في حين نازعه ريموند ذلك الحق. حقيقة أن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها من جديد بأن أرسلوا إلى البابا في ١١ سبتمبر يخبرونه بوفاة مندوبه أدهمار ويطلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية بوصف البابا وريث القديس بطرس في رئاسة الكنيسة البطرسية. ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية، على يد البابا، مما تطلب التفكير في وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم ^(٦).

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطي

(1) Albert d'Aix, p. 439 and Guillaume de Tyr, p. 283.

(2) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١.

(3) Chalandon : Première Croisade, pp. 244 - 246.

Gesta Francorum. pp. 167 - 169 & ١٤١

(4) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص

(5) Michaud, op. cit., pp. 346 - 347.

(6) Runciman op. cit., I, p. 256.

صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور، فتحوّلت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها. وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطي سنة ١٠٩٧ (١). وهكذا انقلب الموقف رأساً على عقب، فصار بوهيموند - وهو أول من عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطي تعهد له فيه بالولاء - ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق، في حين أمسى ريموند - وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للإمبراطور - هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والنادي باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الكسيوس كومنين. وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين، فضلاً عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض (٢).

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبي ويستردوا بيت المقدس، فأندروا الزعماء بأنهم إذا استمروا في منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية، فإن الصليبيين جميعاً سيتركونهم في أنطاكية ويتجهون رأساً إلى بيت المقدس ؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعميين المتنازعين - ريموند وبوهيموند - مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعاً (٣).

ولاشك في أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعاً، فضلاً عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة، ومن ثم بدأت المساعي الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة. ويبدو أن بوهيموند وريموند خشيا عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم، فتوصلا إلى اتفاق سريع في نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم في مهاجمة المسلمين. أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان، التي سبق أن هاجمها الصليبيون في شهر يوليو، وباء هجومهم عليها بالفشل (٤).

(1) Brehier : op. cit. p. 314.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 120.

(3) Gesta Francorum, p. 171.

(4) Stevenson : op. cit; p. 30.

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص فلم ينجدهم أحد^(١). ولم يكن للأهالي من القوة والإمكانات ما يمكنهم من المقاومة طويلاً، فاضطروا إلى الاستسلام للصليبيين في ١١ ديسمبر^(٢)، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذي أعطوه لأهل معرة النعمان، وإنما غدروا بهم ورفعوا الصليبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به^(٣). وتضيف المصادر الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين أحرقوا المعرة أولاً عن آخر^(٤).

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموند سوياً في الاستيلاء على معرة النعمان، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية. ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغي وأنه لابد من وضع حد سريع لها. ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به في أوائل يناير سنة ١٠٩٩، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلمونه زعيماً أوحداً للصليبيين جميعاً، ولكن عرضه قوبل بغتور من جانب الأمراء^(٥). وأخيراً رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد ماعم الاستياء جميع صفوف الصليبيين، فخرج ريموند من معرة النعمان في ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلناً الزحف على بيت المقدس، وتبعه بقية الصليبيين، ما عدا بوهيموند الذي اختار البقاء بأنطاكية^(٦). وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه أمير آخر في قيادة الحملة الصليبية، في حين قنع بوهيموند بتحقيق حلقة في أملاك أنطاكية^(٧).

وأخيراً تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهراً في شمال الشام (أكتوبر ١٠٩٧ - يناير ١٠٩٩)^(٨).

(١) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٩١ & ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ س ١٤١ - ١٤٢.

(2) Albert d'Aix p. 268 & Gesta Francorum p. 175.

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦، وقد قدر ابن القلانسي عدد قتلى المسلمين في معركة معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، في حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف.

(4) Chalandon : Première Croisade, p. 249.

(5) Gesta Francorum, p. 279.

(6) Michaud, op cit. I, pp. 345 - 347.

(7) Cam. Med Hist. vol. 5. p. 295.

(8) Setton : op. cit., I, p. 327.

الباب الرابع سقوط بيت المقدس

• ليتلون فتح أهوالهم وأنفسهم
ولتسمعن من الحزين أوتوا
المختاب من قبلهم ومن الحزين
أشروا أخذ مثيرا . وإن
تصبروا وتتقوا فإن خاتم من
عزم الأمور

(آل عمران : ١٨٦)

الفصل الأول

الطريق الى بيت المقدس

الصليبيون والامارات العربية في أواسط بلاد الشام :

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب ، وهي قلعة على بعد عشرين كيلو مترا إلى الجنوب ، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩ وفي تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنكرد . وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية التى انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن والحصون مثل حمص وطرابلس وشيزر^(١) . وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف ، فى حين أدرك الأمراء العرب فى الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قريبهم تحميهم من ذلك الخطر ، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض .

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ - صاحب شيزر (١٠٩٨ - ١١٤٥) - أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير فى كفر طاب ، وتعهد له ألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة ، فضلاً عن أنه أرسل إليهم فى ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلاً ليرشدا الصليبيين فى عبورهم إقليم العاصى . وقد تم فعلاً تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب فى ذلك الدور نحو مسالمة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم^(٢) .

ثم كان أن أراد بعض الصليبيين - وعلى رأسهم ريموند الصنجيل - أن يتجهوا إلى الشمال الغربى لستولوا على جبل ، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبى

(1) Setton : op. cit. I. pp. 164 I 165 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 265 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, pp. 272 - 273 .

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفاصيل التى وردت فى المصادر الغربية ، وإنما اكتفى بعبارة ،
وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ)

اللاذقية ، وكانت تابعة لابن عمار صاحب طرابلس^(١) . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات - من قبرص والدولة البيزنطية فضلاً عن الغرب الأوربي - إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي إتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها^(٢) . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل - وهو طريق طويل متعرج - فيستولون في طريقهم على جبلة وانطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ، وغيرها من الموانئ والمراكز الساحلية .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأي بعد أن أدرك النقص الكبير في عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبي يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين^(٣) . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلي إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار كل مدينة من المدن الساحلية مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتاً طويلاً ، بحيث يصل الصليبيون في نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاءل عددهم وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصومهم وقتاً كافياً للاستعداد لملاقاتهم ، الأمر الذي يجعل مهمتهم في الاستيلاء على بيت المقدس - وهي هدفهم الأساسي - من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلي المباشر إلى بيت المقدس فإنهم سيتجنبون كثيراً من المشاكل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدسة ، سهل عليهم بعد ذلك اتخاذها قاعدة وانتزاع بقية المدن الساحلية - مثل طرابلس وصور وعكا - واحدة بعد أخرى^(٤) .

وقد أدرك بقية الصليبيين صواب رأي تنكرد ، فقرروا اتخاذ أقصر الطرق الداخلية إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتلك الخطة فعدلوا مؤقتاً عن حصار جبلة واتجهوا نحو مصياف^(٥) في ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ،

(١) كان حاكم طرابلس وقت الغزو الصليبي لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي توفي سنة ١٠٩٩ ، فخلفه أخوه أبو علي فخر الملك ابن عمار .
(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠)

(2) Heyd : op. cit. I, p. 134 .

(3) Chalandon : Première Croisade p 253 .

(4) Raymond d' Agiles, p. 273 .

(٥) مصياف : حصن حصين مشهور بالساحل الشامي ، وبعضهم يقول مصياف (ياقوت : معجم البلدان)

وعندئذ خرج إليهم أميرها العربي ، وعقد معهم إتفاقية . ثم اتجهوا نحو بعرين ومنها إلى سهل البقاع ، حيث فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة ^(١) وقد احتفى أهالي تلك المنطقة من العرب المسلمين ، بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ، ومعهم ما استطاعوا حمله من ثروة ومال ، فاتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً محكماً حتى سقط الحصن في أيديهم في ٢٩ يناير ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة حسين بن ملاعب أمير حمص العربي ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجة حتى لا يتعرضون لبلدهم بسوء ^(٢) .

الحملة الصليبية الاولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة ، وهي مدينة صغيرة ، تقع شمالي طرابلس وتتبعها ^(٣) . وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبنى عمار - كما سبق أن أشرنا - فأسرع صاحبها فخر الملك أبو علي بإرسال الرسل إلى ريموند لعقد إتفاقية تعهد فيها الأمير العربي بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور طرابلس وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين . أما ريموند الصنجيل فقد أرسل من جانبه رسلاً إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها فخر الملك ، وعندئذ استرعت نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا في زيادة الجزية ^(٤) . وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التي تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسناً ، لاسيما وأن عرقة نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غنى بمياهه وثروته الطبيعية ^(٥) .

وفي الوقت الذي اتجه جزء من الجيش الصليبي لحصار عرقة ، اتجه فريق آخر نحو انطربوس ^(٦) ، واستولوا عليها في حوالي ١٧ فبراير ١٠٩٩ . وكانت

(1) Stevenson , op. cit., p. 31 .

(2) Gesta Francorum, pp. 183 - 185 .

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين " ساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة " (الكامل سنة ٤٩١ هـ)

(3) Michaud : op. cit., I, p. 349 .

(4) Raymond d'Agiles, p. 275 .

(5) Crousset : Hist. des Croisades, I, pp. 132 - 133 .

(٦) يقول ياقوت إن عرقة - بكسر أوله وسكون ثانيه - بلدة في شرقي طرابلس ، أما انطربوس - كما كتبها ياقوت في معجم البلدان - أو أنطرسوس - كما كتبها ابن الأثير وغيره من المعاصرين - فهي بلد من أعمال طرابلس .

أنظرطوس هذه ميناء صغيراً على شاطئ البحر ، تابعاً لبنى عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية^(١) . هذا فضلاً عن أن الاستيلاء على أنظرطوس ساعد الصليبيين بعد قليل في الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

على أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث في الوقت الذي أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقة ، أن اتجه جودفرى وروبرت دى فلاندرز لحصار جبلة ، وهى التى كان مفروضاً هى الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ، ولكن القاضي أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بنى عمار . وقد استمر حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد إتفاق بين أبى محمود قاضى جبلة والصليبيين ، تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيول . وبعد ذلك اتجه جودفرى وروبرت إلى عرقة تلبية لنداء ريموند الذى طلب مساعدتهما^(٢) .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقة فى ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات فى إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقة طال دون نتيجة^(٣) . وفى تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى إقايم عرقة محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفرى بوايون على الاستمرار فى حصار عرقة ، «بعد أن حاصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة ثقب . فلم يقدروا عليه^(٤) . وقد نادى جودفرى بأن الوقت الذى أضاعه الصليبيون فى تلك العملية الحربية لا يعادل بأى حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفرى على أن يترك الصليبيون حصار عرقة فى الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس^(٥) .

(1) Raymond d'Agiles, p. 276 .

(2) Gesta Francorum, p. 187 & Albet d'Aix, p. 453 .

(3) Stevenson : op. cit. I, p. 31 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(5) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, pp. 454 - 455 .

هذا ويذكر ابن الأثير أنه عندما طال حصار الصليبيين لعرقة : راسلهم متقذ صاحب شيزر : فصالحهم عليها " (حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

ومن الثابت أن ريموند أخذ في تلك المرحلة يندم على استعانته بجودفري وروبرت واستحضارهما من جيلة لمعاونته . فحتى ذلك الوقت - ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية - كان ريموند هو زعيم الصليبيين في زحفهم على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال . أما وقد حضر جودفري ، فإن نفوذه أخذ يغطي على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفري ، مما أضر ضرراً بليغاً بمركز ريموند الصنجيل ومكانته ^(١) .

وزاد الموقف توتراً بين ريموند وجودفري وصول بعثة من قبل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس - في حوالي ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ - تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقة . وقد استهل الإمبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ . ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للإمبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فاستأثر بإنطاكية وأصر على أن يجعل منها إمارة لنفسه . وأخيراً عرض الإمبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونية ليحضر إليهم بنفسه ويشارك معهم في الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها ^(٢) .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الإمبراطور البيزنطي بدا طيباً لأول وهلة ، لأنه سيؤدي إلى إقامة جبهة مسيحية قوية في الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها . هذا فضلاً عن أن حضور الإمبراطور بنفسه سيهيئ للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذي باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهمار - المندوب البابوي - في أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيل بفكرة انتظار الإمبراطور ، وربما رأى في ذلك الحل فرصة طيبة للاستعانة بالإمبراطور في توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية ^(٣) ، فضلاً عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار في الاستيلاء على عرقة ليتخذها - بالإضافة إلى أنطربوس - نواة للإمارة التي أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه في طرابلس من ناحية أخرى ^(٤) .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين - وعلى رأسهم جودفري بوايون - عارضوا فكرة انتظار الإمبراطور البيزنطي ، ونادوا بالزحف فوراً على بيت

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 271 - 272 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 307 .

(3) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 214-215 .

(4) Grousset : Hist, des Croisades, I, p. 138 .

المقدس . وكانت حجتهم في ذلك قوية وهي أن العرض البيزنطي جاء متأخراً بعد فوات الأوان ، فضلاً عن أن الإمبراطور ألكسيوس كثيراً ما وعد وأخلف ، وطالما خدع الصليبيين بوعوده ، ومناهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق شيئاً . وكان آخر ما يذكره الصليبيون للإمبراطور البيزنطي أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم أمام أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر^(١) هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون في ذلك الوقت بما كان يجري من اتصالات بين الإمبراطور البيزنطي والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوباً صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الإمبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه ، ولكنه أنكر علاقته بها^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفري بوايون - يسانده روبرت دي فلاندرز - استطاعا إجبار ريموند الصنجيل على احترام رأى جموع الصليبيين في الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفري محبة الصليبيين وتقديرهم^(٣) وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقة في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ، وبذلك فشلت محاولته هذه في تلك المرحلة في استخدام الصليبيين في تأسيس دولة لنفسه على شاطئ الشام ، مثلما فعل بوهيموند في أنطاكية^(٤) .

ولاشك في أن إخفاق الصليبيين في الاستيلاء على عرقة بعد ذلك الحصار الطويل ، وما ظهر في صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ، كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذي لم يلبث أن سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقة . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين في أواخر شهر مارس وأوائل أبريل ، جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن إلى مسالمة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار في دفع الجزية فضلاً عن دفع غرامة حربية باهظة لهم^(٥) . وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس في ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الإدلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء ١٩ مايو أمام بيروت^(٦) .

(1) Michaud : op. cit., p. 361 .

(2) Runciman : op. cit., I, p. 272 .

(3) Albert d'Aix, pp. 455 & Raymond d'Agiles, p. 289 .

(4) Stevenson : op. cit., p. 32 .

(5) Raymond d'Agiles, p. 285 & Guillaume de Tyr, pp. 308 - 309 .

(6) Albert, d'Aix, pp. 455 & Raymond d'Agiles, p. 289 .

الفاطميون وبيت المقدس :

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين - الذين أطلق عليهم اسم المصريين - وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال ؟؟ »^(١) . ثم يسترسل أبو المحاسن في وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين في العراق والشام حاولوا صدّهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج ؟ »^(٢) .

والحقيقة هي أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها - كما سبق أن أشرنا - وانهضوا فرصة ما حل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبين المقدس ، ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعاً . ولا أقل لإثبات صحة هذا الرأي من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس^(٣) .

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك اتسز بن أوق (الأقيس) أن يستولي على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أتسز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تتش الذي عين أحد رجاله التركمان - وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة - حاكماً على بيت المقدس . وعندما توفي أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكرمان تحت سيادة ابنه دقاق بن تتش ملك دمشق^(٤) .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ، لذلك رحبوا بتقدم الصليبيين في منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك السنيين ، ووجدوا في ذلك فرصة طيبة لاسترداد حقوقهم الضائعة في

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٧ . ويقصد بعساكر مصر الجيش الفاطمي .

(٣) للوقوف على حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية ، أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية (بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٩) وأنظر كذلك : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى (للمؤلف) ص ١٦٥ وما بعدها .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ ، ٤٩٢ هـ ، وابن القلانسي ، ص ١٢٥ .

فلسطين . بل إن المؤرخ ابن الأثير لم يتردد في إتهام الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة إلى بلاد الشام ليساعدونهم ضد الأتراك السلاجقة^(١) . وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في صور ليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابه نصف قرن من الزمان ، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة في تلك اللحظة التي وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار في بلاد الشام ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدم الفرنج أو يقف في طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت ، الإنتقام للعنصر العربي بوجه عام ، والشيعة بوجه خاص^(٢) . ولم يكد يحل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه ، حاكم مصر الفعلي عندئذ (١٠٩٥ - ١١٢١) إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة . ووصلت رسل الأفضل فعلاً إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها (١٠٩٧ - ١٠٩٨) كما سبق أن أشرنا . أما العرض الذي تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالي (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين^(٣) . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم في غرب أوربا ويتحملوا ما تحملوه في الشرق إلا لاستخلاص الأراضي المقدسة في فلسطين . ففلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هما الهدف الأول الرئيس للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختراروا أن يتركوهم على عماهم ولم يفصحوا

(١) وقيل : أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الإقسيس (أنسز) إلى مصر وحصرها ، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ) . ويعني بالمسلمين أهل السنة .

(2) Grousset : Hist., des Croisades I, pp. 144 - 145 .

(3) Setton : op. cit., vol. I, p. 316 .

لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة - زداً على سفارة الأفضل - تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك^(١).

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين ، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور «بالسيف» في ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب^(٢) . ولم يلبث أن حان الوقت المناسب والصليبيون مازالوا متعثرين في منطقة أنطاكية فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سقمان (سقمان) الأرتقي وأخيه إيلغازي في ١٠٩٧^(٣) . وقد أحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازي ومن معهما وأجزل لهما العطاء . كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فأتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبني أرتق هناك^(٤) . أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية . ولم تكد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالاً ومجرى الأردن شرقاً^(٥) .

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن تلثب أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطمين على بيت المقدس ، غدا الحليفان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ، كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج إلى أماكنهم المقدسة على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين^(٦) . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم

(1) Michaud : op. cit., I, p. 362 .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٥ ، سنة ٤٩١ هـ .

(٤) « فسارا إلى دمشق ثم عبرا الفرات ، فأتقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغازي إلى العراق » (ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) .

أنظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٥ -

(5) Setton : op. cit., I, p. 316 .

(6) Michaud : op. cit. I, pp. 362 - 363 .

سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن بمعونة الرب واراדתه . وكان معنى ذلك بداية الصدام بين الصليبيين والفاطمييين من أجل بيت المقدس^(١) .

سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، ولكنهم - فيما يبدو - لم يتركوا قوات كافية لدعم نفوذهم فى تلك الجهات والدفاع عنها ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى^(٢) . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا إقليم طرابلس فى طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك المدن الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها ، فتحصل على مسالمة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالمؤن فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للأهالي^(٣) . وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول فى طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا فى إحتلال بيت المقدس^(٤) . وهذا يعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو ١٠٩٩) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة^(٥) .

وبعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور ، حيث انضم إليهم (٢٣ مايو سنة ١٠٩٩) بعض الفرسان القادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور ، فمروا بعكا التى قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس^(٦) . وهكذا مضى الصليبيون فى تقدمهم فمروا بقيسارية فى ٢٦ مايو ، ثم بأرسوف بعد ذلك

(1) Guillaume de Tyr, I, pp. 305 - 306 .

(2) Runciman : op. cit. I, p. 275 .

(3) Setton, op. cit., p. 341 .

(4) Albert d'Aix, p. 458 .

(5) Guillaume de Tyr, p. 33

(٦) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يقدروا عليها » (الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) والرواية الأولى هى التى أجمعت عليها المصادر الصليبية .

بقليل^(١) . ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا ، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلى ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائماً على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر، فاحتلوا الرملة التى هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة^(٢) . وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التى أقامها البيزنطيون . فلما علم أهل تلك الناحية ، باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة ، ولكن الصليبيين رمموها ، وأقاموا أسقفاً كاثوليكياً على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسيه فى كنيسة القديس جرجس^(٣) .

وأهم ما حدث فى تلك الفترة التى قضاها الصليبيون فى الرملة (أوائل يونية سنة ١٠٩٩) ، أنهم عقدوا مجلساً للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها رأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً فى القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على دلتا النيل^(٤) . وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت ميطرة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التى أحاطت بالصليبيين فعلاً فى نهاية القرن الحادى عشر لم تسمح مطلقاً بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد ولدت بعد ، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت فى فلسطين مثلاً صار عليه الوضع فى القرن الثالث عشر^(٥) .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فغادر الصليبيون الرملة فى ٦ يونية سنة ١٠٩٩ . وفى الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلاً عن أنهم استحضروا عمالاً من مصر لتقوية الاستحكامات فى بيت المقدس^(٦) . لذلك أرسل جودفرى

(1) Albert d'Alex, p. 460 .

(2) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 33 .

ويقول أبو المحاسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة " وقت إبراك الغلة " أى وقت الحصاد . (النجوم الراهرة ج ٥ ص ١٥٠) .

(3) Gesta Francorum : p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313 .

(4) Raymond d'Aix, p. 299 .

(5) Albert d'Aix, p. 292 .

(6) Ibid .

فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعاً أتباع المسيح ورعاياه ، لافرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان^(١) . وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبي ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونية ، إلا وكان الصليبيون جميعاً أمام أسوار بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون في وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارت رؤياها في نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم^(٢) .

وفي تلك الأثناء كان افتخار الدولة - حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل^(٣) - قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسم الآبار ، وقطع موارد الماء ، وأخفى المواشي^(٤) ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ، فضلا عن إهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمداً في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند الفاطميين والسودان^(٥) .

ولم يكد الصليبيون يشرعون في حصار بيت المقدس في ٧ يونية سنة ١٠٩٩ حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم^(٦) . وفي حوالي منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوبية التي استطاعت الاستيلاء على المدينة في سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف . ومن الثابت أن تلك السفن الجنوبية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين^(٧) ، الأمر الذي جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التي تجلبها لهم الأساطيل الغربية^(٨) . ولاشك في أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال في دعم مركز الصليبيين ، وفي إمدادهم بما احتاجوا إليه ، مما مكّنهم من مواصلة الحصار والهجوم ، في الوقت الذي كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت

(1) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III) , pp. 354 - 355 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 318 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ، ص ١٤٨ .

(4) Gesta Francorum. p. 199 & Raymond d'Agiles pp. 293 - 294 .

(5) Foucher de Chartres (Hist. Occid . III) p. 359 .

(6) Gesta Francorum, p. 195 .

(7) Heyd : Hist. du Commerce I, pp. 134 - 135 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 258.

(8) Gesta Francorum, p. 199 .

المقدس ومقطوعة عن العالم الخارجي تماماً^(١) .

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف ، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم . ولم تلبث أن انتشرت إشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من مصر في طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها ، مما جعل الصليبيين يفكرون في القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة^(٢) . لذلك أقام الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة ، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود ، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه^(٣) . أما البرج الثاني فقد زحف الصليبيون به حتى الصقوه بالسور وحكموا به على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون^(٤) .

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذي قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالي ، أى الجمعة ١٥ يوليو ، وهو اليوم الذي استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً^(٥) . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتباء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة ، حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين !!^(٦) .

وفي الحال أخذ جودفري بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، في حين قام البعض الآخر - مثل تنكرد - باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهـبـوها عن

(1) Chalandon : Première Croisade, pp. 269 - 271 .

(2) Runciman : op. cit. I, pp. 283 - 284 .

(٣) ابن الأثير : الكامل - حوادث ٤٩٢ هـ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(6) Gesta Francorum . p.p. 203 - 205 .

آخرها^(١) .

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم في سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة في القطاع الجنوبي . أما افتخار الدولة - حاكم المدينة الفاطمي - فقد احتفى مع طائفة من الجند بمحارب داود حيث اعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام ، ولكنهم لم يلبثوا أن القوا السلاح بعد أن « بذل لهم الفرنج الأمان »^(٢) . فعلا أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين^(٣) .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب^(٤) . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتفى به من المسلمين ، وعددهم مايزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . ومهما يكن في هذا الرقم الذي ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية وعظم الجرم الذي اقترفه الصليبيون في بيت المقدس^(٥) .

(١) " أخذ الصليبيون من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمئة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة (أي فضة) ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه ما لايقع عليه الإحصاء " .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٣) المرجع السابق Gesta Franco rum p. 205 &

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٥) لم يذكر هذا الرقم من الضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون - مثل ابن الأثير - فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون - مثل ابن العبري الملطي الذي ذكر بالنص الواحد " ولبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفاً " (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

كذلك ذكر متي الرهاوي أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين

آلفا . (Doc. Arm, I, p. 45)

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت الرعب والإشمزاز^(١) . كذلك ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون فيه ، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه^(٢) . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ؛ إذ جمعوا اليهود في الكنيس وأحرقوه عليهم^(٣) .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى^(٤) . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحيانا - فيما بعد - في معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهي المذبحة التي ظلت تشكل جرحا داميا في قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام^(٥) .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار في برود ، وظلت تغط في سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في الشام . وهناك في بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ، وحضروا في الديوان (الخليفة) وقطعوا شعورهم واستغاثوا ويكوا . وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين^(٦) . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكناً ، وكذلك السلطان بركياروق ، ووقع التقاعد^(٧) .

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 354 .

(2) Raymond d'Aigles, p. 300 .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ . Michaud : op. cit., I, pp. 424 - 425 .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, p. 161 &

Runciman : op. cit. I, p. 278 .

(5) Runciman : op. cit. I, p. 287 .

(٦) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

(٧) وقد قال أبو المظفر الأبيوردي شعراً في عدم اكتراث الخلافة العباسية ، واعتماد المسلمين

عندئذ على البكاء والنحيب : =

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التي أُنذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا في الشمال بفضل جهود زعماء حركة الجهاد من الأتراك والأكراد ، وكان ذلك بعد أن نجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم في بلاد الشام .

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وقائع يلحق الذرى بالمناسم
على هفوات أيقظت كل نائم
ظهور المنكى أو يطون القشاعم
تجرون نيل الخفض فعل المسالم
رماحهم والدين واهى الدعائم
ولا يحسبون العار ضربة لازم
ويغضى على ذل كماء الأعاجم

==
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
فأيها بنى الإسلام إن وراكم
وكيف تنام العين مله جفونها
وإخوانكم بالشام يُضحى مقلهم
تسومهم الروم الهوان وأنتم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
أترضى صناديد الأعراب بالأذى

أنظر : ابن الأثير : الكامل - حوادث ٤٩٢ هـ .

الفصل الثاني تنظيم الفتح

بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية أمام الصليبيين، هي تحديد وضع البلاد التي استولى عليها الصليبيون، وطريقة تنظيمها، وكيفية بناء دولة غربية صليبية على أرض شرقية إسلامية، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوربا ليلقى بها جميعاً في صعيد واحد^(١). حقيقة أن الحرب الصليبية جاءت وليدة المصادقات التاريخية، كما أن نجاحها أيضاً تم نتيجة المصادقات التاريخية، إذ نبقت الدعوة الصليبية في الوقت الذي ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة. ولكن كان لزاماً على الصليبيين الأوائل بعدما حققوه من نجاح في الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف، لخلق دولة ثابتة في بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى. وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفصل الأول في وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨) أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين في ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول في حكمها في ١١ نوفمبر سنة ١١٠٠، فكانت فترة انتقال، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمراء ورجال الدين من جهة والأوضاع التي يتطلبها قيام ملكية مدعومة النفوذ والسلطان من جهة أخرى. وفي فترة الانتقال هذه، قام جودفري بوايون بالوصاية على بيت المقدس^(٢).

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من الاجهاز على جميع من في بيت المقدس من المسلمين، هي عدم وجود زعيم أوحد أو رئيس أعلى أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, pp. 28 - 29.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 164 - 165.

فضلا عن تنظيم البلاد التي فتحوها^(١). وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التي أصابتهم ب وفاة أدهمار المندوب البابوي، وهو الذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين، فضلا عن أنه كما يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته. ولكن وفاة أدهمار في أنطاكية في أول أغسطس سنة ١٠٩٨ - كما مر بنا - أدت إلى افتقار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية، كما أصبحت تلك الحملة - من الناحية السياسية - لا تعدو مجرد حلف بين الأمراء، يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم^(٢). وفي وسط ذلك الفراغ ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف في الطريق لتحقيق كسب خاص، مثلما فعل بلدوين البولوني في الرها وبوهيموند في أنطاكية، وما أراد أن يفعله جودفري بوايون في جبلة، وريموند في عرقة^(٣).

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفري بوايون لأن ريموند منعه من التوقف في جبلة، وريموند لأن جودفري بدوره منعه من التوقف في عرقة وطرابلس؛ فضلا عن تنكرد وروبرت دي فلاندرز وروبرت النورماني. وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة القيامة في بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله طالبين حسن الثواب^(٤).

جودفري والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية في ١٧ يوليو لتنظيم فتحهم الجديد، وعندئذ برزت المشكلة الأولى، وهي هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح في المطالبة بالإشراف على بيت المقدس، لأن البابا أوربان الثاني هو صاحب الفضل في الدعوة للحرب الصليبية^(٥). ولو كان الزعيم الروحي للحملة الصليبية الأولى -

(1) Runciman : op. cit. I, p. 289.

(2) Runciman : op. cit. I, p. 289.

(3) Chalandon : Première Croisade, p. 278 - 279.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 357.

(5) Michaud. op. cit. I, p. 428 - 429.

وقد توفي البابا أوربان الثاني في ٢٩ يوليو ١٠٩٩، أي بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين بأسبوعين، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذي طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥.

وهو المندوب البابوي أدهمار - حياً ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا في تلك الدولة الجديدة، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة، وما قام به من دور بارع في توجيه الأمراء المشتركين في الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى^(١) وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خالياً عند سقوطها في أيدي الصليبيين، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسي - سيمون (سمعان أو شمعون) - مات في قبرص قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وبذلك أصبحت دولة الصليبيين مطلقة اليد في تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على بيت المقدس^(٢).

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية في بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم، كانت فكرة خاطئة، ولا يمكن تنفيذها، وأنه كان لا يمكن لها البقاء. ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين في بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها. ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة، لاسيما وأنه لم يكن بصحبتهم الزعيم الديني الرشيد الذي يصلح لتلك الزعامة^(٣).

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد. وهنا بدأت مشكلة أخرى، هي أي الأمراء يفضل الآخريين ليكون زعيماً لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوروبا، جعل الأمر محصوراً بين إثنين، هما ريموند وجودفري^(٤). وليس هناك من شك في أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه، هذا فضلاً عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذي جعله يؤثر التحالف مع الدولة البيزنطية^(٥). على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره. هذا إلى أن سياسته تجاه الإمبراطور ألكسيوس كومنين، وإفراطه في التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين، حتى فرسانه ورجال جيشه. ومع

(1) Setton : op. cit, I, p. 338.

(2) Albert d'Aix (Hist. Occid, VI) p. 489.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 166 - 167.

(4) Archer : The Crusades, p. 93.

(5) Runciman : op. cit. i, p. 291.

ذلك فان بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه، ولكنه رفضه ^(١) وهكذا لم يبق هناك سوى جودفرى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر، ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ ^(٢).

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهيئة، إذ كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص. هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من لين وسهولة تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطراً من جانبه.

ومهما يكن من أمر، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس. وقد رددت الأساطير أن التاج عرض عليه ولكنه رفض أن يرتدى تاجاً من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجاً من الشوك ^(٣) لذلك اكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو «حامى بيت المقدس، Advocatus Sancti Sepulchri» ^(٤) ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافاً منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها. وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية صليبية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها ^(٥).

أختيار أرنولف مالكورن بطرقاً على بيت المقدس :

وكان أن أخذ رجال الدين فى بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب، بعدما لمسوه فيه من لين العريكة. وعندما اجتمع رجال الكنيسة فى أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن ^(٦). وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار، وحاولوا تجريح أرنولف، والقول بأن انتخابه غير قانونى لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء

(1) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

(2) Iorga : hist. des Croisades, p. 67.

(3) Michaud : op. cit. I, p. 436.

(4) Runciman op. cit. I, pp. 292 - 293.

(5) Grousset : op. cit I, p. 171.

(6) Richard : ie Royaume Latin, p. 93.

زحف الصليبيين على بيت المقدس، ولكن كل هذه الطعون لم تجد، لاسيما وأن عدم اختيار ريموند حاكماً أضعف من مكانة رجاله أبناء إقليم بروفانس^(١).

على أن البطرق الجديد كان من جانبه معتدلاً، فاختار ألا يقحم نفسه في مشاكل مع جودفري وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية. وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرسى بيت المقدس، فزود كنيسة القيامة بأجراس لأعلان مواعيد الصلاة - وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين في بيت المقدس - واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين^(٢). وكان بعض القساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمية قد أخفوا صليب الصلبوت - أو الصليب الأعظم - الذي يقال أن المسيح عليه السلام قد صلب عليه، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على إظهاره^(٣). ولم يعد أمام الأرثوذكس في بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعمائهم الدينيون، وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليكي الجديد^(٤).

(1) Raymond d'Aigles, p. 302.

(2) Runciman : op. cit. I, p. 294.

(3) Raymond d'Agiles, p. 302.

(4) Michaud : op. cit. I, p. 438.

الفصل الثالث

إتمام غزو فلسطين

احتلال نابلس :

بعد أن إستقرت الأمور للصليبيين فى بيت المقدس على النحو الذى أوضحناه صارت الخطوة التالية أمامهم هى الإستيلاء على بقية فلسطين ، حيث لم يمتكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا (١) ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة فى تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب فى نفوس أهالى المدن والقرى المجاورة ، فضلاً عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالى نابلس إلى الإستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة ، فتسلم تنكرد نابلس فى غير صعوبة فى أواخر يوليو سنة ١٠٩٩ (٢) .

ولم يكد تنكرد يفرغ من تلك المهمة ، حتى تلقى رسالة عاجلة فى ٤ أغسطس من جودفرى بوايون - الذى كان فى بيت المقدس - يطلب منه التوجه مباشرة صوب شاطئ البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية ، ومنها إتجهوا جنوباً على إمتداد الشاطئ حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، فقبضوا عليهم ، وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل فى طريقه فعلاً إلى عسقلان لإسترداد بيت المقدس . وفى الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفرى بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلى الصليبيين (٣) .

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل أخذ فى الإستعداد لمقاتلة الصليبيين عندما سمع بزحفهم على مدينة بيت المقدس ، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون إستيلائهم على المدينة المقدسة ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس وقد فات

(1) Grousset :L,Empire du Levant, p. 197.

(2) Gesta Francorum, p.209 & Guibert de Nogent, p304.

(3) Gesta Francorum, p. 209.

الأمر ، ، أى بعد أن إستولى الصليبيون على بيت المقدس بعشرين يوماً (١) . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالإستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة السنة . ولم يسع الأفضل بعد أن تأكد من سقوط بيت المقدس سوى التوقف في عسقلان ومن هناك أرسل رسولا إلى الفرنج بويخهم على ما فعلوه ، (٢) .

ويبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً في ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ، إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضاع وقتاً ثميناً ، ينتظر الأسطول في البحر والعرب ، (٣) . وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظراً في عسقلان إكتشفت الصليبيون أمره فبادروا بالهجوم بوصفه خيراً وسائل الدفاع (٤) . وكان جودفرى بوايون قد أسرع في الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أرنولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورمانى وريموند الصنجيل ومعهما رجالهما (٥) .

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة لى ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوباً في اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير (٦) . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشتت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرأ سوى البحر ، فالتقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا ، في حين إحتفى البعض

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٢ (Rec.Hist. Orient III)

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٢٠٥ (Rec. Hist. Orient III) &

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

وجدير بالذكر أن ابا المحاسن يقول : إن الأفضل جد في السير حتي وصل إلي القدس ثاني يوم فتحه « فقصدته الفرنج وقتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » علي أنه لا يوجد في بقية المصادر ما يؤيد رواية أبي المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولاً ثم ارتد عنها إلي عسقلان (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩)

(4) Stevenson : Op.cit I, p. 35.

(5) Gesta Francorum, P. 211 & Guillaume de Tyr, 380.

(٦) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

الآخر ، بشجر الجميز ، وكان هناك كثيراً ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه ، أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى مدينة عسقلان ومعه بعض رجاله ، ومنها ركبوا سفينة في البحر فارين إلى مصر . وهكذا ، تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر (١) .

ومن الواضح أن النصر المعنوي والأدبي الذي حققه الصليبيون في عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التي غنموها (٢) فكما أن الهزيمة التي حلت بكربوغا عند أنطاكية على أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة شمال الشام ، فكذلك أدى إنتصار الصليبيين في موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين ، بفلسطين ، وإخراجهم من معركة جنوب الشام . فلم يجرؤوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين ، وقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الغزاة . وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة في فلسطين منذ إنتصارهم في عسقلان ، مثلما صارت يدهم طليقة في شمال الشام عقب إنتصارهم على كربوغا (٣) .

وكان أن بدأ جودفرى بوايون بحصار عسقلان نفسها ، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأرادوا الإستسلام فوراً دون مقاومة ، لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس في الحرم الشريف من قتل وذبح . وكان أهل عسقلان قد لمسوا ما فعله ريموند الصنجيل (Saint Gilles) مع إفتخار الدولة – القائد الفاطمي الذي إحتفى مع فريق من رجاله في محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس – إذ أمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان (٤) . لذلك وثق أهل عسقلان في ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين ، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحریاتهم (٥) . وعندما قبل ريموند الصنجيل الدعوة ، خشى جودفرى أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين في مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم دولة بيت المقدس

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

ابن ميسر : تاريخ مصر ٤٦٤ .

Gesta Francorum, pp. 217- 219 & Albert d' Aix, p. 497.

(2) Cam. Med. Hist Vol.5p. 297.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, P.

(4) Setton : op. cit. I. p. 837.

(5) Runciman : op. cit. I, p. 297.

الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر المتوسط ، وبالتالي يقطع الصلة بينها وبين الغرب . لذلك طلب جودفرى من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس ، فاستاء ريموند الصنجيل وفضل أن تبقى عسقلان فى أيدي المسلمين عن أن يستولى عليها جودفرى . وهكذا انسحب ريموند ، وحرص بقية الأمراء على الانسحاب معه ، بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان بالثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التى اشتد أهلها فى المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها (١) .

وفى تلك الأثناء إنصرف ريموند الصنجيل نحو أرسوف محاولاً الإستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفاً له بالمرصاد ، فلقق به وأصر على أن أرسوف هى الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيل نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الإستسلام لجودفرى (٢) . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم ، والمنافسة بين زعمائهم ، إلى عدم تمكينهم عندئذ من الإستيلاء على موانئ فلسطين ، بل إن بلاداً مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون فى سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا إمتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان شوكة فى جانب الصليبيين وقاعدة للقوات التى دأبت على الخروج من مصر للإغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب فى بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها (٣) .

ولم يلبث جودفرى أن إرتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبي ، وأن مهمتهم إنتهت بالاستيلاء على بيت المقدس (٤) . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانئ الهامة فى أواسط بلاد الشام - وهى عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس - فقد بقيت فى

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid III), p. 703.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن «بذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثم عابوا إلى القدس .» حوادث ٤٩٢ هـ .

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 180.

(4) Setevenson : op. cit., p. 36 .

أيدى المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانئ الأربعة الأولى ، في حين كانت طرابلس في قبضة بنى عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة في تلك الموانئ في تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية (١) .

أما عن ريموند الصنجيل ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، إختار أن يبقى في شمال الشام ليعمل - بمساعدة حلفائه البيزنطيين - على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوروبي في تلك المرحلة - أى عقب سقوط بيت المقدس مباشرة - ترك الدولة الجديدة التي ولدت في الشرق في حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، في الوقت الذي أحاط بها أعداؤها من كل جانب (٢) .

تنكرد وإحتلال إقليم الجليل :

وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفرى بوايون سوى تنكرد؛ ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل في فلسطين يعمل تحت رئاسة جودفرى . وكان أن عهد جودفرى إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل وإحتلاله ، على أن يقطعه إياه ليصبح أميراً عليه تابعاً لجودفرى (٣) .

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من إحتلال ذلك الإقليم عقب هزيمة الفاطميين في عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد (٤) وهكذا إستطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فإحتلوا مدينة طبرية في سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قوياً حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة (٥) . وفي الجنوب الشرقى من الجليل إحتل تنكرد بيسان ، وهى مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على

(1) Albert d'Aix, pp. 499 - 500.

(2) Iorga : Hist des Croisades, p. 67.

(3) Raoul de Caen p. 703 & Guillaume de Tyr, I, p. 384.

(4) Runciman : op. cit. I, p. 304.

(5) Albert d'Aix, pp. 217-218.

الاتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانئ فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التي أقامها الصليبيون في بيت المقدس سوى مرفأ واحد على البحر هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاماً على جودفرى بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى وبخاصة الغرب الأوربي عن طريق البحر . ولذلك أخذ يفكر في الإستيلاء على أرسوف - شمالي يافا - وهي التي لم يستول عليها الصليبيون في أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفرى وريموند الصنجيل ^(١) . على أن إمكانات جودفرى كانت قد ضعفت كثيراً وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، في الوقت الذي إفتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر . ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التي أرسلها جودفرى في ديسمبر سنة ١٠٩٩ للإستيلاء على أرسوف وعادت تجر أذيال الفشل ، مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين في بيت المقدس عندئذ ^(٢) .

أما جودفرى فإكتفى بأن ترك في الرملة - على مقربة من أرسوف - بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر في فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى في مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون ممن وقع في أيديهم من المسلمين إنتقاماً وحشياً بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم ^(٣) . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، ولكنه إكتفى بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي لمساعدتهم . وقد تشجع أهل أرسوف عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا في القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون في مارس ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول في تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحه أراضيهم القريبة . وهكذا إنتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون في أواخر مارس ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وتحصيناتها ، وتعرض عليه الدخول في تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية ^(٤) .

(1) Stevenson : op. cit., p. 39.

(2) Albert d'Aix, pp. 507 - 511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182 .

(4) Albert d'Aix, pp. 512 - 514 .

وفى تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل فى تحصين يافا وتقوية إستحكاماتها ، وساعد جودفرى فى هذه المهمة الأسطول البيزى ^(١) . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطئ فلسطين بأكمله ، كما فاقت قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية . وبعبارة أخرى فإن يافا غدت قاعدة لنشاط تجارى وحربى كبير ، بعد أن صارت الميناء الرئيسى لدولة بيت المقدس الصليبية ، فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوة والبندقية وبيزة ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من امدادات من ناحية أخرى ^(٢) .

على أن تحصين يافا على تلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ إتخذ الصليبيون يافا مركزاً لشن غارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب فى قلوب أهل الموانئ الإسلامية فى فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لتلك التبعية ، فضلاً عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواش وغلل وزيت وغيرها من الفروض العينية ^(٣) . كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائه فى الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الإتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم . وهنا نلاحظ أن جميع تلك الإتفاقيات التى عقدها المسلمون فى فلسطين مع جودفرى حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ - سواء تلك التى أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية - كان لها جانبها التجارى ، فضلاً عن الجانب السياسى ، مما جعل البضائع المتعددة - من توابل وغلل وبيض وطيور ومنسوجات ومواش - تتدفق على بيت المقدس ويافا ، بذلك توافر لدولة الصليبيين فى بيت المقدس قسط كبير من الثبات ^(٤) .

(1) Heyd : op. cit. I, p. 135.

أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى فى تحصين يافا فقال : « إنه عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري (تنكرد) » حوادث سنة ٢٩٢ هـ .

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 183 &

Heyd : op. cit. I, p. 136.

(3) Albert d'Aix, p. 515.

(4) Albert d'Aix, p. 516.

على أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التي عقدت بين المسلمين والصليبيين في فلسطين ، والتي حققت قسطاً من السلام المؤقت بين الطرفين ، لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة . من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرّموا على مسلمي فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التي عقدها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى فى البحر المتوسط عندئذ^(١) . وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانئ فلسطين الإسلامية على مايلزمها من أمدادات ومؤن من دمياط والاسكندرية ، مما أدى إلى إضعافها ثم سقوطها فى نهاية الأمر دون عناء فى أيدي الصليبيين . وفى الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجارى فى بلاد الشام فى أيديهم^(٢) . وكانت السفن الغربية التي تتولى حراسة شواطئ فلسطين تتصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الإسكندرية ودمياط وتونس ، لتصادرها وتقتل بحارتها . ومع ذلك فإن تلك الإعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذى تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠ ، فأخذ مسلمو عسقلان يذهبون فى أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة ، فى حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف^(٣) .

سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وفى تلك الأثناء غدا جودفوى بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته - بمساعدة تنكرد - من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد البلقاء) شرقى بحيرة طبرية ، وهو الإقليم الذى كان تابعاً لدقاق ملك دمشق . ذلك أن تنكرد استطاع فى مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم بإغارات مدمرة فى إقليم السواد ، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار - فى الأرواح والأموال - بأهل الإقليم من المسلمين^(٤) . وعندما طلب أمير السواد - وهو الذى أطلق عليه الصليبيون إسم المزارع السمين - النجدة من سيده دقاق ملك دمشق ، أمدّه الأخير بنحو

(1) Heyd : op. cit I, pp. 134 - 136 .

(2) Runciman : op. cit. I, p. 310 .

(3) Albert d'Aix p. 516 .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 186 .

خمسمائة فارس ، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخرة قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين . غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم طويلاً فانسحبوا عائدين من حيث أتوا ، في حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالي الذي لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد ، وإنما أوغل حتى إقتررب من دمشق نفسها (١) .

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق ، تحمل إنذاراً إلى دقاق بإعتناق المسيحية أو ترك دمشق فوراً . فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليه بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام ، فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون . وعندما علم جودفرى وتلكرد بذلك ، خرجا على رأس جميع قواتهما ، واستمر الصليبيون يعيثون فساداً في الجهات والضياح والمزارع المحيطة بدمشق قرابه أسبوعين . أما أمير السواد فقد أدرك أن دقاق عاجز عن حمايته ، فاعترف بالتبعية لتلكرد ووافق على دفع جزية له (٢) .

وعند عودة جودفرى وبوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل ماراً بعكا وقيسارية ، أسرع أمير قيسارية - بوصفه تابعاً لجودفرى - إلى إقامة وليمة حافلة له . وهكذا غدت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية يحيطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها (٣) .

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 310 - 311 .

(2) Albert d'Aix, pp. 518 - 519.

(3) Grousset, op. cit., p. 187.

الفصل الرابع

بطرقية بيت المقدس

دايمبرت البيزى والحروب الصليبية :

كان من المتوقع عقب إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ان تقوم بها حكومة دينية يرأسها أحد رجال الكنيسة، حيث أن البابوية هي التي دعت للحرب الصليبية وحددت للصليبيين الهدف الذي وصلوا إليه فعلاً. ولكن ظهر أنه من الصعب تحقيق هذه الفكرة بعد وفاة المندوب البابوي أدهمار، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية كنسية لها من المكانة والنفوذ ما يساعد على تحقيق ذلك الإتجاه. ومع ذلك فإن تلك الفكرة لم تمت تماماً، لاسيما وأن جودفري بوايون لم يتخذ لقب ملك وإنما إكتفى بلقب «حامى بيت المقدس»، وبذلك إستبعدت على الأقل فكرة ملكية علمانية في بيت المقدس. وكان ذلك هو الموقف في فلسطين عندما وصل إلى الشام دايمبرت رئيس أساقفة بيزة^(١).

والمعروف أن البيازنة قاموا بدور ملحوظ في الحروب الصليبية منذ فجر مولدها، فشاركوا مشاركة فعالة في محاربة المسلمين بأسبانيا طوال القرن الحادى عشر^(٢). ثم كان أن وقف دايمبرت رئيس أساقفة بيزة إلى جانب البابا أوربان الثانى فى مشروعه الصليبي الكبير لإسترداد الأراضى المقدسة بالشرق. هذا بالإضافة إلى ما أثبتته دايمبرت من كفاية سياسية ومهارة نادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة فى الأحداث التى أخذت تجرى عند نهاية القرن الحادى عشر. ذلك أنه قام بدور المندوب البابوي فى الحرب الصليبية التى شنها ألفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين فى أسبانيا. ويبدو أنه نجح فى القيام بذلك الدور، الأمر الذى جعل البابا أوربان الثانى يعينه مندوباً بابوياً فى الأراضى المقدسة خلفاً لأدهمار الذى توفى فى أنطاكية، وذلك على الرغم مما أحاط بدايمبرت من شائعات عن عدم إستقامته وانحراف سلوكه^(٣) ولم يلبث أن خرج دايمبرت على رأس أسطول بيزى

(1) Michaud: op. cit, II, p.9.

(2) Heyd: op. cit. I, pp. 121- 122

(3) Runciman: op. cit. I, p. 299..

من مائة وعشرين سفينة في صيف سنة ١٠٩٩ متجهاً نحو الشام. ومن الواضح أن جمهورية بيزة كانت تقف بأجمعها خلف دايمبرت، إذ رأى البيازنة في المهمة الجديدة التي أسندت إليه فرصة طيبة للحصول على قسط من المكاسب والإمتيازات، ولا سيما إذا استطاع دايمبرت أن يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس. ولكنه لم يكد يصل على رأس سفنه إلى اللاذقية حتى كان كل شيء قد إنتهى بإستيلاء الصليبيين فعلاً على بيت المقدس في ١٥ يوليو (١).

ومع ذلك فإن بوهيموند النورمانى أمير انطاكية أسرع إلى الترحيب بالبيازنة، وأراد أن يستغل تلك القوة الكبيرة في بسط نفوذه على الاطراف الشمالية لبلاد الشام، لا سيما وان بوهيموند كان مفتقراً الى قوة بحرية تمكنه من تقويض النفوذ البيزنطى في الجهات الساحلية (٢)؛ حيث استطاع بعض حلفاء الدولة البيزنطية مثل الامير الانجليزى إدجار أيثلنج Edgar Aetheling وريموند الصنجيل السيطرة على اللاذقية. لذلك عقد بوهيموند إتفاقاً مع دايمبرت للإستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام. وتعتبر هذه الإتفاقية الحلقة الأولى في سلسلة الإتفاقيات التي عقدتها بيزة مع الصليبيين في الشرق لتحقيق مكاسب واحتكارات تجارية (٣).

وفى ذلك الوقت وصل ريموند الصنجيل وروبرت دى فلاندرز وروبرت النورمانى إلى جبلة، فإستاءوا إستياءً بالغاً لهجوم بوهيموند ودايمبرت على اللاذقية، لأن ريموند بالذات كره أية زيادة لنفوذ بوهيموند، فضلاً عما يسببه الهجوم على اللاذقية من تعكير صفو العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذى كان الصليبيون دائماً أبدأ في حاجة الى معونة البيزنطيين (٤). ولم يكن من الحكمة مطلقاً ان يبدأ المندوب البابوى دايمبرت أعماله في الشرق بالعدوان على الإمبراطورية البيزنطية، مما يوسع شقة الخلاف بين الشرق والغرب المسيحيين، وبين الدولة البيزنطية والصليبيين في الشام ثم بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية.

وإزاء ذلك الإستياء الذى أبداه ريموند وزميلاه، اضطر بوهيموند ودايمبرت الى رفع الحصار عن اللاذقية، فدخلها ريموند وأعوانه، حيث رحب به الاهالى

(1) Grousset: op. cit. I, p. 191.

(2) Albert d'Aix, pp. 500- 501.

(3) Heyd: op. cit. I, p. 135.

(4) Chalandon: Alexis Comnene, p. 218.

ورفعوا علمه إلى جانب علم الإمبراطور البيزنطي^(١). وبعد ذلك أبحر روبرت دي فلاندرز وروبرت النورمانى عائدين إلى الغرب عن طريق القسطنطينية، فى حين بقى ريموند الصنجيل فى اللاذقية^(٢).

دايمبرت وبوهيموند فى بيت المقدس:

على أنه يلاحظ أن بوهيموند الأنطاكى لم يف حتى ذلك الوقت بقسمه الصليبي الخاص بزيارة بيت المقدس. لذلك لم يكد يصل إلى أنطاكية عائداً من حصار اللاذقية حتي اصطحب دايمبرت، واتجه الاثنان نحو بيت المقدس. ولايستبعد أن يكون بوهيموند - بعد أن لمس المساعدة التى قدمها لها البيازنة ضد البيزنطيين عند اللاذقية - قد وعد دايمبرت بمساندته فى المناداة به بطرقاً على بيت المقدس. ومن يدري، فقد تكون البطرقية هى الخطوة الأولى للوصول بدايمبرت إلى حكم بيت المقدس نفسها وإقامة حكومة ثيوقراطية فيها، لاسيما وأن جودفرى لم يعتمد فى حكمه على حق وراثى شرعى، فضلاً عن ضعفه واعتلال صحته. ولما كان بلدوين أمير الرها قد شغل هو الآخر بإمارته عن الحج إلى بيت المقدس، فقد دعاه بوهيموند لمصاحبته، هو ودايمبرت، فوعد باللاحاق بهما^(٣).

وكان أن خرج بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس، فاتبعها الطريق الساحلى حتى يكونا على مقربة من الأسطول البيزى الذى سار بحذائهما. وبعد أن مرا بجبلّة التى كانت تابعة لأمير طرابلس، أدركا بانياس، حيث إلتقى بوهيموند ودايمبرت ببلدوين. ثم إستأنف الأصحاب الثلاثة سيرهم جنوباً، ومعهم عدد كبير من أتباعهم من الرجال والنساء، حتى قدر موكبهم ببضعة الاف^(٤). وقد مروا بانطرطوس، وصادفوا فى طريقهم كثيراً من المتاعب بسبب إشتداد البرد فى جبال لبنان من جهة، وبسبب الشعور العدائى الذى قوبلوا به والذى حرمهم من الحصول على ما يلزمهم من تموين من جهة أخرى. وهكذا حتى وصلوا الى طرابلس فقدم لهم ابن عمار صاحب المدينة ما كانوا فى حاجة إليه من ميرة وغذاء^(٥). على أنه لا يوجد فى المصادر ما يثبت ان حكام بيروت وصور وعكا التابعين للخلافة الفاطمية - فعلوا مثلاً فعل صاحب طرابلس، فتعرض موكب الصليبيين مرة أخرى

(1) Runciman: op. cit. I.p. 301.

(2) Guibert de Nogent,p. 232.

(3) Setton: op. cit. I.p. 377.

(4) Foucher of chartres, pp. 98. 322-326.

(5) Archer: The crusades, pp.98-99.

للغناء بسبب صعوبة الحصول على التموين، واستمر الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس في ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩ .

وقد سر جودفرى عندما رأى ذلك العدد الضخم من الصليبيين يصلون إلى بيت المقدس، لأنه كان فعلاً في حاجة ماسة إلى الرجال، وصار يأمل في إقناع بعض أولئك الصليبيين بالبقاء في بيت المقدس بعد الحج . ويبدو أنه نجح إلى حد كبير في ذلك ، إذ إختار بعض الصليبيين أن يظلوا في خدمة جودفرى عقب عودة بوهيموند وبلدوين إلى الشمال ^(١) .

على أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى بيت المقدس أمر له أهمية وخطورة في تاريخ الحركة الصليبية، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التي أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام، وهي الفترة التي تطلبت وضع الفتوح الصليبية في إطار معين ثابت . هذا إلى أن وصول أولئك الزعماء الثلاثة سويماً أثار الشعور بوجود نوع من الترابط أو التفاهم بينهم ، فضلاً عن أن ظهور دايمبرت والبيازنة على مسرح بيت المقدس جاء إعلاناً لسيادة الغربيين على البحر ودليلاً على أن الصلة بين الفرنجة في الشام وبين العالم اللاتيني الغربي لن تنقطع ^(٢) .

دايمبرت بطرق بيت المقدس :

— وكانت المشكلة الأولى التي صار على زعماء الصليبيين حلها هي تحديد العلاقة بين جودفرى حامى المقدس من ناحية ، وأميرى أنطاكية والرها من ناحية أخرى . فهل من حق حاكم بيت المقدس أن يباشر نوعاً من الأولوية والرئاسة على أميرى أنطاكية والرها؟ أن جودفرى بوايون لم يتمتع بلقب ملك ، وإنما إكتفى - كما سبق أن ذكرنا - بلقب متواضع هو حامى بيت المقدس . وهذا اللقب فيما يبدو كان لا يمكن أن يخوله حق الزعامة على بقية الأمراء الصليبيين بالشام، مما جعل للعلاقة بين الجانبين تمييز بنوع من الغموض والميوعة حتى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد ^(٣) .

على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن مجئ دايمبرت إلى بيت المقدس عاق - ولو إلى حين - التطور نحو قيام ملكية صليبية فيها . حقيقة إن هذا التطور كان طبيعياً وأمرأ ضرورياً في دولة إعتمدت في بقائها على الحرب، وعاشت في خوف

(1) Runciman : op. cit. I, p. 303 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 193 .

(3) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem. pp. 92 - 93 .

دائم بسبب شعورها بأنها غريبة وسط مجتمع معاد يحيط بها. ولكن كان لابد لكي يتم هذا التطور من أن يكون بطرق بيت المقدس ضعيفاً ، حتى لا يقف عقبة في طريق السلطة العلمانية ونموها. وهنا تبدو أهمية وصول دايمبرت في ذلك الوقت بالذات، لأنه أعلن في بيت المقدس أن إنتخاب أرنولف مالكون بطرقاً عمل باطل وغير قانوني، مما أدى إلى عزله، وشغور كرسي بطرقة بيت المقدس. ومن الواضح أن دايمبرت لابد وأنه رسم تلك الخطة مع بوهيموند أثناء الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس، فاتفقا على الضغط على جودفري الذي كان محتاجاً إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن ان يمدّه بهم بوهيموند من ناحية أخرى^(١).

وهكذا أتاحت الفرصة لدايمبرت فاعتمد على رجاله البيازنة فضلاً عن بوهيموند، حتى تم إنتخابه بطرقاً على بيت المقدس في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩^(٢). ولم يلبث أن ركع جودفري وبوهيموند أمام البطرق الجديد - مثلما يركع الأقباط أمام سيدهم - طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنطاكية على التوالي^(٣) ومعنى ذلك أن بطرق بيت المقدس أصبح السيد الأعلى في البلاد المقدسة، وممثل المسيح فيها، وذلك بوصفه بطرقاً على تلك المدينة من ناحية، ومندوباً بابوياً إختاره البابا - وهو خليفة القديس بطرس - لينوب عنه في الأرض المقدسة من ناحية أخرى. وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والإحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة بقيامهم في حكم إماراتهم .

ثم أن بطرق بيت المقدس الجديد - وهو الرجل القوي الذي ساندته أساطيل بيزة وجيوش بوهيموند - لم يجد أمامه في بيت المقدس أميراً علمانياً قوياً يحد من نفوذه ويوقفه عند حده، لأن جودفري نفسه كان معروفاً بضعفه وطيبته وحرصه على إسترضاء الكنيسة ورجالها، وربما ظن أن هذا هو الطريق الوحيد لإكساب حكمه صبغة شرعية ثابتة^(٤). وخلاصة القول، فإن إختيار دايمبرت بطرقاً على بيت المقدس جاء مظهراً لقيام حكومة ثيوقراطية جديدة في المدينة المقدسة^(٥).

وبعد أن تمت تلك الخطوات التي غيرت وجه الدولة الصليبية الجديدة في

(1) Setton: op. cit. I,p. 377.

(2) Gesta Francorum (HIST. Occid. III), p. 519.

(3) Albert d,Aix, pp. 511 ` 512 & Guillaume de Tyr,p.387.

(4)Michaud: op. cit. II,pp. 9-10

(5) Grousset: op. cit. I,p. 193.

بيت المقدس، عاد بلدوين وبوهيموند إلى إمارتيهما في الشمال في أول يناير سنة ١١٠٠. وقد حاول دقاق ملك دمشق أن يظفر بالأميرين عند بعلبك، ولكنهما أفلتا من قبضته وعادا سالمين^(١). وربما لم يكن لهذه المحاولة في حد ذاتها أهمية سوى أنها نبهت الصليبيين إلى أن بقاء دمشق وعكا وغيرها من المدن الواقعة في وسط بلاد الشام بأيدي المسلمين، وكان يشكل خطراً جسيماً على الصليبيين، ويفصل بين الإمارات الصليبية في شمال الشام، وبيت المقدس في الجنوب.

أما بوهيموند فقد كسب كثيراً من وراء الدور الذي قام به في مساعدة دايمبرت لأنه ضمن تأييد بطرق بيت المقدس له في حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطي. وعلى أساس هذا التأييد، إتخذ بوهيموند لنفسه لقب «أمير، انطاكية»، كما إتخذ ابن أخته تنكرد لقب «أمير، الجليل»، إشارة منهما إلى انهما لا يتبعان جودفري، وإنما دايمبرت^(٢).

ولم يلبث أن إستحكم النزاع في بيت المقدس بين جودفري ودايمبرت في فبراير سنة ١١٠٠، وذلك عندما أصر الأخير على أن يأخذ جزءاً من يافا وجزءاً من بيت المقدس^(٣) وقد وافق جودفري على ذلك، بل لقد وافق على أن يستولي البطرق على حكم المدينتين بعد وفاته أو بعد أن يستولي جودفري على مدينتي بدلهما من المسلمين، ولكن دايمبرت كان لا يستطيع الإنتظار وأخذ يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية في بيت المقدس^(٤).

ومهما يكن من أمر، فإن جودفري بوايون لم يلبث أن مرض بالحمى، وهو المرض الذي أدى إلى وفاته بعد بضعة أشهر، مما أثار مشكلة اختيار خلف يحل محله في المطالبة بحقوقه وسلطاته في بيت المقدس^(٥).

تنكرد وفتح حيفا :

أما عن المسلمين في المدن الساحلية، فقد قاموا في تلك الأثناء بإغارات من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة. ولم تقو الحامية التي تركها الصليبيون في الرملة على الصمود أمام تلك التهديدات، فأسرعت إلى طلب

(1) Guillaume de Tyr, pp. 387 - 388 .

(2) Runciman : op. cit. I, p. 306 .

(3) Michaud : op. cit II, p. 10 .

(4) Guillaume de tyr, pp. 388-390 .

(٥) أجمعت المصادر الغربية والصليبية على أن جودفري توفي بالحمى، وهذا يخالف الرواية التي نكرها ابن الأثير وهي أنه مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا .
(الكامل، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

المعونة من جودفرى . وقد أسرع جودفرى بوايون - بمساعدة البيازنة - بتحسين يافا فى أوائل سنة ١١٠٠ . ويبدو أن تلك التحصينات التى قام بها الصليبيون ، بالإضافة إلى مارآه المسلمون من مجئ بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة ، هى التى جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل اموال معينة تعهدوا بدفعها (١) .

ولم يلبث أن وصل الى يافا فى يونية سنة ١١٠٠ أسطول بندقى من مائتى سفينة . ومن الواضح أن هذه الحملة البندقية إنما أتت إلى الشرق للمشاركة فى الحرب الصليبية من ناحية ولتحقيق ما يمكن تحقيقه من مكاسب للبندقية فى الشرق من ناحية أخرى ، وذلك أسوة بما فعلته بقية الجمهوريات الإيطالية التجارية فى عصر الحروب الصليبية (٢) وقد عرض البنادقة خدماتهم على دولة بيت المقدس الصليبية للمساهمة فى محاربة المسلمين ، بشرط أن يكون لهم الثلث فى كل مدينة يساعدون فى الإستيلاء عليها ، ليتخذوا من ذلك الثلث حياً تجارياً يباشرون فيه نشاطهم التجارى . فإذا نجحوا فى الإستيلاء على طرابلس كانت المدينة بأكملها لهم ، مع تعهدهم بدفع ضريبة سنوية رمزاً للتبعية لدولة بيت المقدس . وفى مقابل كل ذلك وضع البنادقة أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥ اغسطس (٣) .

وكان أن بدأ البنادقة يحاصرون عكا من ناحية البحر ، فى الوقت الذى أخذ مرض الموت يزداد وطأة على جودفرى بوايون ، فقام دايمبرت بطرق بيت المقدس وتنكرد بالمساهمة فى حصار عكا من ناحية البر (٤) . ولم تلبث أن جاءت الاخبار بوفاة جودفرى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ وعندئذ اقترح دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا وتوجيه الجهود ضد حيفا ، حيث أن هذه الاخيرة أقرب إلى بيت المقدس وأكثر نفعاً للصليبيين . وكانت حيفا تابعة عندئذ للدولة الفاطمية ، فيها حامية صغيرة ، ولكن معظم سكانها من اليهود الذين كرهوا المسيحيين كراهية شديدة ، ومن ثم أبدوا مقاومة عنيفة (٥) .

وعندما إنتشرت الشائعات بأن حيفا أوشكت على السقوط فى أيدى الصليبيين ، علم تنكرد بأن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن تكون هذه

(1) Stevenson : op. cit. p. 40 .

(2) Runciman:op. cit. I,pp. 312 - 313

(3)Heyd: op. cit. I, 136.

(4) Translatio Sancti Nicolai Veoetian (Hist Occid, Tome V),pp. 272-275.

(5) Albert d'Aix p. 527.

المدينة من نصيب أمير آخر إسمه جالدمار، وعندئذ هدد تنكرد بالانسحاب وأعلن أنه لن يعمل لحساب غيره، لاسيما وأن حيفا كانت الثغر الطبيعي لإماراته في الجليل^(١). ولكن البطرق دايمبرت إسترضى تنكرد بسرعة ووعده بحيفا، فضاغف تنكرد جهوده حتى سقطت حيفا في أيدي الصليبيين في أغسطس سنة ١١٠٠ وبذلك إكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغرها على البحر، وإن كان تنكرد نفسه لم يهنأ طويلاً بذلك النصر، إذ لم تلبث الظروف أن اضطرتّه إلى نقل نشاطه إلى مسرح آخر^(٢).

(1) Setton, op. cit., I, p. 380.

(2) Grousset: Hist. des Croisades, I, p. 290.

الباب الخامس
تأسيس ملكة بيت
المقدس الصليبية

« قلل هاء ننب نعلم بالأنفسين
أعمالا . الذين ضل سعيهم فح
التياء الدنيا وهم يفتسون أنهم
يفسئون صنعا »

(الكهف : ١٠٣ - ١٠٤)

الفصل الأول

النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت يفرض نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفري بوايون في بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكي والثيوقراطي ، وفيه ترضية - ولو جزئية - لتطلعات الأمراء وتطلعات رجال الكنيسة ، ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها ^(١) ويقول المؤرخ وليم الصوري إن جودفري بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت في حكم بيت المقدس ، وذلك في حالة عدم وجود ورثة مباشرين من سلالة لجودفري نفسه ^(٢) . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس الى حكومة ثيوقراطية فعلاً ، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ما كان يسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على ان قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس واستبعادا كل فكرة تستهدف نظاماً ملكياً وراثياً ، كان امراً صعب التحقيق . ذلك ان المدة القصيرة التي تولى فيها جودفري بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية في بيت المقدس حتى يتحقق الإستقلال للكيان الصليبي . هذا فضلاً عن أن أرنولف مالكورن - البطرق السابق لبيت المقدس الذي خلفه دايمبرت - كان له أنصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية في بيت المقدس ، لا شئ سوى التشفى في دايمبرت والوقوف في وجه أطماعه وآماله ^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية في ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون ، وأرادوا ان تكون

(1) Stevenson: op. cit.p. 42.

(2) Guillaume de Tyr, p. 403.

وهناك رأى آخر رددته بعض المراجع يؤكد أن جودفري بوايون أوصى فعلاً لاختيه بلدوين امير الرها بان يرثه في حكم بيت المقدس . انظر:

Cam: Med. Hist. vol 5.p. 304 &Stevenson:op. cit.p.42.

(3) Albert d'Aix, p. 526.

الملكية المنشودة محصورة في ذلك البيت بالذات. وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فوافدوا من قبلهم اسقف الرملة ومعه إثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين أمير الرها ومطالبته بالحضور على وجه السرعة لإستخلاص حقوقه وتولي السلطة، بوصفه الوريث الشرعي لدولة الفرنجة في بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري^(١) وعندما أحس دايمبرت بهذا الإتجاه اخذ يفكر في وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الفوز بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الامراء الصليبيين ممن يعتبرون أناداً لبلدوين نفسه . وفعلاً فكر دايمبرت في صديقه بوهيموند أمير انطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التي تستطيع ان تقف في وجه بلدوين وتحول دون وصوله الى حكم بيت المقدس . هذا فضلاً عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم من بينهم تنكرد ابن اخت بوهيمند^(٢) . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على انه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن إتفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التي يمكنها الوقوف في وجه بلدوين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى^(٣). ويتضح من الرسالة التي بعث بها دايمبرت وتنكرد الى بوهيموند ان الغرض منها كان إستثارة الأخير، وانه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة فتنة أو حرب أهلية بين الصليبيين بعضهم وبعض في بلاد الشام ، أعنى بين بلدوين أمير الرها من جانب وبوهيموند أمير النطاكية من جانب آخر، مما يؤدي بالصليبيين جميعاً في الشرق إلى كارثة كبرى. وفي وسط تلك الازمة إزداد وضوح الرأي الذي نادى به عقلاء الصليبيين ، وهو ضرورة قيام ملكية علمانية وراثية قوية في بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحميهم من خطر المسلمين أو البيزنطيين من جهة أخرى^(٤).

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التي بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، اذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية في أيدي رجال ديموند الصنجيل، المنافس اللدود لبوهيموند^(٥). ولعلنا نذكر كيف أصر

(1) Michaud:op.cit.II,P. 19.

(2) Stevenson: op. cit., p. 42.

(3) Guillaume de Tyr,p. 406.

(4) Richard: Le Royaume Latin,pp. 62- 63.

(5) Albert d.Aix,p.624.

ويلاحظ ان ريموند نفسه لم يكن موجوداً عندئذ في بلاد الشام. وانما كان متغيباً في زيارة القسطنطينية، بناء علي دعوة الامبراطور البيزنطي.

(Runciman: op. cit. I,pp. 318-319)

بوهيموند على حرمان ريموند من أى حق فى أنطاكية عقب سقوطها، مما أثار شعور المرارة والكراهية فى قلب الأخير. حقيقة أن بوهيموند علم بالأحداث الجارية فى بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان فى الوقت الذى حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث فى شهر يوليو سنة ١١٠٠ - أى فى الوقت الذى توفى جودفرى بوايون - أن كان بوهيموند فى طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمنى ضد التركمان من أتباع غازى كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس، فوقع بوهيموند أسيراً فى قبضة غازى كمشتكين، ولم تفلح الجهود التى بذلها الصليبيون لإنقاذه^(١) وهكذا قدر لبوهيموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات فى قلعة نكسار قرب شاطئ البحر الاسود^(٢)، مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس. والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلاً ذكياً طموحاً لاتفوته فرصة الدعوة التى وصلتته من أنصاره فى بيت المقدس، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويسخر شخصيته الفذة فى خدمة دولة الصليبيين الناشئة فى فلسطين، فضلاً عن تحقيق طموحاته الشخصية، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التى شهدها عصر الحروب الصليبية^(٣).

والواقع أن بلدوين إمتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص، ما كفل له النجاح والتغلب على خصومه^(٤) وتبدولنا أخلاقه فى وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهيموند على يد الملك غازى كمشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركمانى. ذلك أن بوهيموند عندما وقع فى الأسر أرسل رسالة سرية الى بلدوين أمير الرها مستنجداً به، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبى لتكون دليلاً على صدق الرسول. وعندما تأكد بلدوين من صحة الخبر أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه فى اتجاه ملطية لإبراك كمشتكين وفك أسر بوهيموند^(٥) ولكنه لم يكد يصل إلى ملطية حتى كان التركمان قد أسرعوا بالانصراف عنها متجهين إلى سيواس، ومنها إلى نكسار قرب البحر الاسود. وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ملطية من التركمان، وعندئذ أعلن أمير ملطية الأرمنى ولاءه وتبعيته

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٣هـ.

(٢) ابن العديم. زبدة الطلب، ج ٢ ص ١٤٥.

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهيموند وقع أسيراً فى معركة دارت بأرض مرعش.

(3) cam. Med. Hist., Vol. 5, p. 304.

(4) Setton: op. cit., p. 381.

(5) Runciman: op. cit. I, P. 321.

لبلدوين ، الذى ترك بضع مئات من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد الى إمارته فى الرها دون أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان فى عقر دارهم لإتقاذ بوهيموند ^(١) .

على أن بلدوين لم يكد يستقر فى إمارته بالرha بعد عودته من الشمال حتى تلقى فى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التى بعث بها أنصاره فى بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفرى، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور فى المدينة المقدسة. عندئذ أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه أكثر من فرحه للإستيلاء على إرثه ^(٢) . ولم يشأ بلدوين أن يضيق الفرصة التى وافاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة فى ٢ أكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد بشئون الرها إلى قريبة بلدوين دى بوج، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هدها خطر ^(٣) .

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على إتمام رحلته الموفقة إلى بيت المقدس، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقاً ووصلته رسالة دايمبرت، لسبب له ذلك كثيراً من المضايقات. ولكن الأمر لم يقف عند حد أسر بوهيموند ووقوع الرسالة فى يد خصمه ريموند فحسب، بل ان أهل أنطاكية من الصليبيين، حملوا لبلدوين جميلاً كبيراً لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم ^(٤) . لذلك لا عجب إذا إستقبلت أنطاكية بلدوين - وهو فى طريقه الى بيت المقدس - إستقبالاً حماسياً طيباً ، فقضى بها ثلاث أيام ثم غادرها فى ١٥ أكتوبر متبعاً طريق الساحل، فمر باللاذقية حيث التقى بالمندوب البابوى موريس دى بورتو Maurice de porto الذى كان قد وصل الى الشام منذ قريب. ويبدو أن بلدوين واجه بعد ان غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقه دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه، ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس فى ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء ^(٥) . وفى طرابلس أكرمه أميرها العربى أبو على بن عمار، وأمدّه ورجاله بما كانوا فى حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء، وتعهد بأن يحيطه علماً بتحركات عدوهم المشترك، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقى ^(٦) . وليس هذا

(1) Albert de,Aix,pp.525 - 526.

(2) Foucher de chartres (Hist. occid.III) p. 373.

(3) Cam. Med. HIST Vol. p. 301.

(4) Grousset: Hist. des Croisades,I, 208.

(5) Guillaume de Tyr.Ip. 407. 8. Albert d' AIX, P. 528.

(6) Estoire d, Eracles, Ip. 407 & Gesta Francorum,p. 520.

مجال الخوض في العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام في ذلك الوقت، ولكن تكفى الإشارة إلى أن العداء الشديد إستحكم عندئذ بين سلاجقه دمشق من ناحية وبنى عمار في طرابلس من ناحية أخرى، الامر الذى دفع حكام طرابلس إلى السعى لمخالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف في وجه سلاجقة دمشق^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن بلدوين إستطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة إبن عمار. وكان دقاق قد خرج وبصحبه جناح الدولة أمير حمص العربى ، لإصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب في مكان ضيق بين الجبال والبحر^(٢). ولكن المعركة - وفق المصادر الصليبية - إنتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ، الذى غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول^(٣). وهكذا إستأنف بلدوين طريقه الى بيت المقدس، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة في أمراء الموانى الفاطمية على الساحل - مثل بيروت وصيدا وصور وعكا - فقدموا لبلدوين ما إحتاج اليه من زاد وميرة^(٤).

تنويع بلدوين

وأخيراً نجح بلدوين فى الوصول إلى حيفا، وهى أول مدخل ساحلى للصليبيين فى فلسطين. وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد - حليف دايمبرت - ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيباً عندئذ فى بيت المقدس لمساعدة حليفة فى السيطرة على المدينة المقدسة . ولم يستطع أتباع تنكرد فى حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته - بوصفه على الاقل أميراً صليبياً، فضلاً عن إنه أخو سيدهم السابق جودفرى - فحصل بلدوين على ما لزمه من زاد، ثم إتجه إلى يافا، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ فى فلسطين^(٥). ومن يافا إتجه بلدوين الى بيت المقدس، حتى إذا ما إقترب منها حوالى ١٠ نوفمبر سنة

(1) Foucher de Chartres pp. 374 - 376.

(2) Guillaume de Tyr, p. 407.

(٣) يفهم من الإشارة الموجزة التي اوردها ابن الاثير عن تلك الموقعة ان دقاق هو الذي انتصر «علي الفرنج».

كذلك ينكر ابن القلانسي (ص ١٢٨ سنة ٤٩٤ هـ) ان دقاق ومعه جناح الدولة صاحب حمص اعترضوا طريق بلدوين قرب بيروت وان المسلمين ادركوه وقتلوا بعض اصحابه. والكلب بفتح اوله وسكون ثانة، نهر صغير بين بيروت وصيدا .

(4) Albert d'Aix, pp. 528 - 530 .

(5) Foucher de chartres, p. 377

١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة - على إختلاف طوائفهم ومذاهبهم - لإستقباله إستقبالاً رائعاً بوصفه أخو جودفري ووريثه، بل لقد نادوا جميعاً به داخل المدينة المقدسة ذاتها - ملكاً وسيداً عليهم^(١). (١١ نوفمبر ١١٠٠).

وهكذا لم يقدر للحكومة النيوإقطاعية التي أراد البطريرك دايمبرت إقامتها في بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف امام الرأي العام المسيحي، واضطر إلى الإنسحاب إلى كنيسة جبل صهيون^(٢) وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن - بطريرك بيت المقدس السابق الذي عزله دايمبرت - فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين. على ان بلدوين كان على درجة من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بطريركية بيت المقدس، وذلك خوفاً من إحداث فتنة داخلية في تلك الفترة الحساسة من تاريخ بطريركية الدولة الوليدة، وإنما إختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية في المناطق القريبة، أي حول عسقلان والخليل وبيت لحم^(٣). ذلك أنه خرج في ٢٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة، فهاجم العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت. وأخيراً عاد إلى بيت المقدس في ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠^(٤).

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والإتفاق بينه وبين دايمبرت. وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلاً له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين في الشام، فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفة بيزة، أي الزعيم الروحي لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام في قصة الحروب الصليبية. ولم يكن في إستطاعة الصليبيين في الشام أن يستغنوا مطلقاً عن مساعدة الأسطول البيزى، تلك القوة البحرية الضاربة التي كان في وسعها الوقوف في وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانئ التي ظلت بأيدي المسلمين في الشام حتى ذلك الوقت^(٥). هذه الإعتبارات وغيرها لم تغب مطلقاً عن فكر بلدوين، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر، فأثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلاً بعيداً عن التطرف من

(1) Guillaume de Tyr, p. 410.

(2) Idam, p. 411.

(3) Albert d'Aix pp. 533 - 536 .

(4) Stevenson : op. cit. pp. 43 - 44 .

(5) Grousset : Hist . des Croisades, I, p. 216 .

دايمبرت ، مما جعل الأخير يجنح تلقائياً للسلم ويوافق على مبدأ تتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التتويج في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ في كنيسة العذراء ببيت لحم ، فوضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية ^(١) . وتتويج بلدوين تبذرت جميع آمال دايمبرت ، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس ^(٢) .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفري ، وما أعقب تلك الوفاة من أحداث ، بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذي جعله جودفري أميراً على الجليل والذي إستولى على حيفا بعد ذلك ، صار بدون شك الرجل الثاني في دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الحوادث بعد وفاة أخيه جودفري جاء في حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد وبلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلي أيام التنافس بينهما حول الإستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمبرت وأن يمنع بلدوين من الوصول إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل في كل ذلك ، وانتهى الأمر بقيام بلدوين ملكاً على بيت المقدس ^(٣) . وهكذا صار من الصعب علي تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ، بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما إستدعاه أكثر من مرة لمقابلته في يناير سنة ١١٠١ ^(٤) .

وفي وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتنكرد ، تلقى الأخير رسالة في مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين في أنطاكية ، يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية علي إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلاً ناجحاً للموقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التي ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفي الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل إنقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فلسطين في مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطاً من لون آخر في شمال الشام ^(٥) .

(1) Stevenson : op. cit., p. 44.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 63.

(3) Setton : op. cit. I, p. 381 .

(4) Runciman : op. cit. I, p. 325 .

(5) Albert d'Aix, pp. 537 - 538 .

الفصل الثاني

بلدوين الأول والفاطميون

متاعب الصليبيين في الشام

أجمع المؤرخون على أن جودفرى بوايون كانت تنقصه صفات السياسى الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحياناً فى خصومات عنيفة مع بعض زملائه من أمراء الصليبيين، وفى الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغى ، مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية الوليدة لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذى امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلاً عن الشجاعة ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً (١) . لذلك جاءت وفاة جودفرى وتتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس بمثابة إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلاً وشاقاً، ولم تكن المهمة التى أمامه - وهى الخاصة بدعم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام - بالأمر الهين، بسبب الأزمات العديدة التى واجهت الصليبيين فى بداية القرن الثانى عشر (٢) .

والواقع أن الأزمة الشديدة التى عاناها الصليبيون عندئذ فى بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد، وإنما كانت فى حقيقة أمرها أزمة فى المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير فى الفرسان ، فى الوقت الذى كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب (٣) . ولعل خير دليل على إفتقار الصليبيين فى ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عند أسر بوهيموند أمير أنطاكية، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذى كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون فى الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل (٤) .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرهما ، أخذت

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304 .

(2) Runciman : op. cit. II, p. 3.

(3) Stevenson op. cit., p. 39, n I.

(4) Setton, op. cit. I p. 282.

تجلب باستمرار حجاجاً من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيراً ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقية ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسلمون في كثير من الحالات من غارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل في النهاية إلى المستوطنات الصليبية إلا قلة قليلة (١) وبعض هؤلاء كانت إقامتهم لا تطول في الأراضي المقدسة ، وإنما يشرعون في العودة إلى بلادهم في الغرب الأوربي بعد الحج . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون بالشام ، أدركنا في النهاية ، خطورة الوضع الذي أضحت فيه الإمارات الصليبية ، لأن عدد المدافعين لا يتناسب إطلاقاً واتساع الممتلكات الصليبية (٢) . هذا في الوقت الذي كانت تلك الإمارات أشبه بجزر منعزلة وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف ، مما جعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم في تلك الظروف لم يكن مرده قوتهم ، بل ضعف القوى الإسلامية في الشرق الأدنى وتفككها ، وانقسامها على أنفسها (٣) . ولو أقام المسلمون في الشرق الأدنى - أو على الأقل في العراق والشام ومصر - جبهة متحدة عندئذ ، لإستطاعوا في غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الغربية الدخيلة المتناثرة في بلاد الشام ، وتطهير الوطن العربي منها قبل أن يستفحل خطرهما .

وفي مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة ضد القوى الإسلامية المحيطة به ، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته في فلسطين ؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة ، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة سريعة الانتشار تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة ، مكتفياً بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإنجازات السريعة الخاطفة التي حققها الصليبيون في الشام على أيام جودفري ، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب ؛ حققت للصليبيين قسطاً من المهابة في نظر القوى الإسلامية المجاورة (٥) . ولم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكاً على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 218 - 219 .

(2) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 198 - 19 .

(3) Runciman, op. cit., II, pp. 4 - 5.

(4) Guillaume de Tyr, I, pp. 44 - 45 .

(5) Runciman : op. cit. II, p. 7.

عربية كبيرة كانت تعبر الأردن في ربيع سنة ١١٠١ ، فقتل معظم رجالها ، وسيق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة . وكان من جملة الأسرى زوجة شيخ القبيلة وهي على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادماتها وجمالين وقدر من الزاد . ولم تلبث أن وضعت في الطريق وعادت الى زوجها الذي سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجميل في يوم من الأيام ^(١) . ويهمنا الآن من هذه القصة التي رددتها بعض المصادر الصليبية أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر ، جاءت لتزيد من خطره في نظر جيرانه . ولم تلبث الموانئ الساحلية في فلسطين - مثل أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا وصور - أن أرسلت مبعوثين عنها في مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول ، تحمل إليه الهدايا والجزية ، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الإقتصادي والمتاجرة مع الفرنجة . وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقي الذي أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين في موقعة نهر الكلب ، وتم فعلاً تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال ^(٢) .

إستيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تتويجه ملكاً على بيت المقدس خطة إستهدفت ضم جميع شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته ؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ، ولدعم الإتصال مع الغرب الأوربي من ناحية أخرى ، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيراً من أسباب القوة ^(٣) . وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية ، فإن حسن حظ بلدوين أمدّه بأسطول جنوى وصل الى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١ ، ومنها أبحر الى يافا في منتصف الشهر التالي ^(٤) . وكان أن إفتحص بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، وإصطحبهم معه إلى بيت المقدس ، حيث إحتفلوا جميعاً بإحياء عيد الفصح ، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذي يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق أهدافه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات ، فضلاً

(1) Guillaume de Tyr, p. 415 .

(2) Albert d'Aix, pp. 541 - 542 .

(3) Runciman : op. cit. II, p. 7 .

(4) Cafaro : Liberatio Civit. Orionis (Hist. Occid. V) pp, 60 - 61 .

عن درب من دروب السوق في كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزاً يباشرون فيه نشاطهم التجاري^(١).

وقد إختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف ، ذلك الميناء الذي ظل تابعاً للدولة الفاطمية، والذي لم يستطع الصليبيون الإستيلاء عليه من قبل بسبب إفتقارهم إلى المساعدة البحرية . ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة ، فاستسلمت في أواخر أبريل سنة ١١٠١^(٢) وبعد أن ترك بلدوين حامية في أرسوف إتجه براً وبحذائه الأسطول الجنوى في البحر قاصداً قيسارية . وكانت قيسارية أيضاً - من الناحية الإسمية على الأقل - تابعة للدولة الفاطمية ، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلاً فاستولى عليها الصليبيون ، بالسيف ، في ١٧ مايو سنة ١١٠١^(٣) . وتشير المصادر الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية في قيسارية فقتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء وإقتحمها الصليبيون بالسيف ، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها وأعانهم الجنويون عليها ، ، وأعقب ذلك توزيع الغنائم وفقاً للإتفاقية المعقودة مع الجنوية^(٤) . وعندما إحتفى بعض أهالي قيسارية بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين^(٥) .

الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ . موقعة الرملة الأولى :

على أن إستكانة الفاطميين ، والجمود الذي إنتابهم عقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين لم يستمرا طويلاً ، وإنما إختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسي الذي كان حاكم بيروت من قبل^(٦) . وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان ، التي صارت بمثابة مركز إنطلاق لجميع الحملات التي خرجت ضد الصليبيين في تلك المرحلة . على أن الحملة الفاطمية أضاعت كثيراً من الوقت في عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل ، ربما في إنتظار إمدادات جديدة تأتيه من

(1) Guillaume de Tyr, p. 415.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٢٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧ .

(4) Foucher de Chartres, pp. 389 - 390.

وكذلك ابن القلانسي ، ص ١٢٩ .

(5) Albert d'Aix, pp. 453 - 454.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

مصر ؛ مما أتاح فرصة كافية لبلدوين إستعد فيها وجمع قواته ووضع خطته (١) . وأخيراً تحركت الجيوش الفاطمية في أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة ، فأتجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس .

وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية ، وإنما إستهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربي في يافا في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر في ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة المسلمين فوراً (٢) . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التي عليه أن يواجهها ، إذ كانت قواته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارساً وتسعمائة من المشاة ، وهي قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست بأعداد الجيش الفاطمي من المغاربة والعرب والسودان (٣) . ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فإنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا إنتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة (٤) .

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصليبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى إلتقى الخصمان في صباح ٧ سبتمبر في السهل الواقع في الجنوب الغربي من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمي الكبير في تلك الموقعة ، وإنتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خططهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، في حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة - سعد الدولة القواسي - صريعاً في المعركة (٥) . وإستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، في حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم - وما أكثرها - ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) ، فملك الفرنج جميع ما للمسلمين ، (٦) .

(1) Stevenson : op. cit., pp. 44 - 45 .

(2) Runciman : op. cit. II, p. 7.

(3) Albert d'Aix, p. 549.

(4) Foucher de Chartres, p. 392 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(6) Albert d'Aix, p. 553 & Guillaume de Tyr, p. 26 .

ويلاحظ أن رواية أبي المحاسن عن هذه الموقعة غير دقيقة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا «وحملوا علي الفرنج فهزموهم إلي قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسي المذكور ونفر يسير» . (النجوم الزاهر ج ٥ ص ١٥٣) .

ولم يكد بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوربا في طريقها إلى الأراضي المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض أمرائها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج^(١) وبعد أن إحتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢) شرع معظمهم في العودة إلى غرب أوربا ، في الوقت الذي كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين^(٢) .

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ . موقعة الرملة الثانية :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبراً على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من المغاربة والعرب والسودان ، سنة ١١٠٢ ، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل^(٣) وقد إتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذي إتبعته الحملة السابقة ، فأتجه الجيش الفاطمي من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك إتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس .

وكان الملك بلدوين الأول قد إتخذ أهبطه ، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس (١٧ مايو) في قلة من الفرسان تبلغ مائتي فارس ، قاصداً الرملة^(٤) . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله في غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبي كبير أت في أعقاب الملك ، فإختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فوراً قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن في استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية ، فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة ،^(٥) وفر بعضهم إلى يافا ، في حين لجأت

(1) Runciman, op. cit. I, p. 76.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 28 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 423.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

البقية الباقية -ومن جملةهم الملك بلدوين نفسه - إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢) (١) .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان في إستطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها في غير عناء ليقضوا على غريمهم ملك بيت المقدس ، ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالي (٢) . وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره في الصباح التالي ، إذا بفكرة الهروب في منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذي أوحى إليه بهذا الفكرة وساعده في تنفيذها هو شيخ العرب الذي كان بلدوين في العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر وهي تعاني من آلام الوضع ، فحفظ له الشيخ ذلك الجميل وأتى ليساعد بلدوين في محنته (٣) . ومهما يكن من أمر فالهم هو أن بلدوين « تنكر وخرج منها إلى يافا » ، وكان قراره ليلاً ، وبذلك إستطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره (٤) . أما الرملة فسقطت في يد الفاطميين في ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا بصحبة بلدوين (٥) . ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة « أربع مائة صبورا وأسر ثلثمائة إلى مصر » (٦) .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجري على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين - وهو في طريقه إلى يافا - خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، إتجه نحو أرسوف شمالي يافا (١٩ مايو سنة ١١٠٢) (٧) . وكانت فرحة الصليبيين في أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين

(1) Albert d'Aix, p. 593.

ويذكر ابن الأثير في موضع آخر أن بلدوين كان في سبعمئة فارس ، ولم يكن في مائتي فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون . كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين أختفى برنويل في «أجمة قصب» فأحرقها المسلمون ولحقت النار ببعض جسده ففر إلى الرملة . (الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ) .

(2) Setton : op. cit., vol. I p. 365.

(3) Guillaume de Tyr, I, pp. 414 - 415 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(5) Foucher de Chartes, p. 402.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(7) Albert d'Aix, p. 595 .

على قيد الحياة ، بعد أن إنتشرت الشائعات بخير مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، فى حين إستطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحق به كثير من الإمدادات الصليبية ^(١) . وشاءت الصدفة أن تصل إلى ميناء يافا فى أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الإنجليز . وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مختربة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين فى يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة ^(٢) . وفى ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هى إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم فى إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان ^(٣) .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من أربعة آلاف فارس ؛ والأخرى بحرية برئاسة القاضى ابن قادوس ^(٤) ولكن الشيء الذى كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن كثرة الرجال وإنما حسن النظام وإحكام الخطط الحربية ؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له : ما يمكننى أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأت ، ولا أرسل رجلاً ، ^(٥) .

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة الى تنكرد الوصى على أنطاكية ، وإلى بلدوين دى بورج أمير الرها الجديد ، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة ^(٦) . ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألفاً من

(1) Michaud : op. cit. II, p. 30 .

(2) Runciman : op . cit. II, p. 79 - 80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين فى الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا «فبينما هم فى هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير فى البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فندبهم بغدوين (بلدوين) للغزو معه » (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .) .

(3) Foucher de Chartes pp. 404 - 405 & Guillaume de Tyr, p. 435 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٥) المصدر السابق .

(6) Stevenson : op. cit. I, p. 46 .

المشاة أن وصلت يافا في سبتمبر سنة ١١٠٢ ، وعلى رأسها أميراً أنطاكية والرها (١) . وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا في القتال في معركة فاصلة ضد الصليبيين ؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا أثرت الإنسحاب - وفي أعقابها الصليبيون - حتى عسقلان . وفي وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق ، إعتذر عن ذلك ولم يحضر (٢) .

على أن إجتماع تنكرد وبلدوين دي بوج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشاكل حساسة ، محورها تحديد العلاقة بالضبط بين أمارتي أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى . ويبدو أن أهم مسألة أثارت في تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين في التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذي توج بلدوين مكرهاً والذي أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثاني مندوباً إلى بيت المقدس ليتحقق من ذلك الوضع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوي سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك ، وجشعه . وجاءت هذه الإتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة ، مما جعل المندوب البابوي يصدر حكمه بإعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) في المدينة سنة ١١٠٢ (٣) .

على أن تنكرد إنتهز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس في العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب بإعادته إلى بطريركية بيت المقدس ، كشرط أساسي لإعترافه بالولاء لملك بيت المقدس . وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى أنهى الأمر بعقد مجمع ديني في بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية (٤) . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسي

(١) Albert d'Aix, pp. 597 & Raoul de Caen, p. 707.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ . Rec, Hist. or., p. 404 .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٣) Runciman : op. cit., II pp. 81 - 82 .

(٤) Richard . Le Royaume Latin . p. 94 .

بيت المقدس ، ولكنه توفي في يونية سنة ١١٠٧ (١) .

أما تنكرد وبلدوين دى بوج فقد إستاء لعدم تلبية رغبتهما الخاصة بإعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرقي، وإنسحبا إلى إمارتيهما في الشمال (حوالي ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

بلدوين الأول وفتح عكا :

من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائما تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطاً قوياً ، وإلى تأمين إتصالها بالشاطيء تأميناً ثابتاً ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة والشریان الذي ربطها بقلب العالم الغربي وتنزود عن طريقه بما تحتاج إليه من أمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانئ المحدودة التي استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهي يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمح في الإستيلاء على بقية موانئ فلسطين الإسلامية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين (٢) حقيقة أن سيطرة الفاطميين على هذه الموانئ صارت شكلية ، ولكن من يدري ، فربما غدت سيطرتهم فعلية في المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها المسلمون في طعن مملكة بيت المقدس الصليبية في الصميم عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوربي . ومثال ذلك ما حدث في شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطيء الشام بضعة سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب الأوربي ، فأسرت السلطات الفاطمية في صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم في أسواق الرقيق بالقاهرة ، وفق رواية المصادر الصليبية (٣) .

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول في ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة ، وضيق عليها وكاد يأخذها ، . ولكن عكا - كما هو معروف عنها في جميع عصور التاريخ - من أحصن موانئ الشام . ولم تلبث أن وصلت لها النجندات من سائر السواحل ، ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الإستيلاء على عكا لن يتم في سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد

(1) Albert d'Aix, pp. 598 - 600 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 239 .

(3) Albert d'Aix, pp. 600 - 601 .

من حيث أتى (١). ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا في تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عندما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية - التي سبقت الإشارة إليها - ضد يافا في أغسطس سنة ١١٠٣ ، ولكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا . ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها في أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحري عنها (٢).

وأخيراً أتاحت الفرصة لبلدوين الأول في أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على سواحل الشام (٣) . وكان ذلك الأسطول الجنوي قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك ؛ فاستعان به ريموند الصنجيل في القيام بهجوم فاشل على طرابلس ، فلم يروا فيها مطمعاً ، وعندئذ إنتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقتلوها ، حتى طلب أهلها الأمان واستسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل ، وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب ، (٤) . ولم يكد الأسطول الجنوي يفرغ من مهمته في جبيل حتى إستعان به الملك بلدوين الأول في مهاجمة عكا وأخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي (٥) ، الذي قاتل حتى عجز ، ولكن لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر ، فاضطر إلى الاستسلام ، وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً (٦) ، وتذكر المصادر الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذي

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

Foucher de Chartres, p. 406 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

Albert d'Aix, pp. 603 - 604.

(3) Heyd : op. cit, I, p. 139 .

Runciman, II, P. 60.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ . &

(٥) اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل .

(٦) هذه رواية ابن الأثير (الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ) . وتذكر بقية الروايات أن الجيوشي طلب

الأمان وأنه أجيب إلى طلبه . ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبي المحاسن تختلف عن الرواية

السابقة التي أجمع عليها المؤرخون الغربيون : إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشي «طلب

الأمان له والمسلمين فلم يعطوه لما علموا (الفرنج) من أهل مصر أنهم لم ينجدوه » .

(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨) .

أعطاه بلدوين لأهل المدينة فإعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته ^(١).

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام . وكان بلدوين قد وعد الجنوية بإعطائهم ثلث عكا ليكون حياً تجارياً لهم . وفعلاً أوفى بوعده ، كما منحهم ثلث قيسارية وأرسوف أيضاً ^(٢) . أما عن المسلمين فإن خسارتهم بضياح عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحد بعد آخر في أيدي الصليبيين . من ذلك مايقوله أبو المحاسن عن الخليفة الأمر الفاطمي أنه كان «يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى إستولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرياً فهو كلا شيء» ^(٣).

الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥ . موقعة الرملة الثالثة :

وفي تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة في هذا الصدد في صيف ١١٠٥ ، فجمع في عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندياً ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين ^(٤) . وفي الوقت نفسه أستعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر . كذلك لم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ، فعرض على طغتكين - الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تنش في صيف سنة ١١٠٤ - أن يساعده في قتال العدو المشترك . وفعلاً إستجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله - اسمه «اصهبد صباوا» - ومعه ألف وثلاثمائة فارس . وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها حكام مصر والشام المسلمون ضد الصليبيين ^(٥).

(1) Albert d'Aix, pp. 606 - 607 .

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 445 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث لسنة ٤٩٨ هـ .

(٥) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا ، وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أقصاه من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلا عن أرتاش (بكتاش) المطالب بملك دمشق وهو ابن تاج الدولة تتش الكبير^(١) وكان أرتاش قد رافق بلدوين لمساعدته ، ومعه مائة من رجاله . ولم يكد إيرمار بطرق بيت المقدس يأتي ومعه صليب الصلبوت وعدد من الرجال في ٢٧ أغسطس ، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين . وقد أنهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق ، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين ، وقتل كثير من أمراء الجيش ، من جملةهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضا كانت ضخمة في تلك الموقعة ، فقتل منهم كثيرون ، على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا . وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه «لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم^(٢)» ، أما الأسطول الفاطمي فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس . ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانئ الصليبية ، فأسرها الصليبيون^(٣) .

والواقع أن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين في تلك الفترة ، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن في نطاق محدود . وكان مركز انطلاق الهجمات الفاطمية دائما مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة

(١) توفي دقاق ملك دمشق في يونية سنة ١١٠٤ وعندئذ آلت السلطة الفعلية إلى الاتابك طغتكين الذي اختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تتش الصغير ابن دقاق محل أبيه ، مع أن تتش كان في العام الأول من عمره . وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تتش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش ، وهو أخو دقاق ، ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . علي أن أرتاش خشي خطر طغتكين ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس طالبا حمايته . وبعد أن أشتبك أرتاش في مساعدة بلدوين في موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ ، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة على الفرات ، أنظر :

(ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨-١٤٩ هـ) & Runciman : op. cit., II, p. 89.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ . & Gesta Francorum, p. 541

(3) Foucher de Chartres p. 414.

١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل ؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها^(١).

أمراء الجليل وحرب المسلمين :

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده في المنطقة الساحلية ، ظل فصله هيو فالكنبرج - خليفة تنكرد في حكم طبرية - يعمل على توسيع إمارته في الجليل على حساب المسلمين ، وذلك بالتوسع في الشمال الغربي تجاه صور وفي الشمال الشرقي في أقليم السواد . وكان هدفه الأول جهة البحر الإستيلاء على صور من الفاطميين . ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبنين في مواجهة ساحل صور ، وهو الحصن الذي صار له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية^(٢). أما في الجهة الشرقية قرب بحيرة طبرية ، فقد دأب هيو على القيام بإغارات في إقليم السواد - سواد البلقاء - التابع لدمشق ، فشيّد هناك حصن عال (حصن العال) على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية .

وقد تم بناء هذين الحصنين - تبنين وعال - في خريف سنة ١١٠٥ ، الأمر الذي أزعج طغتكين صاحب دمشق ، لأنه رأى في ذلك تهديداً خطيراً لإمارته^(٣). وكان أن إنقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الجليل في نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملاً بالغنائم من إحدى إغاراته على المسلمين ، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه ، وتشتت رجاله^(٤). ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال بما فيه من آلات وغيرها ، في حين عين بلدوين فارساً فرنسياً اسمه جرفيه Gervais (جرفاس) ليكون أميراً على الجليل^(٥).

وسرعان ما استغل المسلمون في عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل في القيام بإغارة على طريق يافا - بيت المقدس . وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية في تلك المدن

(١) Runciman op. cit. II, pp. 90 - 91 .

Guillaume de Tyr, p. 459

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥١

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ؛ وقد أطلق ابن القلانسي على حصن عال أسم «علمال» وقال عنه إنه « من الحصون الموصوفة بالمنعة والحصانة » .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٤٩ هـ .

(٥) ابن القلانسي ص ١٤٩ . & Albert d'Aix, p. 635

في ٩ أكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة - بين أرسوف ويافا - وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة إستطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبي^(١) . وقد إستمرت القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين في طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدنها الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تساعد من ناحية البحر^(٢) .

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففي الوقت الذي أخذ طغتكين أتابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبين^(٣) . ولم يلبث طغتكين أن نصب كميناً للصليبيين في أوئل مايو سنة ١١٠٨ في الجبال القريبة من طبرية . ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا في ذلك الكمين ، ووقع جرفيه (جرفاس) أمير الجليل وهو من مقدمى الافرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة ، - أسيراً في أيدي المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيداً بالأغلال^(٤) . وقد أبدى طغتكين إستعداداً لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ ؛ هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا . ولكن الملك رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طغتكين بقتل جرفيه^(٥) (جرفاس - جرفاش) .

على أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين ، ففكر في عقد هدنة مع بلدوين الأول ، في الوقت الذي كان الأخير لايرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ، ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 246 - 248 .

(2) Albert d'Aix, pp. 635- 638 .

(3) Setton : op. cit. vol. I, 386.

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان حوادث ٥٠١ هـ ابن القلانسي ص ١٦١ . Albert d'Aix, p. 657 .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ ، ١٦٢ . Guibert de Nogent, p. 259

لعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين إستقبلاً حسناً . وقد تحدث كل من أبي المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين إتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثاني لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للمزارعين المسلمين ^(١) ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها ، لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتي ذكرها أمراً عظيماً .. ، ^(٢) .

إستيلاء الصليبيين علي بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتدخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الإستيلاء على بقية المدن الساحلية التي مازالت بأيدي الفاطميين ، وهي عسقلان في الجنوب وصور وصيدا وبيروت في الشمال . وقد أدرك أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الإستيلاء عليها دون إستعدادات كبيرة ، لذلك إختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا في ربيع سنة ١١٠٦ مستغلاً فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانيين عندئذ في بيت المقدس ليساعده في ذلك الأمر . وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالمة ، وقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين ^(٣) .

ثم كان أن وصل إلى شواطئ فلسطين في أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزة وجنوة والبندقية وأمالفي ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة في الإستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلاً في حصارها براً وبحراً . وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث أن تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية ^(٤) . وكان ذلك في الوقت الذي طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين ، مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجده كبيرة ، قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وعندئذ أدرك بلدوين أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حواشي سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) أبو المحاسن : التجويد الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . Stevenson : op. cit., p. 50 .

(3) Albert d'Aix, op. 632- 634 .

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 253 .

العملية فاشلة ، فآثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكذ ينسحب بلدوين حتى إمتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذي تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفاً من أن تكون هناك مؤامرة دبرها طغتكين للإستيلاء على صيدا .

وعندما هدد سلاجقة دمشق بإستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغاً يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه ^(١) .

وفي صيف سنة ١١٠٩ إتجه بلدوين لمساعدة برتراند - ابن ريموند الصنجيل - في جهوده للإستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة في ١٢ يوليو في أيدي برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلي فيما بعد . ونكتفي الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده في العام التالي في الإستيلاء على بيروت ^(٢) وقد إستمر حصار بيروت عدة أشهر - من فبراير حتى مايو سنة ١١١٠ - وعبثاً حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر في سفينته ليلاً إلى قبرص ، فاضطر أهل بيروت إلى الإستسلام لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان ^(٣) . ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذبحة رهينة في أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع الملك بلدوين إقرار الأمن والسلام إلا في صعوبة بالغة ^(٤) .

ولم يلبث أن وصل عكا في صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجي ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى - كعادته - أن يستغل تلك القوة في تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التي فشلوا من قبل في الإستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بحراً في الوقت الذي كان بلدوين الأول يحاصرها براً (أكتوبر ١١١٠) ، ،

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ & 654- 655 Albert d'Aix.

(2) Michaud : op. cit., I, pp. 40 - 44.

(3) Foucher de Chartes, p. 416 & Albert d'Aix, p. 671 .

(٤) ابن القلانسي ؛ ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ - ١٦٨ . ويشير ابن القلانسي إلى شدة مقاومة مسلمي بيروت (بحيث لم ير الافرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا) ولكن يبدو أن وصول أربعين مركباً للجنوية مشحونة بالمقاتلين رجع كفة الفرنج .

شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتي إلى الشام أسطول بندقي كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر ^(١) . وهكذا أدرك قاضي صيدا وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالإستسلام ، فطلبوا الأمان (٣ ديسمبر ١١١٠) وعندئذ أمنهم بلدوين وسمح للقاضي ومعه عدد كبير من الأهالي بالخروج إلى دمشق وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان ، ^(٢) . وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، في حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة في عكا ^(٣) .

أطماع بلدوين الأول في عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان - وهي القاعدة الرئيسية للفاطميين في فلسطين - فقد أوشكت هي الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنج . ذلك أن حاكم عسقلان - شمس الخلافة - أرسل إلى بلدوين الأول «مالاً وعروضا، طالباً منه إتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع إستعداده لدفع الجزية للصليبيين ^(٤) وقد إنزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، ولكنه أعطى تعليمات سرية لقائد الحملة لكي يعزل شمس الخلافة ويحل محله في حكم المدينة ^(٥) . على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروي ابن الأثير أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب ، فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً ، ^(٦) ؛ الأمر الذي أساء إلى شعور أهل عسقلان ، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً ممن بالمدينة من الفرنج في يوليو سنة ١١١١ ؛

(1) Heyd : op. cit. I, p. 142 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ ويصور ابن الأثير صدي استيلاء الفرنج على صيدا وموانئ الشام ، إذ (بلغت القلوب الحناجر ، وايقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه فشرع أصحاب البلاد الاسلامية بالشام في الهدنة معهم ..) أنظر أيضاً . Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit. I, p. 142 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلائسي ، ص ١٧٢ . & Albert d'Aix pp. 676 - 680

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها^(١).

وعندما سمع بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة . وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصليبيين^(٢).

أما مدينة صور فكانت - مثل عسقلان - من المدن التي إستعصت على بلدوين الأول ، لأنها إعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم في كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتاك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم . فعلاً أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم ، وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج ، فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا ، وعين عليهم والياً اسمه مسعود ، وفرق عليهم المؤن والأموال ، فطابت نفوس أهل البلد ،^(٣) وفي الوقت نفسه تم الإتفاق على أن يرسل أهل صور مالديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين - الذي إستاء لهذه الإتفاقية - بموعد خروج القافلة التي تحمل ثروة الصوريين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة^(٤).

ويبدو أن الحصار الذي فرضه بلدوين على صور في نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاماً لعدم وجود أسطول صليبي قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال في حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عدة إشتباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع في كل برج ألف رجل . ويروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . Albert d'Aix p. 481.

(2) Runciman : op. cit. II, p. 95 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. 690.

طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب «سقاء بالنفط والزفت والكتان والكبريت»^(١).

أما طغتكين فقد إستجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلم البلد ، وقال لهم «أنا ما فعلت هذا إلا لله تعالى لا لرغبة في حصن ومال ، ومتى دهمكم عدو جئكم بنفسى ورجالى ،^(٢) ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور، مما جعل بلدوين يقنط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فأنصرف عنها وأخذ يباشر نشاطه في منطقة طبرية ضد أتابك دمشق . كذلك لجأ بلدوين الأول إلى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها في وادي موسى جنوبى البحر الميت وينهب ماتحملة من ثروات وبضائع^(٣).

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة سنة ٥٠٦ - ٥٠٨ هـ .

Albert d' Aix, p. 693.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨

الفصل الثالث

بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١ - بلدوين الأول :

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك في باب آخر مستقل ؛ ولكننا مضطرون هنا إلي التعرض لبعض هذه الأحداث في إيجاز لايضاح الدور الذي قام به بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها.

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة في عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية في القاهرة واتجاهه نحو محالفة الصليبيين، إذا برسالة تصله من بلدوين دي بوج أمير الرها تفيدته بأن الأتراك غزوا إمارته. وكان بعض أهالي حلب قد شكوا إلي الخليفة العباسي وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكانته لتتكرر حاكم أنطاكية، وطلبوا الجد في جهاد الصليبيين^(١). وفي الوقت نفسه وصلت إلي بغداد سفارة من الإمبراطور البيزنطي لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تنكرد) والايقاع بهم والاجتماع علي طردهم، وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم^(٢). ويبدو أن هذه التيارات استثارت المسلمين في بغداد ضد الخليفة العباسي المستظهر والسلطان محمد السلجوقي لتقاعسهما عن الجهاد، فهبت الثورة، وصاح الناس في السلطان «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام، حتي أرسل إليك في جهادهم»^(٣).

وإزاء تلك الثورة العنيفة، أرسل الخليفة إلي حميه السلطان محمد السلجوقي في أصفهان يستحثه علي القيام بعمل ما ضد الصليبيين. فلجأ السلطان بدوره إلي تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين في إبريل سنة ١١١١^(٤) وعندما

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بلته "كان بخيلا شحيحاً قبيح السيرة، ليس في قلبه رافة ولاشفقة على المسلمين"، وكانت الفرنج تغاور وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم.

(النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٢٠٥).

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد - مثل أمراء مياقارقين ومراغة وأريل وهمذان وغيرهم - أحس بلدوين دي جورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية علي حدود إمارته، فشرع في تحصين الرها، وخزن الميرة والطعام فيها، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلي ثاني مدن تلك الإمارة الصليبية، وهي مدينة تل باشر غربي الفرات (٢٨ يوليو).

علي أن أمير تل باشر الصليبي نجح هو الآخر في مقاومة الحصار^(١)؛ في الوقت الذي طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية. أما رضوان ملك حلب فقد تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد. لذلك فكر مودود في مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب. وعندئذ كشف رضوان النقاب عن وجهه، وظهر أنه يخشي خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين، فأغلق مدينته في وجه مودود ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين. وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك دمشق، الذي كان يأمل في غزو طرابلس بمساعدة مودود. وكانت طرابلس قد سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١١٠٩م. وعندما التقى طغتكين ومودود قرب معرة النعمان، اتفقا علي الاشتراك في محاربة الصليبيين^(٢) ولكن طغتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقي الكبير الذي كان تحت إمرة مودود. ومن يدري فيما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التي أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه؟ ويرى ابن الأثير أن طغتكين عندما اجتمع بالأمير مودود، اطلع من الأمراء علي نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سرأ^(٣)، وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالفشل، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك في الآخر، وبقي مودود علي نهر العاصي مع طغتكين، حليفه غير الوفي^(٤).

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكاً قوياً، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات، فانسحب تنكرد من أمام شيزر - التي كان يهاجمها - وعاد إلي فامية مسرعاً، ومن هناك أرسل إلي الملك بلدوين الأول طالباً مساعدته ضد

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ . & Albert d'Aix, p. 681

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حادث سنة ٥٠٥ هـ.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, 266.

المسلمين^(١). ولم تلبث أن تجمعت قوات الصليبيين من بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية - في الجزء الأوسط من حوض نهر العاصي - ومن ذلك الموقع بالذات - كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام ، فضلاً عن شاطيء لبنان وفلسطين.

ويبدو أن مودود خشي الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التي بلغت نحواً من ستة عشر ألفاً، فدخل على رأس جيوشه حصن شيزر ومعه طغتكين في ١٥ سبتمبر سنة ١١١١، وذلك للاحتماء به^(٢)، ونصب جنودهما خيامهم فوق أسطح المنازل^(٣). وكان أن تحركت القوات الصليبية هي الأخرى - وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها - إلى شيزر، حيث عسكرت في مواجهة المدينة. ولم تلبث أن ساءت الأوضاع في معسكر المسلمين، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له بقية أمراء المسلمين في الزحف جنوباً لمهاجمة طرابلس، وهو أمر لم يقره باقي زعماء القوي الإسلامية المتحالفة. وكان ذلك في الوقت الذي مرض برسق أمير همذان ورغب في العودة، في حين توفي فجأة سكران صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت. وكذلك اختار أحمد بك الثاني صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية^(٤). وهكذا رأي مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه، مما جعله لا يقوي بمفرده على منازلة الجيش الصليبي الكبير الذي ظل متماسكاً مستعداً للمعركة. لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التي قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب، ثم عاد مودود إلى الموصل وطغتكين إلى دمشق^(٥).

وإذا كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئاً للجانب الإسلامي، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم، فإنها حققت الكثير بالنسبة

(١) Runciman : op. cit., II p. 122.

(٢) يذكر ابن الأثير (سنة ٥٠٥ هـ) أن الفرنج "اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين، وساروا إلى أفامية، فسمع بهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين وهون عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد فرحلا إلى شيزر".

(٣) ابن القلانسي، ص ١٧٧.

(٤) Runciman : op. cit. II p. 123.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ &

ابن القلانسي ، ص ١٧٧ - ١٧٨، ويذكر ابن الأثير أن الفرنج لما سمعوا "بتفريق عساكر الاسلام طمعوا". أنظروا ايضاً Albert d'Aix, p. 684.

لصليبيين. ذلك أنها جمعت صفوف القوي الصليبية في شمال الشام وجنوبها بعد الاختلاف والتباين علي قول ابن الأثير، وحقت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة والأولية علي بقية أمراء الصليبيين^(١). وكفي أن تنكرد - الخصم العنيد لبلدوين الأول - اعترف بتلك الزعامة، وحاكاه في ذلك بلدوين دي بوج، فصار الملك بلدوين الأول يتصرف في حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين، والزعيم الأوحده الذي دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً - حتي سنة ١١٨٦ - صار الصليبيون في بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة، علي الرغم من قيام تلك الجبهة علي أسس إقطاعية. وبعبارة أخرى فان النظم والتقاليد الملكية التي وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت في أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسي استمر نحواً من خمسة وثمانين سنة^(٢).

هجوم الاتراك سنة ١١١٣ : موقعة الصنبرة :

علي أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التي قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلي لاشيء، فإن هذه النتيجة لا ينبغي أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل. وهو رجل عرف بالتقوي والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الديني^(٣). والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولاً إلي عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق، وتخوفهما من قوة مودود. لذلك عاد مودود إلي الموصل حزيناً كاسف البال، واكتفي مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

ثم كان أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام ١١١٣، وكان ذلك عندما دخل طغتكين في صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور - كما سبق أن رأينا - مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى. وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجد به ويحثه علي سرعة الوصول إليه^(٤). والواقع إن مودود - لم يكن في حاجة إلي تحريض لمواصلة الجهاد، فعبر الفرات عند

(١) ابن الأثير - سنة ٥٠٥ هـ & Setton : op. cit. I, p. 400.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 268.

(٣) وصف أبو المحاسن مودود بأنه كان من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيراً (النجوم الزاهرة. ج ٥، ص ٢٠٧).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

منتصف مايو سنة ١١١٣، وتبعه أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة. وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية - إلى الجنوب الشرقي من حماه - اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية. ولم يلبث مودود وطغتكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعة، وعندما استعصت عليهما، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتي جبل الطور^(١). على أن طغتكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين فاحتاميا بسرعة في شبة الجزيرة التي يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبي بحيرة طبرية، وهي الجهة التي تعرف بالأقحوانة^(٢).

وكان الملك بلدوين في عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية علي إقليم طبرية، فأرسل في الحال يطلب المساعدة من أميري أنطاكية وطرابلس. وفي ذلك الوقت كان روجر الصقلي Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد - الذي توفي سنة ١١١٢ - في حكم أنطاكية، في حين خلف بونز Pons أباه براتراندي في حكم طرابلس، فقرر الأميران الإسراع لتجدة الملك بلدوين. غير أن بلدوين الذي طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما، فتعجل في مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢. ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلي جسر الصنبرة - إلي الجنوب الغربي من بحيرة طبرية - في ٢٠ يونيو سنة ١١١٣، حتي فكر مودود وطغتكين في نصب كمين له^(٣). وكان أن وقع بلدوين الأول في الكمين، ولم ينج ومعه البطرق أرنولف مالكورن - إلا بمشقة بالغة، في حين وقع جميع المشاة، ومعهم متاع الملك نفسه في أيدي السلاجقة. هذا عدا من غرق من الصليبيين في نهر الأردن أو بحيرة طبرية^(٤)، حتي قدرت خسائر الصليبيين في تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٨ يونيو ١١١٣)^(٥).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ. & Albert d'Aix, p. 694.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٤٦ - ٥٤٧ &

ابن القلانسي : ص ١٨٥ والصنبرة بالكسر ثم الفتح والتشديد وسكون الباء.

(٤) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً في تلك المعارك، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل، ٥٠٧ هـ).

(5) Guillaume de Tyr, 486 &

Foucher de Chartres, p. 426.

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عند قتلى الصليبيين في موقعة الصنبرة "بألفي فارس من الشجعان والأبطال".

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما، وبذلك قويت نفوس الفرنج وأخذت تتجمع القوي الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة. وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددي لخصومهم، ولذلك تحاشوا الاشتباك معهم في موقعة فاصلة، واكتفوا بالاحتواء ببعض المرتفعات الواقعة غربي بحيرة طبرية، فالتجأوا إلى جبل هناك وظلوا قابعين في مكنهم سناً وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب، ومنعوا الميرة عنهم، لعلمهم يخرجون إلى قتالهم ؛ فلم يخرج منهم أحد^(١).

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التي لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة، فخربوا المراكز الصليبية في إقليم الجليل حتي وصلوا إلى بيسان ونابلس ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة^(٢).

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجاً في ذلك الوقت عندما قامت حامية عسقلان بهجوم علي بيت المقدس نفسها مستغلة فرصة وجود الملك بلدوين الأول والجيش الصليبي قرب طبرية^(٣). وهكذا تقدم الجيش الفاطمي من عسقلان يدمر وينهب ويقتفي أثر الصليبيين حتي وصل إلى أسوار بيت المقدس. ولكن حامية بيت المقدس ومن بقي فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماماً، في الوقت الذي كان الجيش الفاطمي الذي خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربي ضخم ضد المدينة، مما جعل المسلمين يشرعون في العودة إلى عسقلان الليلة نفسها التي بلغوا فيها بيت المقدس^(٤). ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوي الإسلامية، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربي كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين^(٥).

ولم يلبث أن وصل إلي عكا في شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين، قدرتهم المصادر بستة عشر ألفاً^(٦) مما بدل الموقف لصالح الصليبيين. لاسيما وأن

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(٢) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٨٦ &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(3) Stevenson : op. cit., p. 63.

(4) Foucher de Chartres, pp. 426 - 427.

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 274.

(6) Albert d' Aix, p. 696.

Guillaumde de Tyr, p. 437.

مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقا الاستفادة من النصر الذي أحرزاه علي بلدوين الأول عند الصنبرة. وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلي دمشق، وهناك أذن مودود لرجال جيشه في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة^(١). أما مودود نفسه فقد بقي - ومعه بعض خواصه - في دمشق في ضيافة طغتكين، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣)^(٢).

مقتل مودود : التحالف بين أتابك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتي قتل مودود في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة^(٣). وقد اتهم المؤرخون - مثل ابن الأثير وابن القلانسي - طغتكين بالتآمر علي ضيفه وتحريض ذلك الباطني علي قتله^(٤). والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذي خشي أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة في بسط سيطرته علي دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين. وربما كان في تعجل طغتكين في قطع رقبة القاتل في الحال وإحراق جثته دليلا علي رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص من أدلتها، تحت ستار إظهار استنكاره لتلك الجريمة^(٥). ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلي طغتكين، بل شاركهم في هذا الرأي أيضا بعض المؤرخين الصليبيين^(٦).

ومهما يكن من أمر، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة، في الوقت الذي أحس طغتكين باتهام الرأي العام الإسلامي له، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوي الصليبيين. وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الإسلامي، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام، مما دفعهم إلي محالفة الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم، خوفا من أن تلتهمها

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(2) Setton : op. cit., p. 402.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩.

(٤) "ف قيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله (ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ).

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨.

(6) Guillaumde de Tyr, p. 487 & Albert d'Aiz, pp. 700.

سلطنة السلاجقة في فارس واحدة بعد أخرى (١).

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية في شمال الشام والعراق لزلزال عنيف في نوفمبر سنة ١١١٤ ، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها (٢) . ، فرأى السلطان محمد السلجوقي أن يستغل تلك الظروف وما نجم عنها من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق بن برسق صاحب همذان ، لمحاربة الصليبيين فضلا عن الانتقام من طغتكين أتابك دمشق والقضاء على إيلغازي أمير ماردين (٣) . ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات في مايو سنة ١١١٥ ، حتي أجمع الأمراء - سواء من المسلمين أو المسيحيين - علي مقاومتها . فمن الجانب الإسلامي قاوم تلك الحملة إيلغازي بن أرتق أمير ماردين ، ولؤلؤ الخادم الوصي علي حلب ، وطغتكين أتابك دمشق ؛ في حين قاومها من الجانب المسيحي ، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس . ومعني ذلك أنه لم يبق علي ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوي بني منقذ في شيزر وابن قراجه صاحب حمص . ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذي صادفه من أمراء الشام علي اختلاف أديانهم ومللهم ، فمضي في طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً (٤) .

وهكذا استولي برسق علي حماه التي كانت تابعة لطغتكين وبها ثقله ، كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية (٥) . ، الأمر الذي أدى إلي التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم يتفقون علي مقاومة العدو المشترك . من ذلك ما يروي ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعوا إلي طلب معونة أمير أنطاكية الصليبي ضد برسق (٦) . ، في حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن أمير أنطاكية هو الذي بدأ محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك . وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فالمهم

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 276 - 277.

(2) Archer : op. cit., p. 151.

(٣) خرج مع برسق الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداية بقتل إيلغازي وطغتكين ، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقتلواهم وحاصروا بلادهم (ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٩ هـ) .

(4) Runciman : op. cit., II, p. 131.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(٦) المصدر السابق .

هو أن حملة برسق أدت إلي نوع من التقارب بين بعض الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام، مما أدى إلي عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصي علي حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية ، وغيرهما من شياطين الفرنج ، من جهة أخرى . واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام ^(١) .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنبا الي جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أقامية لمواجهة برسق، الأمر الذي جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء، فأثر الانسحاب إلي الجزيرة . ولم يكذب برسق ينصرف عائداً إلي الجزيرة حتي اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال، فانصرفا بجيوشهما . ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل وعندئذ واجهه الصليبيون وانزلوا به الهزيمة عند دانيث في ١٤ سبتمبر، وقضوا علي معظم جيشه ، وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا في صعوبة، ويقال إنه مات بعد عدة أشهر وقد ندم علي الهزيمة ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقي في المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين في بلاد الشام ^(٢) .

وفي الوقت الذي كان بلدوين الأول مشغولا بحملة برسق علي شمال الشام عادت حامية عسقلان إلي مهاجمة يافا براً وبحراً، ولكن حامية يافا الصليبية صمدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين من شمال الشام، أسرعوا بالانسحاب إلي عسقلان دون أن يحققوا غرضهم . (سبتمبر ١١١٥) ^(٣) .

(1) Setton : op. ict., I, pp. 404.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٩ هـ .
وقد وصف الأثير برسق بأنه كان "خيراً ديناً" .

(3) Guillaumde de Tyr, I, pp. 494 - 495.

الفصل الرابع

سياسة بلدوين الأول

وصوله إلى البحر الأحمر وغزوه مصر :

وبعد أن أطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام العروة التي كانت تربطهم بإمارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر في عدة مشاريع توسعية قام بها في جراءة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية النقب في الجنوب الشرقي ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهو الإقليم المعروف باسم وادي عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فإنه يمكن الصليبيين أيضاً من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق وقطع الطريق البري بينها وبين الشام والعراق والحجاز ^(١) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربة جنوبي البحر الميت . ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأجمعه ^(٢) . وفي العام التالي (سنة ١١١٦) خرج بلدوين في حملة أخرى ، ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالي من وجهه خوفاً . وقد بنى بلدوين في أيلة أيضاً قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام ^(٣) . كذلك شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التي أخذت تحرك في قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم . هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترين في شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه خشية انتقام الفاطميين في القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس ^(٤) .

وبعد أن أبل بلدوين الأول من مرض أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 213 .

(2) Runciman : op. cit., II pp. 97 - 98 .

(3) Setton : op. cit., I, p. 406 .

(4) Albert d'Aix, p. 703.

المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التي لم يبق للفاطميين غيرها - فضلا عن عسقلان - من موانئ الشام . ويبدو أن صور كانت مصدر متاعب كثيرة للصليبيين في الشام ، حيث خرجت منها في تلك الفترة عدة غارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلا عن أنها كانت مركزاً بحرياً تأوى إليه السفن الفاطمية التي هددت الأساطيل الصليبية ^(١) . ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور . وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبي صور - وهي إسكندرونة - لإحكام الحصار على صور وكان ذلك سنة ١١١٦ (٢) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة ، وذلك باستثناء عسقلان وصور ، ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم ^(٣) . وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتي صور - وعسقلان ، فيستولى على هاتين المدينتين في غير عناء ^(٤) . على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين في الشام لغزو الدولة الفاطمية ، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريباً وأربعمئة من المشاة فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي واسع النطاق ^(٥) .

وكان أن أستطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على ما لزمهم من زاد وماء ^(٦) . ولم يلبث أن وصل الصليبيون في ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهي أولى المراكز الأمامية في الأراضي المصرية ^(٧) . وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها وتركوا فيها متاعهم ، مما هيا للغزاة

(1) Stevenson : op. cit. pp. 65 - 66 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 507 .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 283 .

(4) Archer : The Crusades, p. 140 .

(٥) ويلاحظ أن هذا الرأي يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير من أن بلدوين في تلك الغزوة إنما كان «قاصداً ملك مصر والتغلب عليها وقوي طمعه في الديار المصرية» .

(الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(6) Albert d'Aix, p. 705 .

(7) Michaud : op. cit. I, p. 52 .

قدراً كبيراً من الغنائم . وبعد أن أحرق بلدوين جامع القرما ومساجدها ^(١) ، اتجه غرباً نحو مصب النيل . ويروى ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة . كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلاً ^(٢) .

على أن بلدوين الأول كان لا يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته أولاً ثم لمرضه ثانياً ، وهو المرض الذى لم يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى ٢ أبريل سنة ١١١٨ ^(٣) .

تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التى قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التى مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذ انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين فى الوقت الذى هدد الفاطميون بيت المقدس وهى شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعى أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولاً وهى كبرى مدن المملكة ، فضلاً عما لها من مكانة فى قلوب المسيحيين جميعاً ^(٤) .

والواقع أن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن مافعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم - وبخاصة فى أنطاكية والرها - جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن التى كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس ^(٥) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ & Guillaume de Tyr, p. 508

(٣) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند تنيس «فانتقض جرح كان به» (حوادث سنة ٥١٢ هـ) فى حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشائه ، هناك فعرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة برديول أو البرديول (قرب بور سعيد الحالية) وأعتاد الناس أن يرجموها على أيام أبي المحاسن .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284 .

ولم يلبث أن أستولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغاً ضخماً ونقصاً كبيراً في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء ^(٢) . هذا في الوقت الذي كان الصليبيون أنفسهم قلة ، إذ تعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب في العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا في الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعقل لحراستها ، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشيطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمراني من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها ^(٣) .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين في الاعتماد على المسلمين في هذه المهام فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرقي نهر الأردن وفي حوران . وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة في طرابلس والسريان والأرمن في أنطاكية والأرمن والنساطرة في الرها ، وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعاً واتصل بهم سراً وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة ، حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن ^(٤) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين الشرقيين من جهة أخرى . وقد أستطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم ، ليعملوا جميعاً في إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها . ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وكان هو نفسه قد ضرب مثلاً من قبل لذلك بزواجه من شرقية أرمنية . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة في ذلك ، الأمر الذي أدى

(1) Guillaume de Tyr, p. 500 .

(2) Runciman : op. cit. II, p. 100 .

(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 311 - 312 .

(4) Richard : Le Royaume Latin. p. 124.

إلى ظهور جيل مولد في بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن مصالح الصليبيين فيما بعد عندما تناقص عدد الوافدين من الغرب ^(١).

سياسة بلدوين الأول الدينية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الديني القوي الذي اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفري ^(٢)، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة ^(٣). وقد دفع ذلك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس ، وهي الفكرة التي رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها . وإذا كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه في إقامة حكومة دينية حتى هذا الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكاً في كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين في مارس سنة ١١٠١ . ويقف المؤرخ وليم الصوري في ذلك النزاع إلى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته ، وأن أرنولف مالكورن - بطرق بيت المقدس السابق - هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت ^(٤). أما المؤرخ ألبرت الأكسي - وهو المدافع دائماً عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية ، فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفري ويخلفه في الحكم، فضلاً عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكي ^(٥).

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما ، هو الذي جعل

(1) Runciman : op. cit. II, p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام في عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب ، وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (Pulani) أي الأفراخ . كذلك أشار إلي أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة في المجتمع الصليبي ببلاد الشام ، وقد خشي الصليبيون دائماً تأمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غني للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات

(Thompson : Economic & Social Hist of The Middle Ages : vol I, p. 398):.

(2) Cam. med. Hist., vol. 5, p. 304.

(3) Runciman : op. cit. II, p. 100.

(4) Guillaume de Tyr, pp. 438 - 439.

(5) Albert d'Aix, p. 538 .

النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر - كما سبق أن أشرنا - بعزل دايمبرت نهائياً سنة ١١٠٢ ، واختيار إيرمار بطرقاً جديداً لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لمس في البطرق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة في الابتعاد عن الاشتغال بالمسائل السياسية ، وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين في الشخص الذي يتولى بطرقية بيت المقدس (١) .

ولكن إيرمار لم يستمر طويلاً في منصبه ، إذ وصل النزاع حول شغل كرسي بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثاني مندوباً اسمه جبيلين للتحقيق في الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جبيلين نفسه بطرقاً على بيت المقدس ، سنة ١١٠٨ (٢) . وكان هذا البطرق الجديد متقدماً في السن . فلم يلبث أن توفي في أبريل سنة ١١١٢ ، فأختير بعده أرنولف مالكورن بطرقاً من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل أثني عشرة سنة يتربص تلك الفرصة التي أعادت إليه كرسيه المسلوب (٣) .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية اتصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس ، وتجنب تلك المملكة الناشئة صراعاً بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من إحكام إشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضاً لتلك المملكة الناشئة نظاماً وراثياً في بيت بلدوين، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقلق (٤) .

وإذا كانت بطرقية بيت المقدس قد غدت - بفضل سياسة الملك بلدوين الأول - الحليف المخلص الوفي للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن موازنة تلك البطرقية وتوسيع اختصاصها الديني ، وزيادة نفوذها على حساب بطرقية أنطاكية . وكان ذلك عندما نشب نزاع بين بطرقية بيت المقدس وبطرقيه أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعدما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضي بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية .

(1) Idem : p. 622 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 457 .

(3) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 248 .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 97 .

ولكن ذلك الوضع صار غير ذي موضوع سنة ١١١٠ عندما كانت بيروت في أيدي الصليبيين في حين ظلت صور نفسها في قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقيّة بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعة لها ، في حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له ^(١) .

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثاني سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامي غير الأوضاع القديمة التي كان معمولاً بها في الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس في جميع البلاد التي يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس ^(٢) ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقيّة بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقيّة أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثاني عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ماعدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد غدت تابعة لبطرقيّة بيت المقدس ^(٣) .

زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها أثرت في وضع الكنيسة ، هي أنه طلق زوجته الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدلياد الصقلية Ade-laide de Sicile ^(٤) . أما عن أردا فهي ابنة أرمني تزوجها بلدوين أيام أن كان أميراً على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون في إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسي كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ، ولكنه لم يلبث أن أحس - بعد أن أصبح ملكاً على بيت المقدس - أنه ليس في حاجة إلى الأرمن لأن أعدادهم قليلة في جنوب بلاد الشام ووسطها ، وبالتالي فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلاً عن أنه لم يعيش له منها أولاد يربطونه بها ^(١) . وكان أن سعى الملك بلدوين سنة ١١١٠ لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق

(1) Richard : Le Royaume Latin, p. 97 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 502 .

(3) Grousset : hist. des Croisades I, p. 312 .

(4) Setton : op. cit. I, p. 102 .

من زوجته بعد أن اتهمها بالخيانة . ولكي يغري تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية^(٢) أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها في القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته في أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذي توفي سنة ١١٠١ . وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان في إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثاني ابن الأميرة أدلياد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التي كانت تملكها تلك الأميرة والتي كانت كفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس^(٣) . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة ابنها روجر الثاني على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه إذا لم ترزق منه بمولود ذكر ، فإن عرش بيت المقدس ينتقل بعد وفاته إلى ابنها روجر الثاني ، نظراً لأن بلدوين لم يكن له أبناء يرثونه . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا في بداية شهر أغسطس سنة ١١١٣ في أسطول كبير يحمل ثروة طائلة ، من الذهب والفضة والتحف وغيرها^(٤) .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونياً ، وأنه تم بالتواطؤ مع صنائع بلدوين من رجال الكنيسة وأولهم أرنولف مالكورن . ومن ثم أصبح بلدوين متهماً بالزواج من امرأتين ، وهي تهمة لها خطورتها في المسيحية^(٥) . ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ربيبه أرنولف مالكورن أسقف بيت المقدس في دفع هذه التهمة عنه ، إذ أصر البابا باسكال الثاني ومنذوبه الذي أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق في الموضوع على أن

(1) Runciman : op. cit., II p. 102 .

(2) Guillaume de Tyr, pp. 473 - 474 .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 184 .

(4) Albert d'Aix, p. 597.

(5) Runciman : op. cit., II, p. 104.

طلاق أردا من بلدوين الأول باطل . وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضاً خطيراً في أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش في عكا بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغضوباً عليه من الرب والكنيسة بسبب زواجه من إمرأتين في وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد ، فعادت كسيفة البال إلى صقلية في أبريل سنة ١١١٨ (١) .

ولاشك في أن طلاق أدلياد جاء لطمة قوية لابنها روجر الثاني وجميع الأمراء النورمان في إيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك الزيجة كسب النورمان في إيطاليا وصقلية ، وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذي مملكة بيت المقدس ، فإن النتيجة جاءت عكسية بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان في إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

وفيات الاعيان :

ولم تلبث سنة ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففي ٢١ يناير سنة ١١١٨ توفي البابا باسكال الثاني في روما ، وفي ٢ أبريل توفي بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وفي ٥ أبريل توفي السلطان محمد السلجوقي في فارس ؛ وفي ١٦ أبريل سنة ١١١٨ توفيت في صقلية أدلياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفي أرنولف بطرق بيت المقدس ؛ وفي ٦ أغسطس توفي الخليفة المستظهر العباسي في بغداد ، وفي منتصف أغسطس توفي ألكسيوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل (٢) .

بلدوين الأول في نظر التاريخ

وبعد ، فإن أهمية بلدوين الأول في التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفري محارباً صليبياً فحسب ، بل كان أيضاً سياسياً ومنظماً ومؤسساً لمملكة لها أهميتها في تاريخ العصر الذي عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذي استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الإسلامي في الشرق

(1) Guillaume de Tyr, p. 509 .

(2) Runciman : op. cit. II, pp. 105 - 106 .

الأدنى ، وإليه يرجع الفضل فى وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التى سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده والتى حققت نوعاً من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى الشرق الأدنى^(١) .

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أكسبته أهمية خاصة فى تاريخ الصليبيين بالشام . ذلك أنه تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لا تتعدى المدينة المقدسة وضواحيها القريبة ، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريباً ، وتتمتع بشاطئ طويل على البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالاً آمناً مستمراً مع العالم الأوروبى الغربى^(٢) . ثم كان أن توج بلدوين أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادى عربة والضفة الشرقية للأردن ، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، بل لقد أوغل فى الأراضى المصرية نفسها شرقى الدلتا . كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين فى أفريقية واسيا ، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والجناح الآسيوى للعالم الإسلامى من جهة أخرى ، وهى الصلة التى كانت تهدد بوقوع الصليبيين فى الشام بين شقى الرحى . ولا شك فى أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل ، بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى ، فضلاً عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين^(٣) . وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزاً بين الإماراتين الإسلاميتين الكبيرتين فى شمال الشام والعراق - وهما حلب والموصل - فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة ووادى عربة حاجزاً صليبيًا بين القاهرة ودمشق . ولم تلبث تلك الخطة التى وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت فى تمزيق أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى ، وتمكين الصليبيين فى الفترة الواقعة بين سنتين ١١١٦ ، ١١٨٧ من التحكم فى المسالك المؤدية إلى الحجاز^(٤) .

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لا يقل مهارة فى توجيهها عنه فى توجيه السياسة الخارجية ، مثلما يتضح ذلك فى إشرافه على الكنيسة ورجالها ، وفى منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس .

(1) Cam. Med Hist vol. 5. p. 304 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 314 - 315 .

(3) Setton : op. cit., I, P. 406.

(4) Grousset : Hist. de Croisades, I, pp. 315 - 316.

الباب السادس

قيام إمارة طرابلس

« أفمن أسس بنيانه على
تقوى من الله ورضوان خير أم من
أسس بنيانه على شفا جرف هار
فانهيار به في نار جهنم والله
لا يهدي القوم الظالمين » .

(التوبة : ١٠٩)

الفصل الأول

ريموند الصنجيل والصليبيون

ريموند والدولة البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيل . Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة أثناء مسيرة الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يملئ نفسه حيناً بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده (١) . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب - حول البارة ومعرة النعمان - انبرى له بوهيموند مرة أخرى وناقسه في الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلي عنها في يناير سنة ١٠٩٩ (٢) . وكان أن فكر ريموند في تأسيس إمارة على شاطئ الشام ، فهاجم أنطربوس وعرقه إلى الشمال الشرقي من طرابلس ، ولكنه نجح في إحتلال الأولى في فبراير سنة ١٠٩٩ . وفشل في الاستيلاء على عرقه مايو سنة ١٠٩٩ (٣) . وعندما رشح اسمه حاكماً على دولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ أتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية في فلسطين - مثل عسقلان وأرسوف - ولكن عداء جودفري بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (أغسطس ١٠٩٩) وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها في بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها في أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام (٤) .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر في وضوح منذ أن استولى على اللاذقية في صيف ١٠٩٨ ، إذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل ، مما قوى الرابطة بينه وبين الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد في إخلاص ريموند له (٥) .

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 249 - 251 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ & 178 - 172 Gesta Francorum, pp.

(3) Raymond d'Agiles, pp. 279 - 288 .

(4) Vasiliev : op. cit., II, p. 409 .

(5) Albert d'Aix, pp. 500 - 501 .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والإمبراطور البيزنطي أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذي استثار بسلوكه الإمبراطور البيزنطي والأمير ريموند جميعا، والذي كان وجوده في ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهددا لأطماع الإمبراطور البيزنطي من ناحية وريموند من ناحية أخرى (١). ومن أمثلة سلوك بوهيموند وموقف ريموند منه في ذلك الدور ما حدث في صيف سنة ١٠٩٩، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفري صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين، اختار بوهيموند - كما سبق أن أشرنا - أن يبقى حيث هو في أنطاكية لينتهاز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزي تحت زعامة دايمبرات (٢). ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية في يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب - وكذلك الأسطول البيزي - عند اقتراب ريموند، حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام بعضها البعض، وبذلك استرد ريموند اللاذقية (٣). وكان أن توسط دايمبرت في الصلح بين ريموند وبوهيموند، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية، وسويا ما بينهما من خلاف. ولكن هذه التسوية، كانت في الظاهر فقط، إذ ظل بوهيموند قائما في أنطاكية على كره من الإمبراطور البيزنطي، في حين ظل ريموند يحمل في قلبه حقدا دفيناً على بوهيموند، واكتفى مؤقتاً بأن سيطر على اللاذقية وانطربوس باسم الإمبراطور البيزنطي (٤).

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند في أنطاكية، فإنه سرعان ما فكر في استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه في شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية. وخلال ذلك استمرت روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند. من ذلك أن بوهيموند مر في يناير سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس، وطلب من ريموند أن يمهده بالزاد، فاعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه (٥).

هذا بالإضافة إلى الدور الذي قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عقب وفاة جودفري بوايون، إذ سبق أن رأينا كيف

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 323 .

(2) Stevenson : op. cit., p. 39 .

(3) Albert d'Aix, pp. 502 - 504.

(4) Foucher de Chartres, I, p. 368 .

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 321 .

استطاعت قوات ريموند في اللاذقية أن تمنع الرسالة التي أرسلها دايمبرت الى بوهيموند مستدعيا إياه ليتولى الحكم في المدينة المقدسة (مايو - أغسطس ١١٠٠) (١).

وأخيرا رحل ريموند إلى القسطنطينية في صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند في أنطاكية (٢). ولم يكد ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الاخبار بوقوع بوهيموند أسيرا في قبضة التركمان من بني دانشمند في كابادوقيا . ولكن هذا الحدث لم يكن له أثر في سياسة ريموند والإمبراطور الكسيوس كومنين تجاه انطاكية ، لأن تنكرد الذي تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطراً عن بوهيموند ، فاتبع سياسة العداء نفسها تجاه الإمبراطورية البيزنطية وريموند جميعاً ؛ وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية في قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة (٣). ولم يكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومت مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها في النصف الثاني من سنة ١١٠٢ (٤).

وفي الوقت الذي أخذ ريموند والكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإنقاذ اللاذقية ، إذا بحملة صليبية جديدة تصل من الغرب إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الإمبراطور وحليفه . وكان أن عين الإمبراطور البيزنطي حليفه ريموند للإشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضي المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى في الحملة الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها في تحقيق بعض أطماعه في الشام .

ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١

لم يكد الغرب الأوربي يعلم بالتوفيق الذي أصابته الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام ، وبنجاح رجال تلك الحملة في استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين حتى تحمس كثير من الأمراء الذين ترددوا في المشاركة في الحملة الأولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ، فضلا

(١) أنظر ماسبق - الباب الخامس - الفصل الأول .

(2) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 222 - 223 .

(3) Raoul de Caen, pp. 706 - 707 .

(4) Idem, p. 708 .

عما كانوا يرجونه من المشاركة في الحركة الصليبية والفوز بثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين في الشام كانوا عندئذ في حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية، لتعويض النقص في الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ما حققوه من مكاسب ضد أية محاولة إنتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة (١) .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من اللبارديين الذين تحركوا في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان ، وألبرت وجيويرت وهيومن الأمراء (٢) . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم - مع كثرة رجالها - سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين ، في حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة وبخاصة النساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الإمبراطور الكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم القسطنطينية في مارس سنة ١٠١١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى (٣) وقد عارض اللبارديون تلك الأوامر الإمبراطورية في أول الأمر بحجة الرغبة في إنتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب ، ولكنهم اضطروا أخيرا إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيل، فعبروا البسفور في أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطئ الآسيوي (٤) .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من اللبارديين ، حتى اجتمع الصليبيون جميعا فبلغت عدتهم نحو مائتي ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند الصنجيل . وكان الاتجاه الغالب في أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم في الشام ، وهو طريق ضورليوم وقونية ، وأيد هذا الرأي الإمبراطور الكسيوس والأمير ريموند نفسه (٥) ولكن جموع اللبارديين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا على أن تتجه الحملة ضد بني

(1) Grousset : His. des Croisades, I, p. 232 .

(2) Setton : op. cit., I, pp. 347 - 348 .

(3) Runciman : op. cit., II, pp. 18 - 19 .

(4) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 224 - 225 .

(5) Albert d'Aix, pp. 560 - 562 .

دانشمند في كابادوقيا للانتقام لبوهيموند وقتك سراحه من الأسر^(١) ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازي كمشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً في قلعة نكسار على حدود بلاده ، أي في المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذي تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية^(٢) ولكن اللبارديين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيكفي الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبنى دانشمند . وهكذا أدى جهل اللبارديين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم في الاستماع للنصح إلى الانحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعي ، مما عرضها لكوارث بالغة^(٣) .

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيل وبقية الصليبيين لرأى اللبارديين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة في أواخر يونية سنة ١٠١١ واستولت عليها في سهولة . ومن هناك اتجه الصليبيون في الاتجاه الشمالي الشرقي إلى كنغري ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالاً للاستيلاء على قسطنطينية على ساحل البحر الأسود . وعندئذ أخذ الإنهاك يحل بالصليبيين لصعوبة البلاد وجديتها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلعج أرسلان على الانسحاب من أمامهم ، مدمراً كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين^(٤) .

وفي ذلك الوقت أخذت تجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبي الجديد ، فأسرع قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقي لنجدة الملك غازي كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس^(٥) . وعندما وقعت الواقعة في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان اللبارديون - وهم السبب في تلك الكارثة - أول من ولى الأدبار . وعبثاً حاول الأمير ريموند

(١) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال : «وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا تخليص بيمنند ...» .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ) .

(2) Setton : op. cit., I, p. 35.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 324 - 325 .

(4) Runciman : op. cit., II, p. 22.

(٥) ذكر ابن الأثير أن المسلمين نصبوا كميناً للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلي ذلك الموضع بين أماسية وسيواس « خرج الكمين عليهم » (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ) .

الصنجيل وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التي رافقت الصليبيين إلى الانسحاب . ولم يلبث ريموند أن فر شمالاً نحو البحر الأسود - قرب سينوب - ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية (١) .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إلى ميناء سينوب البيزنطي ، ولكن بعد أن تركوا في أيدي الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك في مطاردة قلوب الصليبيين ، فقتلوا منهم عددا ضخما قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفا ، وخمسين ألفا (٢) في حين ذكر ابن الأثير أنه «لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاث آلاف هربوا ليلا وأفلتوا مجروحين» (٣) .

وهكذا محت تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين على أيدي السلاجقة الأثر الرنان الذي تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة في ضورليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى القسطنطينية في منتصف يونية سنة ١١٠١ وليم الثاني كونت نفرز Nevers (١٠٨٩-١١٤٧) على رأس خمسة عشر ألفا من الفرسان المشاة الفرنسيين . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة في اللحاق بإخوانهم اللمبارديين ، فأدركوا أنقرة في غير صعوبة . ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللمبارديين ، فاتجهوا نحو قونية التي وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا في الاستيلاء عليها (٤) . وفي ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إيادة حملة اللمبارديين السابقة فتقدم قلع أرسلان والملك غازي بن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إيادة شبه تامة قرب مدينة هرقله في أواخر أغسطس سنة ١١٠١ ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار إلى مدينة أرمناك البيزنطية إلا في صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية (٥) .

(1) Albert d'Aix, pp. 569 - 607 & Foucher de Chartres, p. 377 .

(2) Albert d'Aix, pp. 571 - 572 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(4) Setton : op. cit., I, p. 358 .

(5) Runciman : op. cit., II, p. 26 .

(6) Albert d'Aix, pp. 575 - 578 .

وفي الوقت الذي كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها في آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشثومة في أوائل يونية سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبي بزعامة وليم التاسع دوق أكويتين - وهو شاعر التروبادور الشهير - وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء مسيرتهم في الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ونقص الماء والزاد (١) وقد إتبّع الاتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التي اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، مع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون في طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ وإنهاك ، هاجموهم وقضوا عليهم في سهولة (٢) . وعندما أدرك الصليبيون قونية وجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم في الوقت الذي اجتمع قلع أرسلان سلطان قونية والامير غازي بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعاً للصليبيين على مقربة من هرقة . وكان أن انقض الاتراك على الصليبيين في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ فأبادوا الجيش الصليبي أولاً عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم وليم التاسع دوق أكويتين وولف الرابع دوق بارفايا ، فاتجها إلى طرسوس ، ومنها إلى إنطاكية (٣) .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشثوم الذي جرتها إليه جموع اللبارديين . ولو كان اللبارديون استمعوا للنصح في أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تتفادى الكوارث التي حلت بها . ولا شك في أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة ، أهمها تقوية الروح المعنوية عند الاتراك المسلمين بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصلبيين ، مما محا أثر الهزيمة التي حلت منذ سنوات بالسلاجقة في ضورليوم (٤) . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى في وجه الصليبيين ، بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت في إفتحامه وفتحه ، واستمر هذا الطريق مغلقاً طوال عدة سنوات مقبلة ، أي حتى أيام فردريك

(1) Matthieu d'Edesse (Hist. Arm. I), p. 59.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 361 - 362 .

(3) Foucher de Chartres, p. 399 & Guibert de Nogent , p. 243 .

(4) Runciman : op. cit., I, p. 29 .

باربروسا في أواخر القرن الثاني عشر . أما بالنسبة للموقف في بلاد الشام ، فإن الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين في الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة - ومملكة بيت المقدس بوجه خاص - أحوج ما تكون إليهم للدفاع عن كيانهم ، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة (١) . وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية ، فإن انسداد الطريق البري مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين في الشرق على الطريق البحري الذي سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية ، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوة وبيزة وغيرها من قوى الغرب البحرية (٢) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 332 - 333 .

(2) Runciman, op. cit., II, p. 30 .

الفصل الثاني

ريموند وتأسيس إمارة في الشام

تنازل ريموند عن مطالبه في أنطاكية واللاذقية :

اتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية - بعد الكارثة التي حلت بهم - إلى أنطاكية ، في حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية ، حيث أعد لهم الإمبراطور الكسيوس كومنين في أوائل سنة ١١٠٢ سفناً حملتهم إلى الأراضي المقدسة^(١). وكان أن سحب ريموند الصنجيل الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا في غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعي لأنطاكية . ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر في يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان ، متهماً إياه بخيانة الصليبيين في الأناضول ، مما عرضهم للكارثة التي حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذي اعتقله في قلعة أنطاكية^(٢) ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين ، والتواطؤ مع الدولة البيزنطية ضدهم وضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق - تحت ضغط الأمراء الصليبيين - على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتعهد بالتنازل عن جميع إدعاءاته ومطالبه ، ليس في أنطاكية فحسب بل في اللاذقية أيضاً . وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلي عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه^(٣).

ولاشك في أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حداً للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيل من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافاً جديداً بوجودها مما ثبت أركانها . هذا فضلاً عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام ، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرساً لخدمة الامبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 231 .

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I) p. 27 .

(3) Albert d'Aix, pp. 582 - 583 .

إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلا من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية (١). ويبدو أن ريموند أدرك أخيرا أن سياسته في محالفة الامبراطور البيزنطي لم تأت له بثمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ في حين اكتشفت الامبراطور البيزنطي في نهاية الامر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الامبراطورية ضد الصليبيين بالشام (٢).

استيلاء ريموند على أنطربطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيل في الاستفادة من تلك البقايا في الاستيلاء على أنطربطوس (طربطوس) ، وهي المدينة التي كانت وقت مجيء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبنى عمار - أمراء طرابلس - حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠ . ولكن بنى عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللباردية في آسيا الصغرى ، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد . وفعلا بدأ حصار أنطربطوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة (٣). وصادف في ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام ، فاستعان به ريموند في حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت في يده في فبراير سنة ١١٠٢ (٤). ولم يكد ريموند يستولى على طربطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وأول هذه المشروعات فتح مدينة طرابلس ذاتها (٥).

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضي فخر الملك أبو على بن عمار (١٠٩٩-١١٠٨) الذي سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أنه لم يتطرف في معاداة الصليبيين ، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له ، أو طرابلس ذاتها . كذلك أشرنا إلى أن القاضي فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وحذره من الكمين الذي نصبه له سلاجقة دمشق . والواقع إن

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 334 - 335 .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 56 .

(3) Albert d'Aix, p. 583 .

(4) Heyd : op. cit., I, p. 139 .

(5) Archer. op. cit., p. 156.

فخر الملك لم يأت بجديد في سياسته هذه ، إذ حرص أسلافه دائما على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقة الشام من ناحية أخرى وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية ، والصليبيين من ناحية أخرى (١).

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنطربوس وأخذ يصر في عناد على الاستيلاء على طرابلس ، وعندئذ أصبح لزاما على فخر الملك أن يقبل مضطرا مبدأ الحرب دفاعا عن كيانه ، وأن يلقي بنفسه - كرها أيضا - بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر (٢). وكان أن أرسل فخر الملك أبو علي بن عمار مستنجدا بملك دمشق دقاق من ناحية ، وبأمير حمص - جناح الدولة - من ناحية أخرى . وفي ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد أتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم في مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير (٣). وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو في تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما : من الصواب أن نعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة ، (٤).

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألفي فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروى ابن الأثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة وخمسين لقتال عسكر حمص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف في حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس (٥).

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 337 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(3) Raoul de Caen, p. 708.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذي يهمنا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع في حصار طرابلس فوراً ؛ وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التي تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التي يظنها ، ففنع بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية ، من المال والخيل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنطربوس (مارس - أبريل ١١٠٢) (١).

ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج في ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غرباً حتى جبل عكار . وقد بدأ ريموند أولاً بمهاجمة حصن الطوبان - إلى الشمال الشرقي من حصن الأكراد - وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارساً من أكابر فرسانه ، ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال (٢). وفي السنة نفسها ١١٠٢ ، هاجم ريموند حصن الأكراد أيضاً ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربي الفريد حيث أنه يشرف على كل الأقليم بين أنطربوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى (٣). وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد في يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . عندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية في جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة ، وقتلوه غيلة في مايو سنة ١١٠٢ (٤).

ولاشك في أن هذه الجريمة التي خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا فكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامي في بلاد الشام عندئذ ، مما مكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ما كانوا

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, p. 707.

وينكر ابن الأثير أن ريموند عندما أنصرف من منطقة طرابلس إلى أنطربوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطربوس سبق زمنياً الواقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى (حوادث ٤٩٥ هـ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، وحوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) Stevenson, op. cit., p. 54.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. pp. 525-526) وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ويروى صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من العجم وأنهم اقتربوا من جناح الدولة وهم في زى الزهاد وأخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فخر قتيلاً .

ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال في صفوف خصومهم (١). والتاريخ لا يثبتهم في جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذي ربطته به رابطة وثيقة . ذلك أن جناح الدولة كان متزوجاً من أم رضوان ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية العجم لتنفيذ جريمته الوحشية في زوج أمه (٢).

ولم يكذ ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها ، للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التي غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها . وفعلاً وصل ريموند إلى حمص ، ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها (٣)، فأرادت الخاتون – أرملة جناح الدولة – أن تستدعي ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستجدوا بدقاق ملك دمشق . وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين ، ففزع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها . وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأتاب عنه في حكمها أتابكة طغتكين (أيتكين) (٤).

أما عن ريموند الصنجيل فقد عاد أدراجه ليقوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية في مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس ، لم يروا فيها مطمعا ، واتجهوا جنوباً لمهاجمة جبيل (٥)، وهي قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هي الأخرى تابعة لبني عمار (٦) . ولم تستطع جبيل الصمود في وجه الحصار البحري الذي فرضه الجنوية ، والهجوم البري من جانب ريموند ،

(١) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل ابن ملاعب جناح الدولة «أنه كان عند رضوان بن تنش ملك حلب منجم باطنى ، فغضب لقتل جناح الدولة هذا أولئك النفر ، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوماً» (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩ أما ابن الأثير وابن العديم فقد قالوا في صراحة: «وقيل أن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله» .

(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل سنة ٤٩٧ هـ . Heyd : op. cit., I, pp. 139-141 & 158 .

(٥) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ .

فاضطرت إلى الاستسلام في أواخر سنة ١١٠٤^(١). ويروي ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذي منحوه لأهالي جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب^(٢). أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستوطنة جنوية لها أهميتها تحت أشرف أسرة أمبرياتشي Embriaci^(٣) .

خاتمة ريموند الصنجيل :

وبالاستيلاء على أنطرطوس في الشمال وجبيل في الجنوب تم وضع الإطار الخارجي لإمارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة ، وهي مدينة طرابلس ذاتها . ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها بسهولة ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة ممتدة في البحر ، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر في حالة حصار مدينته براً. لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل (Saint - Gilles) نسبة إلى ريموند الصنجيل في مواجهة طرابلس مباشرة ، أي على الجبال المقابلة لها ، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلي . وأعاناه في بناء هذه القلعة الإمبراطور البيزنطي الذي أرسل إليه الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرص^(٤).

وهكذا أصبح موقف ابن عمار في طرابلس خطيراً ولم يعد أمامه طريق للاتصال بالعالم الخارجي سوى طريق البحر ، في حين تكاتف المسيحيون المحليون - من الموارنة وغيرهم - مع ريموند في إحكام الحصار المفروض على طرابلس^(٥).

وتروي المصادر العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ - 606 p. Albert d'Aix, (1)

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(3) Heyd : op. cit., I, p. 139.

وكان الأسطول الجنوي الذي ساعد ريموند في الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير البحر هيوامبرياتشي .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٩ هـ . Guillaume de Tyr, I, p. .

(٥) المصدران السابقان .

(أغسطس - سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها ، ولكنهم لم يحققوا غرضهم (١). وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفي بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار تقضى بأن يكون للأول ، ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها ، ولكن هذا الرأي الأخير لا يوجد ما يدعمه في المصادر الصليبية ، فضلا عن بقية المصادر العربية (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن ريموند لم يلبث أن توفي في قلعة صنجيل في نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنيته في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام تشابه أنطاكية أو بيت المقدس ، يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط في يد ريموند إلا أنه صاحب الفضل في تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر . فالرها التي سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التي غواها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون سنة ١٢٦٨ . أما طرابلس التي لم تقع في أيدي الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية في قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩ (٣).

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث ٤٩٩ هـ .

(٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان (ص ٥٢٨) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 344 - 345.

الفصل الثالث

أعمال وليم جوردان

وليم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيل ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه في الغرب الأوربي (تولوز) ؛ في حين اختار أفضال ريموند وفرسانه في الشام ابن خالته وليم جوردان ليتابع سياسته في الشرق. وكان أن استأنف وليم سياسة ريموند بجميع أركانها، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة، واستمر في إحكام الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى^(١). ودليل ذلك كله ما يرويه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطي أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة الي هؤلاء الفرنج الذين علي طرابلس، فحملوها في البحر (من قبرص)^(٢). وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن ابن عمار، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلي ميناء طرابلس^(٣).

علي أن ابن عمار وجد نفسه في حاجة الي معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار وليم جوردان، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً وهجرها الفقراء، وافترق الأغنياء، وفشلت جهود فخر الملك ابن عمار في تخفيف حدة الأزمة^(٤). ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه المعونة من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء، أو من الفاطميين الذين يرغبون في انتزاع طرابلس لانفسهم من بني عمار، فإنه لم يبق سوي الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكران بن أرتق التركماني الذي أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا في ديار بكر. وكان أن تحرك سكران فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفي في الطريق، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول علي معونة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥) ^(٥).

(١) Runciman : op. cit., II, p. 62 .

(٢) ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن القلائسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتي ٤٩٨ هـ ، ٤٩٩ هـ .

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس، فاضطر أهلها إلي بيع ما لديهم من الحلي والأواني الغريبة لشراء ما يلزمهم من قوت، في حين أثر بعضهم الفرار إلي صفوف الفرنجة^(١). ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية، واقتدار الصليبيين إلي أسطول بحري يحكم الحصار علي طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى^(٢). ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة، ثم استعداد أهلها في محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء، ساعد كل ذلك علي تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية، بل من إمارة أنطاكية الصليبية وجزائر البنادقة^(٣).

وإزاء إصرار الصليبيين علي حصار طرابلس، اضطر فخر الملك ابن عمار إلي السفر في ربيع سنة ١١٠٨ إلي بغداد لطلب النجدة من زعيم العالم الإسلامي في المشرق، وهما الخليفة المستظهر العباسي (١٠٩٤ - ١١١٠) والسلطان محمد السلجوقي (١١٠٤ - ١١١٧)^(٤). وقد أناب فخر الملك عنه في حكم طرابلس ابن عمه ذو المناقب ابن عمار، ودفع مرتبات الجند لسنة أشهر مقبلة، ثم اتجه إلي بغداد حاملاً معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والسلجوقي^(٥). وتلقي رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلي بغداد ضوءاً ساطعاً علي مدي تفكك المسلمين في المشرق عندئذ، وانحلال الخلافة العباسية، فضلاً عن ضعف السلطنة السلجوقية، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوي الكلمات المعسولة والسؤال عن حالة وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر في قتالهم: ؛ ولكنه لم يظفر بشيء من المعونة المنشودة^(٦).

وهكذا لم يسع ابن عمار سوي أن ينصرف عائداً إلي إمارته في أغسطس سنة ١١٠٨ بخفي حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلي الشام حتي سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه. ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحال أرسلوا إلي الوزير الأفضل الجمالي في القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(2) Setton; op. cit., p. 396.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ .

(5) Stevenson : op. cit., p. 56 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

لهم ؛ ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها، فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب واليا سنة ١١٠٨ «ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد في الحصار». فلما سار فيها قبض علي جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلي مصر في البحر. وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار وآلت إلي الفاطميين^(١). ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوي جبلة، وهي قلعة صغيرة علي الساحل بين اللاذقية والمرقب، وكان القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار قد استولي عليها سنة ٤٩٤ هـ (١١٠١م)^(٢).

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيته في إمتلاك طرابلس إلا أنهم كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها. ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بالتدديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج من كل وجه وتقاعدهم عن المسير^(٣).

ولم يلبث أن كثر الطامعون في حطام إمارة بني عمار، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتابك دمشق يسعي للاستيلاء علي عرقة الواقعة شمالي طرابلس. والمعروف أن حصن عرقة كان من الحصون المنيعة^(٤)، ويتمتع بموقع حربي هام لأنه بمثابة الباب الشمالي لطرابلس، ويؤدي استيلاء الدماشقة عليه إلي قطع الطريق علي الصليبيين بين أنطربوس (طرطوس) وطرابلس^(٥).

وكان فخر الملك أبو علي بن عمار في أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقة إلي أحد رجاله. ولكن هذا الغلام طمع في الاستقلال بعرقة وعصي علي مولاه. وفي الوقت نفسه لم يستطع الصمود في وجه وليم جوردان فعرض علي طغتكين أن يعطيه إياها، وبعث إليه يقول «أرسل من يتسلم هذا الحصن مني، قد عجزت عن حفظه، ولأن يأخذه المسلمون خير إلي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج». ولذلك أرسل طغتكين علي الفور ثلثمائة من رجاله إلي عرقة تحت رئاسة رجل اسمه إسرائيل^(٦).

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٢) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(5) Stevenson : op. cit., p. 56 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

وعندما خرج طغتكين من دمشق في مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجمات علي القلاع الصليبية القريبة، ولزيارة حصن عرقة والاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب ؛ تصدى له وليم جوردان، فلاذ الدماشقة بالفرار، وعلي رأسهم طغتكين نفسه، وظل وليم يطاردهم حتي مشارف حمص، ثم عاد متجهاً صوب شيزر. وقد حاول الأخوان مرشد وسلطان - أميراً شيزر - الإيقاع بوليم جوردان وأسرهم، ولكنه انتصر عليهما^(١). وهكذا عاد وليم بعد ذلك النصر المزدوج ليستولي علي عرقة التي سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع (أبريل سنة ١١٠٨) ويروي بعض المؤرخين الصليبيين أن حاميه عرقة عندما يئست من المقاومة فرت ليلاً وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون في الصباح التالي^(٢)؛ في حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقة طلبوا الأمان، فأمنهم (جوردان) علي نفوسهم^(٣).

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ؛ ص ٥٠ ويطلق أسامة وابن الأثير علي وليم جوردان إسم «السرداني» .

(2) Albert d'Aix, p. 668.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

الفصل الرابع

برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين وليم جوردان وبرترام :

ظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام ، مؤملاً أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التي أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام (براترند) الإبن الأكبر لريموند الصنجيل ، وصاحب الحق الشرعى فى تركة أبيه ^(١) .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق ، وعمل حساب ماقد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده - بروفانس - على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام اتجه إلى الشام وقد وضع فى برنامجهِ ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص فى طريقة من الغرب على أن يمر بجنوة حيث أجرى مباحثات عن الشروط التى تقبل بها جنوة مساعدته فى تحقيق أغراضه ^(٢) . هذا فى الوقت الذى كان وليم جوردان من ناحية أخرى قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيراً إلى جنوة للغاية ذاتها . ولكن وجود برترام نفسه فى جنوة جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوة بأن تساعدته فى الحصول على تركة أبيه فى الشام من ناحية وفى الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوة امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس ^(٣) . وهكذا أبحر برترام من جنوة إلى الشرق وبصحبه أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيل فى إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام فى وراثة أبيه ظل مزعزحاً لأنه كان ابناً غير شرعى له . وكان لريموند ابن آخر شرعى صغير السن هو القونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمره عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين ١١٠٨ على أن يرث القونسو أباه فى ممتلكاته الغربية ، فى حين يرث برترام أباه فى ممتلكاته بالشام . أنظر

Runciman : op. cit., II, pp. 61, 64 - 65 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 352 .

(3) Heyd : op. cit., I, p. 140.

بالدولة البيزنطية، رحب الإمبراطور الكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفة ريموند، وأكرم وفادته في القسطنطينية وقدم له كثيراً من الهدايا . وفي مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للإمبراطور ، مجدداً الحلف بين أمراء بروفانس والإمبراطورية البيزنطية^(١).

على أن الأسطول البروفنصالي - الجنوى لم يتجه نحو أنطربوس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل في ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند في أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعده برترام في الحملة التي يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة في قليقية ، لاستردادها من البيزنطيين^(٢). وعندئذ تذكر برترام عهده للإمبراطور البيزنطي ، فرفض الموافقة على هذا الشرط ، الأمر الذي استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً ، وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية^(٣).

وهكذا أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوبية نحو أنطربوس ، التي كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز في ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبة وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذي ظل يدافع عنها - بعد وفاة ريموند - قرابة أربع سنوات ، ولولاه لصاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه - أي وليم - ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقة وحصن عكار^(٤). وبذلك تعقد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعاً له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنطربوس للاشتراك مع وليم في طرد برترام^(٥).

على أن برترام لم ينتظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنطربوس واتجه على رأس قواته - وصحبته الأسطول الجنوى - إلى طرابلس ليحاصرها براً وبحراً . وفي الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. 664 .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 66 .

(3) Albert d'Aix, pp. 665 - 666 .

(4) Foucher de Chartres, p. 419.

(5) Setton : op. cit., I, p. 397.

يخبره بتحالف وليم جوردان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس ^(١) .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذي يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإنفاذ رسولين إلى تنكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ، ويحذرهما من القيام بأي عمل عدواني ضده ، ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر في رد تركة ريموند إلى ابنه برترام ^(٢) . ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دي بوج أمير الرها ^(٣) .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق في قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث . وفي ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة في تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دي بوج ، كما تم الصلح بين برترام ووليم جوردان ^(٤) . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقة وأنطرطوس ، في حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه في ممتلكاته ^(٥) .

استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح في الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التي ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولم يكن بوسع طرابلس في تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. 666.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 68 .

(3) Grousset : op. cit., I, pp. 355 - 356 .

(4) Stevenson : op. cit., p. 57 .

(5) Albert d'Aix, p. 668 & Guillaume de Tyr, p. 466 .

وبروفانس وأنطاكية ، والرها مجتمعين ، في الوقت الذي أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر ^(١) . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءً سريعاً عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذي أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظراً في موانئ الدلتا لحين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت مسيرته . وفي تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس «وسقط في أيديهم» ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة ^(٢) . وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد قوات الأوان ، ولم تكد تصل إلى ميناء طرابلس «حتى وجدوا البلاد قد أخذت ، فعادوا كما هم» ^(٣) .

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقي على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الإكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثاني ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلاد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . «هذا مع قوتهم (الفاطميون) من العساكر والأموال والأسلحة» ^(٤) .

والواقع أن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء ، واضطروا إلى التفكير في الإستسلام ، طلبوا أن يكون استسلامهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب من الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيه ^(٥) . وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط السابقة ، وسمحوا للقائد الفاطمي - على قول ابن الأثير - بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) المرجع السابق ، ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمي حضر بعد تأخير «وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر» حتى تمكن من الوصول إلى طرابلس أخيراً فوجدها قد أخذت . (أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

(5) Guillaume de Tyr, p. 468.

دمشق^(١) . ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب^(٢) . ولعل تفسير هذا التناقض في مسلك الصليبيين إنما يبدو في أن بلدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأملاك المسلمين وأرواحهم ؛ في حين أن الجنوية دخلوا المدينة في الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير^(٣) .

الجنوية وامتيازاتهم التجارية :

ولم تكد طرابلس تسقط في أيدي الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التي قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيل الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستوطنة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستوطنة أحد أمراء الأسطول الجنوى - اسمه هيو امبرياتشو - الذي لم يلبث أن حصل من جنوة على حق الحكم الوراثي في جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوة^(٤) .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالته في حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يبتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالي ونزعتهم التجارية ، ويندمجون في الوسط الفرنجي البروفنسالى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفضال تابعين لأمراء طرابلس^(٥) . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشو الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية في المدن المجاورة - مثل نابلس

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب نور العلم الموقوفة مالا لا يحصى ، فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالاً وتجارة » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا على طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها ونخائرها ، وكان فيها مالا يحصى ولا يحصر ، وأقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨٠) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358 .

(4) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 420 .

(5) Heyd : op. cit., I, pp. 162 - 163 .

وطرابلس وأنطاكية - مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوبية في المحيط الصليبي الواسع الذي يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوبية وتكرهم لمصالح جنوة ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجارياً للبنادقة في جبيل^(١) .

أما عن نصيب الجنوبية في طرابلس مقابل ما قدموه من مساعدات في فتحها ، فقد «تقرر بين الافرنج والجنوبيين على أن يكون للجنوبيين الثلث من البلد ومانهب ، والثلثان لريموند بن صنجيل ، وأفردوا للملك بغدوين من الوسط مارضى به ،^(٢) .

توحيد إمارة طرابلس :

إتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس . وفي الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للامبراطور البيزنطي^(٣) . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعاني من ذلك التمزق مالم تعاني إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد الشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطربوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ما ينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولائهما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب أنطربوس وعرقه يقدم ولاءه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر - وغيرها - كانت بدون شك لاتبشر بخير ، وأذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقتسما أملاك بيت ريموند الصنجيل في الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية أن ينتهي ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله في ظروف غامضة أشارت إليها المصادر الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة^(٤) . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارة طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لا تقل عن

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 359 - 360 .

(٢) ابن القلائسي : نيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 69 .

(4) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 470 .

إمارة الرها وأنطاكية في أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيل مؤسس الإمارة ، وهو الذي ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس . أما تنكرد - الذي قامر على الحصان الخاسر - فلم يعد له نفوذ إطلاقاً في إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه ^(١) .

استيلاء الصليبيين علي بانياس وجبله وحصن الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين استيلاؤهم على ماتبقى من المعاقل الإسلامية على شاطئ الشام . من ذلك أن تنكرد احتل في طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التي لم تبد سوى مقاومة ضعيفة مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهاليها ^(٢) .

ومن بانياس زحف تنكرد على جبله التي أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جبله هي الأخرى أن تقاوم حصاراً طويلاً ، وكان القوت فيها قليلاً ، فاضطر ابن عمار إلى تسليمها في يوليو سنة ١١٠٩ وقد سمح تنكرد لابن عمار أن يخرج سالماً إلى شيزر ومنها إلى دمشق ، حيث أشفق عليه طغتكين ، وأقطعه الزيداني وأعماله ^(٣) . وهكذا أضحت بانياس وجبله أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما في داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسي أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا في السنة السابقة نفسها (١١٠٩ - ١١١٠) على رمنية شرقى أنطربوس . على أن طغتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور ؛ فلم يقدرُوا (الصليبيون) على منازلة رمنية ^(٤) . وكان أن أنتهى الموقف بعقد اتفاق ودي بين طغتكين والصليبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون - برترام - على ثلث دخل البقاع ، فضلاً عن حصنى المنيطرة وابن عكار ^(٥) .

(١) Runciman : op. cit., II, p. 69.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد إستولى في تلك السنة على جبيل من المسلمين ، والحقيقة إنها جبله أما جبيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا ، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيل لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537) .

ولاشك في أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ، لأن المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعبك ، في حين أن سيطرتهم على حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقة وحمص . وفي مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصيّاث وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة على شيزر^(٢) . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعة كان يجب أن يتبع إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للأمير بونز ، الذي خلف أباه برترام في حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثاني أمير طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢^(٣) .

سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض في تلك الفترة ، فأهم ما يميزها التقارب الشديد بين الوحدات الصليبية الأربع في الشرق الأدنى ، وهي الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها في الفترة التي أعقبت سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين جرى في اتجاه واحد^(٤) وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد ما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية، حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد في أنطاكية ، ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعلق في تلك الفترة بغرام سيسيل - زوجة تنكرد الشابة - حتى إذا ما توفي تنكرد في ١٢ ديسمبر ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملة سيسيل على الفور^(٥) . ولاشك في أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية إذ ربطت بين الأسرتين الحاكميتين في طرابلس وأنطاكية .

وفي الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ،

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ & سبط بن الجوزي ، (p. 536) .

(3) King : the Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 36 .

(4) Setton : op. cit., I, p. 421.

(5) Guillaume de tyr, I, p. 483 & Albert d'Aix, p. 701 .

فراقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية (١).

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التي وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك على حدود دولته في الاتجاه الشرقي . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رمنية ، وهي من أملاك طغتكين صاحب دمشق ، وبالفعل في تحصينها . ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رمنية واستردها من الصليبيين بعد أن أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخايرهم ما امتلأت به أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين ، (٢).

أما الحصن الثاني للصليبيين في إقليم البقاع فكان حصن بعرين الذي شيده بونز أمير طرابلس حوالي ذلك الوقت . وهناك إشارات في المصادر الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولي على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رمنية وحصن بعرين ، فهاجم بونز رمنية واستطاع أن يستولي عليها بمساعدة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في نهاية مارس سنة ١١٢٦ وذلك بعد حصار بضعة أيام (٣) . أما قلعة بعرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر في المصادر من أن بعرين كانت سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعّة التابعة لإمارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت في نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من المرقب شمالاً حتى نهر الكلب جنوباً ، ومن شاطئ البحر المتوسط غرباً حتى بعرين ورمنية وحصن الأكراد وعكار شرقاً . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الوجدتين (٤).

(1) Albert d'Aix, p. 701 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (pp. 555, 557) .

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 367 - 368 & Foucher de Chartres p. 480.

الباب السابع

إمارة أنطاكية والبيزنطيون

" إن هؤلاء لشريعة قليلون
وانهم لنا لفائضون. وأنا
لجميع حاضرون".

(الشعراء : ٥٤ - ٥٦)

الفصل الأول

بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية

مشكلتنا أنطاكية واللاذقية سنة ١٠٩٩ :

رأينا كيف إتجه زعماء الحملة الصليبية الأولى جميعاً صوب بيت المقدس في يناير سنة ١٠٩٩ ، عدا بوهيموند الذي ظل باقياً في أنطاكية، وبلدوين البولوني الذي إستقر في الرها. ومهما يقال في أن هذين الأميرين إنما إختاراً ألا يصحبا بقية الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة ورغبة في الإحتفاظ بالمكاسب التي حققاها، وطمعاً في إنشاء إمارتين مستقلتين إحداهما في أنطاكية والأخرى في الرها، فإنه ينبغي أن نعترف بأن بقاء هذين الأميرين في شمال الشام والعراق جاء عظيم الفائدة بالنسبة للصليبيين في فلسطين، لأنه حمى ظهورهم من خطر السلاجقة أثناء زحفهم على بيت المقدس. ونستطيع أن نتصور مدى الخطر الذي كان من الممكن أن يتعرض له الصليبيون لو أنهم إستمروا يستولون على المدن والبلاد الإسلامية ليتركوها خلفهم دون حماية كافية، ويتابعون سيرهم نحو بيت المقدس غير عابئين بالإحتفاظ بسلامة خطوط مواصلاتهم وتأمين ظهورهم. ولاشك في أن النتيجة الوحيدة لهذه السياسة كانت ملاحقة السلاجقة للصليبيين وإستردادهم ما إستولى عليه الصليبيون من مدن، ثم حصر الجموع الصليبية في نهاية الأمر في منطقة بيت المقدس والفتك بهم بعد أن يكون الإعياء قد إستبد بهم بسبب مشقة الطريق^(١). وعندئذ لا يجد الصليبيون مخرجاً أو منفذاً، فالطريق وراءهم قد قطع، وصحراء سيناء أمامهم، وبادية الشام عن يسارهم، والبحر عن يمينهم. ولكن بقاء بوهيموند في شمال الشام وبلدوين في شمال العراق جاء بمثابة إقامة حراسة صليبية قوية على الأبواب الشمالية لطريق بيت المقدس، فإستطاع بقية الصليبيين بفضل هذه الحراسة أن يزحفوا في إطمئنان نحو المدينة المقدسة، وأن يتفرغوا لما عساه أن يبديه الفاطميون من مقاومة، دون أن يعملوا حساباً كبيراً لطعن السلاجقة لهم من الخلف.

على أنه إذا كان بوهيموند قد أحس بإرتياح لإبتعاد ريموند الصنجيل عن انطاكية^(٢) ، فليس معنى ذلك أن بوهيموند اطمأن تماماً لملكية أنطاكية. ذلك أن

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 299.

(2) Albert d' Aix, p. 448.

مدينة أنطاكية كانت أغنى المدن الصليبية جميعاً في الشرق الأدنى، بفضل ما إمتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية والغرب الأوربي من ناحية أخرى، فضلاً عما إشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف^(١). لذلك لا عجب إذا اشتد التنافس بين مختلف الأطراف المسيحية على إمتلاك أنطاكية بالذات. وهنا نلاحظ أن مشكلة أنطاكية لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض، وإنما كان لها وجه خطير يتعلق بحقوق الإمبراطورية البيزنطية في تلك المدينة، وهي حقوق لها سندها التاريخي والقانوني. ولم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو خلفاؤه المباشرون أن يتناسوا حقوقهم في أنطاكية، مما يجعلنا نقرر أن إماره أنطاكية الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وحدهم، بل أيضاً رغم إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها^(٢). ومع ذلك فقد استطاع النورمان - بما هو معروف عنهم من صلابه عود - وبفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيموند ثم تنكردهم، أن يواجهوا عداء السلاجقة والبيزنطيين جميعاً، وأن يقيموا دعائم إمارتهم في أنطاكية ويحتفظوا بها قائمة في وجه العواصف المضادة التي واجهتهم من قبل أعدائهم^(٣).

أما مشكلة اللاذقية، فكانت هي الأخرى لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية ذلك أنه بعد أن قام أحد القراصنة - ويدعى ونمار البولوني - بالاستيلاء عليها من الأتراك في صيف ١٠٩٧، لم يلبث أن إنتزعها من ونمار بعض البحارة الإنجليز بزعماءه إدجار إثنلج. وهكذا أخذت أيادي المغامرين تتلاقف اللاذقية حتى إستولى عليها ريموند الصنجيل في صيف سنة ١٠٩٨ فسلمها بدورة للبيزنطيين^(٤).

على أن إمتلاك البيزنطيين اللاذقية شكل خطراً كبيراً على إماره أنطاكية، إذ كان في استطاعة البيزنطيين أن يشرفوا من تلك المدينة الهامة على وادي نهر العاصي بأكمله، وبالتالي يهددون مطامع بوهيموند ويحولون بينه وبين التوسع^(٥). لذلك لم يكذب بقية الأمراء الصليبيين يستولون على بيت المقدس، حتى شرع بوهيموند في حصار اللاذقية في صيف ١٠٩٩. وإذا كانت هذه العملية

(1) Runciman : op. cit., II, p. 9.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, pp. 314 - 315.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, pp. 370 - 371.

(4) Albert d'Aix, p. 500 & Raoul de Caen, p. 749.

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 371.

الحربية في حاجة إلى أسطول قوى لكي تتم بنجاح ، فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهيموند بالأسطول البيزي الذي وصل - وعلي رأسه رئيس الأساقفة دايمبرت - إلى أنطاكية، في الوقت المناسب ^(١).

ولم يلبث أن تمكن بوهيموند من فرض حصار قوى على اللاذقية بمساعدة الأسطول البيزي، حتى أوشكت الحامية البيزنطية في المدينة أن تستسلم، في الوقت الذي إقترب، ريموند الصنجيل عائداً إليها بعد إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (سبتمبر سنة ١٠٩٩). وكان ذلك عند جبل - أي على بعد ثلاثين كيلو متراً من اللاذقية - عندما سمع ريموند بهجوم بوهيموند على اللاذقية، فاستشاط غضباً، وأرسل إنذاراً عاجلاً إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتى ^(٢). وإذا كان بوهيموند قد رفض ذلك الإنذار وأصر على مهاجمة اللاذقية، فإنه كان ينتظر أن يسانده في موقفه دايمبرت زعيم البيازنة. ولكن دايمبرت تخلى عنه في تلك اللحظة الحرجة مما اضطر بوهيموند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية. وهكذا دخل ريموند في اليوم التالي اللاذقية ليرفع رايته - إلى جانب الراية البيزنطية - على قلعتها، وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهيموند وريموند في مقابلة ودية ^(٣).

أما عن دايمبرت، فإن تخليه عن بوهيموند أمام اللاذقية لم يؤثر في الصداقة بين الرجلين، وتجلت هذه الصداقة في موقف بوهيموند من أطماع دايمبرت للوصول إلى بطرقة بيت المقدس، كما مر بنا.

فتوحات بوهيموند فيما وراء نهر العاصي :

وبعد أن قام بوهيموند بالحج وزيارة بيت المقدس، أخذ يفكر في توسيع إمارته بالإستيلاء على بعض المواقع الإسلامية القريبة. وكان أن بدأ بالهجوم على قلعة فامية في حوض نهر العاصي. وكانت هذه المدينة للأمير العربي سيف الدولة خلف ابن ملاعب الذي كان في عدااء دائم مع جيرانه من أمراء المسلمين، وبخاصة بنى منقذ في شيزر ^(٤). وربما ظن بوهيموند أن تلك المنازعات بين الأمراء المسلمين - بعضهم وبعض - من شأنها أن تمكنه من تحقيق أطماعه

(1) Heyd : op. cit., p. 135.

(2) Setton : op. cit., I, p. 374.

(3) Albert d'Aix, p. 504.

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٥.

والإستيلاء على قامية في سهولة. ولكنه لم يكد يصل إلى ذلك الحصن حتى وجد مهمته أصعب مما يظن، فقلل راجعاً بعد أن «أُتلف زرعه» (يونية ١١٠٠) (١).

ويرى ابن العديم أن بوهيموند قام في تلك الفترة بالذات بمهاجمة سلاجقة حلب، وأن رضوان السلجوقي صاحب حلب طرد النورمان من كلاً، وهو مكان شرقي العاصي في منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب. على أنه كان للصليبيين - أي النورمان من أتباع بوهيموند - عدة قلاع في تلك المنطقة عدا كلاً، مثل زردنا وسرمين، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت الأمير رضوان وأنزلت به الهزيمة في ٥ يولية سنة ١١٠٠، وعندئذ ولى رضوان الأدبار واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمس مائة نفس ومنهم بعض الأمراء (٢). وقد ترتب على هذا النجاح أن تمكن النورمان من إحتلال برج الحاضر - قرب قنسرين - وكفر طاب شمالي شيزر، في منتصف الطريق بينهما وبين معرة النعمان (٣).

ولم يسع رضوان ملك حلب - عقب تلك الهزائم التي حلت به - سوى أن يستنجد بالأمير العربي جناح الدولة صاحب حمص، دون أن يقدر مدى ما تسببه إستعانتة بذلك الأمير العربي الصغير من مساس بمكانة السلاجقة وهيبته. وقد ذهب جناح الدولة إلى حلب فعلاً لمساعدة رضوان ولكنه صادف من المهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة إلى حمص، وهو راغب في الانتقام من رضوان السلجوقي (٤).

أما بوهيموند فقد استمر يباشر نشاطه حول حلب، فعسكر في أواخر يولية سنة ١١٠٠ على ضفاف نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف.

ويذكر ابن العديم أن بوهيموند كان ينوي تحويل الكثبان القريبة من حلب - والتي كانت مدافن للمسلمين - إلى حصون تحيط بالمدينة، وبذلك يضمن حصار حلب ومواصلة التضيق عليها حتى تسقط في يده (٥). ولا يخفى علينا أن قوة سلاجقة حلب كانت قد أخذت تنحل سريعاً في ذلك الوقت. وكان من الممكن أن

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، سنة ٤٩٣ هـ.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (مطبوع ج ٢ ص ١٤٤).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب. ج ٢ ص ١٤٤ (مطبوع).

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 277.

(٥) «وعزموا أن يبنوا مشهد الجف، ومشهد الدكة، ومشهد قرنيبا حصونا، وأن يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها» (ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٤٤ - مطبوع).

يستولى بوهيموند على تلك المدينة لو أنه واصل الهجوم عليها، ولكنه تركها وغير اتجاهه فجأة صوب ملطية، وذلك عندما علم بهجوم كمشتكين الدانشمند عليها^(١).

ومن هذا يبدو أن بوهيموند ظل يحارب في أكثر من جبهة واحدة، وينازل أكثر من عدو في وقت واحد. ففي الوقت كان يحارب المسلمين - من عرب وسلاجقة - لم يتردد في منازلة البيزنطيين - أعداء القدامى - ليسترد منهم مدينة مرعش. وكانت هذه المدينة - في جبال طوروس - قد استولى عليها الصليبيون في الحملة الأولى سنة ١٠٩٨ - كما مربنا - وسلموها للبيزنطيين، ولكن بوهيموند عاد وأصر على استردادها. ولم يستطع بوهيموند في حملته التي قام بها ضد مرعش أن يحقق غرضه. وكل ما إستطاعه هو السيطرة على الأراضي المكشوفة المحيطة بها. وربما كانت هذه الحملة في ذاتها لاتهمنا كثيراً سوى من ناحية أن أهل ملطية الأرمن ما كادوا يعلمون بوجود بوهيموند على مقربة منهم عند مرعش حتى إستنجدوا به ضد الأتراك المسلمين.

أسر بوهيموند :

رأينا أن مدينة ملطية - عند أطراف الفرات - كان يحكمها وقت وصول الصليبيين إلى الشرق أحد زعماء الأرمن، واسمه جبريل. وقد أنقذ وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جبريل هذا من هجوم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم. ولكن ملطية سرعان ما وجدت نفسها أمام عدو آخر لا يقل خطورة، هو الملك غازي كمشتكين (نوشتكين) ابن الدانشمند - أمير سيواس^(٢) - الذي ظل ثلاث سنوات كاملة يهدد ملطية ويعيث في أراضيها فساداً وتخريباً^(٣). وعندما عاد كمشتكين إلى مهاجمة ملطية في صيف سنة ١١٠٠، استنجد جبريل ببوهيموند - وتعهد له بتسليمه المدينة إذا هونج في إنقاذها^(٤).

وكان بوهيموند يدرك تماماً أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في المسائل المتعلقة بالشرق الأدنى - وبخاصة الأزمة بين الإمبراطورية البيزنطية - ولذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم، واعتقد دائماً أن النورمان

(١) المصدر السابق - ص ١٤٥.

(٢) كته ابن العديم نوشتكين الدانشمند وكتبه ابن الأثير كمشتكين بن الدانشمند.

(3) Michel Le Syrien (ed. Chabot) III, p. 187.

(4) Matthieu d'Edesse, p. 51.

والأرمن لهم جميعاً عدوان مشترك، هما البيزنطيون والأتراك^(١). لذلك أسرع بوهيموند لنجدة ملطية ومعه خمسمائة فارس وهو عدد صغير لم يكن يصلح للوقوف به في وجه جموع الأتراك^(٢).

ولم يلبث أن وقع بوهيموند في كمين نصبه الأتراك، وانتهى الأمر بأسره وذبح رجاله في أوائل أغسطس سنة ١١٠٠^(٣). ولا شك في أن وقوع بوهيموند في الأسر جاء كارثة على الصليبيين، نظراً لنشاطه وبلائه في حرب المسلمين، مما جعل أحد المؤرخين الأرمن - وهو متى الرهاوي - يقول إن اسم بوهيموند كان يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان^(٤). أما الملك غازي كمشتكين، فقد استغل ذلك النصر ليشدد قبضته على ملطية، فاتجه في اليوم التالي إلى أسوار المدينة ورءوس الفرنجة من أتباع بوهيموند معلقة على أسنة الرماح، والأسرى بجانبه مكبلين بالأغلال ليثير الرعب في نفوس أهل ملطية ويضطرهم إلى الاستسلام.

ويقال إن بوهيموند أرسل عند أسره رساله سرية إلى بلدوين البولوني حاكم الرها - الذي صار بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيما بعد - يستنجد به لفك أسره، فخرج بلدوين على رأس مائه وأربعين فارساً فقط قاصداً ملطية. وكان من الممكن أن يقع بلدوين في المصير نفسه الذي وقع فيه بوهيموند، لولا أن الملك غازي كان قد غادر ملطية قبل وصوله، واتجه شمالاً إلى بلاده حيث سجن بوهيموند في قلعة نكسار قرب شاطيء البحر الأسود^(٥).

أما بلدوين فقد استقبل في ملطية إستقبال المحرر، وأعلن جبريل حاكم المدينة تبعيته له. وبعد أن ترك بلدوين خمسين فارساً من فرسانه في ملطية للدفاع عنها، إنصرف عائداً إلى مركز إمارته بالرها. على أن تلك المعونة الصغيرة لم تكف لحماية ملطية من هجمات الملك غازي، وهي تلك الهجمات التي لم تهدأ إلا باستيلائه عليها وأسر صاحبها، سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٣ حسب اختلاف الروايات^(٦).

(1) Grousset : Hist. des Croisades I p. 378.

(٢) قدر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ فيه، كما يبدو من تطور الأحداث التي أدت إلى أسره (الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ).

(3) Albert d'Aix, pp. 524 & Matthieu d'Edesse, p. 52.

(4) Matthieu d'Edesse, p. : 52.

(5) Albert d' Aix, p. 525.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

الفصل الثاني

وصاية تنكرد على أنطاكية

(١١٠٠ - ١١٠٣)

الموقف في أنطاكية بعد أسر بوهيموند :

أحدث أسر بوهيموند فراغاً كبيراً في شمال الشام، لاسيما وأن بلدوين البولوني أمير الرها لم يلبث هو الآخر أن استدعى إلى بيت المقدس ليرث أخاه جودفري في الحكم.

وبالنسبة لأنطاكية بالذات، قرر أمراؤها ورجال الدين فيها استدعاء تنكرد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله ^(١). وقد جاء ذلك العرض على تنكرد في الوقت المناسب بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الأول، كما مر بنا. وهكذا ترك تنكرد إقطاعه في الجليل، واتجه إلى أنطاكية ليباشر مهمته الجديدة (أواخر مارس ١١٠١) ^(٢).

ولم يلبث أن وجد نورمان أنطاكية في تنكرد زعيماً يفيض قوة وحماسة، ولا يقل عزيمته وبأساً عن سلفه بوهيموند. ثم إن تنكرد حرص على أن يكون أميناً في وصايته على أنطاكية، فلم يتخذ لنفسه لقب «أمير أنطاكية»، وإن لقبته الوثائق الصليبية المعاصرة بلقب «الأمير الكبير، أو لقب خادم الله» لتمييزه عن سائر أمراء الإمارة. والواقع إنه لم يكن في استطاعة تنكرد أن يتصرف غير ذلك، نظراً لبقاء أهل إمارة أنطاكية على ولائهم لبوهيموند، مما كان من المحتمل أن يعرضه لمقاومة شديدة إذا هو حاول أن يعتدى على حقوق بوهيموند في حياته ^(٣).

أما عن سياسة تنكرد فقد سارت في الطريق نفسه الذي رسمه بوهيموند، فعمل على تنظيم الإدارة وتركيزها، وصبغ كنيسة أنطاكية بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية، ثم توسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعاً. وكان أول ما فعله تنكرد لتحقيق ذلك البرنامج، هو إكتساب ود القوى

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 413 & Foucher de Charters, p. 384.

(2) Setton : op. cit., I, p. 382.

(3) Runciman : op. cit., II, pp. 9, 32.

البحرية الإيطالية، فعقد إتفاقاً مع الجنوية في صيف سنة ١١٠١ منحهم بمقتضاه ثلث دخل ميناء السويدية، ودرباً في أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجاري. على أن المهم في هذه الإتفاقية هو أن تنكرد وعد الجنوية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية في الوقت الذي كانت اللاذقية نفسها بأيدي البيزنطيين. ومن الواضح أن ذلك يعنى طلب مساعدة الأسطول الجنوى في إنتزاع اللاذقية من البيزنطيين. وهكذا يمكن تلخيص البرنامج الذي وضعه تنكرد لسياسته الخارجية خلال وصايته على أنطاكية في شطرين : الشطر الأول الإستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين، والشطر الثانى الإستيلاء على الجزء الأوسط من وادى نهر العاصى من سلاجقة حلب وأتباعهم (١).

حروب تنكرد ضد البيزنطيين :

وإذا كان تنكرد - مثل خاله بوهيموند - حريصاً على حماية إماره أنطاكية من خطر البيزنطيين الذين لم يغفروا للنورمان إستيلائهم على تلك المدينة، فإن حسن الحظ شاء أن تحول ظروف الإمبراطورية البيزنطية عندئذ دون قيامها بأية محاولة ضد أنطاكية، سواء هجومية أو حتى دفاعية. ذلك أن الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ أضعفت مركز البيزنطيين في آسيا الصغرى وقوت مركز الأتراك، مما جعل من المتعذر على الإمبراطور البيزنطى أن يرسل حملة في تلك الظروف عبر آسيا الصغرى إلى قيليقية وشمال الشام. وكان أن إستغل تنكرد الفرصة، فلم يكد يسمع بهزيمة الصليبيين في آسيا الصغرى سنة ١١٠١ حتى فكر في مهاجمة المدن البيزنطية في قيليقية، عملاً بالحكمة القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع (٢).

ولا أدل على ضعف مركز الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى في مستهل القرن الثانى عشر من أن تنكرد لم يكد يشرع في غزو قيليقية في أواخر سنة ١١٠١ حتى استطاع في مدة قصيرة أن يستولى على المصيصة وأذنة وطرسوس - وهي المدن الرئيسية الثلاث في ذلك الإقليم - ثم انصرف بعد ذلك ليبدأ حصار اللاذقية (٣).

على أن اللاذقية إمتازت عندئذ بقوة تحصيناتها، فضلاً عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجيل داخلها للدفاع عنها، وبعض قطع من الأسطول البيزنطى

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 232 & Heyd : op. cit. I, p. 135.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 383.

(3) Runciman : op. cit. II, p. 33.

في مياهمها، مما تطلب حصاراً طويلاً وجهداً عنيفاً من تنكرد ليستولى عليها (١). ومع ذلك فإن تنكرد إستغل وقته أثناء مدة الحصار إستغلالاً طيباً، فقام في تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للإستيلاء على جبلة - إلى الجنوب من اللاذقية - ثم شاء حسن حظه أن ريموند الصنجيل لم يكن موجوداً في الشام حينئذ ليدافع عن اللاذقية وعن حقوق الإمبراطورية البيزنطية - كما سبق أن دافع عنها سنة ١٠٩٩ - وإنما كان ريموند مشغولاً سنة ١١٠١ بمرافقة الحملة اللمباردية المشثومة في شمال شرق الأناضول. ولم يكد ريموند ينتهي من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء السويدية حتى قبض عليه تنكرد وإعتقله في قلعة أنطاكية كما مر بنا (٢).

ومن الواضح أن حرص تنكرد على إعتقال ريموند إنما كان مصدره تخوفه من أن ينتهز ريموند فرصة أسر بوهيموند، ويجدد اللغمة القديمة فيطالب بحقه في أنطاكية، فضلاً عن تهديده لمشروع تنكرد الخاص بالإستيلاء على اللاذقية. لذلك لم يطلق تنكرد سراح خصمة سنة ١١٠٢ إلا بعد أن أقسم له على أن يتخلى عن مطالبه وإدعاءاته في شمال الشام. وهكذا إنصرف ريموند من محبسه ليتجه نحو أنطربوس (طرطوس)، ومر أثناء طريقه باللاذقية فأمر رجاله بالإنسحاب منها ومرافقته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه حول طرابلس (٣).

ولم تلبث الحامية البيزنطية أن وجدت نفسها وحيدة في اللاذقية بعد أن انسحب أتباع ريموند من البروفنساليين، في الوقت الذي شدد تنكرد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوبية من ناحية البحر، مما أدى إلى سقوط اللاذقية في يده في أواخر سنة ١١٠٢ وأوائل سنة ١١٠٣. وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة، فضلاً عن ميناء بحري رئيسي يربطها بالغرب (٤).

ثم إن تلك الحروب ضد البيزنطيين جاءت مصحوبة بتغيير في أوضاع بطريركية أنطاكية. ذلك أن الصليبيين عندما فتحوا أنطاكية إحتفظوا بالطرق الأرثوذكسي حنا الرابع، الذي قاسى كثيراً أثناء فترة الحصار، ومن ثم إزدادت مكانته في نظر المسيحيين جميعاً، وإحترمه الصليبيون الكاثوليك رغم مذهب الأرثوذكسي (٥). ولكن نظرة النورمان إلى حنا الرابع لم تلبث أن تبدلت أثناء

(1) Raoul de Caen, p. 706.

(2) Albert d'Aix, p. 582.

(3) Runciman : op. II, p. 34.

(4) Raoul de Caen; pp. 708 - 709.

(5) Albert d'Aix, p. 433.

عدائهم للبيزنطيين، إذ أخذوا يعتبرون ذلك البطرق رسولاً للبيزنطيين وعيناً للإمبراطور البيزنطي عليهم. لذلك عزل بوهيموند - قبل أسره مباشرة - بطرق أنطاكية الأرثوذكسي حنا الرابع، وعين بدله أحد رجال الدين الكاثوليك، هو برنارد ذي فالنس أسقف ارتاح الذي شغل كرسي أنطاكية من سنة ١١٠١ حتى سنة ١١٣٥، وقام خلال تلك المدة بدور كبير فعال في النشاط الداخلي والخارجي لإمارة أنطاكية. وقد استأنف تنكرد سياسة خالة إزاء الكنيسة، فحرص دائماً على إستبدال رجال الدين الأرثوذكس بغيرهم من الكاثوليك، مما أثار غضب الإمبراطور البيزنطي والكنيسة الأرثوذكسية جميعاً^(١).

ولاشك في أن الانتصارات التي أحرزها تنكرد على البيزنطيين جعلت له كلمة مسموعة في شئون فلسطين وبيت المقدس، كما ظهر ذلك في تدخله لدى بلدوين سنة ١١٠٢ عقب الكارثة التي حلت بالأخير عند الرملة لإعادة دايمبرت إلى كرسي بيت المقدس، كما سبق أن ذكرنا^(٢).

إنقسام المسلمين :

أما عن جانب المسلمين، فإن خبر أسر بوهيموند أثار موجة من الحماسة المؤقتة بين صفوفهم، ظهر صداها في النكسة التي منى بها الصليبيون. من ذلك ما أخبرنا به ابن العديم من أن النورمان أسرعوا عقب تلك الكارثة إلى الإنسحاب من إقليم حلب، في حين تشجع صاحب حلب رضوان السلجوقي وخرج من مدينته ليحتل مزارع الغلال المجاورة، متخذاً معسكره قرب سرمين. أما أمير حمص العربي - جناح الدولة - فإنه عقب أسر تنكرد استرد من الصليبيين قلعة أسفونا، غربي سرمين وشمالى معرة النعمان^(٣).

على أن أنشفاق المسلمين وتصدد صفوفهم وضعف وحدتهم في ذلك الوقت، حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد الصليبيين. ذلك أن النزاع سرعان ما دب بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص، ليس فقط لأن الأول كان سلجوقياً تركياً والثاني كان عربياً، وإنما أيضاً بسبب الخلاف المذهبي، لأن رضوان على الرغم من أصله السلجوقي كان متشيعاً إسماعيلياً المذهب في حين كان جناح الدولة سنياً^(٤). ولعل هذه النعرة المذهبية هي التي دفعت جناح الدولة

(1) Runciman : op. cit., II., pp. 32 - 33.

(٢) أنظر ما سبق.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٥ (مطبوع).

(4) Grousset : Hist des Groisades, I, p. 367.

إلى مهاجمة رضوان في معسكره قرب سرمين، وعندئذ لاذ رضوان بالفرار، ووقع وزيره أبو الفضل ابن الموصول أسيراً. وهكذا أخذ المسلمون يهاجمون بعضهم بعضاً بدلاً من توحيد جهودهم ضد عدوهم المشترك.

ثم إن عطف رضوان على الباطنية وتشجيعه المتزايد لهم، سرعان ما أوجد إنقساماً بين صفوف المسلمين في حلب، وهو الإنقسام الذي أفاد منه الصليبيون وحدهم. ذلك أن رضوان اعد دعاة الإسماعيلية في نشر دعوتهم، وعينهم في المناصب الكبيرة في إمارته وحفظ جانبهم، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه، وكاتبه الملوك في أمرهم فلم يلتفت ولم يرجع عنهم،^(١). وكان زعيم الباطنية عندئذ هو الحكيم المنجم الباطني الذي قربه رضوان إليه، ومن ثم عمل على إفساد العلاقة بين رضوان وجناح الدولة، مما أثار إستياء كثير من أهل حلب المخلصين.

وقد ذكرنا كيف أن رضوان ملك حلب لم يستطع أن يغفر لتابعه جناح الدولة صاحب حمص - الذي كان متزوجاً من أمه - ما حل به قرب سرمين. لذلك تظاهر رضوان بمصالحة جناح الدولة ودعاه إلى حلب حيث أكرم وفادته، حتى إذا ما دخل جناح الدولة جامع حلب لتأدية فريضة الجمعة، إنقض عليه ثلاثة أعجام من الباطنية - بإيحاء من زعيمهم الحكيم المنجم الباطني - ليمزقه إرباً^(٢). ومن الواضح أن هذه الجريمة إنما تمت بتدبير رضوان، الذي لم يكتف بتشجيع الباطنية وإنما قتل صاحب حمص بدلاً من أن يؤازره ويشجعه على الصمود في وجه الصليبيين^(٣).

جمود السلاجقة :

ومن الظواهر التي تسترعى الإنتباه في تلك الفترة بالذات - أي في أوائل القرن الثاني عشر - جمود سلاجقة فارس وأتابكتهم في الموصل ، بحيث أنهم لم يتحركوا للحد من توسع الفرنجة، على الأقل في شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى، ولم يحاولوا الإستفادة من الموقف السيء الذي بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهيموند أمير أنطاكية. ثم حدث في العام نفسه تقريباً، الذي شهد أسر

(١) ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٤٥ (مطبوع).
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان.

(Rec. Hist. Or . p. 525)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٦ (مطبوع).

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

بوهيموند، أن منيت حملة صليبية كبيرة - هي الحملة اللباردية - بهزيمة ساحقة في شمال شرق الأناضول (سنة ١١٠١). ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس ان يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار في الشرق الأدنى ضد الصليبيين لطردهم من البلاد التي أغتصوبها. ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة - مثل الأراتقة - بمحاربة إماره الرها، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة في شمال العراق والتي تهدد سلامة الخلافة العباسية في بغداد (١). ؟

لاشك في أن موقف السلاجقة المتسم بالجمود في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، إنما مرده النزاع الداخلى بين زعمائهم وقادتهم (٢). ذلك أن وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق الأدنى وانتصارهم على السلاجقة في آسيا الصغرى والشام وشمال العراق، كان له رد فعل عنيف داخل دولة السلاجقة، إذ انحلت السلطة المركزية وضعفت سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم التي تألفت منها دولته. ولم يلبث أن اشتد النزاع بين قادة السلاجقة وحكامهم، مما أضعف من قوتهم وأضع هبة السلطان السلجوقى نفسه. من ذلك ما يرويه ابن الأثير عن القتال الذى نشب بين زعماء السلاجقة حول حكم الموصل عند وفاة حاكمها كربوغا (كربوقا) في أواخر سنة ١١٠٢، والسلطان السلجوقى يسمع ويرى دون أن يتدخل (٣).

وهكذا صار من المتعذر على سلطان سلاجقة فارس أن يقوم بحرب ضد الصليبيين في شرقى آسيا الصغرى أو في الشام وشمال العراق، وقادته في شغل بالنزاع الداخلى ومقاتلة بعضهم بعضاً. وبعبارة أخرى فقد أفاد الصليبيون من انقسام دولة ملكشاه وتفتتها، وما نشأ بين زعمائها وقادتها من خلافات شغلتهم جميعاً عن محاربة الدخلاء (٤).

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 396.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 157 - 169.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥.

(4) Archer : op. cit., p. 144.

الفصل الثالث

عودة بوهيموند إلى حكم أنطاكية

إطلاق سراح بوهيموند :

إستاء البيزنطيون من الحرب السافرة التي شنها ضدهم تنكرد الوصى على أنطاكية، وهى الحرب التي أدت إلى إستيلائه على مدن قيليقية فضلاً عن اللاذقية. ولما كان من الصعب على الإمبراطور البيزنطى وجيوشه إختراق آسيا الصغرى لمعاقبة النورمان فى تلك الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية سنة ١١٠١، فإن الإمبراطور لم يجد وسيلة للإنتقام سوى الحصول على شخص بوهيموند نفسه بأى ثمن . ولم تكن محاولة الإمبراطور البيزنطى عندئذ هى المحاولة الأولى مع الملك غازى كمشتكين لإطلاق سراح بوهيموند، إذ أخذ بلدوين دى بورج أمير الرها يتخوف عندئذ من أطماع تنكرد وسياسته، ولم يجد سبيلاً لمنع الصدام مع النورمان فى أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته^(١). لذلك قام بلدوين دى بورج - بالإشتراك مع برنارد بطرق أنطاكية - بمحادثات مع الملك غازى لإطلاق سراح بوهيموند، وعندئذ تقدم الإمبراطور البيزنطى فجأة بعرض سخى، إذ عرض على الملك غازى مائتين وستين ألف دينار ثمناً لتسليمه بوهيموند، وقام حاكم طرابيزون بالوساطة بين الطرفين^(٢).

وعندما علم قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بتلك المحادثات بين الإمبراطور البيزنطى والملك غازى حول تسليم بوهيموند، تدخل ليطلب من الملك غازى تسليمه نصف المبلغ مقابل المساعدة التى قدمها للملك غازى سنة ١١٠١ ضد حملة اللمبارديين . ولكن الملك غازى رفض طلب قلعج أرسلان، فأعلن الأخير الحرب على الأول، فى الوقت الذى كان بوهيموند لا يزال أسيراً فى نكسار^(٣).

والواقع إن بوهيموند لم يكن فى عزلة تامة عن تلك المحادثات الدائرة بشأن شخصه وتحديد مصيره، فوصلت إليه الأخبار - فى محبسه - بعرض الإمبراطور

(1) Runciman : op. cit., II, p. 38.

(2) Albert d'Aix, p. 610 .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 301 .

البيزنطي من ناحية وطلب السلطان قلع أرسلان من ناحية أخرى ، ثم موقف الأمير التركمانى الملك غازى من الطرفين . ويقال إن بوهيموند - وهو النورمانى الوسيم - كان على صلة ببعض النساء فى حريم الملك غازى - مما مكنه من متابعة الأخبار الخارجية ، ثم من العثور على شفعاء عند الملك غازى من ناحية أخرى ^(١) . وكان أن أرسل بوهيموند إلى الملك غازى يذكره بأن كلا من الطرفين الذين يتساومان عليه - الإمبراطور البيزنطى وسلطان سلاجقة الروم - عدو مشترك لبوهيموند وللملك غازى نفسه ، وأن مصلحة الملك غازى تتطلب منه أن يطلق سراح بوهيموند دون أن يسلمه لأحد ، وفى هذه الحالة يتعهد بوهيموند بمحاربة الملك غازى ضد أعدائهما المشتركين . أما من ناحية المال فإن معنى إصرار قلع أرسلان على مقاسمة الملك غازى المبلغ الذى سيدفعه الإمبراطور البيزنطى ، هو أن الملك غازى لن يتسلم سوى مائة وثلاثين ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد بوهيموند بدفع مائة ألف دينار عن طريق الصليبيين بالشام ^(٢) .

وفى تلك الأثناء أخذت جيوش الملك غازى تهاجم ملطية ، وعندئذ إستنجد حاكمها جبريل بزواج ابنته بلدوين دى بورج أمير الرها . ولكن الأخير خشى أن يؤدى تدخله لمساعدة ملطية إلى تعثر المفاوضات الدائرة بشأن إطلاق سراح بوهيموند ، فأصم أذنيه عن نداء جبريل ، مما أدى إلى سقوط ملطية فى قبضة الملك غازى ومقتل جبريل نفسه ^(٣) . ولم يلبث الملك غازى أن قبل العرض الذى تقدم به بوهيموند لإطلاق سراحه ، فأقتيد إلى ملطية حيث تبادل مع الملك غازى أيمان الإخلاص والتحالف ، وبعد ذلك تم إطلاق سراحه فى أوائل مايو سنة ١١٠٣ . أما عن مقدم الفدية المتفق عليه ، فقد إشتراك فى جمعه الصليبيون فى الرها وأنطاكية ، فضلاً عن الأرمن فى أقليم طوروس ، فى حين دفع المؤخر أتباع بوهيموند فى صقلية ^(٤) .

ومن الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند فى ذلك الوقت جاء كارثة على المسلمين ، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير ، لأنه عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به ^(٥) . هذا إلى أن إطلاق سراح بوهيموند أوقع الملك غازى فى نزاع مرير مع سلطان سلاجقة الروم ، الذى عز عليه أن يرفض غازى طلبه ويحرمه من

(1) Setton : op. cit., vol. I, p. 388.

(2) Albert d'Aix, p.p. 610 - 612 .

(3) Michel Le Syrien, II, pp. 185 - 189 .

(4) Runciman : op. cit., II, p. 39 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

مبلغ ضخم . وهكذا تفككت جبهة الأتراك في آسيا الصغرى ، وهي الجبهة التي أمكنها سنة ١١٠١ أن تقضى على الحملة للمباردية ، وأرسل قلع أرسلان إلى سلاجقة فارس وإلى الخليفة العباسي يستعديهما على الملك غازي التركمانى ، مما زاد من تشقق الجبهة الإسلامية ، وتصدعها في الشرق الأدنى (١) .

أما بوهيموند فقد وصل أنطاكية في مايو سنة ١١٠٣ ليستقبل استقبالا رائعا في إمارته بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات قام فيها ابن أخته تنكرد برعاية شئون الإمارة في الداخل والخارج بمهارة فائقة . ولم يسع بوهيموند سوى أن يشكر تنكرد لإخلاصه وأمانته ، وإن كان يبدو وجود قدر من الخلافات الشخصية بين بوهيموند وتنكرد في تلك الفترة ، بسبب رغبة الأخير في الاحتفاظ لنفسه بالفتوحات التي فتحها أثناء قيامه بالوصاية على إمارة أنطاكية (٢) . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الحزازات قدر لها ألا تنكشف فإضطر تنكرد إلى مسالمة خاله على طول الخط تحت تأثير الرأي العام ، في حين اكتفى خاله بإقطاعه إقطاعاً صغيراً في إمارة أنطاكية (٣) .

حروب بوهيموند ضد البيزنطيين والمسلمين :

ولم يكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى إفتح صفحة جديدة في سلسلة عدائه للدولة البيزنطية . ذلك أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين جدد طلبه الخاص بتنفيذ اتفاقية سنة ١٠٩٧ بينه وبين أمراء الحملة الصليبية الأولى ، وطالب بإعطائه أنطاكية وغيرها من البلدان البيزنطية التي انتزعها الصليبيون من السلاجقة (٤) . ولكن بوهيموند رد على الإمبراطور بالرفض ، محتجاً بأن مسلك الإمبراطور أثناء صراع الحملة الصليبية الأولى ضد السلاجقة ، يجعل الصليبيين في حل من عدم الالتزام بالاتفاقية السابقة . لذلك أرسل الإمبراطور حملة كبيرة سارت في آسيا الصغرى بحذاء شاطئ البحر المتوسط لاحتلال طرسوس وأذنه والمصيصة ، وانتزاعها جميعاً من النورمان . ولكن تلك الحملة لم توفق في مهمتها بسبب موقف أهالي تلك البلاد - وجلهم من الأرمن - مما جعل قائد الجيش البيزنطي يتجه إلى مرعش التي كان حاكمها الأرمني ثاتول Thatoul تابعاً للإمبراطور البيزنطي (٥) .

(1) Albert d'Aix, pp. 613 - 614.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 39 .

(3) Setton : op. cit., I, p. 388 .

(4) Chalandon : Alexis comnene, p. 233.

(5) Chalandon : Alexis comnene, p. 234 .

ولم يكد القائد البيزنطي يعود من مرعش إلى القسطنطينية حتى زحف بوهيموند أمير أنطاكية وجوسلين دي كورتناي - نائباً عن بلدوين دي بورج أمير الرها - على مرعش ، فأستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣ في حين استولى بوهيموند على مدينة الأبلستين ، شمالي مرعش ^(١) .

وفي الوقت نفسه لم يهمل بوهيموند - بعد إطلاق سراحه - جانب جيرانه المسلمين ، فشرع يحاربهم بشراسته المعروفة . وبدأ بمهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب ، كما فرض الجزية على قنسرين ^(٢) . ويروي ابن العديم أن الصليبيين في أنطاكية والرها إشتراكوا في مهاجمة المسلمين على نهر قويق شمالي حلب ، فمزقوا الأهالي إرباً وفرضوا عليهم الأموال الباهظة . وبعد أن قضوا بضعة أيام في إقليم حلب تم الإتفاق مع صاحبها رضوان السلجوقي على أن يدفع لهم سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء ^(٣) ، ويبدو أن هذه الأموال التي حرص بوهيموند على فرضها على جيرانه المسلمين في تلك الفترة بالذات إنما كان الغرض منها رد المبالغ التي إقترضها بلدوين دي بورج والبطرق برنارد من المسيحيين للحصول على الفداء اللازم لإطلاق سراح بوهيموند ^(٤) . يدل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من أن بوهيموند لم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وماجاورها يطالبهم بالإتاوة ^(٥) .

كذلك يروي ابن العديم أن الصليبيين التابعين لإمارة الرها خرجوا بعد ذلك من تل باشر ، ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب ، وعاثوا فيها فساداً وتحريقاً ، ثم إتجهوا إلى قلعة بسرفوث وإستولوا عليها ، كما هاجموا قلعة كفر لاثا ، ولكن قبيلة بنى عليم تصدت لهم ورددتهم عنها فعادوا أدراجهم إلى بسرفوث ^(٦) . ولا شك في أن إستيلاء الصليبيين على قلعة بسرفوث أمر له أهميته لأن تلك القلعة تتحكم في الطريق بين حلب وأنطاكية ^(٧) .

(1) Raoul de Caen, pp. 710 - 712 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 39. والمسلمية قرية على طريق حلب

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ (مطبوع)

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٨ (مطبوع)

(7) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 401 .

موقعة حران وأثرها في أنطاكية :

وفي ذلك الوقت إستغل أمير الرها إنقسام السلاجقة على أنفسهم ، والنزاع بين بركياروق ومحمد ابنى ملكشاه - كما سيلي فيما بعد - وقام بحملته الشهيرة على حران في ربيع سنة ١١٠٤ . ويهمنا في هذا المقام أن بوهيموند أمير أنطاكية - ومعه تنكرد - لم يتركها بلدوين الثانى (دى بوج) أمير الرها وحيداً أمام حران ، نظراً لأهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامى فى المشرق . وكان معنى إستيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الإتصالات بين المسلمين فى العراق وفارس وإخوانهم فى الشام ، فضلاً عن أن سقوط حران سيعطى الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة ^(١) .

على أن تهديد الصليبيين لحران على تلك الصورة جعل إثنين من أمراء الأتراك - هما شمس الدولة جكرمش أتابك الموصل ، ومعين الدولة سكرمان الأرتقى صاحب ماردين فى ديار بكر (وهو الذى كان أمير سروج من قبل) يتناسيا ما بينهما من حزازات قديمة ، ويتفقان على مقاومة ذلك الخطر . وهكذا إلتقى الأميران عند رأس العين على الخابور للزحف على الصليبيين . وكان مع سكرمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ^(٢) .

ولم يلبث أن دارت المعركة فى مايو سنة ١١٠٤ بين الطرفين على ضفة نهر البليخ ^(٣) . وفى تلك الموقعة أظهر المسلمون ، الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا ، وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ووقع أمير الرها - بلدوين الثانى دى بوج - ومعه جوسلين حاكم تل باشر ، أسيرين فى

(١) عبر المؤرخ ابن الأثير عن انقسام المسلمين عندئذ على أنفسهم بعبارة نصها : " ولما استطال الفرنج - خذلهم الله تعالى - بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم انشغال عساكر الاسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً ، تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء ، وتمزقت الأموال " (سنة ٤٩٧ هـ) .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 40 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ . &

Albert d'Aix. p. 651 .

ويلاحظ أن المصادر الصليبية قدرت عدد جيوش المسلمين بثلاثين ألف رجل . وهو رقم مبالغ فيه ، ربما قصد به تبرير الهزيمة التى حلت بالجيوش الصليبية .

قبضة المسلمين^(١). أما بوهيموند ومعه معظم جيشه فقد لاذوا بالفرار بعد أن بلغ بهم الإضطراب والذعر حداً جعل برنارد بطرق أنطاكية يقطع ذيل فرسه لئلا يجذبه منه أحد الأتراك ويفتك به^(٢).

وسنقتصر في هذا المقام على علاج أثر تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين في أحوال إمارة أنطاكية، على أن نؤجل الكلام عن أثرها في إمارة الرها إلى الباب الآتي. ذلك أن موقعة حران أو البليخ أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم جهة الشرق على حساب المسلمين، كما أتاحت لرضوان ملك حلب السلجوقي فرصة ليثأّر لنفسه من نورمان أنطاكية. حقيقة إن رضوان لم يشترك في موقعة حران مع اتابك الموصل وصاحب ماردين، ولكن رضوان وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة. ولم يكد يعلم بانتصار الأتراك حتى أسرع بالاستفادة من الموقف، فاسترد القلاع والمدن القريبة من حلب - مثل معرة مصرين وسرمين - وساعده في ذلك أهالي البلاد من المسلمين الذين إنقضوا على حكامهم الصليبيين^(٣). هذا في الوقت الذي هب شمس الخواص أمير رمنية لمهاجمة القلاع الصليبية القريبة، فاسترد صوران، شرقي شيزر. وهكذا لم تلبث الحاميات الصليبية الموجودة في البارة ومعرة النعمان وكفر طاب ولطمين أن انسحبت ولاذت بالفرار إلى أنطاكية، وبذلك إنكمشت حدود إمارة أنطاكية الصليبية إلى القويق وبحيرة العمق، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها^(٤).

وزاد موقف النورمان سوءاً إستيلاء رضوان ملك حلب على أرتاح، وهي القلعة ذات الموقع الهام بالنسبة لأنطاكية. ويؤكد ابن العديم وصاحب مرآة الزمان أن الأرمن في أرتاح ثاروا ضد حكم النورمان وأنهم نادوا برضوان لإستلام الحصن. وذلك «لجور الفرنج، و... ولما شملهم جور الفرنج»^(٥). ثم إن بعض المؤرخين يرون أن أرتاح لم تكن المدينة الوحيدة التي سلمها أهلها من الأرمن للمسلمين، وإنما كانت هناك حالات أخرى مشابهة، مما مكن المسلمين من إسترداد عدة مدن وحصون في ذلك الإقليم دون أن يتحملوا جدهاً أو عناءاً^(٦). وخلاصة

Raoul de Caen, p. 170.

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ &

Foucher de chartes, p. 409

(٢) ابن الأثير الكامل . حوادث سنة ٥٠٤ هـ &

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(٤) ابن العديم : زبدة الطلج ج ٢، ص ١٤٩ (مطبوع).

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة زمان (p. 592).

ابن العديم : زبدة الطلج ج ٢، ص ١٥٠ (مطبوع).

(6) Stevenson : op. cit., p. 78.

القول، إن هزيمة البليخ التي حلت بالصلبيين سنة ١١٠٤، أضاعت كثيراً من المكاسب التي سبق أن حققتها إمارتا أنطاكية والرها على حساب المسلمين بالشام.

ثم إن المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أفادوا من تلك الكارثة، بل سرعان ما استغل الإمبراطور ألكسيوس كومنين الفرصة ليثأّر من خصمه بوهيموند ويسترد منه بعض الممتلكات البيزنطية^(١). ذلك أن الرعايا البيزنطيين في مدن قيليقية - مثل طرسوس وأذنه والمصيصة - ثاروا بدورهم ضد حكم النورمان وسلموا مدنهم للبيزنطيين^(٢). ويبدو أن الأرمن في تلك الجهات شاركوا الرعايا البيزنطيين ثورتهم، بدليل ما نلاحظه من أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين عهد بعد ذلك بقيادة الجيوش البيزنطية في قيليقية إلى قائد أرمني. ولم يلبث أن أرسل الإمبراطور أسطولاً بيزنطياً إلى اللاذقية، استطاع أن يفاجيء المدينة ويستولي على معظمها من النورمان^(٣). ولم يكد ذلك الأسطول يفرغ من الإستيلاء على اللاذقية حتى شرع ينتزع من النورمان عدة مراكز أخرى على الشاطئ - فيما بين اللاذقية وأنطربوس - فضلاً عن قلعة المرقب^(٤). وهكذا وجد بوهيموند نفسه بين نارين، وعليه أن يحارب في جبهتين لينقذ إمارته، فالمسلمون عن يمينه يهاجمونه على جبهة نهر العاصي، والبيزنطيون عن يساره يهددون شواطئ أنطاكية. وزاد من حرج موقف بوهيموند أنه لم يجد بين الصليبيين في طرابلس أو بيت المقدس نصيراً يعطف عليه ويساعده في محنته.

نهاية بوهيموند :

ولم يكن في استطاعة بوهيموند أن يقف موقف المتفرج على إمارته التي أجهد نفسه في أقامتها، وهي تنهار لبنة بعد أخرى أمام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى^(٥). والواقع أنه على الرغم من خطورة إغارات رضوان ملك حلب - الذي بلغت قواته جسر الحديد على نهر العاصي - ، إلا أن رضوان لم يكن بالرجل الذي يحرص على الاستفادة فائدة كاملة من الموقف، فلم يلبث أن صرف نظره عن أنطاكية وشغل بأمر دمشق. وكان بوهيموند نفسه يدرك أن رضوان ليس بالخصم الخطير، وأنه من الممكن أن يصفى موقفه معه في سرعة

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, pp. 412 - 413.

(2) Raoul de Caen, p. 712.

(3) Stevenson : op. cit., pp. 79.

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 414.

(5) Vasiliev op. cit., II, p. 410.

فيما بعد، وأن مصدر الخطر الحقيقي الذي هدد أنطاكية عندئذ إنما كان الإمبراطورية البيزنطية^(١). لذلك فكر بوهيموند في القيام بعمل سريع حاسم للانتقام من القسطنطينية وإمبراطورها، وقرر العودة إلى غرب أوربا ليثير الرأي العام ضدها، عله ينجح في الدعوة لحملة صليبية جديدة يتخذها أداة يثار بها لنفسه من القسطنطينية. وكان تنكرد عندئذ في الرها، يدبر شئونها عقب أسر أميرها بلدوين دي بوج، فاستدعاه بوهيموند، وعهد إليه من جديد برعاية شئون إمارة أنطاكية أثناء غيابه في إيطاليا وفرنسا.

وفي أواخر سنة ١١٠٤ أبحر بوهيموند إلى إيطاليا وبصحبه صديقة القديم البطرق دايمبرت. ويقال إنه حمل معه كل ما استطاع حمله من أموال ومجوهرات وتحف، فضلاً عن بضع نسخ من تاريخ الحملة الصليبية الأولى التي لا يعرف مؤلفها (Gesta Francorum)، والتي تعالج تاريخ تلك الحملة من وجهة نظر النورمان^(٢). وتحتل رحلة بوهيموند إلى غرب أوربا في ذلك الوقت مكانه هامة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنه لم يقنع بجمع المحاربين من إيطاليا وصقلية وفرنسا لمحاربة المسلمين، وإنما أخذ يقوم بدعاية واسعة في تلك البلاد ضد الإمبراطورية البيزنطية، ليصورها للغربيين في صورة حليفة للإسلام والعقبة الكؤود في وجه الصليبيين، وأن القضاء على الإمبراطورية البيزنطية هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين بالشام.

وهكذا لم يكتف بوهيموند بمحاولة تجديد محاولات أبيه - روبرت جويسكارد - في غزو الدولة البيزنطية (دورازو) فحسب، بل أنه بذر في الغرب الأوربي البذور الأولى لفكرة توجيه جهود الصليبيين ضد القسطنطينية والدولة البيزنطية، مما يعتبر أساساً للحملة الصليبية الرابعة التي غزت القسطنطينية سنة ١٢٠٤^(٣). وقد ساعد على تثبيت دعاية بوهيموند ضد الدولة البيزنطية في عقول الغربيين، ما حدث من أن الإمبراطور البيزنطي لجأ فعلاً عند تعرضه لهجوم بوهيموند سنة ١١٠٧ إلى طلب المعونة من السلاجقة، فأمدّه قلعج أرسلان - سلطان سلاجقة الروم - بجمع من عسكره. وذكر هذه الحقيقة إبن الأثير وبعض

(1) Stevenson : op. cit., p. 78.

(2) Raoul de Caen : (Hist. Occid. III) pp. 712 - 713 & Guillaume de Tyr I, p. 450.

(3) Vasiliev : op. cit., II, pp. 410 - 411.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 324.

المؤرخين الصليبيين^(١). ولم يلبث أن قدم بوهيموند للغرب الأوربي الدليل المادي على التحالف بين البيزنطيين والسلاجقة، عندما أسر بعض أولئك السلاجقة في القتال مع البيزنطيين.

ومهما يكن من أمر، فإن بوهيموند زار البابا باسكال الثاني واستثاره ضده الإمبراطورية البيزنطية^(٢)، ثم إنتقل إلى فرنسا حيث إستقبله ملكها إستقبالاً طيباً وسمح له بجمع المحاربين، وتمت عدة مصاهرات بين بوهيموند وأسرته من ناحية والأسرة الملكية في فرنسا من ناحية أخرى، مما قوى رابطة التحالف بين الطرفين^(٣). وأخيراً عاد بوهيموند إلى أبوليا في جنوب إيطاليا في أواخر سنة ١١٠٦، ومعه جمع غفير من الصليبيين من مختلف الجنسيات الأوربية، مثل الفرنسيين والإيطاليين والأسبان والإنجليز والألمان، وجميعهم شاركوا بوهيموند الرأي في أن تكون الإمبراطورية البيزنطية وجهة حملتهم^(٤). وقد إختار بوهيموند أن يهاجم مدينة دورازو، وهي أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الأدریاتيك وتعتبر مفتاح مقدونيا (أكتوبر سنة ١١٠٧).

على أن دورازو قاومت مقاومة باسلة في الوقت الذي حضر الإمبراطور ألكسيوس بنفسه ليهاجم النورمان براً وبحراً. ولم يلبث أن ساء موقف بوهيموند ورجاله أمام دورازو وتعرضوا للجوع والهلاك بسبب إفتقارهم إلى القوة البحرية من ناحية وانتشار الأمراض بين صفوفهم من ناحية أخرى. ولم يجد بوهيموند مخرجاً من ذلك الموقف سوى الإستسلام لشروط الإمبراطور التي فرضها في صلح دفول Devol سنة ١١٠٨. وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهيموند بأن يصبح تابعاً أميناً لألكسيوس وخلفائه، وأن يعاونهم ضد جميع أعدائهم، وأن يعيد للإمبراطورية كل أراضيها القديمة^(٥). .. ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية الصليبية قبلت وفقاً لتلك الشروط أن تصبح قاصرة على أنطاكية ومينائها السويدية، ثم المنطقة الممتدة في الشمال الشرقي حتى مرعش، مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهيموند الإستيلاء عليه من المسلمين. أما مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية فتعود جميعها للإمبراطورية البيزنطية، وليس للصليبيين أى حق فيها.

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ &

Albert d'Aix, p. 651.

(2) Vasiliev : op. cit., II, p. 410.

(3) Runciman : op. cit. II, p. 49.

(4) Vasiliev : op. cit., II, pp. 410 - 411.

(5) Chalandon : Alexis Comnene, p. 233.

هذا كله بالإضافة إلى موافقة بوهيموند على عزل البطرق الكاثوليكى فى أنطاكية وتعيين بطرق أرثوذكسى محله . وأخيراً، فقد تعهد بوهيموند بأن يحارب تنكرد ويعتبره عدواً، إذا هو رفض أن يقبل شروط تلك الإتفاقية التى عقدها خاله مع البيزنطيين^(١).

ومن هذا تبدو أهمية إتفاقية دفول فى أنها كشفت النقاب عن موافقة الإمبراطورية البيزنطية على مبدأ قيام إماره أنطاكية الصليبية، وعلى بقاء أنطاكية نفسها فى يد بوهيموند والنورمان، طالما أنهم يرتبطون برباط التبعية والولاء للإمبراطور البيزنطى . هذا إلى ما تكشف عنه تلك الإتفاقية من حرص الإمبراطور ألكسيوس كومنين على مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس، بحيث يكون تعيين بطرق أرثوذكسى لأنطاكية، بمثابة رد إعتبار للكنيسة الشرقية . على أن هذه الإتفاقية ظلت من الناحية العملية حبراً على ورق طالما أن بوهيموند كان واثقاً من أن تنكرد لن يقبل شروط الإتفاقية شكلاً وموضوعاً^(٢).

أما بوهيموند نفسه فكان الموقف مشيناً وسيئاً للغاية بالنسبة له، بعد أن رأى آماله العريضة تتحطم فجأة وتنتهى إلى ما إنتهت إليه سنة ١١٠٨ . وبعد ذلك الإستسلام الفاضح لم يستطع بوهيموند العودة إلى إمارته بالشام، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى بقية حياته محتجبا عن الأنظار إلى أن مات فى مارس سنة ١١١١^(٣).

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 418.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 51.

(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 411.

الفصل الرابع

الفترة الثانية لحكم تنكرد في أنطاكية (١١٠٤ - ١١١٢)

تنكرد وسلاجقة حلب :

عندما ألق بوهيموند إلى الغرب سنة ١١٠٤، ترك تنكرد في موقف لا يحسد عليه، إذ كان عليه أن يدافع عن أنطاكية أمام عدوين لا يرحمان : هما السلاجقة من الشرق والبيزنطيون من الغرب. هذا فضلاً عن أن بوهيموند ترك الخزانة خاوية، مما أوجد تنكرد أمام مشكلة الحصول على المال اللازم لتجنيد الرجال وإعداد التحصينات. ومن الواضح أن هذه المشكلة الأخيرة كانت تمثل العقبة الأساسية التي كان على تنكرد أن يبدأ بعلاجها ؛ ولذلك إستدعى كبار الأثرياء في أنطاكية - وكانوا خمسة من السريان والأرمن - وطلب منهم تقديم الأموال اللازمة لمواجهة الموقف. وبهذه الأموال إستطاع تنكرد أن يستأجر الجنود اللازمين له، فلم يحل ربيع سنة ١١٠٥ إلا وكان تنكرد على رأس جنده يحاصر أرتاح^(١).

وكان أن أسرع رضوان ملك حلب للدفاع عن أرتاح، مصطحباً معه فرسانه من الأتراك فضلاً عن المشاه العرب. وعندما التقى الطرفان عند تيزين - شرقي أرتاح - دارت معركة حادة إنتهت بانتصار الصليبيين وهزيمة رضوان ورجاله، الذين قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف رجل، ما بين فارس وراجل، وهرب من بأرتاح من المسلمين،^(٢).

وهكذا إستطاع تنكرد أن يحو بسرعة أثر هزيمة البليخ، وأن يسترد أرتاح من المسلمين، وبذلك إنقلب الموقف مرة أخرى في جبهة العاصي، فأخذ الصليبيون يطاردون المسلمين، ويستردون البلاد التي فقدوها في العام السابق. ويروى أين العديم أن الخراب الذي أصاب إقليم حلب عندئذ فاق ما حدث لإقليم

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 420.

(2) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥١ (مطبوع).
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ. Albert d'Aix, 6, &

كلا سنة (٤٩٣ هـ) ١١٠٠ م، إذ عسكر تنكرد عند تل أغدى - من أعمال ليلون عند جبل بركات - أى على الطريق الرئيسى بين أنطاكية وحلب، وبذلك هدد حلب وما حولها تهديداً مباشراً^(١). ويضيف ابن الأثير أن الصليبيين إستردوا فى تلك الفترة سرمين، وهو مركز هام فى إقليم الجزر^(٢).

ولم يلبث أن إستولى تنكرد على فامية من الباطنية بعد أن إشتد الصراع داخلها وقتل حاكمها خلف بن ملاعب بيد جماعة من الباطنية^(٣). وعندئذ استنجد أهل الحصن من المسيحيين بتنكرد، الذى حضر فى سرعة ولكنه لم يوفق أول الأمر فى الإستيلاء على المدينة، فأنصرف عنها بعد حصار بضعة أسابيع. وبعد أشهر حضر إلى أنطاكية مصبح بن ملاعب - ابن الأمير خلف الذى قتل - وطلب من تنكرد معاودة الكرة ضد فامية، فإستجاب له تنكرد وسقطت فامية فى سبتمبر سنة ١١٠٦، كذلك إسترد تنكرد كفر طاب شرقى فامية - بين معرة النعمان وشيزر - مما مكنه من شن إغارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع والضياح الإسلامية القريبة، وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨^(٤).

تنكرد والبيزنطيون :

ولم يكن تنكرد أقل رغبة من الثأر من البيزنطيين، حيث ظلت اللاذقية دائماً ميدان صدام بين البيزنطيين والنورمان فى جبهة الشام. ولم يستطع تنكرد أثناء إشتباكات مع المسلمين فى حوض نهر العاصى أن يواجه البيزنطيين فى اللاذقية، ولكنه بعد أن حقق إنتصاراته على المسلمين - وإسترد أرتاح وفامية - بدأ يفكر فى طرد البيزنطيين من اللاذقية^(٥). ويبدو أنه لم يكن للبيزنطيين عندئذ حاميات قوية فى اللاذقية، لأن الإمبراطور إضطر إلى إستدعاء معظم جيوشه من اللاذقية وقيليقية فى صيف سنة ١١٠٧ عندما هدد بوهيموند الجبهة الغربية للإمبراطورية^(٥). ومع ذلك فقد كان تنكرد فى حاجة إلى أسطول قوى يمكنه من

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق & 66 d'Aix Albert.

وقد ذكر ابن الأثير أن خلف ملاعب عندما استقر فى أفامية كان "يخيف السبيل ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين فكثرت أمواله".

كذلك ذكر ابن الأثير أن أهل سرمين كانوا "غلاة فى التشيع"، فلما ملك الصليبيون سرمين تفرق أهلها وذهب بعضهم إلى أفامية حيث دبوا مؤامرة مع أبى طاهر المعروف بابن الصائغ للفتك بابن ملاعب. ونجحت المؤامرة. ويصف ابن الأثير أفامية بأنها "من أمنع الحصون" (الكامل - حوادث سنة ٤٩٩ هـ).

(٣) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ٧٥ - ٧٦.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 250.

(5) Runciman, op. cit., II pp. 53 - 54.

محاصرة البيزنطيين وطردهم من اللاذقية. ولذلك إستعان بالبيازنة، وإستطاع بهذه الطريقة أن يسترد اللاذقية في منتصف سنة ١١٠٨. وقد كافأ تنكرد البيازنة على ما قدموه له من معونة بإعطائهم درياً في أنطاكية وحياناً في اللاذقية، فضلاً عن أنه كفل لهم حرية التجارة والعمل في جميع موانئ إمارة أنطاكية^(١).

وأخيراً توج تنكرد إنتصاراته على البيزنطيين بالقيام بهجوم على قيليقية في أواخر سنة ١١٠٨ وأوائل سنة ١١٠٩. وفي ذلك الهجوم نجح تنكرد في الإستيلاء على المصيصة بعد حصار قصير، كما إستطاع بعد بضعة أشهر أن يبسط سيطرته على أذنه وطرسوس، في حين ظلت الأجزاء الغربية من إقليم قيليقية خاضعة للامبراطورية^(٢).

وهكذا إستطاع تنكرد في مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ما خسره إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع نهائياً بين المسلمين والبيزنطيين. ولاشك في أنه أفاد في تلك الفترة فائدة عظيمة من الإنقسام بين صفوف السلاجقة.

تنكرد والسلاجقة

ظل الأتابكة في شمال الشام وأرض الجزيرة مصدر جميع القلاقل التي شهدتها تلك البلاد عند مطلع القرن الثاني عشر. وإذا كان أولئك الأتابكة في نظر الصليبيين حكاماً مستقلين فانهم في حقيقة الأمر كانوا - من الناحية النظرية على الأقل - تابعين لسلاجقة فارس^(٣).

ويطول بنا الأمر لو دخلنا في تفاصيل المنازعات بين أتابكة الشام والجزيرة، ولكن تكفي الإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من عقد صلح سنة ١١٠٤ بين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه، وأن الموصل - بمقتضى ذلك الصلح - صارت من نصيب محمد. على أن جكرمش أتابك الموصل رفض أن يسلم محمد المدينة، واعتذر بأنه لن يسلمها إلا لبركياروق نفسه^(٤). ولم تؤثر وفاة بركياروق في يناير سنة ١١٠٥ في موقف جكرمش، إذ جدد سور الموصل ورم جميع ما يحتاج إلى

(1) Heyd : op. cit., I, pp. 145 - 146.

(2) Guillaume de Tyr I, p.p. 635 - 636.

(3) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 24.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٧ - ١٩٨. وقد كتب ابن العبري اسم أتابك الموصل بالياء (جكرميش).

الإصلاح ، ورفض دفع المال المقرر عليه لمحمد الذي غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس . ويبدو أن جكرمش إعتد إلى حد كبير على ولاء أهل الموصل له ومحبتهم ، لحسن سيرته فيهم ، الأمر الذي جعل السلطان محمد يزحف على الموصل بالنقابين والدبابات ، ويقا تل أهل الموصل قتالاً شديداً ، ولكن دون أن يظفر بغرضة (١) .

وأخيراً فكر السلطان محمد في وسيلة لإسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة ، فمّنح حكمها جميعاً لأحد رجاله - واسمه جاولى سقاوا - وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق والشام ، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش . ولم يلبث الأخير أن حلت به الهزيمة ، فأسر على ضفاف دجلة ، ولكن أهل الموصل رفضوا أن يسلموا مدينتهم لجاولى وأقاموا زنكى الصغير ابن جكرمش - وسنه إحدى عشرة سنة - أتابكا عليهم (٢) .

ثم إن أهل الموصل لم يقنعوا بكل ذلك وإنما إستنجدوا بقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم في قونية ، فحضر إليهم ووضع يده على الموصل وتعهّد بحمايتهم (٣) . أما جاولى فقد انسحب إلى سنجار حيث إتصل به إيلغازى بن أرتق ، كما إتصل به الملك رضوان صاحب حلب ، وإتفق الطرفان علي طرد قلج أرسلان من الموصل أولاً ثم التوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية . وقد إنتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمته وغرقه في نهر الخابور ، مما مكن جاولى من الإستيلاء على الموصل سنة ١١٠٧ (٤) . على أن جاولى لم يكد ينجح في تحقيق ذلك حتى أعلن إستقلاله بالموصل ، مما جعل السلطان محمد يعهد سنة ١١٠٨ إلى أحد رجاله - وهو مودود بن التونتكين - بطرد جاولى من الموصل على أن يحل محله في حكمها (٥) . وهكذا إضطر جاولى مرة أخرى إلى الفرار من الموصل سنة ١١٠٨ ، حيث إلتف حوله في الجزيرة جميع أعداء سلطنة السلاجقة ، وعلى رأسهم قبيلة بنى مزيد العربية التى طردها السلطان محمد من الحلة سنة ١١٠٨ . كذلك لم يتردد جاولى في محالفة القوى الصليبية المجاورة ليكون جبهة قوية ضد السلطنة

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ & Runciman op. cit., II, p. 110.

ويذكر أبو المحاسن أن قلج أرسلان لما رأى الهزيمة عليه ألقى نفسه في الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميفارقين وبفن بها (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩١) .

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ وما بعدها .

السلجوقية، مما جعله يطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، ويعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة، كما سيلي فيما بعد ^(١).

على أن تنكرد الذي كان يسيطر على أمور الرها منذ أربع سنوات رفض أن يسلم المدينة لبلدوين إلا إذا أقسم له يمين الولاء. وكان من المستحيل أن يفعل بلدوين دي بورج ذلك وهو تابع فعلاً لملك القدس، فأنصرف غاضباً إلى تل باشر حيث أنظم إليه جوسلين وأخذ يفكران في الإستعانة بجاولي ضد تنكرد ^(٢) وفي تلك الأثناء كان جاولي يسعى لإقامة إمارة له في الجزيرة، فلم يجد مفرأ من الإعتداء على ممتلكات رضوان ملك حلب. وكان أن أخذ رضوان يبحث لنفسه بين صفوف الصليبيين عن حليف، مثلما إعتد جاولي على محالفة بلدوين الثاني أمير الرها، فلم يجد رضوان حليفاً سوى خصمه القديم تنكرد صاحب أنطاكية.

وهكذا إنقسم المسلمون والصليبيون في شمال الشام والعراق على أنفسهم، فظهر حلفان الأول من جاولي وبلدوين دي بورج أمير الرها، والثاني من رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية. وقد إنتهت المعركة الى دارت بين الطرفين في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٨ بهزيمة الفريق الأول وإنتصار تنكرد، ولكن بعد أن خسر الصليبيون جميعاً ألفي رجل ^(٣).

تنكرد وبقية الإمارات الصليبية بالشام :

وقد حاول تنكرد أن يستغل إنتصاره السابق على بلدوين دي بورج ليضع يده على إمارة الرها الصليبية. ولكنه فشل في محاولته هذه، بعد أن حصل بلدوين دي بورج على مساعدة جميع أمراء الأرمن في الجهات الواقعة شرقي آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة. لذلك إستجاب تنكرد لنصيحة بطرق أنطاكية، فسحب نائبه ريتشارد دي سالرنو من الرها، ودخلها بلدوين دي بورج ظافراً حيث إستقبل في حماسة بالغة ^(٤).

أما تنكرد فلم يجد أمامه - بعد أن فشلت خطته في الرها - سوى إمارة طرابلس ليتدخل في شئونها، عله ينجح في السيطرة على تلك الإمارة. وقد سبق أن ذكرنا كيف حضر برترام بن ريموند الصنجيل إلى الشام ١١٠٨ للمطالبة بحقه

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 393 - 394.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(4) Matthieu d'Edesse, p. 87.

في تركة أبيه وإستلامها من وليم جوردان . كذلك أشرنا إلى أنه عند وصول برترام إلى ميناء السويدية أسرع تنكرد لملاقاته، ثم عاد وطرده عندما رفض برترام أن يحالفه في مشاريعه العدوانية ضد الدولة البيزنطية^(١) . وكان أن ألقى وليم جوردان بنفسه بين أحضان تنكرد وأعلن تبعيته له، فوجد تنكرد في ذلك فرصة طيبة لتحقيق أطماعه في الإمارة الجديدة عن طريق الوقوف إلى جانب وليم، ولكن برترام فوت على تنكرد هدفه عندما إستنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس، الذي حذر تنكرد من القيام بأي عمل عدواني ضد برترام^(٢) .

ومهما يكن من أمر، فإن حضور بلدوين بنفسه، وتقسميه ساحل الشام بين وليم جوردان وبرترام - كما سبق أن ذكرنا - ثم مساعدته برترام في فتح طرابلس واتخاذها قاعدة للإمارة الجديدة، كل ذلك أنقذ إمارة طرابلس من الوقوع تحت سيطرة تنكرد. ثم إن برترام لم يعترف وحده بالولاء لملك بيت المقدس، بل إضطر تنكرد هو الآخر إلى الإعتراف بذلك الولاء. وبزعامة مملكة بيت المقدس على كافة الإمارات الصليبية في الشام وشمال العراق^(٣) .

توسع تنكرد على حساب المسلمين :

وعندما قنط تنكرد من التوسع على حساب إمارة الرها من جهة وإمارة طرابلس من جهة أخرى، لم يجد أمامه سوى جيرانه المسلمين، فإستولى على بانياس في يولية سنة ١١٠٩، وهي تقع بين أنطربوس واللاذقية، وبذلك صارت بمثابة الحد الجنوبي لإمارة أنطاكية على شاطئ البحر. وإلى الشمال من بانياس إستولى تنكرد أيضا على جبلة التي كان فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق قد أوى إليها. وفي الداخل - في مواجهة جبلة - إستولى تنكرد سنة ١١١١ على حصن بكسرائل^(٤) .

أما في الجبهة الشرقية، فبعد أن قام تنكرد بمصاحبة بلدوين الأول ملك بيت المقدس في الدفاع عن إمارة الرها ضد مودود أتابك الموصل الذي هاجمها وأوشك أن يقضي عليها سنة ١١١٠ - كما سيلي بالتفصيل - عاد تنكرد ليحارب رضوان ملك حلب الذي تنكر لمساعدة تنكرد له من قبل ضد أمير الرها وحليفه جاولي، وهاجم تنكرد أثناء حربه الأخير ضد السلاجقة دفاعاً عن الرها^(٥) . وكان أن

(1) Albert d'Aix, pp. 665 - 666.

(2) Setton : op. cit. I, p. 367.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 445 - 447.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٣ هـ.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

هاجم تنكرد النقرة - قرب منبج - فاستولى عليها بعد أن فر أهلها إلى الجزيرة تاركين خلفهم كل ما يملكون من مال ومتاع. ومن هناك إتجه تنكرد لمحاصرة الأتارب إلى الجنوب الغربى من حلب، على الطريق بينها وبين أنطاكية (١).

أما رضوان فقد إحتفى بمدينته حلب، وإكتفى بأن عرض على تنكرد مبلغ عشرين ألف دينار ليتخلى عن حصار الأتارب، ولكن تنكرد تمسك بثلاثين ألف دينار، فضلاً عن إطلاق سراح جميع من فى حلب من أسرى الصليبيين. ولما كان رضوان لا يريد دفع ذلك المبلغ الضخم، فقد ترك الأتارب تسقط فى يد تنكرد فى نهاية سنة ١١١٠ (٢). ويذكر ابن العديم ومتى الرهاوى أن تنكرد ترك حامية القلعة تخرج من غير سوء، فى حين قال ابن الأثير أنه قتل ألفين من رجالها وأسر الباقي (٣).

والواقع إن سقوط الأتارب التى لا تبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلو متراً، جاء بمثابة ضربة خطيرة لرضوان، إذ ضعفت حلب بأخذ الأتارب ضعفاً عظيماً، على قول ابن العديم. ذلك أن تنكرد صار يستطيع من تلك القلعة مهاجمة حلب نفسها فى عنف، فضلاً عن حرمانها من الغلال والغذاء الذى تحصل عليه من السهول المحيطة بها. وبعبارة أخرى فإن تنكرد أصبح فى موقف يجعله يملئ إرادته على رضوان الراغب فى الصلح، فأصر تلك المرة على الشروط التى طلبها من قبل، وأضاف إليها الإستيلاء على حصن زردنا، فضلاً عن إطلاق سراح جميع الأرمن المحبوسين فى حلب (٤). وكان أن إرتضى رضوان كل هذه الشروط القاسية، فتم الصلح بينه وبين تنكرد، ولكن حلب نفسها غدت فى حالة سيئة من المهانة والضعف، لاسيما بعد أن هجرها جزء كبير من أهلها وفروا إلى بغداد. كذلك ساءت أحوالها الاقتصادية بعد أن إستولى الصليبيون على معظم مزارعها ودمروا الباقي وإنصرف عنها التجار، وأقام الناس ما يجدون شيئاً يقتاتون به، فكثرت اللصوص من الضعفاء، وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ (مطبوع).

(٢) وصف ابن العديم (زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٦٤) رضوان صاحب حلب بأنه كان يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه، حتى كان أمراؤه وكتابه يبنونونه بأبى حبة، وهو الذى أفسد أحواله وأضعف أمره.

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 95 &

ابن الاثير ، سنة ٥٠٤ هـ.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٦.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ & Albert d'Aix p. 634

رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعيبه،^(١).

ثم إن تنكرد الذى أصبح السيد المسيطر على الأطراف الشمالية من بلاد الشام لم يقنع بفرض كلمته على ملك حلب وإذلاله، وإنما أخذ يسعى لتحقيق مكاسب أخرى على حساب القوى الإسلامية الصغيرة، المجاورة. ولم يلبث سلطان بن منقذ أمير شيزر وعلى الكردي أمير حماة أن تعهدا بدفع قطيعة طائلة، ثمناً لشراء مسالمة تنكرد، فدفع الأول أربعة آلاف دينار، ودفع الثانى عشرة آلاف دينار^(٢).

نهاية تنكرد :

وبعد أن قام تنكرد - بالاشتراك مع بلدوين دى بورج أمير الرها وبلدوين الأول ملك بيت المقدس - بدور ملحوظ فى محاربة سلاجقة فارس الذين تجمعوا مرة أخرى ١١١١ تحت قيادة مودود أتابك الموصل، عاد تنكرد إلى أنطاكية حيث توفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢^(٣)، دون أن يترك وريثاً من زوجته سيسل، التى لم تلبث أن تزوجت بعد قليل من برترام أمير طرابلس، مما أدى إلى تهدئة الموقف بين إمارتى أنطاكية وطرابلس، كما مر بنا^(٤).

ولاشك فى أن وفاة تنكرد جاءت خسارة عظيمة للصليبيين فى الشام بوجه عام وإمارة أنطاكية بوجه خاص، الأمر الذى جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يرثيه فى حرارة بالغة^(٥). ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقى لإمارة أنطاكية، فإستطاع أن يحتفظ لتلك الإمارة بمكانتها خلال مدة أسر خاله بوهيموند (١١٠٠ - ١١٠٣)، ثم طوال غيبته فى الغرب (١١٠٤ - ١١١١) كما دافع عن كيان الإمارة ومصالحها ضد البيزنطيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى^(٦). وأكثر من هذا أن تنكرد هو صاحب الفضل فى توسيع إمارة أنطاكية، والاستيلاء على كثير من المراكز الهامة من البيزنطيين والمسلمين، سواء على شاطئ الشام أو فى داخلية، أو فى قيليقية، وساعد على تحقيق كل هذه المكاسب شجاعة تنكرد التى بلغت أحياناً حد التهور، وصلابته فى كثير من المواقف، وهى صفات ورثها عن

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠.

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الإعتبار ص ١٢٠ - ١٢١.

(3) Foucher de Chartres, p. 425.

(٤) أنظر ما سبق (الفصل الرابع من الباب السادس)

(5) Matthieu d'Edesse, pp. 281 - 282.

(6) Setton : op. cit., p. 401.

أسلافه النورمان في غرب أوربا وجنوبها^(١).

ولم يمض عام على وفاة تنكرد حتى لحق به حليفه رضوان ملك حلب السلجوقي (ديسمبر ١١١٣)، الذي إعتد على الصليبيين من ناحية وعلى الباطنية من ناحية أخرى في مقاومة سلاجقة فارس وخلافة بغداد. وقد سبق أن ذكرنا أن رضوان أقرط في الإعتقاد على الباطنية حتى إزداد نفوذهم، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة .. وبإيعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم. وكان كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم^(٢). وقد ترك رضوان من بعده في حكم حلب ابنه الشاب ألب أرسلان المعروف بالأخرس، وهو الذي وصفه المؤرخ ابن العديم بأنه كان متهوراً قليل العقل، فبدأ حكمه بقتل أخويه ملكشاه ومباركشاه^(٣). ويبدو أن الباطنية وصلوا عندئذ إلى درجة من خطورة النفوذ جعلت السلطان محمد السلجوقي يرسل إلى ألب أرسلان يأمره بقتلهم، في الوقت الذي ضاق أهل حلب ذرعاً بهم وإستاءوا من حماية رضوان لهم، فإنقضوا عليهم عقب وفاة رضوان، وقتلوا زعيمهم أبا طاهر الصائغ وإسماعيل الداعي وغيرهم من زعماء الباطنية، في حين حبسوا كثيرين وفر الباقى وتفرقوا في البلاد^(٤). ويقول ابن الأثير أن من إستطاعوا النجاة من الباطنية فروا الى الصليبيين وإحتما بهم^(٥). وقد حاول الباطنية الإستيلاء على قلعة شيزر ولكنهم فشلوا في ذلك، ولم ينجحوا سوى في الإستيلاء على القليعة قرب بالس والفرات، على الطريق بين حلب وبغداد. ومنذ تشريد الباطنية في ذلك الوقت أخذوا ينزحون إلى جبال لبنان ويستقرون هناك^(٦).

أما عن سياسة ألب أرسلان ملك حلب الجديد تجاه الصليبيين فلم تختلف عن سياسة أبيه، إذ سارع بدفع الجزية الى روجر الأنطاكي - خليفة تنكرد - للإستعانة به ضد بقية السلاجقة. ولم يلبث ألب أرسلان أن رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسن تدبير، فقصد طغتكين أتابك دمشق، وطلب منه الحضور

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 476 - 477.

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٤٥ ، ١٦٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

وقد وصفه ابن العديم كان في كلامه حبسة وتمتعة فلذلك عرف بالأخرس (زبدة الطلب، ج ٢ ص ١٦٧).

(٤) ابن العديم : زبدة الطلب، ج ٢ ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠.

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٤٦ - ١٥٣.

لإستلام حلب وإدارة شئونها. وقبل طغتكين تلك الدعوة وذهب مع ألب أرسلان الى حلب في نهاية فبراير سنة ١١١٤^(١). على أن ألب أرسلان انهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل، فإستاء طغتكين من مسلكه ورأى من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره، ولذلك عاد طغتكين إلى دمشق بعد قليل.

ولم يلبث أن دبر بدرالدين لؤلؤ اليايا مؤامرة لقتل ألب أرسلان أثناء نومه. وعندما نجحت المؤامرة (سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م) أعلن أخوه الصغير سلطان شاه ملكاً على حلب. غير أن سلطان شاه كان صغيراً في السادسة من عمره، فتولى لؤلؤ مع القائد شمس الخواص - أمير رمنية السابق - السيطرة على قلعة حلب وجيشها، وإن كانت السلطة الفعلية في الإمارة قد آلت إلى أعيان حلب. ولعل ضعف مركز حلب بين جيرانها في ذلك الوقت هو الذي دفع لؤلؤ إلى إتباع سياسة رضوان في محالفة الصليبيين بأنطاكية^(٢).

(١) ابن العديم زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٦٩.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠.

الفصل الخامس

روجر الأنطاكي

إختيار روجر حاكماً على أنطاكية :

ظل تنكرد يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الإقطاعي الغربي حتى وفاة بوهيموند سنة ١١١١ . ومعنى ذلك أن تنكرد حتى تلك السنة كان نائباً عن بوهيموند في حكم أنطاكية ، ولم يصبح أميراً على تلك الامارة إلا بعد وفاة بوهيموند ، لأن الأخير ترك طفلاً صغيراً في الثانية من عمره - هو بوهيموند الثاني - ظل في إيطاليا بين أحضان أمه . وهكذا كان على تنكرد أن يفكر فيمن يخلفه في حكم أنطاكية ، فإختار روجر دي سالرنو ، وأوصى له بالحكم وهو على فراش الموت ، ولكنه إشتراط أن يتنازل روجر عن الحكم لبوهيموند الثاني إذا بلغ الأخير سن الرشد وأتى إلى الشرق للحصول على تركة أبيه ^(١) .

وعلى هذا الأساس أصبح روجر دي سالرنو - الذي عرف بالأنطاكي - أميراً على أنطاكية في نهاية ديسمبر سنة ١١١٢ . وهنا نلاحظ أن روجر هذا كان متزوجاً من سيسليا Cecilia أخت بلدوين دي بورج أمير الرها ، كما أن ماري أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجلوسلين دي كورتناي ، مما أوجد رباطاً قوياً بين إمارتي الرها وأنطاكية ^(٢) . وعندما أصبح بلدوين دي بورج ملكاً على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، حظيت إمارة أنطاكية - بفضل علاقة المصاهرة هذه - بتأييد مملكة بيت المقدس ومساعدتها ^(٣) .

حملة السلاجقة سنة ١١١٣ :

وصف أسامة بن منقذ روجر دي سالرنو بأنه كان «شيطاناً من الفرنج» ^(٤) . وذلك لقوته ودهائه ومثابرته على محاربة المسلمين والإعتداء عليهم . ولم يكد روجر يتولى حكم إمارة أنطاكية حتى أتاحت له الفرصة ليظهر شجاعته في

(1) Foucher de Chartres, p. & Guillaume de Tyr, p. 483 .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 126.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. pp. 482 - 483 .

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ .

محرارية السلاجقة الذين قاموا بحملة على بيت المقدس .

ذلك أن مودود بن الطنتاش^(١) - أتابك الموصل - ظل متمسكاً بفكرة الجهاد والحرب الدينية ضد الصليبيين ، وهي المهمة التي عهد إليه بها محمد ، سلطان سلاجقة فارس . وكان مودود هو الممثل للسلطان السلجوقي في إقليم الجزيرة والشام ، وذلك بوصفه حاكم الموصل ، لذلك دعا جيرانه من أمراء المسلمين لمحاربة الصليبيين سنة ١١١٣ ، وانضم إليه بعض زعماء السلاجقة مثل تميرك صاحب سنجار ، وأياز ابن إيلغازي أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق^(٢) . وكان طغتكين هو الذي وجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس الصليبية للإنتقام من الإغارات التي دأب الصليبيون على القيام بها لمهاجمة دمشق وملحقاتها^(٣) .

وعندما علم بلدوين دي بوج بنية المسلمين ، أسرع بتحذير بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، فاستنجد الأخير بأتباعه في الشام ، وخف لنجدته روجر أمير أنطاكية ، ويونز أمير طرابلس ، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته في شمال العراق ، كانت في مهب العاصفة وفي حاجة إلى حماية خاصة . وبعد أن أنزل المسلمون هزيمة بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة ، ارتد ملك بيت المقدس مدحوراً إلى طبرية ، ولم يلبث أن وصل روجر الأنطاكي ويونز لنجدته^(٤) . على أن زعماء السلاجقة لم يلبثوا أن تفرقوا - كما سبق أن ذكرنا - بعد أن أضاعوا بضعة أسابيع في الانتظار غربي طبرية^(٥) . فاتجه مودود صحبة طغتكين إلى دمشق في أغسطس سنة ١١١٣ حيث قتل مودود بيد أحد الباطنية وتحريض من طغتكين ، كما سبق أن أشرنا^(٦) . وبذلك إستراح الصليبيون من ذلك الرجل الذي آمن بفكرة الجهاد من ناحية ، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى ، مما جعله يسبب للصليبيين رعباً كبيراً^(٧) .

(١) ورد هذا الإسم في المصادر العربية في صور عديدة ، منها (ألتونطاش) و " التون تكش " .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 484 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ . Guillaume de Tyr. p. 489.

(٥) ذكر ابن العبري أن مودود ، أذن للعساكر في العود والاستراحة ، ثم الاجتماع في الربيع (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ &

Matthieu d'Edesse d. p. 107 - 108 .

(7) Runciman : op. cit., II, p. 127 .

أما عن خليفة مودود ، وهو آقسنقر البرسقي ، فقد صار لزاماً عليه عقب أن عينه السلطان السلجوقي في حكم الموصل أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين . وقد قام بهجوم سنة ١١١٤ على الرها - كما سيلي في الباب الآتي - ولكنه لم يستطع حصارها أكثر من شهرين ، ثم إرتد عنها فاشلاً ، بعد أن صبر له الفرنج ،^(١) .

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت أنطاكية في أواخر نوفمبر سنة ١١١٤ لزلزال شديد دمر جزءاً كبيراً من مبانيها ، فضلاً عما أحدثه بالمدن والقلاع التابعة لتلك الإمارة^(٢) . وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون في حلب ودمشق الاستفادة من تلك الكارثة في مهاجمة أنطاكية ، ولكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق . والواقع إن الخطر الذي هدد أنطاكية والصليبيين جميعاً في بلاد الشام وأطراف العراق في ذلك الوقت إنما إنبعث من الموصل ، حيث تجمعت حملة جديدة ، لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

وكان السلطان محمد السلجوقي قد عزل آقسنقر البرسقي من أتاكية الموصل ، ومن زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين بعد فشله أمام الرها ، وأحل محله أحد مماليكه الأتراك ، وهو المعروف باسم جيوش بك^(٣) . وقد أرسل السلطان ابنه مسعود ليتدرب على شئون الحكم عند جيوش بك في الموصل ، في حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين في فبراير سنة ١١١٥ إلى برسق بن برسق صاحب همذان وخوزستان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم في شئون الحرب . وتحت قيادة برسق هذا ، سار جيوش بك ومعه قوات الموصل ، وتميرك صاحب سنجار ومعه قوات الجزيرة^(٤) .

ويبدو أن سلطنة السلاجقة في أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة محاربة الصليبيين فقط ، بل بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الإمارات الإسلامية

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

Matthieu d'Edesse, pp. 282 - 283

(٢) أشار ابن الأثير إلى هذا الزلزال فقال : إنه كان شديداً بديار الجزيرة والشام ، وأنه خرب كثيراً من المدن مثل الرها وحران وسميساط وغيرها " وهلك خلق كثير تحت الهدم ؛ (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 485 - 486

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

في الشام وشمال الجزيرة ، حيث استطاع كثير من حكام المسلمين - مثل طغتكين في دمشق ، وبدر الدين لؤلؤ في حلب ، وإيلغازي والأراتقة في ديار بكر - أن يستغلوا فرصة الفوضى التي عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصليبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية في أصفهان. بل إن بعض أولئك الأمراء - مثل إيلغازي الأرتقي - لم يترددوا في محاربة قوات السلطان محمد، مما جعل السلطان يعد هذه الحملة بقصد إخضاع أولئك الأمراء، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرهما من القوى الصليبية بعد ذلك ^(١).

وسرعان ما أحس ذلك النفر من أمراء المسلمين بالخطر، وكان أكثرهم إحساساً به هو إيلغازي في ديار بكر، فأرسل بسرعة إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجد به ضد الخطر المشترك ^(٢). ولعله من الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طغتكين عقب مقتل مودود، لأن هذه الجريمة التي أتهمه الرأي العام الإسلامي بتدبيرها، إنما راح ضحيتها زعيم حركة الجهاد في العالم الإسلامي، فضلاً عما فيها من مساس بالسلطان محمد نفسه، لأن مودود كان أحد رجاله المخلصين ^(٣). لذلك أخذ طغتكين يعمل حساباً كبيراً لانتقام السلطان محمد، وأدرك أن محالفة الصليبيين في ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركة السلاجقة تحت ستار الجهاد ^(٤). وفعلاً لم يكد إيلغازي يذهب إلى طغتكين لطلب المساعدة، حتى إتفق الطرفان على محالفة الصليبيين ^(٥).

أما بدر الدين لؤلؤ صاحب حلب فكان على ولائه في أول الأمر لسلطنة السلاجقة، ولكنه غير رأيه في آخر لحظة. وهكذا لم يبق لسلطنة أصفهان غير دعمتين إعتمدت على ولائهما في بلاد الشام، هما بنو منقذ في شيزر الذين أفرعهم تهديد إماره أنطاكية لفامية وكفر طاب ^(٦)؛ ثم أمير حمص قيرخان بن قيراجا (قرجان بن قراجه) الذي كان يرغب في الاستيلاء على حماة من طغتكين. وفعلاً لم يكد إيلغازي يفرغ من مباحثاته مع طغتكين، في دمشق، حتى

(١) وأمرهم (السلطان) بالبداة بقتل إيلغازي وطغتكين فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم ...

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 490.

(4) Foucher de Chartres, p. 29 & Guillaume de Tyr, p. 493.

(٥) "فاتفقاً على الامتناع، والالتجاء إلى الفرنج، والاحتماء بهم".

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.

(٦) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٥.

قبض عليه قيرخان عند الرستن - بين حمص وحماة - أثناء عودته، وإن كان لم يلبث أن أفرج عنه بعد قليل عندما تأخر ظهور الجيش السلجوقي^(١).

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً في الجزيرة، ومنها اتجهت صوب حلب فخشي «المولى لأمرها» بدر الدين لؤلؤ الخادم غدر السلاجقة. وعندما استنجد بدر الدين لؤلؤ بطغتكين وإيلغازي، أسرعاً لنجدته على رأس ألفين من الفرسان، ودخلا حلب لينتظروا جميعاً وصول قوات السلطان محمد. أما الصليبيون فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً لملاقاة الجيش السلجوقي فأسرع روجر الأنطاكي أمير أنطاكية يجمع جيوشه على نهر العاصي - عند جسر الحديد - للدفاع عن أنطاكية من جهة، ومراقبة تطورات الموقف في حلب من جهة أخرى. ثم حدث الإتصال بين الجانبين لمواجهة الخطر المشترك، فاجتمعت قوات الأطراف جميعاً البالغة اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من الصليبيين وعشرة آلاف من المسلمين، وتم اللقاء عند قامية^(٢).

وكان برسق قائد الجيش السلجوقي قد وضع خطته على أساس إتخاذ حلب قاعدة لعملياته الحربية في الشام، فلما وجد أن بدر الدين لؤلؤ الخادم تنكر للسلطان وانضم إلى الجبهة المعادية، اضطر إلى أن يغير وجهته فاتجه شطر بني منقذ في شيزر وقيرخان في حمص، وهما اللذان بقيا على ولائهما للسلطان محمد^(٣).

وقد اختار برسق أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين أتابك دمشق، فاستولى عليها بمساعدة حليفه قيرخان ونهبها ثلاثة أيام، أتى فيها من أعمال السلب والتخريب ما جعل المسلمين في الشام يتخوفون من جيوش السلطان محمد ويرغبون في مقاومتها^(٤). ثم إتجه برسق بعد ذلك إلى شيزر، ومن هناك هاجمت قواته كفر طاب التابعة للصليبيين. على أنه يبدو أن وصول بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس على رأس قوات كبيرة، جعل برسق يدرك أن السلامة في الانسحاب، فتراجع فوراً على رأس قواته إلى الجزيرة وتمت عملية الانسحاب بنجاح. وهكذا لم يلبث أن تفرق الحلفاء، فعاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس، وبونز إلى طرابلس، وطغتكين إلى دمشق، وشمس الخواص قائد جيش حلب إلى حلب، وروجر إلى أنطاكية، وإيلغازي إلى ماردين^(٥).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠.

(3) Stevenson : op. cit., 98.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

(٥) المصدر السابق.

على أن إنسحاب برسق لم يكن في حقيقة الأمر سوى خدعة بارعة، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها، حتى إذا ما إستولى عليها في أوائل سبتمبر سنة ١١١٥، دمرها وأسر من بقى على قيد الحياة من حاميتها الصليبية، ثم أعطاها لحلفائه بنى منقذ أمراء شيزر. وبعد ذلك إتجه برسق إلى معرة النعمان ومنها أخذ يستعد للإستيلاء على زردنا، وهى قلعة للصليبيين قرب حلب^(١). وفي الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة تحت قيادة جيوش بك صوب حلب. على أن هذه العملية الأخيرة لم يكن لها أثر سوى إضعاف قوة برسق من ناحية، وإستثارة روجر الأنطاكي من ناحية أخرى.

وفي الوقت الذى كانت قوات السلاجقة تعسكر غربى سمرمين - عند دانيث- إذا بالصليبيين بقيادة روجر الأنطاكي وبلدوين دى بورج أمير الرها ينقضون عليهم فيقتلون منهم كثيرين، فى حين فر الباقون، وعلي رأسهم برسق نفسه (١٤ سبتمبر ١١١٥)، وقد حصلوا على كثير من الغنائم، وأخذ الكفار من هذا ما يفوق الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة ما لا يحصى^(٢). وكان أن قسم أمراء الصليبيين على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة، فسر أهل أنطاكية سروراً عظيماً عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة فى ١٨ سبتمبر^(٣).

وهكذا جاء إنتصار الصليبيين فى دانيث ليضع نهاية لجهود سلاطين سلاجقة فارس لإسترداد الشام. ولم يلبث أن توفى برسق بعد بضعة أشهر متأثراً بعار الهزيمة، فى حين أعرض السلطان محمد السلجوقى عن بذل تضحية أخرى فى بلاد الشام^(٤). ثم إن هذه الهزيمة كان لها رد فعل قوى فى بلاد الشام، سواء فى القوى المحالفة للسلطان السلجوقى أو المعادية له. ومن ذلك ان بنى منقذ فى شيزر أسرعوا إلى ترك كفر طاب فإحتلها النورمان أثناء عودتهم إلى أنطاكية بعد الموقعة^(٥). أما طغتكين اتابك دمشق - حليف الصليبيين - فقد تشجع وإنتزع رمنية من امير حمص^(٦). ثم إن بنى منقذ فى شيزر لم يكتفوا بتسليم كفر طاب

(١) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٧٥.

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٧٦.

وذكر ابن العديم أن الترك عندئذ انتشروا فى أعمال المعرة واشتغلوا بالسلب والنهب، ووقع التحاسد فيما بينهم.

(3) Guillaumde de Tyr, p. 489.

(4) Runciman : op. cit., II, p. 133.

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤.

(٦) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٧٧.

لروجر الأنطاكي، وإنما عقدوا معه صلحاً لمسالمة كما حرصوا على عدم الإعتداء على القوافل الصليبية بين أنطاكية وبيت المقدس^(١).

روجر الأنطاكي والمسلمون بعد موقعة دانيث :

إستطاع روجر الأنطاكي بعد الانتصار الكبير الذي حققه على السلاجقة في موقعة دانيث أن يضيف على نفسه مكانه عظيمة في المحيط الصليبي من ناحية، وفي المحيط الإسلامي من ناحية أخرى، فأخذت القوى الإسلامية المجاورة تعمل حساباً كبيراً لروجر - أو سير جال - كما أسماه المسلمون Sir Roger^(٢). حقيقة إن طغتكين ذهب إلى بغداد في مارس سنة ١١١٦ ليظهر التوبة عن محالفة الصليبيين، ويطلب العفو من السلطان محمد، «فرضى عنه السلطان وخلع عليه»^(٣)، ولكن كل ذلك لا يحجب وجه الحقيقة الكبرى وهي أن القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ظلت مفككة لا تربطها رابطة، مما مكن الصليبيين من إحراز نصر تلو آخر. ثم إن كل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعاني خللاً واضطراباً في جهازها الداخلي، مما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل في شئونها وإبتلاع الممتلكات الإسلامية قطعة بعد أخرى^(٤).

من ذلك ما حدث في حلب عندئذ من قيام بدر الدين لؤلؤ بقتل ألب أرسلان ابن أستاذه لينفرد هو بحكم الإمارة (١١١٤ - ١١١٧)^(٥). وعندما أحس بدر الدين لؤلؤ بضعفه، وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به، طلب محالفة طغتكين أتابك دمشق. على أن هذه المحالفة لم تنجبه من المصير السيئ الذي انتظره ؛ إذ قتله بعض أعوانه عند رجوعه من قلعة جعبر سنة ١١١٧ وهم يصيحون «أرنب ! أرنب» ليوهموه أنهم يتصيدون أرناب^(٦).

ويهمنا من تلك الأحداث أن الفرصة أتاحت لروجر الأنطاكي عندما وجد حلب دون ملك يزود عنها، فغزا أرض حلب، وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية، على قول ابن العديم. وعندما تولى ياروققاش (يارققاش) - الأرمني الأصل - الوصاية على حلب، أسرع إلى إسترضاء روجر الأنطاكي، فعقد معه صلحاً وتنازل له عن حصن القبة - أوقبة ملاعب - علي الطريق بين حلب

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 510.

(2) Setton : op. cit. I, p.408.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

(4) Stevenson : op. cit., pp. 100-101

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٨.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٧ وكذلك كتاب الكامل لابن الأثير - حوادث سنة ٥١١ هـ.

ودمشق - فضلاً عن إعطاء روجر الحق في فرض ضرائب على قوافل الحج المسلمين بين حلب والحجاز^(١).

ولم يكن جيران حلب المسلمين أقل طمعاً في تلك الإمارة المتداعية، فأسرع نجم الدين إيلغازي بن أرتق - أمير ماردين - إلى إحتلال بالس على الفرات، وكانت تابعة لحلب. وعندما تقدم طغتكين أتابك دمشق وأقسنقر البرسقي أمير الرحبة لاحتلال حلب سنة ١١١٧ - ١١١٨، إستنجد أبو المعالي ابن الملحي الوصي علي حلب بروجر الأنطاكي الذي أدى ظهوره على المسرح إلى اختفاء الأميرين المسلمين^(٢) ...

ولكن إذا كانت حلب قد غدت منذ سنة ١١١٨ تحت حماية الصليبيين من أهل أنطاكية، بعد أن فضل الحلبيون هذه الحماية عن الوقوع تحت سيطرة أحد من الشرق على قول ابن العديم^(٣)، فإن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت عندما تغلب الشعور الديني وسلم الحلبيون بلدهم للأمير التركماني نجم الدين إيلغازي ابن أرتق صاحب ماردين وديار بكر^(٤). وهكذا تجدد العداء بين حلب وأنطاكية، فتقدم النورمان لحصار عزاز - شمالي حلب - ثم زحفوا على بزاع - إلى الشمال الشرقي من حلب - سنة ١١١٩، وبذلك بسط روجر الأنطاكي سيطرته على جميع المواقع المحيطة بحلب من ناحيتي الغرب والشمال. وجدير بالذكر أن الصليبيين عند إستيلائهم على تلك الأجزاء الجديدة لم يدمروها ويخربوا مزارعها، وإنما زرعوا أعمال عزاز وقوا فلاحهم وصار يدخل إلى حلب ما يتبلعون به من القوت^(٥).

ويرجح أنه حوالي ذلك الوقت أيضاً - أي سنة ١١١٧ - ١١١٨، إستولى الصليبيون على حصن المرقب إلى الجنوب الشرقي من بانياس، وبذلك إستطاعت إمارة أنطاكية - في عهد أميرها روجر - أن تقوم بدورها كاملاً في دعم السياسة الصليبية بالشام^(٦).

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 559)

(٢) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٩٩. وقد ذكر ابن القلانسي الاسم في صورة (ابن الملحمي).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١١.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٦.

Matthieu d'Edesse, pp. 297 - 298.

(6) Runciman : op. cit., II, 135.

الباب الثامن
إمارة الرها
والمسيحيون الشرقيون

"وقل للذين لا يؤمنون
اعملوا على مهانتهم إنا
عاملون وانتظروا إنا
منتظرون".

(هود: ١٢١ - ١٢٢)

الفصل الأول

بلدوين دى بوج وإمارة الرها

أمراء الرها والأرمن :

رأينا فى الأبواب السابقة كيف نجح بلدوين الأول فى تأسيس أولي الإمارات الصليبية فى الرها، وهي الإمارة التى أصبحت الدرع الواقى للصليبيين بالشام ضد الأخطار التى هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق. ولم تلبث إمارة الرها أن نمت وامتدت على ضفتي الفرات من راوندان وعين تاب غرباً إلى مشارف حران شرقاً، ومن بهسنى وكيسون شمالاً إلى منبج جنوباً.

على أن إمارة الرها ظلت دائماً تعاني من نقطتى ضعف واضحتين : أولاً عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسيها وقاية ومناعة، والثانية عدم تجانس سكانها، إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين - السريان والأرمن - والصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بأكملها داخل نطاق تلك الإمارة - مثل سروج. وكان من الصعب على أمراء الرها فى تلك الظروف أن يحكموا إمارتهم حكماً يضمن لهم إشرافاً دقيقاً على مختلف أجزاء الإمارة، ولذلك لجأوا إلى تحصين المدن والقلاع التابعة لهم، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن^(١).

وإزاء النقص الخطير فى عدد الصليبيين وفرسانهم، اضطّر الأمير بلدوين الأول إلى الإعتماد فى حكم إمارة الرها على الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع عدد سكان الإمارة. وعندما استدعى بلدوين الأول ليقولى حكم بيت المقدس عقب وفاة أخيه جودفرى سنة ١١٠٠، إختار ابن عمه بلدوين دى بوج ليخلفه فى إمارة الرها تحت لقب الأمير بلدوين الثانى. وهكذا قدر لبلدوين الثانى هذا أن يتم عمل سلفه فى الرها، ثم يخلفه بعد سنين طوال ليتم عمله أيضاً فى بيت المقدس^(٢).

على أن بلدوين دى بوج وجد نفسه فى مركز لا يحسد عليه حاكم عندما ولى أمر الرها، بسبب قلة المحاربين وخطر الأعداء ونقص المال. وهنا لم يجد

(1) Runciman : op. cit. II, p. 10.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 381 - 407.

بلدوين دى بوج مفرأ من إتباع سياسة سلفة بلدوين الأول فى الإعتماد على الأرمن ؛ ولكن دون أن يرهقهم أو يتعنت معهم . ذلك أنه عمل على إسترضائهم والتقرب إليهم ، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين . ومن الواضح أن هذه السياسة كان من شأنها أن تخفف من الأثر السيء الذى تركه بلدوين الأول فى النفوس ، عندما تخلص من سلفة ثوروس الأرمنى بطريقة تنم عن الغدر والخيانة . هذا فضلاً عما فرضه بلدوين الأول عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهل الطبقة البورجوازية . حقيقة إنه قام بحماية الأرمن من خطر السلاجقة ، ولكنه تقاضى ثمناً باهظاً مقابل تلك الحماية ^(١) .

أما بلدوين الثانى دى بوج فلم يتبع سياسة تعسفية تجاه الأرمن ، وإنما حصل منهم على الأموال والمصاريف اللازمة للدفاع ضد الأتراك ، دون أن يلجأ إلى أساليب التعسف والإجحاف . هذا بالإضافة إلى حسن معاملته للكنيسة الأرمنية ورجالها ، مما جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يشيد بتلك المعاملة ^(٢) . كذلك يذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن بلدوين الثانى دى بوج قام بحماية مطران اليعاقبة فى الرها ^(٣) . ولم تلبث هذه السياسة أن قوت الرابطة بين المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين . ولتوثيق تلك الرابطة أيضاً ، لجأ بلدوين الثانى دى بوج إلى الزواج من أرمينية - هى مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية - الذى كان تابعاً لأمير الرها منذ أن قام بلدوين الأول بالدفاع عن مدينته ضد بنى دانشمند سنة ١١٠٠ ^(٤) .

ولم يلبث بلدوين الثانى أن وجد سنداً كبيراً فى شخص ابن عمته جوسلين دى كورتناى الذى وصل إلى الرها بعد قليل . وقد بلغ من سرور بلدوين بجوسلين أن منحه حكم جميع أراضى إمارة الرها غربى الفرات - بما فيها حصن تل باشر لتكون مركزاً له - ودلوك عند مفترق الطرق بين مرعش وحلب والرها ، وعينتاب (عين تاب) إلى الجنوب الشرقى من دلوك ، وغيرها . وهكذا أصبح جوسلين دى كورتناى الرجل الثانى فى إمارة الرها بعد بلدوين دى بوج ، وشاركه فى السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهام بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس ^(٥) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 388.

(2) Matthieu d'Edesse, pp. 70-71.

(3) Michel Le Syrien ed. Chabot. III, p. 167.

(4) Guillaume de Tyr. pp. 347 - 387.

(5) Setton : op. cit., I, p. 363.

الحرب ضد الأراتقة :

وسرعان ما أدرك بلدوين الثانى دى بروج أنه لى يقوى صلته بملطية، لا بد وأن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر. واختار أن يبدأ بالأراتقة فى ديار بكر. وكان بلدوين الأول قد إستولى على مدينة سروج - على بعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب من الرها - من حاكمها الأرتقى بلك بن بهرام بن أرتق^(١). ولم تلبث أن أصبحت سروج المدينة الثانية فى إمارة الرها شرقي الفرات، وأقطعها لفارس إسمه فوشيه دى شارتر. ولكن لم يكد بلدوين الثانى دى بروج يتولى حكم إمارة الرها، حتى لجأ سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا إلى مهاجمة سروج، فتصدى له بلدوين دى بروج وفوشية دى شارتر^(٢). وفى القتال الذى دار بين الطرفين، حلت الهزيمة بالصلبيين، وقتل فوشيه فى المعركة (يناير سنة ١١٠١)، واستولى المسلمون على سروج، فى حين لم يبق فى قبضة الصليبيين سوى قلعتها. أما بلدوين الثانى فقد انسحب عقب تلك الهزيمة إلى الرها - حيث كان لا يزال يتمتع بمحبة الأرمن وعطفهم - ثم إتجه بعد ذلك إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد^(٣). وعندما عاد بلدوين الثانى من أنطاكية وجد الأراتقة لا يزالون يهاجمون قلعة سروج، فأنقض عليهم، واستطاع - بفضل ما حصل عليه من أنطاكية - أن يمزق شملهم فى أوائل فبراير سنة ١١٠١، ثم دخل سروج نفسها وعاقب أهلها المسلمين لمساندتهم الأراتقة، وحمل منهم أسرى كثيرين^(٤).

وقد شجع هذا الانتصار بلدوين الثانى على القيام بإغارات على المدن والأقاليم الإسلامية المجاورة التابعة للأراتقة. ومن ذلك ما يرويه المؤرخ متى الرهاوى من أنه قام فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٠٣ بإغارة على الأراتقة حول ماردين، فأسر منهم كثيرين وحمل قدرا كبيرا من الغنائم^(٥). ويذكر ابن الأثير أن بلدوين الثانى قام فى نوفمبر سنة ١١٠٣ بإغارة على مختلف المدن والقلاع الإسلامية فى إقليم الجزيرة، مثل جعبر والرقه على الفرات - وكانتا تابعتين للعقيليين (بنى عقيل) - فأغاروا واستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين^(٦).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I pp. 363.

(3) Runciman : op. cit II, p. 37.

(4) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm I), pp. 53 - 54.

(5) Idem, p. 70.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

ويقول ابن الأثير أن ملكشاه كان قد سلم سنة ٤٧٩ هـ قلعتى جعبر والرقه لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب ، وهو من بنى عقيل.

أحوال السلاجقة :

وقد يبدو غريباً أن يتمكن الصليبيون في الرها من مواصلة إعتداءاتهم المتكررة على البلدان الإسلامية في الجزيرة عندئذ، دون أن يحاول سلاجقة فارس - ونوابهم أتابكة الموصل - التدخل لصد الصليبيين. بل إن أتابكة الموصل لم يحاولوا إستغلال الفرصة الذهبية التي أتاحها لهم وقوع بوهيموند أمير أنطاكية في أسر بني دانشمند (١١٠٠ - ١١٠١)، والفشل الذريع الذي منيت به حملة اللمبارديين الصليبية في الأناضول، وكان في إستطاعتهم أن يستغلوا كل هذه الظروف للإنفراد بإمارة الرها وإنزال ضربة قاصمة بها.

ولكن نظرة عاجلة نلقيها علي أتابكية الموصل في تلك الفترة كفيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبي لتلك الأتابكية عندئذ إنما يرجع إلى إختلال أحوالها الداخلية أختلالاً جعلها مسرحاً لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة (١). أما السلطان بركياروق فقد صار عاجزاً عن إخضاع بني جلده السلاجقة في بلاد الروم وحلب ودمشق، بل إنه عجز عن ردع نوابه في الأقاليم.

ومن ذلك أن قوام الدولة كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه في حكم الموصل أحد رجاله، واسمه سنقرجه (٢). ولكن موسى التركمانى - وهو أيضاً أحد رجال كربوغا - نازع سنقرجه حكم الموصل، واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل، بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق. ولم يكد موسى التركمانى يهنأ بذلك النصر حتى ظهر له منافس جديد في شخص جكرمش الذي إستولى على نصيبين والذي طمع في الموصل أيضاً، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار لمساعدته. على أن ذلك لم يغن موسى التركمانى شيئاً إذ لم يلبث أن قتل، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها (٣).

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل في تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية في سلطنة سلاجقة فارس، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض، وهم في

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 394 - 395.

(٢) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

(٣) المصدر السابق.

شغل بذلك عن الصليبيين فى الرها وغير الرها ^(١). أما سبب ذلك الإضطراب فى السلطنة السلجوقية فى أوائل القرن الثانى عشر للميلاد، فمرجه - كما سبق أن أشرنا - الخلاف بين بركياروق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه. وإذا كان ذلك الخلاف قد إنتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركياروق فارس وبغداد، ويترك لأخيه محمد الأقاليم الغربية من الدولة - أعنى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام ^(٢). إلا أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت إسمية إلى حد كبير أمام إزدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين. ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا إشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً فأسرعوا إلى إستغلال الفرصة، بعد أن تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال ^(٣).

موقعة حران وأسر بلدوين الثانى :

وكانت إمارة الرها - بحكم تطرفها فى الشمال الشرقى - أكثر إحساساً من غيرها من الإمارات الصليبية فى الشرق الأدنى بأحوال سلاجقة فارس، وأكثرها رغبة فى الإستفادة من تلك الأحوال. لذلك فكر بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها فى الإستيلاء على حران - إلى الجنوب الشرقى من الرها - وهى التى لم تكن أحوالها الداخلية عندئذ أفضل بكثير مما كانت عليه الموصل ^(٤). ذلك أن أحد مماليك السلطان ملكشاه - واسمه قراجة - كان يحكم حران حكماً إستبدادياً تعسفياً سنة ١١٠٣، عندما إنتهز أحد رجاله - واسمه محمد الأصبهانى - فرصة تغيبه عن المدينة وانتزع الحكم بمساعدة الأهالى.

ولكن محمد هذا لم يلبث أن قتل، قتلته غلام تركى يعرف بجاولي، وأعلن نفسه حاكماً على المدينة ^(٥). وكان ذلك فى ربيع سنة ١١٠٤ عندما وصل بلدوين الثانى دى بورج إلى حران لحصارها ومعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل

(١) ويعبر ابن الأثير تعبيراً بليغاً عن أحوال السلطنة السلجوقية فى ذلك الوقت فيقول "صارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة، والبلاذ مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليوم تحكمهم وانبساطهم وإذلالهم ..." (الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ).

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

(4) Setton : op. cit., I 389.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

باشر، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن أخته تنكرد، فضلاً عن عدد آخر كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين ^(١). ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حران، لأنهم لم يحاولوا إقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطرونها الى الجوع والاستسلام . وفي الوقت الذي أوشكت حران علي الإستسلام، وقع نزاع بين بلدوين دي بوج أمير الرها وبوهيموند أمير أنطاكية حول أيهما يرفع بيرقه أولاً على المدينة عند سقوطها ^(٢). وكان ذلك في المساء عندما ظن الصليبيون أن المدينة ستسقط في أيديهم. ولم يدر الصليبيون عندئذ أن جيشاً كبيراً من الأتراك في طريقه لإنقاذ حران، وأن هذا الجيش سيكون على مقربة منهم في الصباح الموعد ^(٣).

ذلك أن هجوم بلدوين على حران ألف بين خصمين متعادين، هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا، فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوهُ إلى الإجتماع معه لتلاقي أمر حران ، ويعلمه أنه قد بذلك نفسه لله تعالى وثوابه، وكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، ^(٤). ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد. وبعد أن تم الاجتماع عند رأس العين - على الخابور - إتجه الزعيمان للقاء الصليبيين. وفي موقعة حران - أو البليخ - التي دارت بين الطرفين على ضفاف نهر البليخ في ٧ مايو سنة ١١٠٤، أبيد جيش الرها إبادة شبه تامة، وقتل من الصليبيين عشرة آلاف ما بين راجل وفارس ^(٥) وقد حاول بلدوين الثاني دي بوج وجوسلين دي كورتنای الفرار، ولكنهما وقعا أسيرين في أيدي التركمان. وسرعان ما أوشك النزاع أن يدب بين التركمان من أتباع سقمان الأرتقي والأتراك السلاجقة من أتباع جكرمش حول الإستئثار بتلك الغنيمة الثمينة من الأسري، حتى إنتهي الأمر بأن أخذ السلاجقة الأمير بلدوين. وبعد أن إستولى جكرمش ، علي حران، اتجه لحصار الرها ومعه أسيره القمص بلدوين دي بوج ^(٦).

ولاشك في أن موقعة حران (البليخ) كانت لها نتائجها السيئة بالنسبة

(1) Guillaume de Tyr, I p. 389.

(2) Runciman : op. cit. II, p. 42.

(3) Guillaume de Tyr, p. 445 - 446.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ :

(٥) سبط ابن الجوزي 527 & 615, Albert d'Aix,

(٦) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث ٤٩٧ هـ 409, Foucher de Chartres,

للسليبيين بوجه عام وإمارة الرها بوجه خاص. فمعنى إنتصار الترك على قوات الرها وأنطاكية، هو أن مركز الأولى غدا مزعزعا في حين أن الثانية فقدت الأمل في قرب الإستيلاء على حلب. هذا فضلا عن فشل خطة السليبيين في عزل المسلمين في الأناضول والعراق والشام بعضهم عن بعض ^(١).

وإذا كانت إمارة أنطاكية قد تعرضت لتشفى البيزنطيين بعد موقعة حران ، فإن إمارة الرها تعرضت هي الأخرى لكثير من المتاعب الداخلية، وبخاصة من جانب الأرمن الذين لم يلبثوا أن أظهروا ضجرهم من حكم السليبيين. والواقع إن إنتصار الأتراك وهزيمة السليبيين على ضفاف البليخ، كشف عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم السليبيين الغربيين ومدى إستيائهم من حكم الفرنجة. حقيقة إن الأرمن تضامنوا مع السليبيين في الرها، وأظهروا ولاءهم لتنكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دى بروج، ولكن ذلك لا ينسينا أن الأرمن هم الذين سلموا أرتاح لسلاجقة حلب، تخلصاً من «جور الفرنج» ^(٢) ويعلل متي الرهاوى موقف الأرمن هذا بتعسف السليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهمالها بل إضطهاد رجالها في كثير من الأحيان، مما دفع الأرمن إلى الإتصال سراً بالأتراك ^(٣).

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الرها وغيرها من المعاقل الصليبية قد إستطاعت البقاء وسط المحيط الأرمنى شرقى آسيا الصغرى وفي أطراف العراق والشام، فإن الفضل في ذلك كله إنما يرجع إلى إنقسام المسلمين على أنفسهم ^(٤).

وصاية تنكرد على الرها :

وعندما إتجه جكرمش لحصار الرها، وجد أهل المدينة من المسيحيين أنفسهم في مأزق خطير بعد أن قضى المسلمون على جيشهم، وغدا أميرهم بلدوين أسيراً في قبضة جكرمش الذى ألقى به في سجن الموصل، في حين ظل جوسلين دى كورتناي أسيراً في قبضة سقمان بن أرتق الذى حبسه في قلعة حصن كيفا. ولكن بوهيموند وتنكرد اللذين هرباً في موقعة البليخ استطاعا الوصول إلى الرها للدفاع عنها ضد الهجوم الإسلامى المنتظر ^(٥). وهنا تغلبت العاطفة الدينية، فأظهر

(1) Runciman : op. cit., II, p. 44.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٠ ويتفق هذا مع ما ذكره ابن القلانسي "وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الافرنج وتزايد ظلمه" (ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨).

(3) Matthieu d'Edesse : Hist. Arm) I : pp. 80 - 81.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 412 - 413.

(5) Setton : op. cit., I, p. 389.

الأرمن في الرها ولاءاً شديداً لهذين الأميرين الصليبيين، بل أنهم دعوا تنكرد للقيام بالوصاية على مدينتهم ورعاية شئون الإمارة حتى يتم إطلاق سراح أميرهم بلدوين دي بوج^(١). وهكذا ترك بوهيموند ابن أخته تنكرد في الرها، وعاد في سرعة ليرعى شئون إمارته أنطاكية التي تأثرت هي الأخرى تأثراً عميقاً بهزيمة الصليبيين في البليخ^(٢).

ولم يكد بوهيموند يرحل عن الرها حتى ظهر جكرمش أمام أسوارها. على أن تنكرد لم يجبن أمام آلاف السلاجقة الذين تأهبوا للهجوم على الرها، وإنما إستمر يبيت في الأهالي العزيمة، وإكتفى بأن أرسل رسالة سرية إلى خاله بوهيموند يطلب منه نجدة عاجلة لإنقاذ المدينة. وفي الوقت الذي وصل بوهيموند إلى مشارف الرها لنجدتها، كان السلاجقة قد تراجعوا بعد اشتباك قصير مع أهل الرها^(٣). وهكذا انسحب جكرمش بعد أن حاصر الرها أسبوعين (يونيه - يوليه ١١٠٤) دون أن يتمكن من إقتطاف الثمرة الحقيقية لإنتصاره في البليخ.

ويقال إن الصليبيين أسروا عندئذ أحد كبار الأمراء السلاجقة، فعرض جكرمش على بوهيموند إستعداده لمبادلة ذلك الأمير ببلدوين الثاني، أو دفع مبلغ ١٥ ألف دينار مقابل إطلاق سراح ذلك الأمير السلجوقي. وعندما وصلت أخبار ذلك العرض إلى بيت المقدس، أرسل الملك بلدوين الأول إلى بوهيموند يطلب منه مبادلة الأمير السلجوقي ببلدوين دي بوج فوراً، ولكن بوهيموند فضل المال لحاجته اليه، وبذلك ظل بلدوين الثاني أمير الرها أسيراً^(٤).

(1) Archer : op. cit., p. 616.

(2) Runciman : op.cit. II, p. 43.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٥٠ ١٥٠ - ٦١٩ ٦١٧ pp. Albert d'Aix

(4) Runciman : op. cit., II, p. 45.

الفصل الثاني

عودة بلدوين الثاني لحكم الرها

إطلاق سراح بلدوين :

وفي تلك الأثناء كانت دولة سلاجقة فارس لا تزال تعاني الكثير بسبب الانقسامات والحروب الداخلية. من ذلك ما سبق أن أشرنا إليه في الباب السابق من نجاح جاولي في القضاء على جكرمش وانتزاع الموصل منه ليستقل بها، ثم ثورة أهل الموصل على جاولي سقاوا ومناداتهم بزكي - بن جكرمش - حاكماً عليهم، مما اضطر جاولي إلى الانسحاب من المدينة سنة ١١٠٦ (١).

ولكن جاولي لم يلبث أن عاد إلى الموصل وتمكن من إسترادها سنة ١١٠٧ وعندئذ حاكى سلفه جكرمش، وعمل على أن يستقل بتلك الأتابكية متناسياً كل حق للسلطنة السلجوقية فيها. لذلك أسرع السلطان محمد السلجوقي إلى عزل جاولي في العالم التالي وأحل محله مودود في حكم الموصل، فاضطر جاولي إلى الخروج إلى قلعة جعبر على الفرات ومعه أسيره بلدوين الثاني ليجتهد عن المال والحلفاء لمحاربة مودود (٢).

وفي ذلك الوقت كان جوسلين دي كورتناي حاكم تل باشر قد حصل على حريته سنة ١١٠٧ بعد دفع مبلغ ضخم بلغ عشرين ألف دينار (٣). ولم يكذ جوسلين ينعم بحريته حتى أخذ يعمل على تحرير سيده بلدوين الثاني دي بوج - الذي كان في قبضة جاولي - من الأسر. والواقع إن بلدوين الثاني كان قد فقد الأمل في إطلاق سراحه عندما إنتقل من قبضة جكرمش إلى قبضة جاولي. ولكن جوسلين دي كورتناي استغل الظروف الجديدة التي غدا فيها جاولي، وحاجته إلى المال من جهة، وإلى محالفة الصليبيين ضد السلطنة السلجوقية من جهة أخرى، وسأومه على إطلاق سراح بلدوين دي بوج (٤). وكان أن تم الاتفاق على ذلك مقابل سبعين ألف دينار، بشرط أن يتعهد بلدوين بإطلاق سراح جميع أسرى

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٣) المصدر السابق.

(4) Setton : op. cit., I, p. 393.

المسلمين في الرّها، وبأن يقف إلى جانب جاولي في مشاريعه المقبلة ضد السلطنة السلجوقية وينصره متى أراد ذلك منه، بنفسه وعسكره وماله،^(١).

وهكذا تم إطلاق سراح بلدوين دي بوج سنة ١١٠٨، بعد أن دفع له جوسلين دي كورتناي مقدم الفدية المتفق عليها وهو ثلاثون ألف ينار. ثم إن جاولي لم يكتف بإطلاق سراح بلدوين، وإنما أحاطه - هو وجوسلين - بكثير من مظاهر التكريم؛ «وخلع عليه، مما جعل العلاقة بين جاولي من ناحية وبلدوين وجوسلين من ناحية أخرى تتحول إلى مخالفة شخصية»^(٢).

النزاع بين بلدوين وتنكرد حول الرّها :

وكان أول ما فعله بلدوين دي بوج عقب إطلاق سراحه سنة ١١٠٨ هو أنه توجه إلى أنطاكية ليطلب من تنكرد رد إمارته في الرّها. ولكن تنكرد الذي ظل يحكم الرّها أربع سنوات، يجمع دخلها ويدبر أمورها، عز عليه أن يتنازل عن ذلك السلطان، فأمد بلدوين ببعض المال والخيول والسلاح، ولكنه إمتنع عن الاعتراف بحقه في إسترداد الرّها، وأصدر تنكرد أوامره لنائبه ريتشارد دي سالرنو بالألا يسلم الرّها لبلدوين^(٣).

ولم يسع بلدوين دي بوج سوى أن يغادر أنطاكية غاضباً، فاتجه إلى تل باشر حيث اجتمع بجوسلين دي كورتناي. ولكن تنكرد لم يلبث أن لحق بهما ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكرياً ويلتحق بهما جاولي وينجدهما. ويبدو مما ذكره ابن الأثير أن نزاعاً شب عندئذ بين الأمراء الصليبيين الثلاثة، وإن كان هذا النزاع لم يطل، فعكف ثلاثتهم على بحث المشكلة عن طريق التفاوض^(٤). وعندما فشلت تلك المباحثات في إيجاد حل للموقف، انصرف تنكرد إلى أنطاكية، في حين تطلع بلدوين دي بوج وجوسلين دي كورتناي إلى حليفهما جاولي لمساعدتهما. وقد بلغ من حرص بلدوين الثاني على استرضاء جاولي، أن بعث إليه بمائة وستين رجلاً من أسرى المسلمين، بعد أن حررهم وسلّحهم

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 196.

(3) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I); p. 86.

ويذكر ابن الأثير أن تنكرد طيب خاطر ببلدوين دي بوج وأعطاه ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك (الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ،

وقد ذكر ابن الأثير أن زعماء الصليبيين الثلاثة كانوا يقتتلون؛ فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحاشوا.

«وكساهم» ليقوموا بدورهم في مساعدة جاولي وبلدوين جميعاً^(١).

ولم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث حليف آخر لبلدوين دي بورج، ساعده على حل المشكلة واستخلاص إمارته من قبضة تنكرد. أما هذا الحليف الجديد فهو كوغ باسيل^(٢) - أحد زعماء الأرمن - وكان قد نجح أيام الحملة الصليبية الأولى في إقامة إمارة مستقلة لنفسه حول كيسوم (كيسون)، في الجزء الشرقي المواجه للفرات من مرتفعات طوروس. وسرعان ما غدت تلك الإمارة الأرمينية قلعة منيعة، ومأوى لكثير من الأرمن ومحوراً لآمالهم^(٣). ذلك أن الأرمن أخذوا ينظرون إلى كوغ باسيل على أنه بطل قومي؛ لاسيما بعد أن نجح سنة ١١٠٧ في دفع هجوم الأتراك عن إمارته، ثم إنزال الهزيمة مرة أخرى في العام التالي - سنة ١١٠٨ - بسلاجقة الروم عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة. وهكذا بلغ هذا الزعيم الأرمني أوج مجده وقوته عندما قصده بلدوين دي بورج وجوسلين دي كورتنای طالبين منه مساعدتهما علي استرداد الرها من تنكرد^(٤).

ويؤكد المؤرخ الأرمني متى الرهاوي أن كوغ باسيل أحسن استقبال الأميرين الصليبيين ورحب بهما ترحيباً كبيراً، لأنه وجد مصالحه تتفق ومصالحه بلدوين دي بورج بسبب تخوف الأرمن من سياسة تنكرد. ذلك أن تنكرد وضع سياسة استهدفت ضم قيليقية بأجمعها إلى الصليبيين وطبعها بالطابع اللاتيني الغربي، كما بدا ذلك من استيلائه على المصيصة. وبعبارة أخرى فإن سياسة تنكرد في تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب بل ضد الأرمن أيضاً. هذا فضلاً عن أن تنكرد أناب عنه ابن عمه ريتشارد دي سالرنو في الرها، وهذا الأخير أساء معاملة الأرمن وعجز عن حمايتهم، كما فشل في صد جكرمش عندما غزا المنطقة المحيطة بالرها سنة ١١٠٥. ولعل فشل النورمان في اكتساب محبة الأرمن هو الذي جعل أهل الرها يحنون إلى حكم بلدوين دي بورج، وهو الأمير الذي تقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمينية^(٥).

لذلك كله لم يتردد كوغ باسيل في إعطاء بلدوين دي بورج قوة كبيرة من

(1) Runciman : op. cit., II, p. 112 &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٢) هكذا كتبه جمهرة المؤرخين (أنظر ابن العبري، ص ١٩٩)
أما ابن الأثير فقد كتبه (كواسيل)

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 77.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 437.

(5) Matthieu d'Edesse, p. 79 & Albert d'Aix, p. 648.

المحاربين الأرمن تبلغ ألف فارس وألفى راجل^(١). وعندما خرج بلدوين على رأس تلك القوة لاسترداد إمارته دارت مناوشات بينه وبين خصمه، وعندئذ - وقبل أن يشتد القتال - تدخل بطرق أنطاكية لحسم النزاع بين الطرفين. وكان لذلك البطرق - وهو برنارد فالنس - مكانة كبيرة في نفوس المسيحيين، حتى قال عنه ابن الأثير إنه «كالإمام للمسلمين لا يخالف أمره»، فحكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى أنطاكية، وتم ذلك في ١٨ سبتمبر سنة ١١٠٨^(٢).

ولم يكد بلدوين دي بوج يعود إلى إمارته، حتى اتبع سياسة مشبعة بالتسامح والأخاء تجاه حليفه جاولي، فأطلق سراح أسرى المسلمين، سواء في الرها أو حران أو غيرهما من المدن المجاورة، بل إن رئيس سروج «كان مسلماً فارتد، فسمعه أصحاب جاولي يقول في الإسلام قولاً شنيعاً فضربوه، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع، فذكر ذلك للقمص (بلدوين دي بوج) فقال : هذا لا يصح لنا ولا للمسلمين، فقتله ...»^(٣).

الانشقاق في صفوف المسلمين والمسيحيين :

على أن الحل الذي وضعه بطرق أنطاكية لم يمح ما في النفوس من كراهية وحقد، وإن كان قد وضع حداً للصراع المسلح بين تنكرد وبلدوين دي بوج. وزاد من اتساع الفجوة بين الرجلين أن كلا منهما وجد من يسانده بين صفوف المسلمين، فبلدوين دي بوج له صديقه جاولي أتابك الموصل السابق، الذي لم يفتأ منذ طرده من الموصل يعمل علي إنشاء إمارة لنفسه في الجزيرة رغم إرادة السلطان محمد السلجوقي، مما أوقعه في خلاف وعداء مع رضوان ملك حلب الذي بدأ يتأثر بأطماع جاولي التوسعية^(٤). ومن ذلك أن جاولي هاجم في سبتمبر سنة ١١٠٨ مدينة بالس على الفرات، وهي لا تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن حلب، واستولى عليها حيث قتل أعوان رضوان داخلها. وفي ذلك الموقف لم يجد رضوان بداً من محالفة عدوه القديم تنكرد، وربما وجد الأخير في ذلك التحالف فرصة للانتقام من بلدوين دي بوج الذي استطاع أن يسترد الرها على كره منه^(٥).

وهكذا تألفت جبهتان متعارضتان : الأولى من بلدوين دي بوج وجاولي

(1) Stevenson : The Crusaders, p. 85.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.
(٣) المصدر السابق.

(4) Setton : op. cit., I, pp. 393 - 394.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

والثانية من تنكرد ورضوان. وفي المعركة التي دارت بين الفريقين قرب منبج - غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها - انتصر فريق تنكرد، وفر جوسلين دي كورتناى إلى تل باشر وبلدوين دي بروج إلى دلوک فى أكتوبر سنة ١١٠٨^(١). وقد تبع تنكرد غريمه بلدوين دي بروج لمحاصرته فى دلوک، ولكن تخوفه من أن يهاجمه جاولى من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة، جعله يعدل عن خطته وينصرف إلى أنطاكية. وقد قدرت خسارة المسيحيين فى معركة منبج هذه بما يقرب من ألفين^(٢).

إنقلاب سياسة بلدوين دي بروج ضد الأرمن :

ولم يلبث ذلك الانقسام فى صفوف الصليبيين أن ظهر له رد فعل عنيف داخل الرها ذاتها. ذلك أن الأرمن فى الرها عندما سمعوا بالهزيمة التى لحقت بأمرهم بلدوين دي بروج وتابعه جوسلين دي كورتناى توجسوا شراً، وتخوفوا من أن يعود إليهم حكم تنكرد وقريبه ريتشارد دي سالرنو، وهو الحكم الذى ظل يذكره أهل الرها بالسوء والشر. لذلك عقد الأرمن اجتماعاً كبيراً فى كنيسة القديس حنا بالرها، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكي. ويبدو أن الأرمن وجهوا بعض الإساءات والاتهامات إلى رئيس الأساقفة، مما أُنذر بحدوث صدام بين الأرمن والصليبيين داخل المدينة^(٣).

على أن الأرمن الذين ظنوا أن بلدوين دي بروج وجوسلين دي كورتناى لا بد وأن يكونا قد هلكا وأسرا فى الصراع ضد تنكرد، فوجئوا بالأميرين يدخلان الرها سالمين. ولم يلبث أن علم بلدوين دي بروج بما فعله الأرمن فى غيابه، فأدرك خطورة ذلك الاتجاه على مستقبله ومستقبل إمارته. ومنذ ذلك الوقت انقلبت سياسته تجاه الأرمن رأساً على عقب، وأخذ ينظر إليهم نظرة الريبة والشك، ولم يتورع عن اضطهادهم وإذلالهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء على حرياتهم الدينية وغير الدينية. هذا فضلاً عما وقعه على المذنبين منهم من عقوبات بلغت حد الحبس والطرْد وسمل الأعين، حتى أن الأسقف الأرمنى لم يسلم من سمل عينيه إلا بعد أن دفع مبلغاً باهظاً من المال^(٤).

وبعد أن كانت سياسة بلدوين فى حكم الرها تقوم على أساس الربط بين

(1) Albert d'Aix, p. 649.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٢.

(3) Matthieu d'Edesse, p. 268.

(4) Idem : pp. 267 - 268.

الصلبيين والأرمن ؛ إذا به يغير سياسته تغييراً تاماً، فاستبعد الأرمن من حسابه كلية، واعتمد في حكومته اعتماداً واضحاً على رجاله من الصليبيين الغربيين وحدهم. ومن الواضح أن هذه السياسة زادت الموقف سوءاً، لأن الأرمن في الرها ضاقوا بحكم الصليبيين، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك المسلمين في تطرفهم^(١). ولذلك لم يكن عجباً أن يتصل الأرمن في الرها بمودود أتابك الموصل، عند قيام الأخير بحملته ضد الصليبيين سنة ١١١٢، عارضين عليه إستعدادهم لتسليمه الرها.

وعندما علم بلدوين دى بوج بتآمر الأرمن مع مودود ضده، جاء انتقامه شديداً في تلك المرة، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن. ولم يترك فيها - عدا الفرنجة - سوى السريان واليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى^(٢).

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 443.

(2) Michel le Syrien, III, p. 196.

الفصل الثالث

مودود وإمارة الرها

حملة مودود أتابك الموصل على الرها سنة ١١١٠ :

سبق أن رأينا كيف أعلن جاولي أتابك الموصل استقلاله بتلك المدينة وقطع كل صلة تعبر عن ولائه للسلطان محمد السلجوقي، الأمر الذي جعل السلطان يعهد الى مودود بن ألتونتكين بالقضاء على جاولي والقيام محله في حكم الموصل ^(١). وعندما نجح شرف الدولة مودود في مهمته وأصبح أميراً على الموصل سنة ١١٠٩، عهد إليه السلطان محمد في العالم التالي باستئناف الجهاد ضد الصليبيين. وكان أن أعد مودود حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين، واشترك معه في تلك الحملة سكران القطبي أمير خلاط وميافارقين، ونجم الدين إيلغاري بن أرتق أمير ماردين في ديار بكر، ومع الأخير خلق كثير من التركمان، ^(٢).

وقد إتجهت تلك الحملة الكبيرة من الأتراك لحصار الرها (إبريل - مايو سنة ١١١٠) فأسرع بلدوين الثاني دي بوج إلى إرسال جوسلين دي كورتناي إلى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الأول. أما تنكرد الذي لم يعبأ بإنقاذ الرها، فان بلدوين الثاني دي بوج إتهمه بتحريك تلك الحملة الإسلامية ضد الرها والتآمر مع المسلمين ضده ^(٣). ولم يستطع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لأنه كان يحاصر بيروت، وأوشكت المدينة أن تسقط في يده عندما بلغته إستغاثة بلدوين دي بوج ^(٤). ولم يكد الملك بلدوين الأول يستولى على بيروت في مايو سنة ١١١٠، حتى جمع قواته واتجه صوب الرها، وصحبته برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه ^(٥). وفي طريق بلدوين إلى الرها انضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن، وعلي رأسهم كوغي باسيل ^(٦).

وعندما اقترب الملك بلدوين الأول من الرها، رفع مودود الحصار عن

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر ص ١٩٩.

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٥٤.

(3) Albert d'Aix, p. 670.

(٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١٨.

(5) Albert d'Aix, p. 672.

(6) Stevenson : op. cit., I, p. 88.

المدينة واتجه صوب حران، حيث انضم إليه طفتكين ومعه قوات دمشق^(١). وقد رأى الملك بلدوين الأول أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضد تلك الحشود التركية الضخمة، التي أخذت تهدد الصليبيين وتبعثر قواهم. ولذلك أرسل ملك بيت المقدس إلى أنطاكية يستدعي تنكرد وقواته للمشاركة في حرب فاصلة ضد الأتراك^(٢). وقد تردد تنكرد أول الأمر في تلبية نداء الملك، ولكنه عاد وأدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين في حربهم الجامعة ضد الأتراك سيؤدي إليه وإلى سمعته في المحيط الصليبي، فاتجه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين، الذي قام بدور الوسيط لتصفية الخلاف بينه وبين بلدوين دي بوج، وحشد جميع جهود الصليبيين للمعركة الفاصلة ضد المسلمين^(٣). وهكذا، إتفق الفرنج كلهم وأزالوا ما كان بينهم من الشحنة.. فتصافى تنكرد وبلدوين وابن صنجيل بعد النفار...^(٤).

ويبدو أن الخطة التي وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه إلى حران استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم في الجزيرة ثم الإيقاع بهم، كما حدث في موقعة البليخ سنة ١١٠٤^(٥). وكان في استطاعة الصليبيين - بعد أن وحدوا صفوفهم - أن يلاحقوا المسلمين عند حران، ولكن الملك بلدوين الأول فطن إلى خطة مودود، وأراد أن يسرع بإنزال ضربته بالأتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم. وكان من المحتمل أن ينجح بلدوين في ذلك لولا أن الأحقاد القديمة بين زعماء الصليبيين عادت إلى الظهور، فانسحب تنكرد ومعه قواته إلى سميساط على الفرات، مما اضطر الملك بلدوين الأول إلى الرجوع إلى الرها^(٦). وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار بتقرب علي الملك بلدوين بخطورة هجمات الفاطميين على مملكة بيت المقدس، فلم يعد أمام الملك متسعاً من الوقت ليحاول أن يوفق بين أمراء الصليبيين مرة أخرى. وتم الاتفاق علي تحديد الأماكن التي يحتشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها - مثل الرها - على أن تخلي بقية المراكز على شاطئ الفرات من سكانها الأرمن واليعاقبة.

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ - ١٧١.

(2) Setton : op. cit., I, p. 399.

(3) Stevenson : op. cit. p. 88.

(٤) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٥٤.

(٥) ذكر ابن الأثير أن المسلمين "رحلوا عن الرها إلى حران ليطلع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم..." (الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ).

(6) Matthieu d'Edesse, p. 93.

إجلاء الأرمن عن أرض الجزيرة واستيلاء المسلمين عليها :

وكان أن بدأ الصليبيون تنفيذ الخطة السابقة، فزودوا الرها بالغذاء والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل، ووضعوا فيها حامية قوية تكفى للدفاع عنها^(١). وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو تطهير ضياع الجزيرة من الأرمن، وسحب ذلك الفريق من المسيحيين الشرقيين إلى الجهات الشمالية الغربية في اتجاه سميساط أى عبر الفرات، حيث يمكن أن يأوى أولئك الأرمن في المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم (كيسون)^(٢).

وفي تلك الأثناء كان مودود ورجاله عند حران، يرقبون الموقف عن كثب، ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى المسيحية، حتى وصلوا إلى الفرات. وهناك علموا أن جيوش الصليبيين قد عبرت الفرات، في حين بقيت بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم في عبور النهر، بسبب قلة السفن اللازمة لنقلهم إلى الضفة الغربية^(٣). وكان أن هاجم الأتراك أولئك اللاجئين وعلموا السيف فيهم، حتى قتلوا منهم عدة آلاف، في حين وقف الجيش الصليبي على الضفة الغربية للنهر لا يدري ماذا يفعل. وبعد ذلك عاد مودود إلى حران ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر هائل من الغنائم^(٤).

وهكذا ساء موقف الصليبيين عند أطراف الفرات إلى درجة كبيرة. حقيقة إن الصليبيين ظلوا يحتفظون بالرها وسروج، وهما أكبر قلعتين في تلك المنطقة شرقي الفرات. ولكن هاتين القلعتين أصبحتا قائمتين وسط أرض خربة مقفرة، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا سكان. أما بلدوين دى بوج فقد عاد إلى الرها ينعى إمارته الخربة، في حين رجع بلدوين الأول إلى بيت المقدس، وتكرر إلى أنطاكية^(٥).

استياء المسلمين والدعوة للجهاد :

على أن الوضع الذى أمسى فيه المسلمون في أوائل القرن الثانى عشر، وشعورهم بسوء موقفهم في الشام وأطراف العراق، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد. هذا إلى أن

(1) Guillaume de Tyr, p. 463.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 454.

(3) Stevenson : op. cit., pp. 88.

(4) Matthieu d'Edesse, pp. 93 - 94.

(5) Albert d'Aix, p. 675.

سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعازل في أرض الجزيرة والشام قطع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز، وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية الإسلامية في القرن السابع للميلاد. ويروي ابن الأثير أن بعض أهالي حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنجة، وهناك «اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة، وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان إنفاذ العسكر للجهاد^(١)». وفي يوم الجمعة التالي قصد جمهور الغاضبين جامع القصر بدار الخلافة في بغداد حيث كرروا العملية نفسها، فافتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر، وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان السلجوقي «يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه^(٢)». وكان أن أخذ السلطان محمد السلجوقي يعد العدة لحملة ثانية، على أن تكون تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل.

ويروي ابن القلانسي أنه في ذلك الوقت بالذات، بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين، مما جعل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين يرسل مبعوثاً إلى السلطان محمد السلجوقي يحضنه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد، «وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم^(٣)». وقد وصل المبعوث البيزنطي إلى بغداد قبل وصول وفد حلب^(٤)، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم...^(٥)».

حملة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١ :

وقد أخذت الاستعدادات تجري على قدم وساق في دولة سلاجقة فارس في ربيع سنة ١١١١ لإعداد حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين. وكان أن اجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة : سكران

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 252.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.

القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، والأميران أيلبكي وزنكي إينا برسق في أذربيجان .. وغيرهم. وكذلك كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير مودود، فاجتمعوا، ما عدا إيلغازي صاحب ماردين فإنه سير ولده أياز بدله (١).

وبعد أن اجتمع أولئك الأمراء علي رأس قواتهم قرب سنجار، اتجهوا لمهاجمة الرها. وكانت الرها على استعداد منذ العام السابق لمواجهة مثل الهجوم، وبها من الزاد والمؤن والسلاح - فضلا عن المحاربين - ما كان كفيلا بأن يمكنها من الصمود. وفعل لم يلبث أن قنط المسلمون من الاستيلاء علي الرها بعد أن رأوا أمراً محكماً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة المقاتلين، (٢). لذلك رأى مودود أن يعبر نهر الفرات لمهاجمة تل باشر، وفي الطريق لم يحجم الأتراك عن تدمير كل ما صادفهم من ضياع الصليبيين (٣).

وقد حاصر المسلمون تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ولكن جوسلين دي كورتناي استطاع الصمود في وجه المسلمين فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً. ويذكر ابن العديم أن المسلمين كانوا على وشك الاستيلاء على تل باشر، لولا أن جوسلين اتصل بأحمد بك الكردي أمير مراغة، فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمد بك الكردي، وحمل إليه مالا، وطلب منه رحيل العسكر عنه، فأجابه إلى ذلك ...، وفي ذلك الوقت كان رضوان صاحب حلب قد أرسل إلى مودود وإلى أحمد الكردي يخبرهم «بأنني قد تلفت، وأريد الخروج من حلب، فبادروا إلى الرحيل ...، وعلى هذا الأساس نجح أحمد بك الكردي في أقناع الأتراك بترك حصار تل باشر والاتجاه إلى حلب لنجدة رضوان (٤). وعندما أطمأن جوسلين إلى ابتعاد المسلمين عن قلعته، خرج علي رأس مجموعة من فرسانه، واستطاع أن يدهم مؤخرة جيش المسلمين، ويقتل من الأتراك نحو ألف رجل، ثم أسرع بالعودة إلى تل باشر محملاً بالغنائم (٥).

ولم يكد الأتراك يقتربون من حلب لنجدة رضوان حتى فوجئوا بموقف غريب. ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين عن تل

(١) المصدر السابق، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٢) المصدر السابق

(3) Stevenson : op. cit., p. 91.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩.

(5) Albert d'Aix, p. 681.

باشراً، ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم وبدأ يحسب حساباً لخطرهم، وأدرك أن تلك الجيوش التركية الكثيفة وذلك النفر من الأمراء ذوى المطامع يشكلون خطراً عليه وعلى سلطانه أكثر من خطر تنكرد نفسه^(١). وهكذا سرعان ما ظهرت المفاجأة الكبرى، وهى أن رضوان الذى كان يستنجد بالأتراك ضد تنكرد أغلق فى وجه المسلمين «أبواب البلد ولم يجتمع بهم»^(٢)، بل إنه لم يلبث أن تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك^(٣). ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان، فغضبوا ونادوا بالجهاد، وعندئذ أخذ رضوان بعض أعيانهم رهائن وحبسهم فى قلعة المدينة، ورتب قوماً من الجند والباطنية لحراسة سور حلب، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، وبذلك ظلت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الإسلامى المتحالف^(٤).

وإزاء ذلك الموقف الذى وقفه رضوان من الأمير مودود وحلفائه، اتجه الجيش المشترك إلى حوض نهر العاصى لاسترداد الجهات التى استولى عليها تنكرد أخيراً فى إقليم معرة النعمان. وهناك عند معرة النعمان حضر طغتكين أتابك دمشق على رأس جيشة وانضم لحلف الأمراء، وبذلك اكتملت رابطة الأتراك ولم يعد متخلفاً سوى رضوان صاحب حلب الذى «لم يلتفت إلى أحد منهم»^(٥). على أن طغتكين لم يلبث أن «اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع فى مهادنة الفرنج سراً»^(٦). وهكذا صدق المؤرخ ابن العديم حين قال إن أمراء المسلمين فى ذلك العصر كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمن أولئك الأمراء استمرار بقائهم فى مناصبهم^(٧).

وقد عرض طغتكين على أمراء الأتراك أن يتوجهوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس، ولكن بقية الأمراء - عدا مودود - عارضوا ذلك الرأي، واعتقدوا أنه من المجازفة الابتعاد حتى طرابلس من أجل تحقيق مصلحة خاصة لأتابك دمشق^(٨).

(1) Setton : op. cit., I, p. 400.

(2) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(3) Albert d'Aix, p. 682.

(4) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٥٩.

(5) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥.

(6) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ : التاريخ الباهر ص ١٧ - ١٨.

(7) وكان السبب فى ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه، (ابن

العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٧٣.

(8) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٦٠.

وعندئذ قرر طغتكين أن يقف موقفاً سلبياً من الحملة الإسلامية، فرفض أن يتعاون مع إخوانه المسلمين في أى عمل يقومون به ضد الصليبيين إلا إذا أطاعوه واتجهوا صحبته إلى طرابلس، مع ما فى ذلك العمل من خطورة بالغة. ولم يلبث الأمير برسق أن اشتد به المرض وأعلن رغبته فى العودة، فى حين كان الأمير سكرمان القطبى قد توفى فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه. أما أحمد بك الكردي فقد انسحب مسرعاً ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكرمان القطبى من البلاد. وبذلك لم يبق إلى جانب الأمير مودود سوى إياز الأرتقى بن إيلغازي، فضلاً عن طغتكين صاحب دمشق^(١).

وفى الوقت الذى انفرط عقد الجيش التركي، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد بعد الاختلاف والتباين لمواجهة الخطر الناجم عن اتحاد كلمة أمراء المسلمين. وكان أن أقبل بلدوين دى بورج أمير الرها وجوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر وتنكرد أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين ملك بيت المقدس ومعه برترام أمير طرابلس، وغير هؤلاء كثيرون من أمراء الصليبيين^(٢). وأخيراً اجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية - على الضفة الشرقية لنهر العاصى - فى حين كان طغتكين ومودود على الضفة الغربية للنهر عند شيزر، حيث اجتمع بهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر وهون عليهما أمر الفرنج وحرصهما على الجهاد، (١٥ سبتمبر ١١١١)^(٣). وبعد عدة أيام وقف فيها الفريقان وجهاً لوجه، عبر الأتراك نهر العاصى إلى الضفة التى عليها الصليبيون، ودارت مناوشات بين الفريقين بلغت أحياناً درجة عنيفة، ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل وعاد كل أمير إلى إمارته^(٤).

وهكذا أثبتت تلك التجربة فشل حركة الجهاد الإسلامية طالما أن المسلمين كانوا مفتقرين إلى وحدة تنظم صفوفهم. ذلك أن أمراء المسلمين ظلوا منشقين على أنفسهم فى الوقت الذى ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين، تحت زعامة بلدوين ملك بيت المقدس^(٥).

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٦ - ١٧٧.

ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 469.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(4) Setton : op. cit., I, p. 400.

(5) Runciman : op. cit. II, p.

الفصل الرابع

تدهور امارة الرها

مؤامرة الأرمن في الرها سنة ١١١٢ :

ومع أن الأمير مودود وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه قام في صيف سنة ١١١٢ بمهاجمة الرها فجأة ، فترك قواته تحاصرها قرابة شهرين ، في حين انصرف هو - عندما رأى قوة تحصين الرها وتعذر الاستيلاء عليها في سهولة - إلى سروج ، بوصفها المركز الثاني للصليبيين شرقي الفرات ^(١) . على أن جوسلين دي كورتناي استطاع أن يلحق بمودود عند سروج وأنزل به الهزيمة ، وقتل عدداً كبيراً من رجاله في يونيو سنة ١١١٣ . ويرجع ابن الأثير تلك الهزيمة إلى أن مودود لم يحتفظ بوحدة جيشه كاملة ، وإنما ترك جزءا يحاصر الرها وأتى بالجزء الباقي لمهاجمة سروج ، وبذلك أهمل الفرنج ولم يحترز منهم ، فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم ، ولم يسع مودود في ذلك الموقف سوى التراجع نحو الرها فسبقه جوسلين إليها لمساعدة بلدوين دي بروج في الدفاع عنها ^(٢) .

وفي تلك المرحلة بالذات تأمر الأرمن في الرها ضد بلدوين دي بروج ، واتصلوا بالأتراك طالبين مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين ^(٣) . وقد تم الاتفاق في تلك المؤامرة على أن يساعد الأرمن مودود في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من مدينة الرها ، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة في سهولة . على أن وصول جوسلين دي كورتناي جال دون تنفيذ المؤامرة ، لأنه عندما علم بها أسرع إلى احتلال القلعة التي كان مفروضاً أن يبدأ السلاجقة بالاستيلاء عليها ، وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردهم عن آخرهم ، وبذلك حال دون سقوط المدينة في أيدي السلاجقة ^(٤) .

(1) Stevenson : op. cit., p. 95 .

(2) Matthieu d'Edesse, p. 100 &

ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٦ هـ .

(3) Matthieu d'Edesse, p. 101 .

(4) Michel Le Syrien, IIIp. 196 .

ومع أن تلك المؤامرة باءت بالفشل إلا أنها تكشف النقاب عن مدى انحلال الأوضاع الداخلية في الرّها بسبب الانقسام بين شطري السكان المسيحيين ، الأرمن والصليبيين الغربيين . وكان أن أدى كشف المؤامرة إلى تطرف بلدوين دي بوج وجوسلين دي كورتناي في معاملة الأرمن معاملة وحشية صارمة ، فاستحلا دماء كثيرين من الأبرياء ، وأمرًا بذبح وإحراق عدد غير قليل من أهل الرّها الأرمن . ولم يلبث بلدوين دي بوج بعد ذلك بعدة أشهر أن طرد من الرّها عدداً كبيراً من الأرمن ، بعد أن أدرك أن وجودهم داخل أسوار المدينة يعرض سلامته وسلامة المدينة للخطر ^(١) .

ويبدو أن شعور الأرمن في تلك الفترة بالذات صار معبئاً ضد الصليبيين بوجه عام ، ليس داخل الرّها فحسب ، بل في جميع الأقاليم التي إنتشر فيها الأرمن شرقي آسيا الصغرى وشمال العراق . وليس أدل على شعور الكراهية المتبادل بين الصليبيين والأرمن في تلك الفترة ، من حقد الصليبيين على كوغ باسيل (كواسيل) بسبب ازدياد نفوذ الأخير واتساع ملكه . وكان أن تحالف بلدوين الثاني دي بوج أمير الرّها ، وتكرّد أمير أنطاكية ضد كوغ باسيل الأرمني ، واستطاع تنكرّد أن يستولي على رعبان ، واستعد فعلاً لمحاصرة كيسوم ، عندما عقد الصلح بين الطرفين ^(٢) .

جهود بلدوين دي بوج في إنقاذ ملكة بيت المقدس سنة ١١١٣ :

أما مودود حاكم الموصل فلم يهدأ ، وظلت فكرة الجهاد تتحكم في مشاعره وأحاسيسه ، فأعد حملة جديدة سنة ١١١٣ لغزو بلاد الصليبيين ، واشترك معه تميرك صاحب سنجار ، والأمير إياز الأرتقي بن إيلغازي أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق . واستطاع الأخير - كما سبق أن أوضحنا - أن يوجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس ^(٣) .

وكان بلدوين دي بوج أمير الرّها - بحكم قربه من الموصل - أول من أحس بحركة مودود وحلفائه ، فأسرع إلى تحذير الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس . وعندما أحس الملك بلدوين بخطورة الموقف استنجد بأفصاله الأقربين مثل روجر الأنطاكي وبونز أمير طرابلس . أما بلدوين دي بوج أمير الرّها ، فكان

(1) Matthiu d'Edesse, pp. 102 - 105 .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 123 .

(٣) أنظر ما سبق : الفصل الخامس من الباب التاسع .

من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الأتراك ، لذلك لم يطلب إليه الملك بلدوين الحضور^(١) .

وقد سبق أن شرحنا ما حدث لتلك الحملة قرب بحيرة طبرية ، ثم ما كان من مقتل مودود في دمشق في سبتمبر سنة ١١١٣ ؛ مما أدى إلى فشلها^(٢) .

سوء الاحوال الاقتصادية في الرها . طرد جوسلين:

والواقع إن اتجاه الحملة الإسلامية السابقة صوب إقليم الجليل جاء رحمة للرها التي تعرضت - بحكم تطرفها - لكثير من هجمات السلاجقة ، والتي كانت لا تستطيع المقاومة والثبات أكثر مما قاومت وثبتت . ذلك أن الأتراك خربوا الأراضي المحيطة بها ودمروا ما فيها من شجر وزرع ، حتى صارت الرها بمثابة واحة وسط صحراء واسعة مجذبة مليئة بالأعداء من كل جانب . أما الجزء الواقع غربى الفرات من إمارة الرها - أي إقليم تل باشر - فكان على العكس في حالة نسبية من الهدوء ، لأنه لم يتعرض لما تعرضت له الرها من إغارات أتابكة الموصل ، فضلا عن أن نهر الفرات كان يحميها من هجماتهم المتكررة .

وتشير المصادر إلى أن جوسلين دي كورتناي أخذ يتصرف في ذلك الوقت تجاه سيده بلدوين دي بوج تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص ، مما أثار حنق بلدوين وشكوكه . ومع أنه لا توجد في الواقع أدلة ثابتة على خيانة جوسلين لبلدوين الثاني ، إلا أنه من المحتمل أن يكون سبب سوء التفاهم بين الطرفين هو حقد بلدوين دي بوج على جوسلين ، لاسميا وأن بلدوين - وسط المتاعب الداخلية والخارجية التي ألمت به وإمارته - أخذ يتشكك في جميع من حوله ، فلم يكتف بالشك في الأرمن وإخلاصهم ، وإنما تشكك أيضاً في أقرب أعوانه إليه وهو جوسلين نفسه ، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الموقف بأن قبض بلدوين دي بوج على جوسلين وحبسه ، ثم أطلق سراحه بعد أن عزله عن حكم تل باشر^(٣) .

ولم يجد جوسلين دي كورتناي أمامه سوى الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، فذهب إليه طامعاً في عطفه . وكان أن أقطع الملك بلدوين جوسلين إمارة طبرية والجليل ، حيث أظهر جوسلين نشاطاً وسعاً في مهاجمة المسلمين وبخاصة في إقليم صور . وتدل الشواهد على أن جوسلين لم يحاول - وهو في

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 484 .

(٢) أنظر ما سبق : الفصل الخامس من الباب التاسع .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 124 .

إمارته الجديدة - أن يسى إلى بلدوين دى بوج أمير الرها ، مما جعل الأخير - عندما تولى عرش بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الأول - لا يكتفى بإعادة جوسلين إلى تل باشر ، بل أعطاه إمارة الرها بأكملها سنة ١١١٩^(١).

مؤامرة الأرمن سنة ١١١٣ لتسليم الرها لمودود :

أما الأرمن فى الرها ، فظلوا يضمرون البغض وسوء النية لبلدوين دى بوج والصليبيين عموماً . وزاد من كراهيتهم وحقدهم تلك الإجراءات التعسفية التى اتخذها بلدوين الثانى ضد الأرمن سنة ١١١٢ . ولم يلبث استياء الأرمن أن دفعهم إلى التفكير فى تسليم الرها للسلاجقة سنة ١١١٣ ، أى فى الوقت الذى بدأ مودود حاكم الموصل يتأهب لحملة الجديدة ضد الصليبيين . وربما ظن الأرمن أن الظروف مواتية لتسليم الرها لمودود أثناء غياب بلدوين دى بوج فى تل باشر ، لأخذ قلعتها بعد طرد جوسلين دى كورتناى منها . ومع أنه لا يوجد دليل ثابت على أن الأرمن تواطأوا فعلاً ضد الأتراك فى تلك المرة ، إذ ربما لا يعدو الأمر مجرد إشاعة أو دسيسة ، إلا أن تجربة العام السابق جعلت بلدوين دى بوج يسرع إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمن من جهة أخرى^(٢).

ولم يلبث أن عهد بلدوين دى بوج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمن وطردهم من الرها ، فانتشر الصليبيون فى المدينة يذبحونهم بالجملة ، كما لجأوا فى ١٣ مايو سنة ١١١٣ إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة . ويصف المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى حالة الأرمن فى ذلك الوقت ، وكيف أنهم مروا بأيام حالكة ليس لها مثيل فى تاريخهم ، فكان الأب لا يعرف أبناءه والأبناء يفرون من آبائهم ، والكل لا يعنيه سوى النجاة بأرواحهم ، وقد غادروا الرها تاركين خلفهم كل ما امتلكوه من مال ومتاع . أما من بقى منهم داخل منزله وأغلق عليه بابه ، فإن الصليبيين اقتحموا عليه داره وأحرقوه حياً . وهكذا لم يتبق فى الرها من أبنائها الأرمن سوى ثمانين رجلاً لانوا بكنيسة القديس تيودور ، حتى تم القبض عليهم فحبسوا فى قلعة المدينة تحت الحراسة المشددة^(٣) . وقد اتجه معظم الأرمن المطرودين من الرها إلى المدن والبلاد الأرمينية الأخرى القريبة - وبخاصة سميساط - فى حين صارت الرها مدينة شبه خربة ، فازداد ركودها وضعفها ، بعد أن فقدت عنصراً أساسياً من سكانها المعروفين بنشاطهم ودأبهم .

(1) Stevenson : op. cit., p. 106 .

(2) Grousset : Hist des Croisades, I. 490 .

(3) Matthieu d'Edesse, pp. 104 - 106 .

ولم يلبث أن أحسن بلدوين دى بورج بأن طرد الأرمن من الرها عاد عليه وعلى إمارته بالخسارة ، وأن من بقى بالمدينة من المسيحيين الغربيين والسرمان لا يكفون للاحتفاظ للرها بنضارتها وقوتها ، فسمح للأرمن فى فبراير سنة ١١١٤ بالعودة إلى الرها مرة أخرى ^(١) .

استنجد الأرمن بالسلاجقة :

وإذا كان الأرمن بعد عودتهم إلى الرها قد ركنوا إلى الهدوء التام ولم يحاولوا القيام بأى عمل يسئ إليهم ، إلا أنهم ظلوا مع ذلك - داخل الرها وخارجها- لا يستطيعون أن يغفروا للصليبيين سوء معاملتهم واضطهادهم لكنيستهم .

وكان السلطان محمد السلجوقى قد عهد بحكم الموصل بعد مقتل مودود إلى حاكم جديد هو آقسنقر البرسقى ، مع تكليفه - مثل سلفه - بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفى سنة ١١١٤ قام آقسنقر بحملة كبيرة ضد الرها ، وبصحبه ابنه عماد الدين زنكى وتميرك صاحب سنجار وغيرهما . والمعروف أن آقسنقر كان رجلاً ماهراً ، فبدأ بدعم نفوذه والاستيلاء على أعمال الموصل مثل جزيرة ابن عمر ، كما استولى على ماردین من صاحبها إيلغازى ، وبعد ذلك سير إيلغازى ابنه إياز مع آقسنقر لمهاجمة الرها . وقد ظل آقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين ، قاومه طوالها الفرنجة وصبروا له على قول ابن الأثير ^(٢) . ويبدو أن صمود الرها على ذلك الوجه جعل آقسنقر يرفع حصاره عنها ، ويوجه إغاراته ضد الضياع الصليبية المحيطة بها ويسرّج وسميساط . وفى تلك المرحلة أرسل حاكم كيسوم ورعبان الأرمنى إلى آقسنقر يعرض عليه محالفته ضد الصليبيين .

وكان كوغ باسيل (كواسيل) الأرمنى - حاكم إمارة كيسوم ورعبان - قد توفى فى أكتوبر سنة ١١١٢ تاركاً إمارته المستقلة لأرملته وابنتها بالتبني ، دغا باسيل . وعندما أحس هذان الأخيران بأن تنكرد أمير أنطاكية يطمع فى إمارتهما ، طلبا حماية الأتابك آقسنقر البرسقى واعترفا بتبعيتهما له وسيادته على إمارتهما ؛ وقبل آقسنقر ذلك بعد فرض جزية معينة على تلك الإمارة الأرمينية ، رمزا لتبعيتهما ^(٣) . ويبدو أن بعض الأرمن الذين طردهم بلدوين الثانى من الرها سنة

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 491.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٨ هـ فى هذه السنة توفى بعض جنود الفرنج ويعرف بكواسيل ؛ وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، فاستولت زوجته على المملكة وتحصنت من الفرنج وأحسنّت إلى الاجناد ، ورأست آقسنقر البرسقى وهو على الرها وأستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه .

١١١٣ نزحوا إلى كيسوم حيث حرضوا دغا باسيل على محالفة السلاجقة ضد الصليبيين^(١).

بلدوين الثانى دي بوج والتوسع على حساب الأرمن :

على أن الصليبيين اعتبروا ما قام به أمراء كيسوم الأرمن من تحالف مع السلاجقة ، خيانة كبرى فى حق المسيحية ، فضلا عما فى ذلك التحالف من تهديد صريح للإمارات الصليبية فى شمال العراق والشام . لذلك لم يلبث بلدوين دى بوج أمير الرها أن خرج لحصار رعبان سنة ١١١٥ ، وعندئذ استنجد دغا باسيل بأحد حكام الأرمن فى منطقة طوروس الجبلية . ولكن الأخير لم يهتم بأمر مساعدة دغا باسيل وانتهاز فرصة مجيئه إليه وقبض عليه وسلمه لخصمه بلدوين دى بوج أمير الرها ؛ الذى لم يطلق سراح دغا باسيل إلا بعد أن أجبروه على تسليم مدينتى كيسوم ورعبان سنة ١١١٦ ، فى حين لجأ دغا باسيل نفسه إلى بلاط القسطنطينية^(٢).

ثم إن بلدوين دى بوج لم يكتف بذلك ، وإنما طمع فى ضم بقية الإمارات الأرمينية المستقلة فى أطراف العراق والشام . لذلك خرج بلدوين فى العام التالى ومعه تابعه صاحب سروج لمهاجمة إمارة أخرى للأرمن ، هى البيرة ، وكانت بيد زعيم أرمنى آخر هو أبو الغريب . والمعروف أن البيرة ذات موقع هام على مجرى الفرات فى الطريق بين الرها وعينتاب . وعلى الرغم من أنها دانت بالطاعة لبلدوين الأول سنة ١٠٩٩ ، إلا أنه تركها تتمتع بكيانها كإمارة أرمينية صغيرة^(٣). وقد استطاعت البيرة أن تقاوم حصار بلدوين دى بوج نحو سنة ، حتى سلمت له أخيراً سنة ١١١٧ . وهنا يظهر المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى استياءه ، لأن أمير الرها وجه نشاطه ضد الأرمن المسيحيين بدلا من المسلمين ، واتهم ذلك الأمير بأنه لم يفرق بين السلاجقة المسلمين والأرمن المسيحيين^(٤). أما البيرة فقد ظلت بأيدي الصليبيين حتى سنة ١١٤٥ .

وأخيرا استولى بلدوين دى بوج على قلعة قورس شمالى حلب سنة ١١١٧ وبذلك يكون الأرمن فى أطراف العراق والشام قد لقوا على أيدي الصليبيين ما لم يلقوه على أيدي المسلمين . ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين دى بوج لم يستقر

(1) Runciman : op. cit., II, p. 129 .

(2) Matthieu d'Edesse, pp. 116 - 117 .

(3) Setton : op. cit., I, p. 405

(4) Matthieu d'Edesse, p. 117 .

بعد ذلك في حكم الرها طويلاً ليتابع سياسته ضد الأرمن ، إذ توج ملكاً على بيت المقدس في ١٤ أبريل سنة ١١١٨ بعد وفاة الملك بلدوين الأول ، واتخذ لقب الملك بلدوين الثاني . ولم يجد ملك بيت المقدس بلدوين الثاني أكفاً وأشجع من جوسلين دي كورتناي ليحل محله في حكم الرها ، وينهض بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين . وهكذا عادت المياه إلى مجاريها بين الرجلين ، واتجه جوسلين إلى الرها ليتولى مهام منصبه الجديد ^(١) .

(1) Cam. Med Hist vol 5, p. 301 .

الباب التاسع

الصليبيون فى أوج مجدهم

" فليضعوا قليلا وليبذلوا
مثيرا جزاء بما كانوا
يعملون "

(التوبة : ٨٢)

الفصل الأول

حياة الصليبيين ونظمهم فى الشام

البناء السياسى :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة، وتفصل بينها أراضي ومدن وبلاد إسلامية. ويمكن تشبيه دولة الصليبيين فى أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من أنطاكية غرباً إلى الرها شرقاً، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر، وضلعه الجنوبي من أيلة إلى غزة، وضلعه الغربى من غزة إلى إنطاكية. هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ، إذ امتلك الصليبيون أراضي ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة، وفى الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقاً، مثل حلب وحماه ودمشق^(١).

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والأطماع السياسية للأمرء المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها، الأمر الذى جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين فى الشرق الأدنى. وهكذا قامت إمارة الرها، ثم إمارة أنطاكية، ثم مملكة بيت المقدس وأخيراً إمارة طرابلس^(٢). وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمرء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية. ويكفى أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحى^(٣).

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

(2) Longman : Les Français d'Outremer au Moyen - Age, pp. 108 - 109.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 97 - 99.

والواقع إن الفضل في بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التي قامت في أواخر القرن الحادى عشر، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعموري. وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨) جمع من الصفات السياسية والحربية والخلقية والعقلية، ما جعل منه حاكماً ناجحاً، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التي قامت عليها مملكة الصليبيين في بيت المقدس. وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبي العام بالشام، وهم بلدوين الثاني، وفولك الأنجوي، وبلدوين الثالث، وعموري الأول، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥)^(١). ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعاً هو مقدرتهم على استغلال الظروف، واختيار الرجال، والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب، وبين السنة والشيعة، وبين حكام حلب وحكام دمشق. هذا فضلاً عما لجأ إليه بلدوين الثاني من محالفة الباطنية، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامى بالشام، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين^(٢).

نظم الحكم والإدارة :

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم إلى الشرق.

ففي مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هي بيت المقدس وعكا ونابلس، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك^(٣). وكان يلي الملك أربعة من كبار الأمراء - أشبه بالدوقات في الغرب - هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن - ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته، أشبه بالملك نفسه، ولكن على مقياس أصغر. وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة، وعددهم حوالى اثنتى عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين^(٤). وكان على كل فصل من أولئك الأمراء - الكبار والصغار - أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعي، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين، وفقاً للقواعد

(1) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.

(2) Setton : op. cit., pp. 119 - 120.

(3) Richard : Le Royaume Latin de Jérusalem, pp. 71 - 72.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.

والأصول الإقطاعية. هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة في بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودات في السنة، كما هو الحال في الغرب الأوربي، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في بلاد الشام، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيد الإقطاعي في الحرب^(١).

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض - مدينة وأعمالها أو حصن أو عدة قرى متلاصقة مثلاً - إلا في حالة أراضى الكنيسة التي آلت إليها عن طريق الهبة والإحسان، أو أراضى هيئات الفرسان - وبخاصة الاسبتارية والداوية - التي آلت اليهم عن طريق الفتح والغزو، فكانت متناثرة في مختلف أنحاء الشام.

أما الموارد المالية التي عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم، فضلاً عن الضرائب العديدة التي فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات والحجاج والموانئ والسفن^(٢).

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف. ويبدو مما كتبه اللاحقون أن ملك بيت المقدس - على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس - إلا أنه كان محدود السلطان في عاصمته أمام سطوة الدين ورجال الدين، إذ لا ينبغي لملك أن يرفع رأسه في مدينة المسيح. ولعل هذا هو السبب الذي جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى - واحداً بعد آخر - يرفضون شرف تولي حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩، حتى إذا ما قبل جودفري ذلك المنصب بعد ضغط شديد، إشتراط عدم تنويجه ملكاً، اعتقاداً منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك في مدينة المسيح^(٣).

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعي المعروف في الغرب، إذ بالملكية في بيت المقدس تظل إنتخابية من

(١) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كامل العدة في وقت الحرب، في حين كان على أمير شرقي الأردن تقديم ستين فارساً فقط.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 289.

(3) Cam. Med. Hist. vol, 5. p. 300.

ناحية المبدأ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثي، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكاً سنة ١١٧٤ وهو في الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه^(١). ومهما تعددت سلطات الملك، فإنه كان مقيداً في كثير من المسائل برأي أمراءه فضلاً عن رأي المحكمة العليا، فكان مثلاً لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة.

. وكانت تلك المحكمة العليا في أساسها هيئة قضائية، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد في المملكة، فضلاً عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات، أو ما يرتكبونه من مخالفات وجرائم^(٢). وفوق هذا وذاك، فقد كان لتلك المحكمة رأي مسموع في توجيه السياسة العامة للمملكة، لأن المحكمة العليا تألفت من أقصا الملك المباشرين - وهم كبار الأمراء - فضلاً عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها، وممثلين للجاليات الأجنبية التي امتلكت أراضي ومدن في المملكة - مثل البنادقة والجنوية والبيازنة - وممثلين لهيئات الفرسان، مثل الإسبتارية والداوية. ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأي جميع الفئات السابقة^(٣).

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التي اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة، وفض المنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض، وجدت محاكم أخرى في مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها. من هذه المحاكم مثلاً تلك التي أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois وهي خاصة بالفرنجة من غير النبلاء - أي عامة الفرنجة من الطبقة الوسطى - وتفصل فيما يحدث بينهم من خلافات بسبب المعاملات المالية والمدنية فضلاً عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية^(٤). وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى، وتولى رئاستها فيكونت المدينة يساعده اثنا عشر محلفاً يختارهم الأمير الذي تتبعه المدينة. أما المدن التي كان للتجار الإيطاليين أحياء بها، فقد وجدت بها أنواع أخرى من المحاكم ذات الطابع التجاري : النوع الأول هو محاكم الأموال Cours de la Fonde وقد قامت في المدن ذات النشاط التجاري، والنوع الثاني محاكم الموانئ

(1) Grousset : Hist. des Croisades, II p. 609.

(2) Longman : op. cit., p. 137.

(3) Runciman : op. cit., II, pp. 300 - 301.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 283.

والسفن Cours de la Chaine وقد قامت في الموانئ البحرية، ويتولى رئاستها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم^(١).

هذا عن المحاكم، أما الجهاز الإداري في المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين، أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى وعلى الشئون المالية والخزانة، ويأتي بعده كند أسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رئاسة الملك العليا، ويشرف على كل ما يتعلق بتنظيماته وإمداداته، ويساعده المارشال. وبعد ذلك يأتي الياور Chamberlain ويشرف على القصر الملكي وعلى مالية الملك الخاصة. وهكذا تعدد الموظفون في مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات أو اتساع النشاط الإداري^(٢).

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التي كانت سائدة في إمارة الرها، إلا أنه بدراسة ما وصلنا من نظم إمارتي أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن الإمارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس في نظمها القضائية والإدارية على مقياس أصغر، مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي أحاطت بكل إمارة من ناحية والبنية البشرية التي تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى^(٣). فإمارة الرها مثلاً أدى تطرفها في الشمال الشرقي وإحاطة الأرمن والأتراك بها، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبي العام في بلاد الشام، إلى وقف تطورها الدستوري وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية^(٤). وفي إمارة أنطاكية أيضاً نلمس روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها في كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء في الإمارة، كما نلمس التأثيرات البيزنطية التي تبدو في بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب^(٥).

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا في نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التي أحاطت بهم.

الكنيسة والهيئات الدينية :

وكان من الطبيعي أن يكون للكنيسة أهمية كبرى في مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين، وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية. ومهما تكن الأسباب التي دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية، فالمهم هو أن قيام البابوية فعلاً بتلك

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ - ٧٩.

(2) Runciman : op. cit., II, pp. 303 - 304.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(4) Longnon : op. cit., p. 137.

(5) Runciman : op. cit., II, pp. 306 - 307.

الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام، الكبير منهم والصغير^(١) وإذا كان لملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أو سيد، فإن هذا الرئيس كان البابا في روما. وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس لولا وفاة أدهمار المندوب البابوي في الحملة الصليبية الأولى، ثم سوء سيرة دايمبرت. هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة في الشرق، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب - بوصفه خليفة المسيح في مدينته - بالسيادة على بابا روما، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته. ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت بابوات روما لا يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس، ولا يشجعون بأي حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة^(٢).

ولعل أول ما يسترعى إنتباهنا عن الكنيسة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية هو أنها فازت بنصيب الأسد، بمعنى أنها ربحت كثيراً ولم تقدم سوى القليل. فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس، واستحوذ إخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعاً كبيراً في امتلاك الأراضي والأموال، عدا الهبات والهدايا التي انهالت عليهم^(٣). وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التي دخلت في حوزة الصليبيين بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها. ويكفي أن نعرف أن أحد تلك الأديرة - وهدير جبل صهيون في بيت المقدس - امتلك سنة ١١٧٨ حياً بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة. وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضي وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية، بل إن بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوربا ضياعاً وأملاكاً فصارت له ممتلكات في صقلية وأيطاليا فضلاً عن فرنسا^(٤). وهذا مثل واحد من أمثله كثيرة يضيق المقام عن ذكرها وإنما سقناه لناخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحروب الصليبية. ويبدو أن تلك الثروة

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 295.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 379 - 383.

(3) Longnon : op. cit., p. 133.

(4) Thompson : op. cit., p. 406.

الطائفة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية، أثارت حقد النبلاء في بلاد الشام، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب، كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وععب الدفاع عن الكيان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام.

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد علي أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران، أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية، وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي. أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذي منى به دايمبرت. وعندما يخلو منصب بطرقيّة بيت المقدس، كان رجال البطرقيّة ينتخبون اثنين للمنصب، يختار الملك أحدهما. ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة في صور، وقيسارية، والناصرية، والكرك، وبصري. ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة^(١). أما بطرق أنطاكية، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنطربطوس وجبلة والبارة وطرسوس والمصيصة فضلاً عن الرها^(٢).

وقد شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية، أهم ما يعنينا منها هيئات الفرسان، وبخاصة الاسبتارية والداوية. وسنشير في موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين. ويهمنا في هذا المقام أن نوكد نموها السريع في القرن الثاني عشر وازدياد أملكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ^(٣). والواقع أن منظمتي الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام. فمن الناحية الروحية، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب. ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والزود عنه، وفي محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم، في وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي^(٤). ويشهد تاريخ الحروب الصليبية

(1) Richard : Le Royaume Latin, p. 98.

(2) Runciman : op. cit., II, pp. 311 - 312.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 390 - 392.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, pp. 305 - 306.

بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم عناداً وجرأة وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة (١) .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام في عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ما أسهموا به من جهد حربي ، وإنما قاموا أيضاً بجهد كبير في ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية في بيت المقدس كان يتسع لألف حاج ، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم (٢) ... وكان الاسبتارية والداوية يوزعون صدقات يومية على فقراء الصليبيين والمعوزين منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب . وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا إلى بيت المقدس ، وبذلوا في ذلك جهداً استحق شكر المعاصرين . أما عن نشاطهم المالي والمصرفي فقد بدأ بتقديم تسهيلات إئتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط شكلاً استغلالياً إلا بعد ذلك في أواخر العصر الصليبي ، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين (٣) .

على أن هذه المزايا الضخمة التي حققتها هيئات الفرسان للصليبيين قابلتها مثالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماماً في بلاد الشام عن كل نفوذ سياسي ، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا في روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة خاصة معينة في مشكلة من المشاكل ، أو تعقد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن ترتبط أو تقيد نفسها بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها - مثل الكنيسة - تمتعت بأمولاك واسعة ، فلم تمتلك ضياعاً وأراضى وأسواقاً ومراعى ومواشى فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع وتعهدت بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولاشك في أن هذه الممتلكات جاءت على حساب بقية الفئات الصليبية بالشام (٤) .

الحياة الاقتصادية :

امتازت حياة الصليبيين في بلاد الشام بنشاط اقتصادي واسع ، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا في ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل (٥) . والمعروف أن

(1) Runciman : op. cit., II, p. 312.

(2) King : The Knights Hospitallers, pp. 64 - 67.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٥٠ - ٤٥١ (١٩٦٦) .

(4) Thompson, op. cit., p. 407.

(5) Longnon : op. cit., p. 141.

معظم الأجزاء التي احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة، فقير مجدب، حتى أنهم اضطروا عندما انكشفت رقعة بلادهم في المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام. ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعى طيبة، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التي أحاطت بالمدن. ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا في تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والموالح إلى الغرب. أما قصب السكر فقد عرف الصليبيون زراعته في الشام، كما تعلموا استخراج السكر منه، فأقاموا مصانع للسكر في عكا وصور وغيرها من موانئ الشام، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(١). كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والكتانية والمخمل إلى الغرب. واشتهر اليهود في المدن الصليبية - وبخاصة في صور وأنطاكية - بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا، وإن تعرضوا في هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر.

وكان لملوك الصليبيين وأمرائهم دخل كبير من الرسوم التي فرضوها على تجارة المرور، أي التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربي، عن طريق بغداد ودمشق فعكا وغيرها من الموانئ الصليبية. هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم أو المصدرة منها إلى الغرب. ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجاري تركز في قبضة التجار الإيطاليين وبخاصة البنادقة والبيازنة والجنوية، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها في كثير من المدن الصليبية بالشام، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم زودوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر بأنه يعيش في بلده الأصلي^(٢).

وقد برزت عكا بالذات في النشاط التجاري للصليبيين ببلاد الشام، وهو النشاط الذي بلغ ذروته في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. فابن جبير قال عن عكا عندئذ إنها «قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات في البحر كالأعلام، وشبهها بالقسطنطينة في كونها مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى في جميع الآفاق»^(٣). ذلك أن عكا كانت الميناء الطبيعي لإقليم دمشق، واليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة

(1) Heyd : op. cit., II, pp. 680 - 686.

(2) Richard : op. cit., I, pp. 217 - 227.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٩٣.

العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبیر أنه سافر من دمشق الاسلاميه سنة ١١٨٤ وفي قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة الصليبية، وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة، كما أظهر دهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس^(١) . هذا إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية في الداخل.

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه في كثير من الحالات عن استقبال عدد كثير من السفن الكبيرة، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور، فضلا عن الموانئ الأخرى في شمال الشام، مثل اللاذقية والسويدية^(٢) وهنا نلاحظ أن هذه الموانئ الصليبية لم تستقبل التجار المسيحيين فحسب، بل استقبلت أيضاً في عصر الحروب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر، وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق بقصد المتاجرة^(٣) . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها في الموانئ الصليبية. وأخيراً، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلي :

أولاً : أن السلع التجارية التي كانت محورا للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكماليات مثل الحرير والأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والعطور وغيرها.

ثانياً : أن النقود المتداولة في بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تبايناً شديداً، لا يقل عن تنوع العناصر والأجناس التي اجتمعت في تلك البلاد. فبالإضافة إلى العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوربا، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العصر الصليبي^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 315 - 316.

(٣) رحلة ابن جبیر ص ٢٩١.

وقد أظهر ابن جبیر دهشته من أن التبادل التجاري يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب، وأن القوافل تنتقل بين أراضي الطرفين في سهولة، فقال : "ومن أغرب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسيبهم يدخل إلى بلاد المسلمين". أنظر رحلة ابن جبیر ص ٢٨٨.

(4) Thompson : op. cit., pp. 404 - 405.

ثالثاً : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادي المحيط بهم في بلاد الشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات، وعلى القوافل المارة بأراضيهم، فضلاً عن الاحتكارات التي حاكى فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية^(١) . ولكن أولئك الملوك دأبوا دائماً على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان، فكان ربع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاسبتارية، وربع المكس الفلاني يخصص للداوية، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلاني .. مما حرم الملكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالاً بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربي في ذلك الوقت^(٢) .

الحياة الاجتماعية

اتصف البناء الاجتماعي للصليبيين في الشرق بالخلل وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التي تألف منها المجتمع الصليبي في الشام، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التي أدت الى ما لحق بالصليبيين من فشل في نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا في بلاد الشام، ظلوا دائماً قلة قليلة، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا في الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس، في حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحفظ بنفوذها السياسي في بلاد الشام، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرقي واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة^(٣) .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التي تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتي :

(١) الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان الغربيين، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال . ومثل ذلك العدد أيضاً في إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين .

(1) Longnon : op. cit., p. 140.

(2) Thompson : op. cit., I, p. 406.

(3) Richard : op. cit., p. 122.

وقد ظلت هذه الطبقة - التي كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقري للمجتمع الصليبي بالشام - تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحروب، وقلة الوارد من الغرب^(١). حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولها إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة في الشام بعد الحج، وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوروبا. ثم إنه إذا كان الصليبيون قد أنجبوا كثيراً من الأطفال في الشام، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التي لم يألفوها. وأخيراً فإنه يلاحظ أنه إذا كانت هذه الأرستقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت نقية في مملكة بيت المقدس، فإن الأمر في أنطاكية والرها لم يظل كذلك، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرستقراطية المحلية، وبخاصة من عنصر الأرمن^(٢).

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين، وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء، والذين شاركوا في الحركة الصليبية. وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة في الجيش الصليبي، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين - وبخاصة الأرمن - مما أدى قرب منتصف القرن الثاني عشر إلى ظهور طبقة جديدة هي :

(٣) طبقة الأفراخ (المولدين) Pollani وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين، من أرمن وسريان وغيرهم. ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة، وقامت بدورها في خدمة المجتمع الصليبي بالشام^(٣).

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وروم وسريان ويعاقبه وأقباط وغيرهم. وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموماً، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية. ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو الروم الأرثوذكس كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين، بسبب التخوف دائماً من تأمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد

(١) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها - بلنوين الأول وجوسلين - من أرمنيات.

(2) Longnon : op. cit., pp. 155 - 156.

(3) Thompson : op. cit., pp. 398 - 399.

مصالح الصليبيين. ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم - كما فعلوا مع اليهود - وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحفيرة، التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن الذين اشتهروا بنشاطهم فقد كانوا أحسن حالا، وشجعهم ملوك بيت المقدس علي الهجرة إلى أراضي المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين. كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة في الدويلات الصليبية بالشام، فضلا عما كان هناك من تزواج بينهم وبين الصليبيين الغربيين^(١).

(٥) التجار الإيطاليون : وهؤلاء تركزوا في المدن الصليبية وبخاصة الموانئ الساحلية مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية. وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها يتكلمون الإيطالية، ولا يختلطون بغيرهم إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية. ويشبه التجار الإيطاليين في وضعهم تجار مرسيليا في عكا ويافا وصور وجبيل، وتجار برشلونة في صور^(٢).

(٦) المسلمون : وهم أهل البلاد الأصليون، وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون. ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبي، إلا أنه من الثابت أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبي، تؤثر فيه^(٣). ومن أهم الجاليات الإسلامية التي ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها، الجالية التي سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا، والجالية القائمة في حوض نهر العاصي وسهل البقاع. يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يتنقلون خلف المرعى من مكان إلى آخر، معهم قطعانهم من المواشي، وينتهزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم^(٤).

(٧) الرقيق والأقنان : كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان، بعد أن اعتادوا في الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها في فلاحه الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة. وكانت الغالبية العظمى من المزارعين في

(1) Runciman : op. cit., II, p. 294.

(2) Grousset : L'Empire du Levants, pp. 319 - 320.

(3) Richard : Le Royaume Latin, pp. 123 - 124.

(4) Thompson : op. cit., p. 398.

الشام - علي عصر الحروب الصليبية - من الأفتان. وإذا كانت أوضاع الرقيق والأفتان قد أخذت تتحسن في القرن الثاني عشر في الغرب الأوربي، وصار في استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة في الحياة^(١) فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام. ذلك أن الرقيق والأفتان قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم في بلاد الشام مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامي^(٢). وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن الرقيق والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء، وأن للسيد أن يفعل ما شاء بمن ملك يده^(٣).

هذا عن البناء الاجتماعي لدولة الصليبيين بالشام، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين. وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الطابع، لاتينية الأصل وإن اختلفت لهجاتها، فاستخدم الصليبيون في أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الجنوبية من الفرنسية "Langue d'oc" أما الأقليات الأخرى التي وجدت داخل المجتمع الصليبي، فاستخدم كل منها لغته الخاصة. وقد شهد عصر الحروب الصليبية بالذات انسياب بعض الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية، وهي ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم الاختلاط والجوار مع المسلمين العرب في بيئة واحدة^(٤).

أما العادات والتقاليد، فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين في بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلا بعاداتهم وتقاليدهم الغربية^(٥). ويروى لنا أسامة بن منقذ كثيرا من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم، وفي الوقت نفسه يحكى لنا كثيرا من القصص الطريفة التي تشهد على مدى تأثير الصليبيين بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم المسلمين في كثير من عاداتهم^(٦).

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين في الشام عما كان عليه الوضع السائد في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى. وكل ما هنالك هو أن

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٨٨.

(2) Thompson : op. cit., I, p. 398.

(3) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 226.

(4) Longman : op. cit., pp. 155 - 156.

(5) Runciman : op. cit., II, p. 291.

(٦) أنظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن "طبائع الإفرنج وأخلافهم" (كتاب الاعتبار ص ١٣٢ - ١٤٩).

طبيعة الحرب الطويلة، ووجود عدد كبير من شباب الغرب الأغراب الذين طال بعدهم عن بلادهم، أدى أحياناً إلى شيء من الانحلال الخلقي بين الصليبيين بالشام. وقد ذكر أسامة بن منقذ بضع ملاحظات على الصليبيين في هذا الشأن فقال : أنه ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأته عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ... (١).

كذلك يبدو أن الأوضاع التي عاش فيها الصليبيون في الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي (٢). الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوروبا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجند المحاربين. ومن ذلك ما يرويهِ عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م أن « وصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر (جزر البحر) ، وانتدبن للجزائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بحر وجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء. وأنهن لا يمتنعن عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قرية ما فوقها قرية، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة .. (٣).

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ١٨٤

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩.

الفصل الثانى

بلدوين الثانى ملك بيت المقدس

مشكلة الوراثة فى مملكة بيت المقدس :

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ولداً يرثه فى الملك، ولم يعمل حساباً للموت فيوصى فى حياته بتعيين شخص معين يتولى عرش المملكة من بعده، ليتفادى ما حدث فى أنطاكية بعد وفاة تنكرد. لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطرق أرنولف مالكورن فى اليوم التالى لوفاته لبحث مشكلة ملء العرش^(١).

وفى المؤتمر الذى عقده الصليبيون لبحث مشكلة عرش بيت المقدس، إتجه الرأى أولاً نحو استدعاء الأخ الثالث لجودفرى بوايون وبلدوين بوايون، وهو الأمير ايستاش البولونى^(٢). ولكن البعض اعترض على ذلك الرأى، ونادى المعترضون بأن أحوال المملكة تتطلب عدم إنتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا، فضلاً عن أن المصلحة العامة قضت بأن يكون خليفة بلدوين الأول من الأمراء الذين عاشوا فى الوسط الصليبي بالشرق وأحسوا بإحساسات الصليبيين وخبروا حرب المسلمين. وهنا إنبرى جوسلين دى كورتناى ينادى بأن هذه الشروط كلها متوافرة فى الأمير بلدوين دى بوج أمير الرها، فضلاً عن أنه ابن عم الملك الراحل، والوحيد الذى مازال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا فى توجيه الحملة الصليبية الأولى^(٣).

وكان من المستغرب حقاً أن يأتى ذلك الترشيح من جوسلين دى كورتناى بالذات وهو الذى طرده بلدوين دى بوج من تل باشر. ولعل جوسلين رأى فى ذلك فرصة طيبة لاسترضاء بلدوين دى بوج وإزالة ما فى نفسه من رواسب الماضى^(٤). ثم إن جوسلين دى كورتناى، كان عندئذ أبرز أمراء مملكة بيت المقدس بوصفه أمير الجليل وطبرية، فوجد رأيه أذناً صاغية من بقية زعماء

(1) Guillaume de Tyr, pp. 513 - 516.

(2) Ibid.

(3) Runciman : op. cit., II, pp. 143 - 144.

(4) Michaud : Hist. des Croisades II, pp. 56 - 57.

الصليبيين، وبخاصة البطريرك أرنولف. وشاءت الصدفة العجيبة أن يكون بلدوين دى بورج فى تلك الأثناء فى طريقه إلى بيت المقدس للزيارة والحج، فتم تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كنيسة القيامة يوم ١٤ أبريل سنة ١١١٨^(١).

ولم يعيش أرنولف مالكورن بطريرك بيت المقدس طويلاً بعد تتويج بلدوين الثانى ملكاً، فحل محله البطريرك جرموند Germond. أما جوسلين دى كورتناى فقد كافأه بلدوين الثانى على موقفه ووفائه بإعطائه إمارة الرها، على أن يكون تابعاً له فى حكم تلك الإمارة^(٢).

وكان أن أخذ بلدوين الثانى يعمل بسرعة فى تثبيت سلطانه، لا داخل مملكة بيت المقدس فحسب، بل فى مختلف الإمارات الصليبية ببلاد الشام وشمال العراق. وقد أتت أول عقبة واجهت الملك الجديد من جانب بونز أمير طرابلس، الذى رفض سنة ١١٢٢ أن يقدم الولاء ويعترف بالتبعية الإقطاعية لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس. ولكن بلدوين الثانى اتخذ موقفاً حازماً سريعاً، لاسيما وأن أرائقة حلب غزوا إمارة أنطاكية - التى كانت عندئذ تحت وصاية بلدوين الثانى - فى الوقت نفسه الذى أعلن بونز عصيانه^(٣). وهكذا تمكن بلدوين الثانى من إخضاع أمير طرابلس فى سرعة ليتفرغ للأرائقة ويردهم عن إمارة أنطاكية، كما سيلي.

ثم إن بلدوين الثانى حرص فى تلك الأثناء على إنعاش الأحوال الاقتصادية فى مملكته، فأصدر قراراً سنة ١١٢٠ بإعطاء جميع الغربيين - من التجار والحجاج والزوار - الحرية فى نقل البضائع من المملكة وإليها، كما سمح لجميع المسيحيين الشرقيين - من السريان والأرثوذكس والأرمن - بدخول بيت المقدس والمتاجرة فيها^(٤).

الفرسان الاسبتارية والداوية :

وفى عهد بلدوين الثانى بدأ نشاط هيئات الفرسان يسترعى الانتباه فى الحروب الصليبية، بعد أن تكونت هيئة الفرسان الداوية، فى حين تحولت الاسبتارية من هيئة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية.

والواقع إن الهدف الأساسى من قيام هيئات الفرسان - وبخاصة الاسبتارية والداوية - بالشام على عصر الحروب الصليبية، إنما كان العناية بمرضى

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 519.

(2) Stevenson : op. cit., p. 106.

(3) Foucher de Chartres, pp. 515 - 516.

(4) Guillaume de Tyr, I, pp. 534 - 535.

الصلبيين ورعايتهم. ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحول بعد قليل فاتخذت تلك الهيئات طابعاً حربياً وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام، وتحمي أماكنهم المقدسة، وتحارب المسلمين، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاستبارية هم حماة الكيان الصليبي بالشام^(١). وساعد تلك الهيئات على ذلك ما جمعه من ثروة طائلة، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة، حتى صارت لهم مدن وحصون ومعقل بأكملها، يمتلكونها ويزودون عنها.

وثمة رأى يقول إن جذور هيئة الاستبارية ترجع إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية في هيئة بيمارستان أو مستشفى قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس، للعناية بفقراء الحجاج، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التي حرفت بالعربية إلى استبارية^(٢). ولم يلبث أولئك الاستبارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديري البندكتي المعروف في غرب أوربا، وصاروا يتبعون البابا في روما تبعية مباشرة. وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارهم لها، قام أولئك الاستبارية - بحكم درايتهم بأحوال البلاد - بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين^(٣). ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاستبارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها. وقد تعاقب في رئاسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائماً على إكساب منظماتهم أهمية خاصة في النشاط الصليبي^(٤). وساعد الاستبارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضي والإعانات، فضلاً عن أن كثيراً من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاستبارية على النهوض برسالتهم. وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧ إلا وكان للاستبارية دور فعال في محاربة المسلمين^(٥).

أما هيئة الداوية فقد نشأت منذ أول أمرها على أساس عسكري حربي. ويرجع تأسيس تلك الهيئة إلى سنة ١١١٨ عندما وضع أساسها فارس فرنسي اسمه هوجودي باينز Hugue de Payens. وقد أختار ذلك الفارس جزءاً من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظمته الجديدة، ومن ثم أطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد Templars، وهم الذين عرفوا باسم

(1) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 1.

(2) Delaville Le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Saint et en Chypre, p. 29.

(3) Guillaume de Tyr, pp. 822 - 823.

(4) King : op. cit., pp. 19 - 23.

(5) Runciman : op. cit., II, p. 157.

الداوية^(١). ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت هى الأخرى، واتخذت طابعها الخاص، فذهب رئيسها هوجو إلى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان والنبلاء على مساعدة رهبانها الذين جمعوا فى الأراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية. وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به حماية طريق الحجاج بين بيت المقدس وشاطئ البحر، ثم لم يلبثوا أن أسهموا فى كل عمل حربى آخر قام به الصليبيون فى بلاد الشام^(٢).

ولاشك فى أن تأسيس هيئة الداوية من جهة، وتحول الاسبتارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخرى، قد هيا لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها فى تحقيق كثير من أغراضها. وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثانى ومساعدته، مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية، ولا تدين لغيرها بالولاء^(٣). على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدورها كاملاً فى أول الأمر، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعنها. هذا إلى أنها أصبحت كنيسة داخل الكنيسة، ولم يحجم رؤساؤها عن الدخول فى منازعات مع بطرق القسطنطينية نفسه^(٤).

التحالف بين دمشق والقاهرة :

وكان أخطر ما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها هو نشأة تحالف بين القاهرة ودمشق، مما يوقع تلك المملكة بين شقى الرحي. لذلك حرص بلدوين الثانى على أن يستقرضى طغتكين فى دمشق، وأرسل إليه عقب توليه عرش بيت المقدس يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين. ولكن طغتكين طلب ثمناً باهظاً لم يوافق عليه بلدوين الثانى «وأظهر القوة». وكان أن رد طغتكين على ذلك بمهاجمة الصليبيين فى الجليل وطبرية فنهبها وما حولها، ثم اتجه إلى عسقلان^(٥).

وفى ذلك الوقت كان الوزير الأفضل الفاطمى قد قام بمحاولة جديدة ضد الصليبيين، فحشد جيوشه فى عسقلان، وأرسل أسطوله إلى صور. وقد تمت تلك

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 542.

وقد اختلفت الآراء فى أصل هذه التسمية العربية، وقال بعضهم إنها مشتقة من داود الذى أقام أولئك الفرسان فى بيت أو معبد منسوب إليه.

(2) Guillaume de Tyr, pp. 520 - 521.

(3) King : op. cit., pp. 31 - 32.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 544 - 545.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

المحاولة التي قام بها الأفضل الفاطمي لضرب الصليبيين بعقد اتفاق مع طغتكين الذي حضر بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة، وعندئذ أخبره المقدم على الجيش الفاطمي أن لديه تعليمات «بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به». وهكذا تمت المعجزة، فتحالف الدماشقة السنيون مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين، مما أُنذر بتهديد مملكة بيت المقدس تهديداً خطيراً^(١).

ولم يسع الملك بلدوين الثاني في ذلك الموقف الحرج سوى الاستنجاد بالصليبيين في أنطاكية وطرابلس، ثم رابط الملك نفسه شمالي عسقلان حيث تجمد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، عاد بعدها كل فريق من حيث أتى^(٢). واختار بلدوين الثاني ألا يترك الأزمة تمر دون أن يثار من طغتكين، فأغار على أذرع، واستولى على بعض المواقع شمالي عال وشرقي طبرية، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك^(٣).

وفي الوقت نفسه قام جوسلين دي كورتناي - الذي لم يكن في قد سافر بعد إلى الرها - بالإغارة سنة ١١١٩ على قبائل العرب في منطقة طبرية، مثل بني خالد وبني ربيعة (فكبس طائفة من طى يعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذ غنائمهم، وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فأخبروه أنهم بوادي السلالة بين دمشق وطبرية). وقد أسرع جوسلين علي رأس خمسين فقط من فرسانه للحاق بذلك النفر من العريان في وادي السلالة لنهب قطعانهم. ولكن جوسلين ضل الطريق فسار علي طريق آخر، وعندئذ أحاط بهم العرب وطعنوا خيولهم «فجعلوا أكثرهم رجالة، فقتل من الصليبيين سبعون عدا الأسري. أما جوسلين فاتجه إلى طرابلس حيث جمع بعض قوات أغاربها على عسقلان، ولكن المسلمين هزموه «فعاد مغلولاً»^(٤).

موقعة البلاط سنة ١١١٩ مقتل روجر الانطاكي :

رأينا كيف اختلت أحوال إمارة حلب بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ إذ حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة، حتى قتل في سبتمبر سنة ١١١٤ وعندئذ تولى بدر الدين لؤلؤ اليايا الوصاية علي الإمارة (١١١٤ - ١١١٧)، وبعده تولى يارقتاش، ثم ابن الملحي. ولم تكد تحل سنة ١١١٨ حتى كانت حلب قد صارت

(1) Setton : op. cit., pp. 411 - 412.

(2) Foucher de Chartres, pp. 617 - 619 & Guillaume de Tyr, pp. 518 - 519.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٢ هـ.

(٤) المصدر السابق، حوادث سنة ٥١٣ هـ.

تحت رحمة النورمان في أنطاكية، الأمر الذي جعل الحلبيين يتجهون نحو إيلغازي الأرتقي طالبين حمايتهم من روجر الأنطاكي.

ولم يلبث أن استولى روجر على بزاع سنة ١١١٩^(١). وبذلك صارت حلب محاصرة من نواح ثلاث، وهو أمر لم يحتمله الحلبيون أو إيلغازي نفسه. لذلك حشد إيلغازي جيوشه من التركمان في أبريل سنة ١١١٩، وانضم إليه بعض الأمراء - مثل أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن، وغيرهما. كذلك يرجح أن إيلغازي طلب المعونة من السلطان محمود السلجوقي - الذي خلف أباه محمد عند وفاته سنة ١١١٨ - ولكنه لم يلق رداً، في حين رضى طغتكين صاحب دمشق أن يذهب بنفسه لمساعدته، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ - أمير شيزر - استعداداه لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب^(٢).

وقد اختار إيلغازي أن يتجه علي رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولاً - فهاجم تل باشر والرها، ثم عبر الفرات عند بالس واتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التي لم تفتأ تستغيث به. وكانت قوة الجيش الإسلامي عندئذ تبلغ أربعين ألفاً، ومع ذلك استخف روجر الأنطاكي بأمر المسلمين، لولا أن حثه برنارد بطرق أنطاكية علي طلب النجدة العاجلة من بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس. وقد أرسل ملك بيت المقدس من طبرية يفيد روجر أنه سيحضر علي وجه السرعة ومعه أمير طرابلس. وفعلًا خرج الملك بلدوين الثاني علي رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصليبوت قاصداً الشمال^(٣).

علي أن روجر الأنطاكي لم ينتظر وصول الملك بلدوين الثاني إليه، وإنما تعجل الخروج - في ٢٠ يونية - لصد المسلمين ومعه قوة بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة، واستمر في سيره حتى وصل إلى جسر الحديد علي نهر العاصي، قرب أرتاح^(٤). وكان أن علم إيلغازي - عن طريق عيونه بضعف قوة روجر، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول النجدة إليه. وفعلًا تقدم إيلغازي من قنسرين صوب الجيوش الصليبية في أواخر يونيه، حيث دارت موقعة البلاط في سهل قريب من أرتاح في ٢٨ يونية، وهي الموقعة التي انتهت

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٢ هـ.

(٣) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(4) Gautier Le Changelier, II, pp. 100 - 101.

بتدمير الجيش الصليبي أولاً عن آخره ، وأخذهم بالسيف من سائر نواحيهم ، في حين خر روجر الأنطاكي نفسه (سرجال) صريعاً في المعركة ^(١) . وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذي دارت فيه المعركة اسم ساحة الدم ، Ager Sanguinis .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعاً. ذلك أن الموقعة في حقيقة أمرها قررت مصير حلب، فأما أن تبقى في قبضة المسلمين وإما أن يبتلعها الصليبيون. لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة، فنظم شعراؤهم القصائد في مدح إيلغازي، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي الخلع وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج ^(٢) والواقع أن إيلغازي كان يستطيع بعد ذلك النصر المبين أن يجنى ثماراً كثيرة لاسيما وأن الطريق إلي أنطاكية صار مفتوحاً أمامه . ولو أسرع إيلغازي إلي أنطاكية عندئذ لما امتنعت عليه ، علي قول ابن العديم ^(٣) .

أما بالنسبة للصليبيين، فإن الكارثة التي حلت بهم كانت فادحة. ويكفي أن إمارة أنطاكية - وهي الباب الشمالي للاملاك الصليبية ببلاد الشام - صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش، في الوقت الذي أخذ المسيحيون المحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين ^(٤) ويرجع الفضل إلي بطرق أنطاكية عندئذ - هو برنارد دي فالنس - في رعاية شئون المدينة وحراسة تحصيناتها، حتى حضر الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ^(٥) . وكان أن وجد الملك إمارة أنطاكية، في حال يرثي له، بعد أن اجتاحت الأتراك أراضيها ودمروا ضواحيها. ولم يكد الملك بلدوين الثاني يتسلم الوصاية على إمارة أنطاكية لحين وصول بوهيموند الثاني بن بوهيموند الكبير مؤسس الإمارة من الغرب - حتى أخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعادة الثقة إلى الأهالي وإعداد العدة لصد المسلمين ^(٦) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٨٨ & Guillaume de Tyr, pp. 525 - 526

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ.

ومما قاله الشعراء المعاصرون في مدح إيلغازي في تلك المناسبة قول العظيمي :

قل ما تشاء فقولك المقبول عليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته ويكى لفقد رجاله الانجيل

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩١.

(4) Stevenson : op. cit., p. 104.

(5) Gautier Le Changelier, p. 115.

(٦) يذكر ابن العديم عن الإجراءات السريعة التي اتخذها الملك بلدوين الثاني عندئذ في أنطاكية أنه قبض على أموال القتلى وبورهم وأخذها، وزوج نساء القتلى بمن بقي، وأثبت الخيل، وجمع وحشد واستولى على أنطاكية ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩١.

وكان إيلغازي الأرتقي قد ازداد قوة بعد أن انضم إليه طغتكين أتابك دمشق، فاتجه الإثنان لمحاصرة الأثارب حتى سقطت في أيديهما (أغسطس سنة ١١١٩)، ثم اتجها بعد ذلك إلى زردنا التي استسلمت أيضاً بعد مقاومة عنيفة. وفي ١٤ أغسطس سنة ١١١٩ دارت المعركة عند دانيث بين المسلمين والملك بلدوين الثاني وانتهت المعركة بهزيمة إيلغازي وطغتكين، وإن كان انتصار الصليبيين غير حاسم^(١). وبعد ذلك عاد إيلغازي وطغتكين إلى حلب ومعهما عدد كبير من الأسرى، وهناك أشاعا أنهما انتصرا على الأعداء كما انتقما بقتل من بقى من أسرى المعركة السابقة الذين كانوا بحلب^(٢).

وقبل أن يستأنف بلدوين الثاني محاربة الأتراك، نزل على قلعة زور غربي البارة، ثم إسترده كفر طاب وسرمين ومعة مصرين من المسلمين. وكان المسلمون قد انتهزوا فرصة الكارثة التي حلت بروجر الأنطاكي واستولوا عليها^(٣). وبعد ذلك عاد بسرعة إلى إنطاكية لينظم أمورها ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس^(٤).

على أن الأراتقة لم يخلدوا لهزيمتهم السابقة، وإنما أخذ إيلغازي يحدد هجماته على الصليبيين منذ أواخر مايو سنة ١١٢٠، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم (كيسون) حيث قتل كثيراً من الأعداء وخرب ضياعهم وقراهم، رغم المقاومة الشديدة التي أبداهها جوسلين دي كورتناي^(٥). ثم غادر إيلغازي إقليم سميساط وتل باشر ليستولي على عزاز من إمارة الرها. وعند اقتراب إيلغازي من أنطاكية هرب كثير من أهلها، وأرسلوا إلى الملك بلدوين الثاني يطلبون النجدة السريعة، فخفف الملك لنجدتهم ومعه صليب الصليبوت في يونية سنة ١١٢٠. وبعد أن انضم إليه جوسلين دي كورتناي، خرج الملك على رأس القوات الصليبية إلى دانيث لملاقاة الأتراك^(٦).

وفي تلك المرة أيضاً حضر طغتكين من دمشق لمساعدة إيلغازي، ولكن اشتباكاً بين الطرفين لم يحدث، إذ انتقل بلدوين الثاني إلى الشمال لإسترداء الأجزاء التي استولى عليها إيلغازي في العام السابق حول زردنا والأثارب، ف

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩ - ١٢٠.

4) Setton : op. cit., I, p. 414.

5) Matthieu d'Edesse, p. 127 & ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥.

6) Foucher de Chartres, pp. 445 - 446.

حين تحرك إيلغازي وطغتكين صوب حلب^(١). وكان أن انتهى الموقف بين بلدوين الثاني وإيلغازي بعقد هدنة اعترف فيها إيلغازي بحق إمارة أنطاكية في الاحتفاظ بممتلكاتها شرقي نهر العاصي، وهي من الجنوب إلى الشمال كفر طاب ومعرة النعمان والبارة وغيرها^(٢). وبذلك يكون بلدوين الثاني قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين بدون حرب، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى بيت المقدس.

على أن العداء لم ينقطع بين الأراتقة والصليبيين رغم الهدنة السابقة، إذ دأب حاكم منبج الأرتقي علي الإغارة على أراضي الرها، مما جعل جوسلين دي كورتناي يرد عليه بالإغارة على أراضي منبج وإقليم صفين على الضفة الغربية للفرات^(٣). بل إنه أوغل في مايو سنة ١١٢١ حتى خرب بزاعه وهاجم الأثارب إلى الجنوب الشرقي من حلب، وأحدث مذبحة ضخمة في أهلها من المسلمين، وعندئذ عهد إيلغازي إلى ابنه سليمان حاكم حلب بعقد الصلح مع الصليبيين والتنازل لهم عن بعض المناطق القريبة من حلب^(٤).

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الاشتباكات بين طغتكين وأتابك دمشق وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس في صيف سنة ١١٢١ في منطقة الجليل والجولان وجبل عجلون^(٥). أما الأمير إيلغازي فقد أحاطت به المتاعب عندما أعلن ابنه سليمان عصيانه وخروجه عن طاعة أبيه، ثم عقد صلحاً مع الصليبيين أعطاهم بمقتضاه زردنا والأثارب، وهي الثمار التي حصل عليها إيلغازي من انتصاراته الأخيرة^(٦) وقد أفزعت تلك الأخبار إيلغازي، فأراد أن يعاقب ابنه ويسترد زردنا والأثارب، وفعلًا شرع في مهاجمة زردنا، مما تطلب عودة الملك بلدوين الثاني إلى شمال الشام في صيف سنة ١١١٢.

على أنه لم يحدث صدام مسلح عندئذ بين إيلغازي وبلدوين الثاني، فعاد الأخير إلى بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٢٣ بعد أن خلص زردنا من الحصار

(١) ابن العديم : زبدة الطلب ج٢ ص ١٩٥ - ١٩٦ & Foucher de Chartres p. 446

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٤) ابن العديم : زبدة الطلب ج٢ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(5) Guillaume de Tyr, p. 434 & Foucher de Chartres p. 446.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٥ هـ.

ابن العديم : زبدة طلب ج٢ ص ١٩٩ .

المشرق الاذني في النصف الاول من القرن الثاني عشر



دون إراقة دماء^(١). أما في الجزيرة فقد ظلت كفة الصليبيين راجحة في تلك الفترة، حتى وقع جوسلين دي كورتناي أمير الرها في قبضة بلك غازي بن بهرام الأرتقي صاحب خرتبرت في ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢، مما أساء فجأة إلى موقف الصليبيين^(٢). وإذا كان بلدوين الثاني قد قام بالوصاية على أنطاكية بعد مقتل أميرها منذ ثلاث سنوات، فإن ملك بيت المقدس لم يجد بدا من القيام بالوصاية أيضا علي الرها عند أسر جوسلين سنة ١١٢٢.

أما إمارة الأراتقة فقد تمزقت بعد وفاة عاھلھا إيلغازي في أوائل نوفمبر سنة ١١٢٢، فأخذ ابنه شمس الدولة سليمان ميافارقين - أي الجزء الشمالي من ديار بكر، وأخذ ابنه الثاني تمر تاش ماردين والجزء الجنوبي من ديار بكر. أما بلك بن بهرام الأرتقي - وهو ابن أخ إيلغازي - فقد احتفظ بمنطقة خرتبرت في الشمال وأضاف إليها حران في الجنوب، في حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو ابن أخ آخر للأمير إيلغازي^(٣).

وقد حاول الملك بلدوين الثاني أن يستفيد من تفكك دولة الأراتقة، فخف إلى شمال الشام حيث غزا إقليم بزاعة إلى الشمال الشرقي من حلب، وهاجم بالس إلى الجنوب الشرقي من حلب على الفرات، واستولى على البيرة شرقي حلب، وبذلك أصبحت حلب شبه محاصرة تماما بممتلكات الصليبيين وقواتهم^(٤). ولما وجد بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب أن الصليبيين قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق... ولم يكن له بالفرنجة قوة وخافهم؛

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٩.

ويلاحظ أنه على الرغم من تفوق إيلغازي في حروبه ضد الصليبيين ، إلا أنه كان لا يصبر طويلا على حروبهم، وإنما يتعجل في الصلح والعودة. ويعال ابن الأثير ذلك بأن جيوش إيلغازي كانت مؤلفة من التركمان المرتزقة الذين يبغون الغنيمة السريعة فيحضر أحدهم ومعه جراب دقيق، وشاه ، وبعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود، فإذا طال مقامهم تفرقوا، ولم يكن له (إيلغازي) من الأموال ما يفرقها فيهم.
(الكامل : حوادث ٥١٤).

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٠٦ & Matthieu d'Edesse, p. 131
ويروي ابن الأثير أن المسلمين عندما أسروا جوسلين وضعوه في جلد جمل وخط عليه وطلب منه أن يسلم الرها فرفض وعرض الأموال الطائلة لقتل نفسه. ولكن المسلمين رفضوا إطلاق سراحه وحملوه إلى قلعة خرتبرت ومعه ابن خالته (كليام) وجماعة من فرسانه المشهورين.
(الكامل ، حوادث سنة ٥١٥) وكليام هذا هو Galeran وقد كتبه ابن العديم (قلران).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب: ج ٢ ص ٢٠٩ ويك بفتح الباء وسكون اللام.
(4) Setton : op. cit., I, 418.

فكر في مهادنتهم، وطلب الصلح من بلدوين الثاني في أبريل سنة ١١٢٣ مقابل رد الآثار - إلي الجنوب الغربي من حلب - إلى إمارة أنطاكية، واستمرت المواجهة علي هذا واستقامت أحوال الأعمال من الجانبين^(١). وبذلك يكون بلدوين الثاني ملك بيت المقدس قد نجح في أقل من أربع سنوات في إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة ١١١٨.

وقوع بلدوين الثاني في الأسر :

ثم كان أن قام بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بمحاولة لفك أسر جوسلين دي كورتناي الذي كان لا يزال حبيس بلك الأرتقي في خربتبرت^(٢). ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك بلدوين الثاني نفسه أسيراً في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ أثناء قيامه بتلك العملية، إذ انقض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجة، فكسره وقتل معظم عسكره، وساقه أسيراً إلى قلعة خربتبرت ليأتمن به جوسلين في وحدته^(٣). ومن الواضح أن أسر الملك بلدوين الثاني جاء صدمة كبرى للصليبيين بالشام، وإن كانت الأمور في مملكته استمرت علي وضعها الطبيعي بعد أن اختير إيستاش جرنيه Eustache Garnier - صاحب قيسارية وصيدا - للوصاية على مملكة بيت المقدس، والبطرق برنارد دي فالنس للوصاية على أنطاكية. وعند وفاة إيستاش في يونية ١١٢٣، حل محله في الوصاية وليم دي بور^(٤).

أما بلك فيكفيه فخراً عندئذ أنه كان يمسك في إحدى قبضتيه ملك بيت المقدس وفي الأخرى أمير الرها، الأمر الذي جعله يشعر بالزهو والذي دفعه إلى التفكير في توحيد ملك الأرائقة من جديد. وكان أن استولى بلك علي حران ثم أسرع إلى مهاجمة حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان، ونجح في تحقيق ذلك في ٢٦ يونيو سنة ١١٢٣^(٥). ومن ذلك المركز الجديد أخذ بلك يهاجم أنطاكية،

(١) ابن القلانسي : ذيل التاريخ دمشق ص ٢٠٩، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٧ هـ.

ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١٠.

(٢) يذكر ابن الأثير أن الغرض من خروج الملك بلدوين لم يكن إطلاق سراح جوسلين من الأسر، وإنما الحد من نفوذ بلك بن بهرام بن ارتق الذي حاصر قلعة كركر قرب خربتبرت، فأسرع إليه بلدوين "خوفاً أن يقوى بملكها".

الكامل، حوادث سنة ٥١٧ هـ & Matthieu d'Édesse, p. 133

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١١.

(4) Matthieu d'Edesse, p. 133 & Foucher de Chartres, p. 450.

(٥) يذكر ابن الأثير أن سبب شروع بلك بن بهرام في الاستيلاء على حلب هو استيائه من صاحبها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، لأنه سلم قلعة الآثارب إلى الفرنج "فعمم ذلك عليه، وعلم عجزه عن حفظ بلاد فقوى طمعه في ملكها".

(الكامل، حوادث سنة ٥١٧ هـ).

فاستولى على البارة غربي معرة النعمان، ثم اتجه لحصار كفر طاب عندما سمع في ٧ أغسطس أن بلدوين الثاني وجوسلين دي كورتناي قد استوليا على حصن خرتبرت بمساعدة المسيحيين في تل باشر^(١).

ذلك أن جوسلين بالذات كان محبوباً من الأرمن، لا لزواجه من أميرة أرمنية فحسب، وإنما لأنه أحسن إليهم وأكرم معاملتهم ولم يفعل بهم مثلما فعل سفله بلدوين الثاني من اضطهاد وتنكيل. وكانت خرتبرت نفسها تقع في منطقة أرمنية، مما جعل الأرمن يدبرون مؤامرة للاستيلاء على الحصن وإطلاق سراحه^(٢). وفي الوقت الذي أخذت الخطة تسير بنجاح إذا بالأمير بلك يعود إلى خرتبرت فجأة، ولكن بعد أن كان جوسلين قد استطاع الفرار، وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثاني الذي وقع في أسر غريمه من جديد (سبتمبر سنة ١١٢٣)^(٣).

وكان المفروض أن يعمل جوسلين علي جمع الجيوش لإطلاق سراح بلدوين، لاسيما وأن بقية الأسرى في خرتبرت كانوا قد حلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان، إلى أن يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم. ولكن بلك احتاط للأمر، فنقل الملك بلدوين وبقية الأسرى من خرتبرت إلى قلعة حران ليكونوا بعيداً عن منال الصليبيين^(٤).

أما جوسلين كورتناي، فإن أسره ثم فراره، جعله يتطرف في الانتقام من المسلمين، فخرج من تل باشر على رأس رجاله صوب حلب، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم، حتى قبورهم لم تسلم من عبثه^(٥). وهكذا استمر جوسلين دي كورتناي يحمل عبء محاربة المسلمين في شمال الشام بوجه عام وإقليم حلب بوجه خاص، طوال المدة التي قضاها بلدوين الثاني في الأسر. وقد اضطر بلك إلى العودة إلى حلب في أوائل سنة ١١٢٤، حيث عقد تحالفاً مع طغتكين أتابك دمشق.

ثم كان أن شغل بلك بعد ذلك بأمر منبج، فقبض على صاحبها حسان البعلبكي وحصرها، وعندئذ سار الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها؛

(١) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١٢.

(2) Runciman : op. cit., II, pp. 163 - 164.

(3) Foucher de Chartres, p. 457.

(٤) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١٢.

(٥) يروي ابن العديم أن جوسلين نبش الضريح الذي بمشهد الدكة فلم يجد فيه شيئاً فالتقى فيه النار، (زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١٤).

ولكن تلك تغلب على الفرنج وطردتهم. ثم عاد إلى منبج ليستأنف الحصار، وعندئذ أصابه سهم طائش قتله فجأة في ٦ مايو سنة ١١٤٢، وكان أن خلفه في حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرناش بن إيلغازي بن أرتق. ويصف ابن الأثير الأمير تمرناش هذا بأنه كان رجلاً يحب الدعة والرفاهية، فأثر أن يترك حلب ويقيم في ماردين لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج^(١).

الفاطميون ومملكة بيت المقدس :

اختار الفاطميون أن ينتهزوا فرصة أسر الملك بلدوين الثاني لمعاودة الهجوم على الصليبيين، وذلك بتحريض من طغتكين وأقسنقر البرسقي. وكان أن حشد الفاطميون في مايو سنة ١١٢٣ حملة كبيرة في عسقلان اتجهت لحصار يافا، في الوقت الذي خرج الأسطول الفاطمي لمهاجمتها من ناحية البحر^(٢). وكانت الحامية الصليبية في يافا صغيرة، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم في الدفاع عنها. وفي الوقت الذي أوشكت يافا على الاستسلام، إذا بنجدة صليبية تأتي لإنقاذها، مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى يبنا، على الطريق بين يافا وعسقلان^(٣). وفي المعركة التي دارت في ٢٩ مايو سنة ١١٢٣ عند يبنا بين الفاطميين والصليبيين هزم الفاطميون وولوا الأدبار، واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم^(٤).

وفي تلك الأثناء ساء موقف مدينة صور بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين بين حين وآخر، في الوقت الذي كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن إرسال قوة برية كبيرة تحميها من الأخطار. وقد سبق أن ذكرنا كيف اتجه أهالي صور نحو طغتكين أتابك دمشق، الذي أرسل إليهم سنة ١١١٢ أحد رجاله - واسمه سيف الدولة مسعود - ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وقدر كاف من المال والعتاد والميرة^(٥). ولم يكن معنى ذلك خروج صور من قبضة الفاطميين، إذ ظل الدعاء

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

أما ابن العديم فقد وصف حسام الدين تمرناش بن إيلغازي بأنه "لما ملك حلب ألهاه الصبي واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال، وضعف أمر المسلمين بذلك زبدة حلب، ج ٢ ص ٢٢٠

(2) Setton : op. cit., I, p. 421.

(3) Foucher de Chartres, pp. 450 - 451.

(4) Stevenson : op. cit., p. 114.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٢١

Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 599 &

للخليفة الفاطمي في المساجد، كما استمرت السكة تضرب باسمه في صور، وكل ما هنالك هو أن الوزير الأفضل قبل مساعدة طغتكين على ذلك الوجه لإنقاذها من السقوط في يد الصليبيين^(١).

ويبدو أن موافقة الوزير الأفضل الفاطمي على السماح لقوة من قبل طغتكين وهو الأتابك السنّي - باحتلال صور، أثار غلاة الشيعة في مصر، مما أدى إلى مقتل الأفضل في أحد شوارع القاهرة في ٢١ ديسمبر سنة ١١٢١ بيد بعض الباطنية. ويقال إن الباطنية كانوا يكرهون الأفضل لأسباب منها تضيقه علي إمامهم، وإن كان يغلب علي الظن أن الخليفة الفاطمي الأمر كانت له يد في مقتل الأفضل للتخلص من سطوته من ناحية، وطمعاً في ثروته من ناحية أخرى^(٢).

ويذكر ابن القلانسي أن أهل صور شكوا عندئذ للخليفة الأمر الفاطمي من سوء سيرة مسعود، وما يعتمد مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للعادة، ولذلك أرسل الخليفة الفاطمي الأمر أسطولا إلى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقي مسعود، فقبض عليه وأحضره إلى القاهرة حيث أكرم وأنزل في دار وأطلع له ما يحتاج إليه^(٣). وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن الفاطميين في ذلك التصرف، لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة. أما الصليبيون فقد ارتاحوا لخروج مسعود وشدّدوا هجماتهم علي صور، فأرسل واليها إلى مصر يخبر الخليفة الفاطمي أنه لا قبل له بالدفاع عن صور لقلة النجدة والميرة، فرد عليه الخليفة الأمر قائلاً: قد ردّنا أمرها إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها فكان هذا الرد اعترافاً من الدولة الفاطمية بعجزها عن حماية صور وتنازلها عن تلك المهمة لطغتكين^(٤).

(١) "وأجروا على الرسم في إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر، ولم يغير لهم رسم" (ابن القلانسي : ص ١٨٢).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٥ هـ.

ويروي ابن الأثير أنه "لما توفي الأفضل نقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً والكتاب بين يديه والذباب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً...".

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢. ويبدو أن شكوى أهل صور من مسعود كانت إما لأسباب مذهبية وإما لتضييقه عليهم لمتطلبات الدفاع والحرب وفيما عدا ذلك فإن مسعود كان شهماً، شجاعاً، عارفاً بالحرب ومكايدها" (ابن الأثير - الكامل - سنة ٥١٨ هـ).

(٤) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣.

ومهما يكن من أمر، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السييء الذي أمست فيه صور من ناحية، والشقاق بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها. وفي الوقت الذي أخذ طغتكين يعزز حامية صور ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية^(١)، بدأ الصليبيون - بمساعدة الأسطول البندقي - يوجهون جهودهم ضد تلك المدينة بالذات.

البنادقة في الشرق : سقوط صور

وكان ذلك عقب موقعة البلاط التي قتل فيها روجر الأنطاكي سنة ١١١٩ عندما أرسل الملك بلدوين الثاني إلى البندقية طالبا المعونة ضد المسلمين، أو على وجه التحديد ضد الفاطميين، الذين كانوا يسيطرون على شواطئ الشام. وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس، وحث البندقية على المساهمة في مساعدة الصليبيين، مما جعل دوج البندقية يعد حملة كبيرة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جنديا للرحيل إلى الشام. هذا وإن كان الاعداد النهائي لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات، أي في صيف سنة ١١٢٢^(٢).

ولكن سوء حظ الصليبيين شاء أن تشتعل نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ، مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين، فهاجموا جزيرة كورفو وقضوا في حصارها ستة أشهر، في الوقت الذي أخذ الصليبيون في السام ينتظرون وصول النجدة الموعودة^(٣). وأخيراً وقع الملك بلدوين الثاني في الأسر - في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ - فأرسل الصليبيون إشارة عاجلة إلى البنادقة يخبرونهم بالكارثة التي حلت بهم، ويرجون سرعة المعونة. وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو سنة ١١٢٣ وأقلعت عمارتهم إلى عكا لتقديم المساعدة إلى الصليبيين، في وقت كان هؤلاء أحوج ما يكونون إلى المساعدة بعد مقتل أمير أنطاكية، وأسر أمير الرها وملك بيت المقدس. وكان أول ما فعله البنادقة وهم في طريقهم إلى الشام إرسال جزء من أسطولهم إلى عسقلان حيث استطاعوا تدمير الأسطول الفاطمي هناك، وبعد ذلك أغار البنادقة على

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ.

(2) Heyd : op. cit., I, pp. 142 - 143.

(3) Brehier : op. cit., p. 322.

الشاطيء الجنوبي لفلسطين حتي العريش (مايو ١١٢٣)، وفي طريق عودتهم إلى عكا أسروا أسطولا تجاريا إسلاميا من عشرين سفن محملة بالبضائع^(١).

ولاشك في أن تدمير الأسطول الفاطمي في فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانئ الفاطمية القليلة التي مازالت باقية للمسلمين علي الشاطيء، وأهمها صور وعسقلان. وهنا انقسم الصليبيون في الرأي حول النقطة التي يبدأون منها : صور أم عسقلان، إذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور، في حين رأى أمراء بيت المقدس البدء بعسقلان، حتى انتصر الرأي الأول نظراً لأهمية صور الحربية والتجارية^(٢). وقبل أن يبدأ البنادقة في مهاجمة صور كان عليهم أن يعرفوا ثمن المساعدة التي يقدمونها للصليبيين، فعقدوا اتفاقية مع وليم دي بورز Guillaume de Bures الوصي على مملكة بيت المقدس في أوائل سنة ١١٢٤، حققت لهم أكبر قدر من الإمتيازات مقابل المساعدة الحربية التي سيقدمونها لمملكة بيت المقدس^(٣). من ذلك حق البنادقة في الحصول على أحياء كاملة في كافة مدن مملكة بيت المقدس - وبخاصة عكا - يقيمون فيها مؤسساتهم المتباينة اللازمة لإقامتهم ومباشرة نشاطهم التجاري، كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ... بحيث تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس تماماً^(٤). كذلك اشترط البنادقة حقهم في استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء في المعاملات فيما بينهم وبين بعض أو فيما بينهم وبين بقية رعايا مملكة بيت المقدس. هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجمركية وغير الجمركية بحيث يكون التجار البنادقة بعكا أحراراً تماماً في كافة شئون الاستيراد والتصدير. فإذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة منهما مع تمتعهم في ذلك الحي بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة^(٥).

هذا إلى البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الأخرى في غرب أوربا، فاشترطوا ألا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على بقية الجاليات والهيئات إلا بعد موافقة البندقية نفسها. ومع أن بطرق بيت المقدس - جرموند - أقسم للبنادقة على أن ملك بيت المقدس سيوافق على جميع هذه الشروط عند إطلاق سراحه، إلا أن بلدوين الثاني

(1) Foucher de Chartres, pp. 452 - 453.

(2) Guillaume de Tyr, pp. 559 - 579.

(3) Michaud : op. cit., II, p. 63.

(4) Ibid.

(5) Heyd : op. cit., I, pp. 143 - 144.

لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير الذي يجعل المملكة وتجارها حكرًا للبنادقة^(١).

ولم يكد يتم عقد الاتفاقية السابقة بين البنادقة ومملكة بيت المقدس، حتى تعاونت جميع القوى الصليبية، على حصار صور في منتصف فبراير سنة ١١٢٤. وكان حكم صور - كما سبق أن أشرنا - قد انتقل أخيراً إلى طغتكين أتابك دمشق، فأمد طغتكين المدينة « بعسكر وسير إليهم ميرة ومالا فرقه فيهم وطابت نفوس أهل البلد^(٢) ». ولا ننسى بالإضافة إلى ذلك أن صور مدينة محصنة طبيعياً حتى وصفها ابن جبير في عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة^(٣) ». ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكف لمقاومة الهجوم العنيف الذي شنه الصليبيون على المدينة من ناحيتي البر والبحر. وقد هبت القوى الإسلامية المجاورة للدفاع عن صور، أو لمحاولة الضغط على الصليبيين لإجبارهم على التخلي عنها^(٤). ومن ذلك ما قامت به حامية عسقلان الفاطمية أثناء حصار صور - من محاولة الزحف على بيت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة في تلك الفترة. كذلك خرج طغتكين أتابك دمشق على رأس جيوشه إلى بانياس للذب عن صور، فعهد الصليبيون إلى بونز أمير طرابلس بالتصدي له^(٥).

ولكن جهود القوى الإسلامية المجاورة لم تغلح في إنقاذ صور، في الوقت الذي قتل بلك الأرتقي صاحب حلب وديار بكر في مايو سنة ١١٢٤، عندما كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور^(٦) وعندما أدرك طغتكين تعذر الاحتفاظ بصور، راسل الفرنج بالملاطفة والمداينة والإرهاب والإرغاب، إلى أن تقررت الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية، بما يقدرون عليه من أموالهم ويريد من أراد الإقامة^(٧).

(1) Foucher de Chartres, p. 460.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(٣) رحلة ابن حبير ص ٢٩٤.

(٤) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢١٩.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ & Foucher de Chartres, p. 460

(٦) ابن العديم : زبدة الطلب، ج ٢ ص ٢١٩.

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١.

وهكذا اضطرت صور إلى الاستسلام في أوائل يوليو سنة ١١٢٤ بعد أن أشرف أهلها علي الهلاك، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذي منحوه لأهلها^(١).

ومن الواضح أن سقوط صور في أيدي الصليبيين جاء حدثاً له أهميته في تاريخ الجروب الصليبية. ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن ضياع صور سبب وهنا عظيماً علي المسلمين. وفي الوقت نفسه أدى استيلاء الصليبيين علي صور إلى تدعيم مركزهم لأنها من أحسن البلاد وأمنعها^(٢)، مما أدى إلي دعم مركز الصليبيين بالشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذي الأهمية الفائقة في حالتى الهجوم الدفاع جميعاً^(٣). لذلك اهتم الصليبيون بتحسين صور وأعدوها ، مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم ، علي قول ابن جبير^(٤).

أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم في المدن الداخلية، عدا مدينة القدس ذاتها، في حين اهتموا بتركيز نشاطهم في المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا بعد ذلك^(٥).

أما الملك بلدوين الثاني فقد ظل أسيراً في قبضة تلك الذي نقله من قلعة حران إلى قلعة حلب^(٦)، حتى إذا ما توفي تلك وآلت حلب إلى تمرتاش بن ايلغازي، وافق الأخير - بفضل وساطة أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ - على إطلاق سراح الملك بلدوين مقابل مائة ألف بيزانت - أى قرابة ثمانين ألف دينار - يدفع منها عشرين ألف دينا مقدما^(٧). هذا علاوة عما تعهد به الملك بلدوين - بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية - من إعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب، إلى إمارة حلب، كذلك تعهد الملك الصليبي بمساعدة

(١) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

أبو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

ويصف أبو المحاسن عملية انسحاب المسلمين من صور فيقول : "جاء الأتابك بعسكره فوقفت بازاء الفرنج، وركبت الفرنج ووقفوا بازائه وصاروا صفين. وخرج أهل البلد يمرون بين الصفين ولم يعرض لهم أحد". (النجوم الزاهرة) ج ١ ص ١٨٣.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٥١٨ هـ.

(3) Grousset : Hist des Croisades I, p. 618.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٩٤.

(5) Heyd : Hist de Commerce I, pp. 148 - 151.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ٢١٧.

(٧) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠.

تمرتاش في إخضاع دبيس بن صدقة، وهو أمير عربي شيعي نزح إلى الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد العباسي من حكم الحلة بالعراق^(١).

وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثاني في أواخر يونيه سنة ١١٢٤، أي في الوقت الذي كان وليم دي بورز الوصي علي مملكة بيت المقدس يغزو صور بمساعدة البنادقة. وكان من الطبيعي أن يتجه ملك بيت المقدس أولاً صوب أنطاكية حيث أنكر عليه برنارد دي فالنس رد المدن والقلاع السابقة للمسلمين، لأن ملك بيت المقدس بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية كان ينبغي أن يراعي الأمانة وألا يفرط في أملاك أنطاكية وأراضيها، أو يدفع جزءاً من أملاك غيره ثمناً لحريته^(٢). ولذلك أرسل الملك بلدوين الثاني رسالة إلى صاحب حلب - أورد نصها ابن العديم - يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين، ويعلمه أن بطرق أنطاكية معترض على ذلك الشرط^(٣).

ولكن المفاوضات طالت بين الطرفين دون الوصول إلى نتيجة، في الوقت الذي كان بلدوين الثاني يشفق على مصير الرهائن التي قدمها لأمير حلب ضماناً لتنفيذ شروط الاتفاقية السابقة. ومن هذه الرهائن ابنة الملك بلدوين نفسه وهي طفلة في الخامسة من عمرها، وجوسلين الثاني ابن جوسيلن دي كورتنای أمير الرها، ومعهما عشرة من زهرة شباب الصليبيين^(٤). وأخيراً لم يجد الملك بلدوين الثاني بداً من الاصطدام بصاحب حلب، فحالف خصمه العربي الشيعي دبيس بن صدقه. ويروى ابن الأثير أن دبيس بن صدقة أطمع الصليبيين في الاستيلاء على حلب وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلي، لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إلي^(٥). وفي الوقت نفسه وجد الصليبيون في دبيس خير قوة تمكنهم من الوقوف في وجه صاحب حلب وإجباره علي إطلاق سراح من لديه من رهائن، فبذلوا له المال ووعدوه باعطائه ملك حلب^(٦).

(١) ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ٢٢١.

(2) Matthihu d'Edesse, pp. 312 - 313 & Michel Le Syrien, pp. 212 - 225.

(٣) "البطريق الذي لا يمكن خلفه سألني عما بذلت وما الذي استقر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها، أبي وأمرني بالدفع عنها وقال أن خطيئتكم تلزمني، ولا أقدر على خلفه؟".

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٢.

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ١٠٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٣.

وهكذا لعب الصليبيون دورهم بمهارة في تفرقة صفوف المسلمين، وضرب العرب بالأتراك، والشيعية بالسنة، لإضعافهم جميعاً. وفي أكتوبر سنة ١١٢٤ اشترك بلدوين الثاني وجوسلين دي كورتناي مع ديبس بن صدقة في مهاجمة حلب وأعمالها^(١). وقد حرص بلدوين الثاني في تلك الحرب علي أن يؤلف جبهة إسلامية - تحت قيادته - ضد تمرناش صاحب حلب التركي، فاشترك معه بنو مزيد، وسلطان شاه ابن الملك رضوان السلجوقي الذي عزله الأراتقة من ملكة في حلب^(٢).

ولم يكن تمرناش في حلب عندئذ، وإنما كان في ماردين مترقباً وفاة أخيه سليمان حاكم ماردين ليرثه في ملكه، في حين ترك حلب لنوابه وأعيان المدينة يقارمون الحصار. وعندما رأى أهل حلب عجز صاحبهم تمرناش أرسلوا إلى آقسنقر البرسقي أتابك الموصل يستنجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد إليه^(٣). ويبدو أن آقسنقر - الذي عينه السلطان محمود أتابكا على الموصل وعهد إليه بجهاد الصليبيين - وجد فرصة طيبة في تلك الاستغاثة لتحقيق رغبة السلطان الجديد في استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين. لذلك أسرع آقسنقر البرسقي إلى تأليف حلف، فانضم إليه في الرحبة طغتكين أتابك دمشق، وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص، واتجهوا جميعاً صوب حلب، فوصلوها في أواخر يناير سنة ١١٢٥^(٤).

وكان ظهور تلك القوة الجديدة أمام حلب كافياً لإحباط مشروع بلدوين الثاني الخاص بالاستيلاء علي تلك المدينة، فانفض عنه حلفاؤه، وانسحب ديبس بن صدقة شرقاً، في حين عاد الملك نفسه إلى بيت المقدس في أوائل أبريل سنة ١١٢٥ بعد غيبة قاربت العامين^(٥). أما آقسنقر البرسقي، فقد خرج إليه أهل حلب

(1) Setton : op. cit., I, pp. 423 - 424.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٤.

ويروي ابن العديم أن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساوئ كثيرة فنبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توايبتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فريطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون. هذا نبيكم محمد وآخر يقول : هذا عليكم. وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم ... وثقبه الفرنجي بيده ...

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ - ٢١٢، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٨.

(5) Guillaume de Tyr, I, p. 557.

ولقوه وفرحوا به، فأقام عندهم بعض الوقت لإصلاح أحوال المدينة، ثم قفل راجعاً إلى الموصل بعد أن ترك في حلب من يرعى شئونها، وبذلك جمع آقسنقر البرسقى بين ملكي الموصل وحلب، مما جعله خطراً كبيراً على الصليبيين في شمال العراق والشام^(١).

على أن الملك بلدوين الثاني كان لا يستطيع البقاء طويلاً في بيت المقدس، في الوقت الذي كان مسئولاً - بحكم وصيائه على أنطاكية - عن حمايتها من ضغط القوي الإسلامية المحيطة بها من ناحيتي الشمال والشمال الشرقي. هذا فضلاً عن ازدياد نفوذ آقسنقر البرسقى - الذي جمع بين السيطرة على حلب والموصل، وتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقي، واعترف له بالسيادة والزعامة كل من طغتكين أتابك دمشق وخيرخان بن قراجا صاحب حمص - مما جعل منه خطراً كبيراً على الصليبيين في شمال العراق والشام. وزاد من ذلك الخطر أن البرسقى واصل نشاطه في بلاد الشام، فزار شيزر في شهر مارس، حيث رحب به أميرها سلطان بن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين، وعلي رأسهم ابنة الملك بلدوين الثاني وجوسلين الصغير ولي عهد الرها^(٢). وهكذا بدا البرسقى في صورة زعيم القوى الإسلامية في بلاد الشام مما مكنه من مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب واستولي عليها في أوائل مايو سنة ١١٢٥ قبل وصول بلدوين الثاني. وبعد ذلك شرع في حصار زردنا^(٣).

وعندما استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثاني، أسرع إليها، وممر في طريقة بطرابلس حيث استصحب معه بونز أميرها ثم انضم إليهما جوسلين دي كورتناي أمير الرها. وفي تلك الأثناء كان البرسقى وطغتكين وخيرخان وبقية حلفائهم قد تركوا حصار زردنا واتجهوا إلى حصار عزاز - شمالي حلب على الطريق بين أنطاكية والرها^(٤). وعند عزاز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثاني والمسلمين بقيادة البرسقى (أواخر مايو وأوائل يونيو سنة ١١٢٥)، فانتصر الجانب الأول انتصاراً كاملاً، وكسر البرسقى كسرة عظيمة واستشهد جماعة من المسلمين من السوق العامة^(٥). وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 173.

(٣) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ٢٣١ & 471 Foucher de Chartres.

(4) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٥) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ٢٣١.

قتلى المسلمين بألفين، وقدرهم ابن الأثير بأكثر من ألف^(١). أما بقية الجيش الأسلامي فقد ولى الأدبار، تاركين خلفهم عددا كبيرا من الأسرى وقذرا هائلا من الغنائم. وبعد ذلك دارت بين الفريقين مفاوضات قصيرة انتهت بتسليم ابنة بلدوين الثاني الصغيرة وابن الأمير جوسلين دي كورتناي، وغيرهما من الرهائن التي كانت في حوزة سلطان بن منقذ أمير شيزر^(٢). ثم عاد بلدوين الثاني إلى بيت المقدس بعد أن عقد هدنة مع البرسقى احتفظ فيها المسلمون بكفر طاب، في حين رجع البرسقى إلى الموصل بعد أن ترك حامية في حلب^(٣).

على أن الملك بلدوين الثاني لم يهدأ عن حرب المسلمين، واختار تلك المرة أن يهاجم طغتكين، فقام بحملة على إمارة دمشق سنة ١١٢٦. وقد استهدفت خطة بلدوين مهاجمة مدينة دمشق نفسها، فاتجه إلى حوران ومنها إلى وادي النقرة فوادي مرج الصفر فوادي العجم، حتى وصل في منتصف يناير سنة ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من إقليم شرخوب. وعند تل شقحب - إلى الجنوب الغربي من دمشق - دارت المعركة بين طغتكين وبلدوين الثاني في ٢٥ يناير سنة ١١٢٦، وفيها هزم طغتكين وقتل عدد كبير من رجاله^(٤). وعندما انصرف الصليبيون لمطاردة المسلمين، انقض التركمان على المعسكر الصليبي، وقد خلا من المدافعين عنه، فنهبوا خيامهم وأموالهم وجميع ما معهم^(٥). أما بلدوين الثاني فقد طارد الدماشقة، ثم عاد إلى بيت المقدس حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته في حصار رمنية^(٦).

ذلك أنه حدث في مارس سنة ١١٢٦ أن هاجم بونز أمير طرابلس قلعة رمنية التي كانت - مثل حمص - تابعة لأتابك دمشق، وتتمتع بموقع هام بحكم إشرافها على أطراف وادي نهر العاصي فيما بين حماة وحمص. ولم يرض الصليبيون عن انتزاع المسلمين رمنية منهم سنة ١١٢٥، لذلك شيد الأمير بونز صاحب طرابلس فوق مرتفع علي مقربة منها قلعة بعرين، لشن إغارات دائمة على رمنية^(٧). وعندما هدد بونز رمنية سنة ١١٢٦ وساعده بلدوين الثاني

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٩ هـ.

(2) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist. or p. 566)

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة دارت عند قرية شقحبا.

(6) Stevenson : op. cit., p. 118.

(7) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 641.

«وضيقوا عليها، لجأ حاكم رمنية - شمس الخواص - إلى الاستنجاد بطغتكين أتابك دمشق، والبرسقي أتابك حلب والموصل. على أن رمنية لم تستطع المقاومة حتى تأتيها النجدة، فاستسلمت بعد حصار ثمانية عشر يوماً، واستولى عليها أمير طرابلس..، ليشن منها غارات مستمرة على منطقة حمص. هذا إلى أن استيلاء الصليبيين على رمنية أمن الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية، كما أمن إمارة طرابلس ذاتها (١)».

وفي ذلك الوقت خرج البرسقي من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج، فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها، واتجه هو نفسه إلى إمارة أنطاكية حيث حاصر الأتارب واستولى على بعض أطرافها، مما جعل الملك بلدوين الثاني يسرع إليه لصدّه (٢). ويبدو أن موقف ملك بيت المقدس عندئذ كان حرجاً إلى حد كبير، لأنه في الوقت الذي تعرضت إمارة أنطاكية لهجوم البرسقي، قام أسطول فاطمي بمهاجمة موانئ فلسطين الصليبية. على أن خطر البرسقي كان أوضح وأشدّ قرباً، ولذلك اتجه بلدوين لإبعاده أولاً، واشترك معه جوسلين دي كورتناي أمير الرها. ويروي ابن العديم أن الملك بلدوين الثاني بعث إلى البرسقي يعرض عليه الصلح، ويقول له «إرحل عن هذا الموضع ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ونعيد رمنية عليك» (٣). فوجد البرسقي أن هذا العرض مرضي، لاسيما وأنه كان يخشى أن يحل بالمسلمين مثلما حدث لهم عند عزاز، فانسحب وعدل عن حصار الأتارب. ولم تلبث أن تجددت الهدنة بين الطرفين، وعاد البرسقي من حيث أتى بعد أن قام ببعض غارات محلية في مناطق سرمين ودانيث، ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ حيث قتل في اليوم نفسه بيد أحد الباطنية (٤).

أما الأسطول الفاطمي الذي خرج من الاسكندرية ودمياط فقد اتجه إلى العريش فغزة وعسقلان، وأخذ يتسكع بعضاً من الوقت أمام موانئ يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا وبيروت، عله يجد فرصة لمباغثة الصليبيين،

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦، ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٢٢
Foucher de Chartres, p. 480 &

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٢٢.

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٢٢.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤.

وأخيرا عادت السفن الفاطمية إلى مصر بعد اشتباك قصير مع الصليبيين في مياه بيروت^(١).

بوهيموند الثاني أمير أنطاكية :

لم يهمل تنكرد أو روجر الأنطاكي أو الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس حق بوهيموند الصغير - أو الثاني - ابن بوهيموند الكبير في إمارة أنطاكية. وكل ما هناك هو أن بوهيموند الثاني كان صغيرا وقت وفاة أبيه، فظل في كنف أمه في إيطاليا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره، وعندئذ خرج من أوترانتو على رأس أسطول من أربع وعشرين مركبا مليئا بالمقاتلين والخيول والزاد، واتجه إلى الشام لمباشرة حقه الشرعي في حكم أنطاكية، فوصل ميناء السويدية في أوائل أكتوبر سنة ١١٢٦^(٢). وكان أن استقبله الملك بلدوين الثاني في أنطاكية استقبالا حارا ليسلمه إمارته، ثم ليعرض عليه الزواج من ابنته الثانية إليس، الأمر الذي تم فعلا في سبتمبر سنة ١١٢٧ والذي ترتبت عليه تقوية الرابطة بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية في عهدها الجديد^(٣).

وسرعان ما أثبت بوهيموند الثاني أنه لا يقل تحمسا للهدف الصليبي وبلاء في محاربة المسلمين عن أبيه، حتى لقد وصف أسامة بن منقذ مجيئه إلى الشرق بأنه بلية عظيمة على المسلمين^(٤). ولم يلبث أن استرد بوهيموند الثاني كفر طاب التي سبق أن انتزعها آقسنقر أتابك الموصل وحلب سنة ١١٢٥ من إمارة أنطاكية. كذلك قام بوهيموند الثاني بعدة هجمات سنة ١١٢٩ على المسلمين، فاستولى منهم على حصن القدموس^(٥).

وفي ذلك الوقت ساءت أحوال حلب بعد مقتل البرسقي في نوفمبر سنة ١١٢٦. ويبدو أن حالة الفوضى التي غرقت فيها حلب في تلك الفترة، أغرت جميع جيرانها الأبعدين والأقربين - من المسلمين والصليبيين سواء - على اهتبال تلك الفرصة للاستيلاء على المدينة. ومن ذلك أن جوسلين دي كورتناي أمير

(1) Guillaume de Tyr, pp. 587 - 588.

(2) Foucher de Chartres, pp. 481 - 843.

(3) Foucher de Chartres, p. 485.

(٤) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ص ١٢١ ، ويطلق أسامة على بوهيموند الثاني اسم "ابن ميمون، وعلى أبيه بوهيموند الأول اسم "ميمون".

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.

الرها أسرع إلى حلب سنة ١١٢٧، في الوقت الذي خف إليها أيضا بوهيموند الثاني أمير أنطاكية، مما أثار نوعاً من التنافس الشديد، بل العداء المكشوف بين الأميرين الصليبيين بسبب رغبة كل منهما في الانفراد بالقنيصة وحده (١).

والواقع أنه ربما كانت هناك عوامل أخرى مستترة سببت النفور بين الأميرين. ذلك أنه يبدو أن جوسلين دي كورتناي كان يأمل أن يفوز في يوم ما بعرش مملكة بيت المقدس بحكم قرابته من بلدوين الثاني من ناحية، وبحكم السوابق التي جعلت كلا من بلدوين الأول وبلدوين الثاني يرتقى من أمير على الرها إلى ملك على بيت المقدس من ناحية أخرى. ولكن زواج بوهيموند الثاني من ابنة الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، جعلت من بوهيموند منافساً خطيراً لجوسلين في مطامعه في عرش بيت المقدس، وهذا هو بعض السر في النفور بين الرجلين. ومهما يكن من أمر، فقد أسرع بلدوين الثاني إلى أنطاكية ونجح بمهارته في تسوية النزاع بين بوهيموند الثاني وجوسلين قبل أن يتفاقم.

على أن الخطر الذي هدد بوهيموند الثاني وأودى بحياته جاء من ناحية الشمال، أي من ناحية دانشمند التركمان. ذلك أن الأمير الأرمني ثوروس الأول (١١٠٠ - ١١٢٩) استطاع أن يؤسس إمارة قوية في قيليقية، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زارب (عين زربة). ولكن وفاة ثوروس سنة ١١٢٩، ثم وفاة ابنه قسطنطين مسموماً بعد قليل، جعل تلك الإمارة الأرمنية تعاني كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية (٢). وقد جاء الخطر الكبير الذي واجهته تلك الإمارة من جانب الأمير إيلغازي بن الدانشمند - صاحب ملطية - من ناحية الشمال، والأمير بوهيموند الثاني - صاحب أنطاكية - من ناحية الجنوب. ولم يلبث أن تقابل هذان الخصمان - الأتراك والنورمان - في سهل عين زربة، حيث دارت في فبراير سنة ١١٣٠ معركة انتصر فيها الأتراك وقتل بوهيموند الثاني نفسه لعدم معرفة شخصيته. ويقال إن الأمير إيلغازي عندما عرف رأس بوهيموند أرسلها إلى الخليفة العباسي في بغداد، ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح (فبراير سنة ١١٣٠) (٣).

ولاشك في أن مقتل بوهيموند الثاني وهو في شرب شبابيه، ولم يمض على قيامه في حكم أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور، جاء كارثة كبيرة

(1) Grousset : Hist des Croisades I, p. 651.

(2) Lorga : l'Arménie Cilicienne, pp. 92 - 93.

(3) Michel Le Syrien, p. 227.

للمصليبيين، لأنه كان يبشر بأمل عظيم ومستقبل زاهر في مجال النشاط الصليبي. وهكذا عادت أنطاكية مرة أخرى تحت وصاية الملك بلدوين الثاني. وكان بوهيموند الثاني قد أنجب من زوجته إليس - ابنة الملك بلدوين الثاني - طفلة صغيرة هي الأميرة كونستانس. وهذه الأميرة الصغيرة صارت الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية، وذلك وفقاً للقانون الإقطاعي الغربي. لذلك حزنت إليس في قرارة نفسها، وكان يهمها أن ترث الإمارة بعد زوجها لتذوق طعم السلطان^(١).

ولم تحجم إليس في سبيل تحقيق أطماعها عن التآمر مع المسلمين ضد المصالح الصليبية، فأرسلت فرساً مطهماً مع رسول يحمل رسالة سرية إلى زنكي - أتابك حلب - تطلب بمساعدته، مقابل تعهدا بالتبعية له^(٢). وقد شاء حسن حظ الصليبيين ألا تصل هذه الرسالة وإنما وقعت في يد الصليبيين وعلم بها الملك بلدوين الثاني الذي استشاط غضباً من حماقة ابنته، واتجه فوراً صوب أنطاكية ليحقق بنفسه في الأمور. وهنا تمادت إليس في طيشها فأعلنت الثورة على أبيها، وأغلقت في وجهه أبواب أنطاكية^(٣). ولم يكن معقولا أن يوافق أعيان أنطاكية وأمراؤها على تلك التصرفات من جانب إليس، فثاروا ضدها وفتحوا للملك ومن معه - مثل جوسلين دي كورتناى وفولك الأنجوى - أبواب المدينة. وكان أن وضع بلدوين الثاني أنطاكية تحت وصايته إلى أن تكبر الأميرة كونستانس، في حين أقطع ابنته إليس اللاذقية وجبله لتعيش في تلك الجهات الساحلية بعيدا عن أنطاكية وعن الاتراك في حلب^(٤).

(1) Setton : op. cit., I, p. 431.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 183.

(3) Stevenson : op. cit., p. 129.

(4) Cuillaume de Tyr, pp. 599 - 601. ابن العديم : بدء الحلب ج ٢ ص ٢٤٧

الفصل الثالث

فولك الأنجوى ملك بيت المقدس

نهاية بلدوين الثانى :

كان على بلدوين الثانى أن يفكر فى مصير عرش مملكة بيت المقدس من بعده، حيث أنه لم يرزق من زوجته الأرمينية مورفا سوى أربع بنات، زوج إحداهن - إليس - للأمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية سنة ١١٢٦، كما مر بنا. ويبدو أن بلدوين الثانى لم يفكر إطلاقاً فى أن يجعل من بوهيموند الثانى وريثاً له فى مملكة بيت المقدس. وإنما اختار أن يبعث سفارة من رجاله إلى فرنسا سنة ١١٢٨ لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة الأمير فولك الخامس الأنجوى، وهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ. وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع سنة ١١٢٩، وبعد قليل تزوج من ميلزاند ابنة الملك بلدوين الثانى الكبرى، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا. وهكذا أصبح فولك الأنجوى - بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى - هو ملك بيت المقدس المقبل (١).

ثم إن بلدوين الثانى أراد أن يدرب خليفته فولك على محاربة المسلمين فصاحبه عقب زواجه من ابنته سنة ١١٢٩ فى حملة لمهاجمة دمشق، التى كان حاكمها طغتكين قد توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ تاركا المدينة فى حالة شديدة من الفوضى، بسبب ازدياد نفوذ الباطنية الذين قويت شوكتهم وتضاعفت مضرتهم (٢). وأخيراً توفى بلدوين الثانى فى ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ بعد أن حكم ثلاثة عشر عاماً، تاركا خلفه فولك الأنجوى ليخلفه فى حكم بيت المقدس. وقد احتفل بتتويجه ملكاً بكنيسة القيامة فى ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١ (٣).

أحوال الامارات الصليبية عند قيام فولك فى الحكم :

ولم يكد الملك فولك يتولى حكم مملكة بيت المقدس، حتى توفى جوسلين دى كورتناى أمير الرها، تاركا فراغاً كبيراً فى المجال الصليبي فى شمال العراق

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 594.

(2) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠ - ١٢١، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٣ هـ.

(3) Guillaume de Tyr pp. 601 - 602.

والشام. وقد ظل جوسلين يحارب المسلمين - رغم تقدم سنه - حتى آخر لحظة. من ذلك ما يرويّه ابن العديم من أنه اشتبك سنة ١١٣١ - وهي السنة نفسها التي توفي فيها - في حرب ضد الحلبيين شمالي مدينة حلب وقتل من المسلمين جماعة^(١).

وكان جوسلين أثناء تلك العملية الحربية الأخيرة يفحص لغماً بثه الصليبيون تحت جدار أحد الحصون في تلك المنطقة، فانهار الحائط عليه وأخرجه أصحابه بصعوبة وقد تهشمت عظامه، فنقل إلى تل باشر في حالة سيئة حيث بانّت وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى^(٢).

وبينما جوسلين دي كورتناي يعاني آلام الموت البطيء، جاءت الأخبار بأن مسعود الأول سلطان قونية (١١١٦ - ١١٥٥) أخذ يحاصر قلعة كيسوم في الشمال الغربي من إمارة الرها، جنوبي بهسني. وكانت كيسوم هذه تتمتع بأهمية خاصة عند الصليبيين، لا لموقعها الحربي الهام فحسب، بل أيضاً بسبب أهميتها الدينية، بعد أن انتقل إليها كرسي بطريرك اليعاقة بأنطاكية^(٣). لذلك خرج جوسلين دي كورتناي - وهو على شفا الموت - لقتال الأتراك، فحملوه إلى كيسوم. ولكنه وجد أن السلاجقة تركوا حصار القلعة وانصرفوا. ولم يلبث أن توفي جوسلين دي كورتناي بعد ذلك في أواخر سنة ١١٣١^(٤).

وكان أن خلف جوسلين دي كورتناي - في إمارة الرها - ابنه جوسلين الثاني، الذي كان جباناً لا يمتلك شيئاً من عزيمة أبيه وحماسه وشجاعته. وسنرى أنه عندما رأى الرها معرضة لتهديد المسلمين المستمر، أثر أن يتركها ويقيم في تل باشر لينعم بقسط من الهدوء، مما ترتب عليه ضياع الرها من قبضة الصليبيين. وهكذا مرت إمارة الرها بفترة عصيبة دون رجل قوى يذود عنها في الوقت الذي جمع عماد الدين زنكي بين حكم الموصل وحلب، فاشتد أزر المسلمين «بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن في حساب. وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع»^(٥).

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢، ص ٢٤٧.

(2) Michel Le Syrien, p. 232.

(3) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 7.

(4) Guillaume de Tyr, p. 610.

(٥) بشير ابن الأثير في هذا النص إلى بداية انحلال أمر الصليبيين من ناحية ومولد الوحدة الإسلامية على يد زنكي من ناحية أخرى (الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ).

هذا عن الرها، أما أنطاكية فكانت أحوالها لا تقل خطورة في الوقت الذى اعتلى فولك عرش بيت المقدس. ذلك أن إمارة أنطاكية ظلت بلا رائد عقب مقتل بوهيموند الثانى فى فبراير سنة ١١٣٠ لأن ابنته الوحيدة ووريثته - كونستانس - كانت طفلة صغيرة. ولم تتوقف أم هذه الطفلة - الأميرة إليس - عن تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم فى أنطاكية، بعد أن توفى والدها بلدوين الثانى الذى أحبط مؤامرتها الأولى^(١). وفى تلك المرة لم تحاول إليس الإلتجاء إلى عماد الدين زنكي، وإنما استطاعت أن تكتسب بمهارتها وكياستها وهداياها ثلاثة من أمراء الصليبيين، هم وليم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية، وجوسلين الثانى أمير الرها، وبونز أمير طرابلس. وبمساعدة هؤلاء الثلاثة دبرت إليس مؤامرة سنة ١١٣٢ للعودة إلى أنطاكية والقبض على زمام الأمور فيها. على أن فرسان أنطاكية أحسوا بالمؤامرة، وأدركوا أنه إذا نجحت إليس فى تحقيق أهدافها، فإن ذلك يعنى القضاء المبرم على الإمارة، فأرسلوا إلى فولك ملك بيت المقدس يستنجدون به^(٢).

وعندما أسرع الملك فولك لإحباط المؤامرة، لم يسمح له بونز أمير طرابلس بالمرور فى أراضيه، ولكن فولك نفذ إلى بيروت رغم ذلك، واختار أن يرجي انتقامه من بونز إلى وقت آخر^(٣). ومن بيروت ركب الملك فولك البحر إلى السويدية ومنها إلى أنطاكية، حيث رحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفة بلدوين الثانى. ويبدو أن تلك التطورات لم تعجب بونز، فتدخل بوصفه حاميا للأميرة إليس، وساعده بعض الأمراء الصليبيين فى القلاع المجاورة، حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك فى شمال الشام^(٤). ولكن يبدو أن أولئك الأمراء الثائرين لم يعرفوا فولك حق المعرفة، وهو الفارس القوى الذى قضى عشرين سنة فى فرنسا، عرك فيها حياة الفروسية والإقطاع. لذلك لم يتردد فولك أمام تهديد بونز وحلفائه، ونازلهم حتى اضطر بونز إلى الفرار، تاركاً عدداً من فرسانه أسرى فى قبضة الملك فولك^(٥). ومع ذلك فإن

(1) Stevenson : op. cit., p. 131.

(2) Guillaume de Tyr, p. 611.

(3) Michaud : op. cit., II, p. 85.

(4) Stevenson : op. cit., p. 141.

(٥) أشار كل من ابن الأثير وابن العديم إلى تلك الأحداث الصليبية. فقال ابن الأثير : "وفىها (سنة ٥٢٧ هـ) وقع الخلف فى الشام بين الفرنج، فقاتل بعضهم بعضاً، فلم تجر له بذلك عادة قبل هذه السنة، وقتل بينهم جماعة". أما ابن العديم فقال (وقع بين الفرنج فى هذه السنة فتن، وقتل بعضهم بعضاً وقتل صاحب زردنا". (زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥١).

الملك فولك لم يمانع في العفو عن بونز ورفاقه بعد ان لقنهم درسا قاسيا في وجوب احترام سلطة الملك من ناحية، ومراعاة الآداب والأصول الإقطاعية من ناحية أخرى^(١).

وبعد أن أقام فولك عدة أيام في أنطاكية نظم فيها أمورها بوصفه وصيا على الإمارة، وعهد بشئونها الإدارية إلى رينو ماسوير Renaud Masoier عاد إلى بيت المقدس.

فولك والدفاع عن الامارات الصليبية ضد المسلمين :

وقد رأى الأتراك التركمان أن يفيدوا من حوادث الشقاق السابقة بين الصليبيين، فأنت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبروا الفرات، وأغاروا على الأراضي الواقعة شرقي نهر العاصي من ممتلكات إمارة أنطاكية، واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لأعمالهم الحربية في تلك الجهات^(٢). على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا خصوماتهم أمام ذلك الخطر (أبريل سنة ١١٣٣) وطردها أولئك المغيرين، وانتهزوا فرصة تلك المطاردة ليستولوا أيضا على حصن قبة ابن ملاعب قرب حماة وخربوا الموضع^(٣).

على أنه إذا كان التركمان قد اضطروا إلى الابتعاد عن إمارة أنطاكية، فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا صوب إمارة طرابلس حيث اعتدوا على الأهالي واستولوا على كثير من ممتلكاتهم. وعندئذ خرج بونز أمير طرابلس للدفاع عن إمارته، فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا به الهزيمة وأحدثوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين، في حين اضطر بونز نفسه إلى الإلتجاء إلى قلعة بعيرين - شرقي أنطربوس - حيث حاصره التركمان (أكتوبر ١١٣٣)^(٤).

وفي تلك الأثناء كان الصليبيون في أنطاكية قد استنجدوا بالملك فولك الذي زحف على الفور صوب الشمال، في الوقت الذي استطاع بونز الفرار من قلعة بعيرين. ويذكر وليم الصوري أن التركمان سرعان ما جلوا عن بعيرين عندما علموا باقتراب فولك، في حين ذكر ابن الأثير وابن القلانسي أن التركمان لم يتراجعوا عن بعيرين إلا بعد معركة حامية بينهم وبين الصليبيين^(٥).

(1) Guillaume de Tyr, pp. 612 - 613.

(2) Setton : op. cit., I, p. 423.

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب، ج ٢، ص ٢٥١.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ & ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

(٥) وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعيرين، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج على الهزيمة...
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

وبعد أن أمن فولك إمارة طرابلس من خطر التركمان، اتجه صوب أنطاكية . وفى ذلك الوقت قصد سيف الملك بن عمرو-صاحب حصن القدموس السابق^(١) . - أنطاكية لمخالفة الصليبيين ضد حلب . وقد رحب فولك على الفور بتلك المخالفة، لاسيما وأن سوار -حاكم حلب من قبل زنكى كان يستعد للاشتراك مع التركمان للقيام بغارة على أنطاكية سنة ١١٢٣ . وكان أن دارت معركة بين الطرفين عند قنسرين جنوبى حلب، انتهت بانتصار فولك وهزيمة سوار والتركمان^(٢)؛ وإن كانت بعض المصادر العربية لم تشر فى وضوح إلى تلك الهزيمة^(٣) . وهكذا استطاع الصليبيون أن يحتفظوا بمكانتهم فى شمال الشام بفضل جهود الملك فولك، على الرغم من الإغارات التى دأب سوار على شنّها على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين سنة ١١٣٤ ، أى بعد عودة فولك إلى بيت المقدس^(٤) .

وفى تلك الأثناء لم يهمل الصليبيون مملكة بيت المقدس ذاتها، التى كانت أمورها - أثناء غياب فولك فى الشمال - تسير سيرا طيباً بفضل توجيهات البطرق وليم دى مسين . من ذلك ما لجأ إليه الصليبيون من تأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس، وحمايتهم من إغارات المسلمين الذين كثيرا ما كانوا يخرجون من عسقلان لتهديدهم . ولذلك شيد الصليبيون فى أواخر سنة ١١٣٢ وأوائل سنة ١١٣٣ حصن بيت نوبة فى منتصف الطريق بين اللد وبيت المقدس^(٥) . ثم أكمل الملك

(١) يذكر بن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٧ هـ أن الاسماعيلية فى الشام إشتروا فى تلك السنة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرو، أما ابن العديم (ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢) فيقول "وثب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس، فأخذوه وسلموه إلى سيف الملك بن عمرو، فاشتراه أبو الفتح الداعى الباطنى منه".

(2) Guillaume de Tyr, p. 616.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ - ٢٤١.

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ، وقد ذكر ابن القلانسي عن تلك الواقعة "فحمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس فيهم جماعة من المقدمين المشهورين المذكورين".

أما ابن الأثير فقد قال عن تلك الواقعة : "فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة وانهزم المسلمون إلى حلب".

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٤.

ويذكر ابن الأثير : (الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ) "وفيهما أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكى بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير، فخرج إليه الفرنج فى جمع كثير فقاتلوه، فظفر بهم وأثر القتل فيهم".

(5) Guillaume de Tyr, I, p. 617.

فولك تلك التحصينات باقامة بيت جبرين (جبريل) سنة ١١٣٧ في منتصف الطريق بين الخليل وعسقلان، وعهد بحماية تلك القلعة إلى الفرسان الاسبتارية^(١).

متاعب الصليبيين الداخلية :

على أن الأمور لم تنتظم لفولك في سهوله على طول الخط، إذ واجهته أثناء حكمه متاعب كثيرة، ومشاكل داخلية هددت بتصدع بناء الصليبيين بالشام. ومن هذه المتاعب ما ارتبط بالأطماع السياسية للأمراء، ومنها ما تعلق بالأمور الكنسية.

ومن ذلك الثورة التي قام بها هيو الثاني حاكم يافا ضد فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣٢. وكان هيو الثاني هذا على علاقة بالملكة ميلزاند ابنة بلدوين الثاني وزوجة فولك - وهي العلاقة التي قواها أن هيو الثاني كان متزوجاً من أرملة تكبره بكثير في السن، في حين أن الملكة ميلزاند لم تبادل زوجها فولك الحب لأنه كان بدوره يكبرها بكثير في السن. ولم تلبث أن انتشرت الشائعات بالعلاقة بين هيو الثاني أمير يافا وملكة بيت المقدس زوجة فولك، مما أثار غيرة الأخير وحقد الأول. وعندما ساء موقف هيو الثاني اضطر إلى الفرار للاحتباء بالفاطميين في عسقلان^(٢).

وقد استغل الفاطميون تلك الخيانة - وما نتج عنها من فرقة في صفوف الصليبيين - وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف، في الوقت الذي أسرع أتاك دمشق من جانبه إلى تهديد الممتلكات الصليبية واحتلال بانياس. ولكن الجيوش الصليبية أسرع من بيت المقدس واحتلت يافا لحمايتها من الفاطميين. أما هيو الثاني فقد حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ولكنه قبل رحيله تعرض لإعتداء من أحد فرسان بيت المقدس فأصيب إصابة خطيرة. ومهما يكن من أمر، فإن هيو الثاني لم يمت، وإنما أبحر إلى روجر الثاني ملك صقلية الذي منحه إمارة جارجانو في الغرب، حيث مات بعد قليل^(٣). وأما ميلزاند ملكة بيت المقدس فقد غضبت غضباً شديداً لما حل بعشيقها هيو الثاني، وأخذت تتحين الفرص للانتقام، في حين لم يجد فولك بداً من استرضاء زوجته الشابه بإعطائها

(1) King : The Knights Hospitallers, p. 34.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem, pp. 291 - 292.

(3) Guillaume de Tyr, pp. 627 - 633.

مزيداً من السلطان والنفوذ^(١) . ولم يلبث أن ظهر نفوذ الملكة واضحاً، ليس فقط فى شئون مملكة بيت المقدس، بل أيضاً فى شئون أنطاكية.

ذلك أن المتاعب الداخلية التى واجهت الملك فولك فى تلك الفترة لم تنحصر داخل حدود مملكته فحسب، بل عمت أيضاً بقية الإمارات الصليبية، وبخاصة إمارة أنطاكية التى قام فولك بالوصاية عليها وعلى صاحبيتها القاصرة الأميرة كونستانس . ولم يلبث الملك فولك أن واجه فى أنطاكية المتاعب نفسها التى واجهها سلفه بلدوين الثانى، وهى متاعب مصدرها أطماع البطريرق رادولف من جهة والأميرة إليس من جهة أخرى^(٢) . وكان البطريرق رادولف طموحاً، استطاع بذكائه أن يمكن لنفسه فى قلوب الأمراء والعامة فى أنطاكية وحاول أن يستغل بشئون كنيسته متجاهلاً سلطة البابوية وحقوقها، فضلاً عن أنه دأب على التدخل فى الشئون السياسية والحربية^(٣) .

أما الأميرة إليس فلم تتنازل فى منفاها باللاذقية عن رغبتها فى السيطرة على شئون أنطاكية وانتزاع حقوق ابنتها كونستانس، واستعانت فى تحقيق ذلك بأختها الملكة ميلزاند، زوجة فولك الشابة المدللة^(٤) . وكان تأثير ميلزاند على زوجها قد اخذ يزداد وطأة ووضوحاً، فرضخ الملك لزوجته ووافق على عودة إليس إلى أنطاكية والقيام بتوزيع المناصب على فرسان الإمارة، مما جعل إليس - بالاشتراك مع البطريرق رادولف - يمثلان السلطة الفعلية الحاكمة فى إمارة أنطاكية^(٥) .

وسرعان ما دب التنافس بين إليس والبطريرق رادولف فى الوقت الذى كان زنكى والمسلمون يرقبون بعين الرضى ضعف إمارة أنطاكية وانحلال أمورها. ثم إن رادولف لم يلبث أن وقع فى خلاف مع رجال كنيسته، مما ترك إليس مطلقة اليد فى شئون الإمارة. وقد أحست إليس بكره الصليبيين لها بعد أن انكشفت علاقتها بزنى، فحاولت أن تعتمد على تأييد المسيحيين المحليين، وأرسلت فى نهاية سنة ١١٣٥ إلى الإمبراطور البيزنطى تعرض عليه زواج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور^(٦) . وقد ارتاع أمراء أنطاكية ورجال كنيستها لذلك الاتجاه

(1) Runciman : op. cit., II, p. 193.

(2) Setton : op. cit., I, p. 436.

(3) Guillaume de Tyr I, pp. 619 - 620.

(4) Stevenson : op. cit., p. 135.

(5) Guillaume de Tyr, p. 636.

(6) Runciman : op. cit., II, pp. 98 - 90.

الذى سيجعل منهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيستها الشرقية، فارسلوا فوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار عريس مناسب للأميرة كونستانس، ليرعى شئون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند ابن الأمير وليم التاسع أمير بواتية^(١).

ومع إحاطة ذلك المشروع بالسترية التامة خوفاً من أن تفسده الأميرة إليس أو البطرق رادولف، فقد صادف العريس ريموند دى بواتيه صعوبات كبيرة فى طريقه، سواء فى صقلية أو فى أنطاكية، حتى تم تنفيذ الخطة سنة ١١٣٦ وأصبح ريموند أمير أنطاكية الجديد. وهكذا وجدت إليس نفسها وقد غلبت على أمرها فلم يسعها سوى الانسحاب الى اللاذقية حيث قضت حياتها فى شبه عزلة إلى أن ماتت بعد قليل^(٢). أما إمارة أنطاكية فقد وجدت ضالتها أخيراً فى شخص ريموند، ذلك الأمير القوى الذى أجمع المؤرخون المسلمون والصليبيون على وصفه بقوة الإدارة والعزيمة^(٣).

ولم يلبث أن صادف ريموند أمير أنطاكية الجديد منافسة حادة، بل عداا ظاهراً - من رادولف بطرق أنطاكية. وعندئذ نجح الأمير ريموند فى استمالة بعض رجال الدين فى أنطاكية إليه، فضلاً عن بعض الأمراء، وشكوا جميعاً إلى البابوية سوء تصرفات رادولف مما اضطر الأخير إلى السفر إلى روما للدفاع عن نفسه^(٤). وعند عودة رادولف إلى أنطاكية، وجد أن أعداءه - من رجال الدين وغير رجال الدين - فى تزايد مستمر. ولم يلبث أن أدى تفاقم الموقف فى أنطاكية بالبابا إلى إرسال مندوب للتحقيق، فعقد ذلك المندوب مجمعاً فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية فى ٣٠ نوفمبر سنة ١١٣٩، حضره جمع كبير من زعماء رجال الدين فى مختلف الإمارات الصليبية، وانتهى الأمر بعزل البطرق رادولف ثم وفاته مسموماً سنة ١١٤٣. وبعد قليل أختير أيمرى دى ليموج بطرقاً على أنطاكية محل رادولف^(٥).

فولك والمشاكل الكنسية :

وبالإضافة إلى المشاكل الداخلية ذات الطابع السياسى التى واجهها الملك فولك أثناء حكمه، صادفته أيضاً بعض مشاكل دينية ارتبطت بالكنيسة. وكانت مشكلة صور لا تزال تمثل أولى تلك المشاكل. ذلك أن استيلاء الصليبيين على

(1) Guillaume de Tyr I, p. 618.

(2) Idem : pp. 636 - 637.

(3) Grousset : Hist. des Croisades , II, p. 40.

(4) Setton : op. cit., p. 437.

(5) Guillaume de Tyr, I, pp. 678 - 686.

مدينة صور سنة ١١٢٤ أثار مشكلة حول تبعية كرسى صور، وهل يتبع هذا الكرسى بطرقيّة بيت المقدس أم أنطاكية. فوفقاً للنظام الكنسى البيزنطى فى القرن الحادى عشر، كانت صور مركزاً لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وببيروت وجبيل وطرابلس وأنطربطوس. وكان هؤلاء جميعاً - وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور - يتبعون بطرق أنطاكية لبطرق بيت المقدس^(١). ولكن استيلاء جيوش مملكة بيت المقدس على صور، ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التى انتزعت صور من المسلمين، جعل بطرق بيت المقدس يطمع فى أن يجعل صور خاضعة لأشرافه، لا لأشراف بطرق أنطاكية. أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يربطوا أنفسهم بأحد الطرفين المتنازعين، على أساس أن البابا وحده هو الذى يمتلك حق الفصل فى النزاع، وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتبعية لبطرق بيت المقدس أو لبطرق أنطاكية^(٢).

ومن الواضح أن فولك وجد نفسه فى موقف حرج صعب إزاء تلك المشكلة بوصفه ملك بيت المقدس من ناحية والوصى على إمارة أنطاكية من ناحية أخرى. وهكذا التزم فولك الحذر الشديد حتى لا يغضب أحد الجانبين، حتى استطاع البابا أنوسنت الثانى أن يحل المشكلة حلاً موفقاً ارتاح له الجميع^(٣).

ويرتبط بالجانب الكنسى فى سياسة فولك ذلك المجمع الكبير الذى عقد فى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٤٠. ذلك أن المندوب البابوى الذى حكم بعزل رادولف بطرق أنطاكية، اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجمعاً كبيراً حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف الإمارات الصليبية. وترجع أهمية ذلك المجمع إلى أن جريجورى الثالث - رئيس الكنيسة الأرمنية - اشترك فيه، مما أكسب المجمع أهمية سياسية خاصة. فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية فى الشرق الأدنى تحت رايته، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية فى الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها^(٤).

(1) Grousset : Hist des Croissades, II, pp. 24 - 25.

(2) Guillaume de Tyr, I, pp. 623 - 624.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 26.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 687.

الفصل الرابع

القوى الإسلامية في الشام والعراق

أحوال سلاجقة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (١١٠٥ - ١١١٧) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار في طريق الانزلاق الذي تردت فيه منذ عهد بركيارق ، وأن يقوم بنصيب وافر في محاربة الصليبيين في العراق والشام . حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد ، وأنه كان يكتفى بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتال الصليبيين . ولكننا يجب أن نقدر الظروف التي أحاطت بالسلطان محمد السلجوقي ، وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه في فارس والعراق ليتنازعها أمراؤه ، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم في التحرر من سيطرة السلاجقة . ولا أدل على ذلك من ثورة بني مزيد ، وهي القبيلة العربية التي كانت تنتشر في العراق غربي دجلة في المنطقة من البصرة حتى هيت ^(١) ، إذ انتهز صدقة بن مزيد ١٠٨٦ - ١١٠٨ ، فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة ، بين دجلة والفرات . ولم يلبث صدقة أن «عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جاهه واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم ، وكان أن إتخذ لقب «سيف الدولة» ، وأخذ يعمل لإنشاء دولة في العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعاً ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب أمير العرب ^(٢) . كذلك لم يتردد صدقة في مساعدة محمد بن ملكشاه ضد أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه بإعطائه واسط ويسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنكر لصدقة وخشى عاقبة أطماعه ، لاسيما عندما رفض صدقة إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل أنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بني مزيد كانوا جميعاً من الشيعة ، وصفهم أبو المحاسن بأن الجميع رافضة مما أثار حنق السلاجقة - وهم سنيون - عليهم ^(٣) . وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ . وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار (ياقوت) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٥ ص ١٢٢ .

محمد شاه جيوشه ضد صدقة ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقة قتيلا سنة ١١٠٨ ، وإن كان السلطان السلجوقى قد أكرم أرملة صدقة فأرسل لها أمانا واعتذر إليها من قتل زوجها وسمح لإبنها دبيس بأن يحل محل أبيه صدقة فى إمارته^(١).

أما فى الميدان الصليبي فقد فشل السلطان محمد السلجوقى فى حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح فى بسط نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك فى منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم فى أيدي وزرائه وعمه سنجر شرف الدين أنوشروان ، فى حين انغمس محمود نفسه فى اللهو . وفى ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها ، وانعكس ذلك الضعف فى العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية فى الشرق الأدنى^(٢) . ذلك أن سنجر وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الدولة ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات بين أمرائها بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانتشمند حيناً والبيزنطيين أحياناً ، وتركوا إخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم^(٣).

الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت هو الذى شجع دبيس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ . وكان دبيس - مثل أبيه صدقة - شيعياً ، فلم يحجم عن نهب المدينة وسلبها وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يجر مثله ، بل إنه نصب مخيمه فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان السلجوقى^(٤).

وهكذا ظل دبيس يهدد بغداد من مركزه - الحلة - حتى أمر السلطان محمود أحد رجاله - وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل - بمحاربته . ولكن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

وقد اتهم البعض صدقة بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفى عنه هذه التهمة ويقول " إنما كان مذهبه التشيع لا غير " .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 522 - 523 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ (١) . وقد أدى انتصار ديبس على البرسقى الى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسي يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيراً حلت الهزيمة بالأمير ديبس عند المباركة بين بغداد والكوفة - في ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل ديبس نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعبر في الشمال ، حيث التحق بالفرنجة وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم في أخذها ، (٢) .

ولعل في قصة ديبس بن صدقة ما يكفي لايضاح الوضع المؤسف الذي انحدرت إليه القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم في بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض في الخلافة العباسية عندئذ أن تنزع القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمي نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسي المسترشد (١١١٨ - ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسي مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ، عارضه السلطان محمود السلجوقي ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير على بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد يبكون بكاء عظيماً لم يشاهد مثله . وقد استطاع عماد الدين زنكي - حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقي - أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالي ، في حين اضطر الخليفة إلى الخضوع في نهاية الأمر واعتذر للسلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم (سنة ١١٢٧) (٣) .

أما الخلافة الفاطمية - على الجبهة الغربية للصليبيين - فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ، إذ جاء مقتل الوزير الأفضل في ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك في الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به الجمالي أو ابنه الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدبير أمورها (٤) . وهكذا ضمن الصليبيون في الشام قسطاً من الاستقرار في أوائل القرن الثاني عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية في الشرق

(١) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٢) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتكية ص ٢٩ - ٣٠ .

(4) Wiet : L'Egypte Arabe p. 268 .

من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية على تخومهم الغربية والجنوبية من ناحية أخرى^(١).

طائفة الاسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى وأحداث تلك الحروب، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة في هذه الدراسة . ونقصد بهذا الفرقة الإسماعيلية ، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م) وقد نجح أتباع إسماعيل هذا في إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تنزعم الدعوة الإسماعيلية التي اشتد ساعدها بصفة خاصة في مصر وفارس والشام .

ومن أهم المبادئ التي أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب . وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليه اسم الباطنية^(٢).

على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٧٨ هـ (= ١٠٩٤ م) أن تصدعت الدعوة الاسماعيلية ، فانشق أتباعها في فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية^(٣).

وكان أول دعاة النزارية ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح في فارس ، وساعده على

(١) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530 .

(٢) وبعبارة أخرى فإنهم قالوا بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً . وأدى ذلك إلى القول بتأويل القرآن والشريعة وبعض الحديث . وفي ضوء الباطن حاولوا إثبات الأصل الإلهي للإمامة . أما الظاهر عندهم فهو الصورة التي تتمسك بأركان الاسلام وتتفق في بعض الجوانب مع مذهب أهل السنة . ويرى بعض الباحثين المحدثين أن المذهب الإسماعيلي تأثر بالفلسفة الافلاطونية الحديثة إذ وجد فيها حلاً للتوفيق بين فكرة التوحيد وظاهرة الاثنيتية (الشهر ستاني : الملل والنحل ودائرة المعارف الإسلامية) .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧ هـ ، ٤٩٤ هـ .
نسبت النزارية إلى نزار الذي حرمه الوزير الأفضل من الإمامة بعد وفاة أبيه الخليفة المستنصر الفاطمي وعين بدله أخاه الأصغر أحمد الذي لقب بالمستعلي . وكان أن تعصب فريق من الاسماعيلية - خارج مصر - لنزار واعتبروه الامام الحق - حياً كان أو ميتاً . وهذا الفريق من النزارية الاسماعيلية هم الذين نزعوا إلى القوة والسيطرة والارهاب وممارسة القتل والاغتيال .

ذلك تفكك الدولة الإسلامية ، وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن بن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع في بلاد فارس ، والثاني محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعه لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحمايتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التي استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت في طبرستان قرب قزوين ، وقلعة شاه ذر ، وقلعة أصبهان ، وقلعة طبس ، وقلعة قهستان ، وقلعة خالنجان على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ (١) .

وترجع أهمية الحسن بن الصباح في التاريخ إلى براعته الفائقة في التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيمًا محكمًا أساسه مبدعان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة النزارية إلى خمس :

- ١ - مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا في قبضتهم بين شئون الدين والدنيا - أي الدعوة والدولة جميعاً - فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والشام وغيرهما من البلاد (٢) .
- ٢ - مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يشرف على نشر الدعوة الباطنية في جزء من العالم الإسلامي ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية النزارية في الموت .
- ٣ - مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يتبعون كبار الدعاة ويتلقون تعاليمهم في قلعة الموت ، ثم ينشرون الدعوة في الأقاليم ويعطون العهود للمستجيبين لها (٣) .
- ٤ - مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة (٤) .
- ٥ - مرتبة الفداوية أو الفدائيين : وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداءً رئيسهم ، وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التي استخدمها الحسن بن الصباح وخلفاؤه في الإرهاب وقتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعي في اختيار أولئك الفدائيين

(١) ابن الاثير : الكامل - حوادث ٤٩٤ هـ ، ٥٠٠ هـ &

Setton : op. cit. I, pp. 108 - 109 .

(٢) طه أحمد شرف : دولة النزارية ص ٨٠ .

(3) Sykes History of Persia vol. 2, pp. 37 - 38 .

(4) Browne . Lit. Hist. of Persia, vol 2 p. 206 .

الجرأة التى هى أقرب إلى الرعونة والتهور والقوة البدنية الفائقة التى تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم ، بعد إجراء ما نسميه اليوم عملية «غسيل مخ ، لهم»^(١).

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مراتب التنظيم الإسماعيلى بوصفهم الأداة العاملة التى قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحى والبدنى ، يبدأ منذ الصبا ، فيدرب الصبيان المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة فى التضحية^(٢) . وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٤٥ - ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة الموت حديقة واسعة حرص على أن يوفر لها جميع صفات الجنة ، من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه كثيرة من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون .. وغير ذلك من مختلف ألوان المغريات التى جاءت فى أوصاف الجنة^(٣) . وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروباً مخدراً - لعله من نبات الحشيش - مما جعل اسم «الحشيشية» يلصق بتلك الطائفة من فروع الإسماعيلية فى التاريخ^(٤) . فاذا ما فقدوا وعيهم حملوا إلى تلك الجنة ، حتى إذا أفاقوا وتلفتوا حولهم حسبوا أنفسهم فى الجنة فعلاً^(٥) . على أنهم لا يتركون فى جنتهم طويلاً ، إذ يخدرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبوبتهم إلى دار شيخ الجبل بالخلود فى تلك الجنة إذا هم قتلوا فلانا من الأشخاص الذين يحددهم لهم ، وبذلك يستثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه ، ويشعرون بالرغبة فى التضحية بكل شيء فى سبيل العودة إلى الجنة التى سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها^(٦) .

(1) Ivanow : An Islamic Ode in Praise of Fidawis, pp. 63 - 64 .

(2) Setton : op. cit., p. 108.

(3) Morco Polo : Travels, p. 50.

(٤) يؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزى to assassinate بمعنى يغتال أو يقتل ، والاسم منه assassin بمعنى سفاك أو قاتل ، إنما هى اشتقاق من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال فى عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض المصادر العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء فى قاموس اكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربي هو كلمتا "حشاش وحشيشة" العربيتان ، ويدل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه المعروف فى اللغات الأوربية إلا فى عصر الحروب الصليبية.

(5) Michaud : op. cit., II, pp. 72 - 73.

(6) Marcopolo : Travels, pp. 49 - 53.

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الإرهابي الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر. وينقسم الدور الذي قام به الباطنية في عصر الحروب الصليبية إلى قسمين ؛ أولهما : مقاومة المذهب السني والعمل على الفتك بزعمائه، وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم. ولم يفرق الباطنية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين وغير المسلمين، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً. وفي سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج زعمائهم من مخالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة السنيين أحياناً. وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد فعال إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية (١).

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان المسلمون في حالة دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم، في الوقت الذي تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً. وحسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر سنة ١١٠٩ إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله.. فملكوه وأخرجوا من كان فيه وانتزعوه من أصحابه بنى منقذ بعض الوقت (٢).

وكان الاغتيال هو السلاح الرهيب الذي استخدمه الباطنية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم في عصر الحروب الصليبية بالذات، من الأمراء وغير الأمراء. ومن ضحايا الحسن بن الصباح كان الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قتله الباطنية سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢، فخسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التي ارتبط بها تاريخ السلاجقة، وأسف الناس عليه لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقهاء والقرآن، والعلم، وحب الخير، وحميد السياسة (٣).

وزاد من نفوذ الباطنية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر للميلاد، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمائته لهم. وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول زعماء الباطنية بالشام، وحصلوا على مكانة كبيرة لدى رضوان فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإرهابية ضد زعماء

(١) Setton : op. cit., I, pp. 109 - 110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧،

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٣) ابن القلانسي : ذيل لمشق ص ١٢١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٢٨ ترجمة ١٧٩.

المسلمين والصليبيين جميعاً. وقد افتتح الباطنية نشاطهم في بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣^(١)، ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب أقامية بعد ذلك بثلاث سنوات ، قتله قوم من الباطنية نفذهم إليه المعروف بأبى طاهر الصائغ العجمي من حلب^(٢) .

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمرائهم بالشام وجدوا في الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . من ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أتابك دمشق^(٣) . وما لجأ إليه طغتكين أتابك دمشق فعلا من استخدام بعض الباطنية في قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣^(٤) . وعندما أحس الباطنية أنهم مكروهون في حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان، حاولوا الاستيلاء على شيزر.

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد. ولكن يبدو أن جهودهم لم تكال بالنجاح التام، كما أنهم فشلوا في الاستيلاء على قلعة الموت. ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد السلجوقي، فإنه لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم (الباطنية) وإخرا بديارهم وملك حصونهم وقلاعهم، جعل قصدهم دأبه. وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة الموت فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته، وما زالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان^(٥) . ولكن الحسن الصباح ظل رابضاً في قلعة الموت في خراسان، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الإرهابية الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب في قلوب الناس في الجهات المجاورة ، لكثرة غزاته عليهم، وقتله وأسرهم رجالهم وسبى نسائهم ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إليه والقضاء عليه^(٦) .

ثم إن نشاط الباطنية في الشرق الأدنى في ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب، وإنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق. ففي القاهرة نسمع من المصادر عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية في بعض طرق القاهرة سنة ١١٢١م أما في دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, pp. 585 - 586.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل - حوادث ٥١١ هـ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

توفيرضوان صاحب حلب سنة ١١٢٣ وتعرضوا لتنكيل ابنه الملك البارسلان الذي قتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وإسماعيل الداعي، والحكيم المنجم وغيرهم، مما جعل أتباعهم يتفرقون في البلاد^(١). ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد دعاة الباطنية واسمه بهرام. فنزل على حلب ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين، وأكرم لإتقاء شره وشره جمعاته وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية^(٢). وهكذا أخذ بهرام يواصل نشاطه، حتى استفحل أمره وعظم خطبه في حلب والشام، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس، بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد بشخصه^(٣). على أن بهرام خشي أهل دمشق وهم من السنة فما زال يسعى عند طغتكين حتى منحه بانياس سنة ١١٢٦. وسرعان ما غدت بانياس حصناً يأوي إليه ومعقلاً يحتوى به ويعتمد عليه^(٤). ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، لاسيما أهل السنة، إلا أنهم لا يقدرّون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم (طغتكين) أولاً ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال وانتظروا بهم الدوائر...^(٥). أما ابن القلانسي فيقول إن بهرام لم يكد ستولى على بانياس حتى اجتمع إليه أو باشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليه، فعظمت المصيبة بهم وجلت المحنة بظهور أمرهم، وضائق صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين^(٦).

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى، إذ «شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يقل جد شرهم متقدم ولا أمير...»^(٧). وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقي في فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعته شاه ذر - المجاورة لأصفهان - وفتحها وقتل من فيها من الباطنية^(٨)، فإن هذه الضربة التي حلت بالباطنية في فارس لم تؤثر في نشاطهم

- (١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩.
- (٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥.
- (٣) المصدر السابق.
- (٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.
- (٥) المصدر السابق.
- (٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥.
- (٧) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ. ابن القلانسي ص ٢١٥.
- (٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١.

في الشام، حيث استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم، ويضاعفون نشاطهم يوماً بعد يوم^(١).

ذلك أن بهرام أخذ يبعث من بانياس الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الإسماعيلية من ناحية ولتنفيذ ما رآه من اغتيالات سياسية من ناحية أخرى. وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم في الاستيلاء على حصون جديدة في جبال الشام، مثل حصن القدموس^(٢). وأخيراً أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر في التخلص منهم، ولكنه توفي في فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل ضدهم. وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملوك بوري في حكم دمشق، فاحتفظ بأبي على طاهر بن سعد المزدقاني (المزدغاني) وزيراً له. وقد أفراط المزدقاني في العطف على الباطنية، وقرب مندوبيهم في دمشق - واسمه أبو الوفاء - الذي وصفه ابن الأثير بأن سلطته في دمشق فاقت سلطة تاج الملوك بوري نفسه وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك^(٣).

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمي وادي التيم - واسمه برق بن جندل - دون سبب، فأصر قومه على الأخذ بثأره. وفي الاشتباك الذي حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨، حلت الهزيمة بالباطنية، وقتل منهم كثيرون، وقطع رأس بهرام، وبذلك ضعف شأن الباطنية وقلت عدتهم وانقصفت شوكتهم وانفلت شكتهم^(٤) ؟ وقد خلف بهرام في بانياس رفيقه إسماعيل العجمي الذي حظى هو الآخر بعطف الوزير أبي على طاهر المزدقاني في دمشق، في المساعدة على مراده والمعاضدة على أغراضه^(٥). واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه - هو والباطنية - مدينة صور بدلها^(٦). وكان أن أبرمت الاتفاقية، وحدد أحد أيام الجمعة والمسلمون في المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين^(٧).

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل بوري وزيره الخائن أبو على طاهر المزدقاني وأحرق جثته^(٨). وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩ للتخلص

(١) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ١٥١ ، ٢١٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن القلانسي ص ٢٢٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٢٣ هـ - ف.

(٧) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٣ هـ ابن القلانسي، ص ٢٢٣.

(٨) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ٧٩ - ٨٠ (تحقيق المؤلف)

من الباطنية، و نادى (بوري) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس. ، وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فتعقبوهم وتتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر. ولم تلبث أخبار ما حدث للباطنية في دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم في بانياس فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، واستنجد إسماعيل العجمي بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه. وهكذا تسال الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم في غاية من الذلة ونهاية من القلة في حين مات إسماعيل العجمي بعد قليل ودفن في بانياس^(١).

وفي تلك الأثناء استمر نشاط الحشيشية الهدام في منطقة الشرق الأدنى، ولم يتوقف بقية عصر الحروب الصليبية. من ذلك أنخم قتلوا في همدان قاضي القضاة زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر الهروي أحد أعلام أهل السنة أثناء عودته من خراسان إلى بغداد، ولم يجرؤ شخص على أن يتبعهم للخوف منهم^(٢). وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقي أتابك الموصل^(٣). وفي سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان. وكان ذلك الوزير قد فتك بجماعة منهم وحرّض السلطان على النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم^(٤). وفي سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم في الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بوري أتابك دمشق والانتقام منه لما حل باخوانهم في دمشق وبانياس. وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا في الاعتداء على بوري ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية^(٥). وفي سنة ١١٣٥ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسي إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية^(٦). وفي سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصياث (مصياث) بحيلة دبّرت عليه ومكيدة نصبت له^(٧). وفي سنة ١١٢٥ قتل بعض الباطنية ريموند الثاني أمير طرابلس. ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ولكن يكفي أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبي نفسه - كما سيلي فيما بعد - ولكن الله سلم.

وهكذا ظلت الباطنية مصدراً خطيراً للانحلال السياسي والاجتماعي في

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec, Hist Or p. 567)

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٠.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية (١).

حلب والموصل :

اختار السلطان محمود السلجوقي سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ آقسنقر البرسقي حاكم الموصل ليلي شحنكية بغداد، أي ينوب عنه في بغداد لدى الخليفة العباسي المسترشد (٢) ثم عاد السلطان محمود سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ فأقطع البرسقي من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين (٣). ولم يلبث البرسقي وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لنجدتهم ضد الصليبيين، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التي أتاحت له السيطرة على حلب، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة، فخف إليها - وصحبته طغتكين أتابك دمشق وصمام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص - ووصلوا جميعاً إلى حلب في أواخر يناير سنة ١١٢٥ (٤). ووضع البرسقي يده على حلب.

وهكذا اجتمعت حلب والموصل في قبضة حاكم مسلم واحد - هو البرسقي - مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين في شمال العراق والشام، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد. ولاشك في أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر ما يخشاه الصليبيون، نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى، فضلاً عما في تكتل القوى الإسلامية نفسها من معاني القوة التي لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم (٥).

ثم إن هذه الخطوط التي اتخذها البرسقي زاد من خطرهما أنه كان يتمتع بعطف السلطان محمود السلجوقي لأنه كان ناصحاً له ملازماً له في حروبه كلها (٦). وقد ظل البرسقي محتفظاً بولائه للسلطان الذي عهد إليه بمهمة الجهاد، وبناء على ذلك فإن البرسقي كان يمثل في تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى في الجبهة الشرقية من العالم الإسلامي ولم يكن باستطاعة قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة في أطراف العراق أو بلاد الشام أن

(1) Setton : op. cit., I. pp. 109 - 110.

(2) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسي في بغداد لقب شحنة، وهو لقب فارسي. أما الوظيفة نفسها فأطلق عليها اسم "شحنكية بغداد".

(3) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ٣٠ - ٣١.

(4) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(5) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 631.

(6) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

تقف في وجه البرسقي أو أن تنافسه في مكانته وزعامته. وعلى هذا الأساس أخذ البرسقي يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين في بلاد الشام وشمال العراق، طوال سنتي ١١٢٥، ١١٢٦، حتى كان مقتله في يوم الجمعة ثامن ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ، أي ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ بأيدي الباطنية في الموصل^(١).

وقد خلف آقسنقر البرسقي في حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود. على أن مسعود لم يلبث أن وقع في خلاف مع طغتكين أتابك دمشق، فدرس له الأخير السم مما أدى إلى وفاته. وبذلك توفي مسعود في العام التالي بالرحبة^(٢). ولا شك في أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات في حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ، وهو الذي عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقي. لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو الذي سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ - ١١٢٣، قبل أن يطرده بلك^(٣).

ومن الواضح أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت موقف الصليبيين، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهموند الثاني أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها^(٤). بل إن الملك بلدوين الثاني - ملك بيت المقدس - هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩، كما سبق أن أشرنا^(٥). وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكي، فبدأت صفحة جديدة مهدت لتغيير ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى.

ظهور عماد الدين زنكي :

أما عماد الدين زنكي هذا، فكان أبوه قسيم الدولة آقسنقر الحاجب، قائدا في جيش السلطان ملكشاه السلجوقي، ومن أعيان دولته، وأكابر أمرائه وأخص أوليائه، واعتمد عليه في أموره كلها^(٦). وقد كافأ ملكشاه قائده باعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤، قتله تنش أخو ملكشاه، فنشأ زنكي بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ودخل في خدمة أتابكة الموصل :

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٢٦ (تحقيق المؤلف).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ، وابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٣.

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٧٧ (تحقيق المؤلف)

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

Guillaume de Tyr, p. 590.

(٥) سبط بن الجوري . مرآة الزمان (p. 567 - 568) &

ابن القلانسي : ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ (مطبوع).

جاولي ثم البرسقي، حتى وصل إلى حكم البصرة، وعلدئذ كلفه السلطان محمود السجوقي باخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦ (١).

وقد أظهر زنكى همة كبيرة وكفاية عالية في تلك المهمة التي كلفه بها السلطان، فأنزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد، وانتصر على الخليفة المسترشد الذي اضطر إلى الإذعان للسلطان في يناير سنة ١١٢٧ (٢). وهكذا لفت زنكى الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته، فولاه السلطان شحنة العراق في أبريل سنة ١١٢٧، وهو المنصب الذي جعل منه رقيباً على الخليفة (٣). وحوالي ذلك الوقت - أو بعده بقليل - توفي عز الدين مسعود بن البرسقي أتابك الموصل وحلب، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقي في فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين (٤).

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكى لما يعلمه من كفايته لما يليه، فعينه أتابكاً على الموصل سنة ١١٢٧. وبعد أن نظم زنكى أمور الموصل، استولى على نصيبين من الأراتقة، ثم اتجه إلى حران التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة، فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت في يد أمينه (٥). ثم إن زنكى اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين إلا بعد أن يضع يده على حلب أولاً وينظم أمور تلك البلاد. لذلك أسرع عقب استيلائه على

(١) ولي المسترشد الخلافة العباسية سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م، وأراد أن يستغل المنازعات التي غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم، الأمر الذي جعل السلطان محمود السلجوقي يعهد إلى زنكى باخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦. ويقول ابن الأثير إن برنقش الزكوى شحنة بغداد هو الذي سار إلى السلطان، واستثاوه على الخليفة وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق. (التاريخ الباهر، ص ٢٨ - ٢٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٣٠ - ٣١.

(٤) يروي ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له: (قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها. وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين. وقد كان البرسقي مع شجاعته، وتجربته وانقياد العساكر إليه يكف بعض عاديتهم وشرهم، فمذ قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده صغير. ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأى وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها...) ابن الأثير الكامل سنة ٥٢١ هـ وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابهاً (مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤ - ٢٥).

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧.

نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها^(١).

وكانت حلب - كما سبق أن ذكرنا - قد وقعت في حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقي، فأصبحت ميداناً للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقي، وإبراهيم بن رضوان السلجوقي، في الوقت الذي أراد كل من جوسلين الثاني أمير الرها وبوهيموند الثاني أمير أنطاكية أن يستفيدا من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب^(٢). ولكن وصول زنكي إلى حلب في ذلك الوقت - سنة ١١٢٨ - فوت على جميع أولئك الطامعين أغراضهم، لأن زنكي كان يحمل تقليدا من السلطان بحكم حلب، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يمكن نفسه في حلب بسهولة؛ فدخلها في ١٨ يونيو ١١٢٨، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعا، وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعمله إلا الله سبحانه وتعالى... ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكي) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه^(٣).

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكي مشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية في العراق والشام، وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد في فبراير ١١٢٨ (٥٢٢ هـ)، وهو الرجل الذي حظى بنفوذ قوي، فاق نفوذ بقية الأمراء المسلمين ببلاد الشام. ولكي يتمكن زنكي من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين: الأولى الزواج من خاتون ابنة الملك رضوان بن تنش ملك حلب السلجوقي^(٤) الأسبق، وذلك ليثبت مركزه في حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان في شمال الشام. والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود السلجوقي، الذي «منحه التواقيع السلطانية بملك الغرب كله»^(٥)، وبعد ذلك عاد زنكي إلى حلب في عسكره عازما على الجهاد^(٦) ومعه منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما^(٧).

وكانت ممتلكات المسلمين في بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى، الأولى محورها بوري بن طغتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحماة

(١) (وهادنه مدة يسيرة، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد).
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

(2) Stevenson : op. cit., p. 119.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٢ هـ التاريخ الباهر ص ٢٧ - ٢٨.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٢.

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).

في الشمال وهوران في الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربي الذي سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكي، فأعلنوا ولائهما وخضوعهما له، وبذل كل يبقي أمام زنكي سوى تاج الملوك بوري أتابك دمشق^(١).

والواقع إن بوري الذي تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩، كان يخشى خطراً دائماً من جانب بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكي من محالفته ضد الصليبيين. على أن زنكي لم يلبث أن تنكر لذلك الحلف مع بوري، وانقض على حماة واستولى عليها في سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعه مقابل مبلغ كبير من المال للأمير خيرخان (قيرخان) صاحب حمص^(٢). ولم يكد خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه ويستولي على حماة في ٢٠ سبتمبر حتي غدر به زنكي فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب. ثم اتجه ليستولي على حمص ذاتها مثلما استولى علي حماة^(٣). ولكن زنكي ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً، لم يظفر منها بطايل^(٤). فعاد إلى حلب في أواخر سنة ١١٣٠. ولاشك في أن فشل زنكي أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمال الشام بضع سنوات.

على أنه يلاحظ أن زنكي لم يمض في طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المحليين. وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراتقة الذين حكموا حلب في وقت من الأوقات. ذلك أنه عز علي الأراتقة أن يستأثر زنكي بحكم حلب وأن يزداد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم، فجمع حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، وغيرهم من أمراء الأراتقة، في ديار بكر قوة تبلغ عشرين ألفاً من التركمان ضد زنكي ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين. ولاشك في أن هذا النصر ضمن لزنكي سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى^(٥).

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ - ٢٢٨ &

ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٢.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٢. ويعيب ابن واصل على زنكي غدره بصاحب حماة ونقضه العهد معه، ويقول أن زنكي ارتكب بذلك "أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه".

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٦.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٢٥ - ٢٦

أما عن علاقة زنكى بإمارة أنطاكية الصليبية في تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس، وطلبها مساعدة زنكى للوصول إلى حكم أنطاكية^(١). وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثانى إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة وبذلك حال دون إستفادة زنكى من اضطراب أحوال الصليبيين في أنطاكية في ذلك الوقت. هذا وإن كان زنكى قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية، مثل الأثارب وحارم ومعرة مصرين. ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكى لم يستطع الاستيلاء علي حصن الأثارب إلا بعد خمس سنوات، أى سنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م، في حين ذكر ابن الأثير - وعنه أخذ ابن واصل - أن زنكى استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ هـ وجعله دكا وبقي إلى الآن خراباً^(٢).

-- انشقاق المسلمين

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى قدما في مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التى حدثت في فارس والعراق، والتي أدى تدخل زنكى فيها إلى صرفه عن ميدان الشام.

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوقى سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير في دولة السلاجقة، إذ تعرض ابنه البكر داود - الذي ورثه في السلطنة - لثورة أعمامة : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس، وعمه الثانى مسعود ابن محمد صاحب أذربيجان، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوین^(٣). ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود. وفي إحدى حلقات النزاع، أيد الخليفة العباسى المسترشد سلجوق شاه، فاستنجد مسعود بعماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق، وبذلك دخل زنكى دائرة الصراع الدائر في العراق وفارس، مما صرفه مؤقتا عن الشام وفلسطين^(٤).

(1) Stevenson : op. cit. p. 129.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٧ - ٢٥٩.

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.

ابن واصل : مفرج الكروب. ج ١ ص ٤٢.

وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأية عن ابن الأثير.

(٣) النويرى : نهاية الأرب. ج ٢٧ ص ٢٠ وما بعدها (تحقيق المؤلف).

(٤) ابو القدا : المختصر في أخبار البشر، حوادث سنة ٥٢٧ هـ، ابن الأثير الكامل، ٥٢٦ هـ، ٥٢٧ هـ.

وعندما زحف زنكى على بغداد لِمنازلة الخليفة و سلجوق شاه، حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢^(١). على أن زنكى لم يلبث أن عاد في السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه ملك العرب ديبس بن صدقة، ولكن الهزيمة حلت بزنى من جديد، وقتل بينهم خلق كثير، فاضطر إلى الفرار نحو الموصل^(٢).

ويبدو أن تلك الهزائم التي حلت بزنى شجعت الخليفة المسترشد، فزحف على الموصل في صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها ثلاثين ألفاً، وعندئذ اضطر زنكى إلى الرحيل عنها، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر^(٣) وفي الوقت الذي كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل، لجأ أتابك دمشق إسماعيل ابن بوري إلى مهاجمة أملاك زنكى في الشام، فحاصر حماة وملك البلاد قهراً سنة ١١٣٣. وهكذا أخذ البناء الذي أقامه زنكى يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدي المسلمين أنفسهم سواء في العراق أو الشام^(٤).

ولاشك في أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب، مما أدى إلى الهزيمة التي حلت بالأمير سوار - نائب زنكى في حلب - في موقعة قنسرين (١١٣٢ - ١١٣٣)^(٥).

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول في صالح زنكى بعد قليل، إذ فشل الخليفة العباسي في الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر، فارتد إلى بغداد بعد أن ضاقت الأمور بالعسكر بسبب قلة الميرة والقوت^(٦). هذا في الوقت الذي اضطربت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بوري سنة ١١٣٢ (٥٢٦ هـ) وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل في الحكم؛ وقد بدأ إسماعيل بن بوري حكمه بداية طيبة، فاسترد بانياس من الصليبيين، واسترد حصن اللبوة والرأس من أخية شمس الدولة محمد صاحب بعلبك، كما هاجم بعلبك نفسها^(٧). ولكنه لم يلبث أن تعسف وتجبر مع رعاياه، وأظهر «دناءة نفس»^(٨)، فأمعن في ارتكاب القبائح

(١) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردي والد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، ويقال إن نجم الدين حمى زنكى عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة (وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين، حتى ملك بنو أيوب البلاد). (أبو الفداء : المختصر : ٥٢٧ هـ)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧ وكذلك كتاب الكامل، حوادث ٥٢٧ هـ.

(٤) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 55.

(٥) انظر الفصل الثالث من الباب التاسع.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

(٧) المصدر السابق.

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٥٧.

والمنكرات، وإيغاله في اكتساب المآثر المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل، وصداء الحسن، وظهور الجهل، وتبلد الفهم وحب الظلم^(١). وهكذا أصبح كل أحد في دمشق يخشى على حياته من تصرفات إسماعيل بن بوري، ولم يسلم من ذلك أهل إسماعيل أنفسهم، إذ قتل أخاه سونج أشنع، قتلته بالجوع في بيت، وبالغ في الأفعال القبيحة والظلم، ولم يقف عند حد^(٢). وكان أن دبرت المؤامرات ضد إسماعيل من جميع من حوله، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه، فأرسل إلى زنكى يستعين به، ويعرض عليه استلام دمشق، ليتمكن من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمراء والأعيان باهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم. ثم إن إسماعيل هدد زنكى بتسليم دمشق للصليبيين وقال له «إن أهملت المجيء سلمت المدينة إلى الفرنج»^(٣).

وقد وجد زنكى في ذلك العرض فرصته التي طالما تمنّاها لتوحيد الشام الإسلامية، فأسرع من الموصل لإستلام دمشق. على أنه في الوقت الذي أخذ زنكى يشق طريقه إلى دمشق، تبدلت الأحوال فجأة، إذ قتل إسماعيل بن بوري في مؤامرة دبرتها أمه - صفوة الملك زمرد - في أول فبراير سنة ١١٣٥، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بوري الذي التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً. ولما راسل زنكى أهل دمشق، لم يجيبوه إلى مطلوبه، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد انفقت علي حفظ الدولة والذب عنها^(٤). وهكذا فشلت جميع الجهود التي بذلها زنكى أمام دمشق لضم المدينة، وتزعّم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين أنر، فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة في منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعودة إلى حلب، لاسيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي يأمره بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له، وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلاً تمثل عقبة كئوداً في سبيل اتعام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها المتقلبة^(٥).

على أن تحول مجري الأمور في العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى عما فاتته في دمشق. ذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨)

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٧.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٧.

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٨.

ابن الأثير ، الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

(١١٣٥ -) لم تدم طويلاً، ولا سيما بعد أن هدأت الأمور في الدولة السلجوقية، ونجح السلطان مسعود بن محمد (١١٣٣ - ١١٥٢) في التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة^(١). وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد ولكن الأمر انتهى بهزيمته ونفيه، ثم قتله بأيدي الباطنية في نهاية أغسطس سنة ١١٣٥، حيث مثلوا بحثته تمثيلاً شديداً^(٢). ولم يجد بعض خلفاء المسترشد، أعني الخليفة الراشد (١١٣٥ - ١١٣٦) والخليفة المقتفي (١١٣٦ - ١١٦٠)، بداً من الاستعانة بزنكي على خلاف السلطان مسعود، مما قوى نفوذه في شئون الخلافة العباسية ببغداد^(٣).

ولم يكد زنكي يطمئن إلى جبهة العراق، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفي العباسي والسلطان مسعود السلجوقي، حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد^(٤). وكان أن بدأ زنكي في ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقي نهر العاصي، ونجح في تلك السنة في الاستيلاء على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب^(٥). ثم إن زنكي حرص على إعادة أهالي تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم. وبعد ذلك قام زنكي باغارات متفرقة في السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص وقنسرين، حتى عاد إلى الموصل في خريف سنة ١١٣٥^(٦).

وبينما زنكي في الموصل مشغولاً مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية^(٧)، إذا بنائيه في حلب - سيف الدين سوار - ينتهز فرصة الاضطراب الذي كانت تعايينه إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها في

(١) النويري نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٠.

(٣) أبو الفداء المختصر، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٦٧ - ٧١.

ويروى ابن واصل أنه عندما صلحت الأمور بين زنكي والخليفة المقتفي لأمر الله، أمر الأخير باقطاع عماد الدين زنكي بعض نواحي من أملاك الخليفة الخاصة، كما أمر بأن يزداد في القابه وهذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب في خاص الخليفة (مفرج الكروب ج ١ ص ٦٩ - ٧٠).

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٩.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن العديم هو الذي قال أن عماد الدين زنكي استولى على الأثارب في تلك السنة في حين قال ابن الأثير - وأخذ عنه ابن واصل - إن زنكي استولى على الأثارب قبل ذلك بخمس سنوات أي سنة ١١٢٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية^(١). وتروى المصادر أن سوار أغار في تلك الغزوة على مائة قرية صليبية، وعاد معه ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيول والحمير...^(٢).

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وحدهم في ذلك الدور، بل قام الدماشقة أيضا بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١١٣٧. وكانت دمشق قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه بزواش (بزواج)، الذي لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر في دمشق وجعل إليه الحل والعقد^(٣). ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه، ففكر في القيام بحملة ضد الصليبيين تضيف عليه شيئاً من المهابة والأهمية، وشجعه على ذلك النجاح الذي أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية في العام السابق^(٤). لذلك غزا بزواش إمارة طرابلس واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة، ومن التركمان أيضا خلق كثير. وعلى مقربة من قلعة صنجيل، دارت المعركة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس، فقتل الأخير في أواخر مارس سنة ١١٣٧، وأسر عدد كبير من أتباعه، فضلا عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون^(٥). وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية وطرابلس في الوقت الذي عاد زنكي سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد^(٦).

على أن زنكي آمن دائماً بأن قيام وحدة بين الإمارات الإسلامية في الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين. لذلك بدأ زنكي في يونيه سنة ١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص، التي كان يحكمها معين الدين أنر نائباً عن البوريين في دمشق. وفي ١١ يولية سنة ١١٣٧ علم زنكي أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص، فاضطر إلى أن يترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين (بارين)^(٧). وكانت الجيوش الصليبية قد تقدمت لصد زنكي عند بعرين بقيادة

(1) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

وقد وصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير في عنفها في تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ، ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥.

(٣) المصدران السابقان (ابن القلانسي ص ٢٥٢ - ٢٥٨).

(4) Stevenson : op. cit., p. 137.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

Guillaume de Tyr, p. 640.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 99 &

ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١.

(٧) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثاني أمير طرابلس الجديد. ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين، فقتل منهم أكثر من ألفين وأسر كثيرون، من بينهم ريموند الثاني صاحب طرابلس، وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسروهم ومحققهم قتلاً وأسراً، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير. أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعيرين حيث حاصره زنكي^(١). على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق بيت المقدس وجوسلين الثاني أمير الرها وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية^(٢). ويبدو أن زنكي عمل حساباً لتلك النجدة التي بدأت تشق طريقها صوب بعيرين^(٣). فلم يمانع في عقد صلح في أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين، ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية الأسرى، كما يستولي المسلمون على بعيرين فضلاً عن المراكز التي سبق أن استولى عليها زنكي سنة ١١٣٥ شرقاً نهر العاصي، وهي زردنا ومعة النعمان وكفر طاب^(٤).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

(2) Guillaume de Tyr, pp. 644-645.

(٣) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بعيرين أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطي، والغرب الأوربي "قدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستتصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها. وإن همة المسلمين مصروفة الي فتح بيت المقدس" فحشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٧٣).

(٤) ابن الأثير . الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ & Guillaume de Tyr. pp. 650 - 651

الفصل الخامس

الإمبراطورية البيزنطية والصليبيون في الشام

الكسيوس كومنين وإمارة أنطاكية :

سبق أن تعرضنا بالبحث للعداوة بين البيزنطيين والصليبيين، وهو ذلك الإتجاه الذي أخذ يشتد منذ وصول الصليبيين إلى أطراف الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للإمبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلاد التي كانت في وقت ما من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، قبل أن يستولى عليها المسلمون. وقد تركز جزء كبير من العداوة بين الطرفين في العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية^(١). لأن مدينة أنطاكية بالذات كانت لها أهمية خاصة - دينية وحربية وسياسية - في نظر الدولة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في الشام تطرفاً جهة الشمال، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين في قبليقية. فاذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف المتشدد الذي وقفه بوهيموند الأول وتكرده في أنطاكية من الإمبراطور الكسيوس كومنين، أدركنا السر في اتساع شقة الخلاف حتي تحول إلى نزاع ظاهر مستحكم بين البيزنطيين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى^(٢).

وقد اتخذ ذلك النزاع بين إمارة أنطاكية والبيزنطيين صوراً متعددة وميادين كثيرة سبق أن تعرضنا لها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، ولا بأس من أن نجملها هنا في إشارة عابرة سريعة تساعد على ربط حلقات ذلك النزاع بعضها ببعض. فمن ذلك مثلاً الخلاف الذي قام بين الطرفين حول اللاذقية، تلك المدينة التي استولى عليها البيزنطيون سنة ١٠٩٩، والتي تتمتع بموقع هام يجعلها عظمة المكانة لإمارة أنطاكية بالذات^(٣). وإذا كان بوهيموند وحلفاؤه البيازنة لم يتمكنوا من الاستيلاء على اللاذقية عندما هاجموا سنة ١٠٩٩ بسبب تدخل ريموند دي

(1) Vasiliev : op. cit., II, pp. 408 - 409.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 219.

(3) Albert d'Aix, p. 500 & Raoul de Caen; p. 649.

تولوز، فإن النورمان في أنطاكية لم يهدءوا بعد ذلك إلا عندما استولوا على تلك المدينة سنة ١١٠٢، كما سبق أن شرحنا. وقد حاول الإمبراطور البيزنطي أن يرد على ذلك العدوان بارسال حملة إلى الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى لانتزاع طرسوس وأذنه والمصيصة من النورمان، ولكن الحملة فشلت في تحقيق غرضها، بل إن جوسلين دي كورتناي صاحب الرها وتل باشر استطاع سنة ١١٠٣ الاستيلاء على مرعش من البيزنطيين^(١).

وهكذا لم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سوى أن يتحين الفرصة المناسبة للانتقام من الصليبيين. ولم تلبث أن أتحت هذه الفرصة عندما حلت بالصليبيين كارثة حران سنة ١١٠٤، فأرسل الإمبراطور أسطولاً استطاع أن يسترد اللاذقية^(٢)، ويستولي على بعض مراكز قرب الشاطيء فيما بين اللاذقية وانطرطوس. هذا فضلاً عما قام به الأرمن في قيليقية من طرد الصليبيين النورمان من طرسوس وأذنه والمصيصة، واستدعاء البيزنطيين ليحلوا محلهم^(٣) ولم يستطع بوهيموند إزاء ذلك التهديد من جانب البيزنطيين والأرمن والسلاجقة جميعاً سوى الرحيل إلى غرب أوروبا في أوائل سنة ١١٠٥، لاستحضار نجدة تمكن إمارته من الصمود في وجه الأخطار المحدقة بها. وهناك في الغرب لم يكتف بوهيموند باستثارة الرأي العام ضد الإمبراطور البيزنطي ودولته، وإظهارهما في صورة القوة المعادية للصليبيين، الممائلة للمسلمين، وإنما عبر بوهيموند عن شعوره العدائي ضد البيزنطيين عملياً، فقام بحملته على الدولة البيزنطية سنة ١١٠٧، وهاجم مدينة دورازو، مما يعتبر مقدمة لما حدث بعد ذلك بأقل من قرن من اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية نفسها^(٤).

وإذا كان بوهيموند قد فشل أمام البيزنطيين، واضطر إلى مصالحتهم كما سبق أن ذكرنا، فإن تنكرد - خليفة بوهيموند في أنطاكية - لم يرتبط بذلك الصلح، وإنما واصل سياسته العدوانية ضد الدولة البيزنطية، واستطاع أن يسترد اللاذقية من البيزنطيين سنة ١١٠٨ بمساعدة البيازنة^(٥). ويهمنا من هذه الأحداث أن الإمبراطور البيزنطي في صراعه ضد النورمان الصليبيين، لم يحجم عن الاستعانة بالأتراك السلاجقة، فاستنجد بسلطان قونية قلع أرسلان عندما هدد

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 323.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

عن موقعة حران سنة ١١٠٤ انظر ما سبق الفصل الثالث من الباب السابع.

(3) Raoul de Caen, pp. 271 - 272.

(4) Setton : op. cit., I, pp. 391 - 392.

(5) Stevenson : op. cit., p. 82.

بوهيموند دورازو سنة ١١٠٧ ، وأرسل السلطان السلجوقي فرقة كبيرة من فرسانه لمساعدته ، مما جعل الغرب الأوربي يميل إلى تصديق التهم الموجهة ضد الدولة البيزنطية ، ويعتقد أن هذه الدولة ترتكب فعلا خيانة كبرى في حق المسيحية والقضية الصليبية (١) .

والواقع أن الغرب الأوربي لم يكن مبالغاً عندئذ في سوء الظن بالامبراطورية البيزنطية ، إذ تشهد المصادر المعاصرة على وجود ثمة اتصالات مريبة بين البيزنطيين والمسلمين ، هدفها استثارة السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ضد الصليبيين بالشام . من ذلك ما يؤكد ابن الأثير مرة أخرى من مجيء سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين إلى السلطان محمد السلجوقي سنة ١١١١ تعرض عليه عقد تحالف بين الطرفين لمحاربة الصليبيين وطردهم من الشام (٢) . ولعل في هذه الشواهد ما يثبت تأمر البيزنطيين فعلا ضد الصليبيين في الشام بوجه خاص ، وأنهم كانوا يفضلون عودة الشام إلى أيدي السلاجقة المسلمين عن بقائها في أيدي الصليبيين . ويبدو أن عداوة ألكسيوس كومنين للصليبيين عندئذ أنسته ما صادفته دولته من قبل على أيدي السلاجقة ، مما جعله يستغيث بالغرب الأوربي ضد المسلمين حتي سنة ١٠٩٥ (٣) .

الامبراطور حنا كومنين والأتراك :

وفي عهد الإمبراطور البيزنطي حنا الثاني كومنين (١١١٨ - ١١٤٣) دخلت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية من جهة وكل من الصليبيين والمسلمين من جهة أخرى دوراً جديداً . ذلك أن حنا كومنين - الذي تولى العرش بعد أبيه ألكسيوس كومنين مباشرة - كان محارباً قديراً ، قضى معظم سنوات حكمه على رأس جيوشه لتحقيق الأهداف التي وضعها لنفسه ، وهي إعادة الحدود الآسيوية للإمبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي ، وطرد سلاجقة الروم من آسيا الصغرى واسترداد قيليقية من الأرمن ، فضلاً عن إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية (٤) .

وكان أن بدأ الإمبراطور حنا كومنين بمحاربة الأتراك في الأناضول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ . & Albert d'Aix, p. 651
ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٠ هـ : "في هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين ييموند الفرنجي ... فأرسل ملك الروم إلي الملك قلعج أرسلان صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك البلاد يستنجد به ، فأمد به بجمع كثير من العسكر فقوى بهم ..."

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٠٤ هـ .

(3) Grousset : op. cit., I, p. 462.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 335.

للاستفادة من الشقاق الذي دب بين سلاجقة الروم وأمراء بني دانشمند التركمان في سيواس، وهو الشقاق الذي اتسعت فجوته عندما استولى سلاجقة الروم على مدينة ملطية التابعة لبني دانشمند. على أن هذا الشقاق لم يمنع من اتحاد سلطان قونية السلجوقي مسعود مع الأمير التركماني غازي بن دانشمند سنة ١١١٩ لمهاجمة حاكم طرابيزون البيزنطي. وكان ذلك في السنة نفسها - ١١١٩ - عندما بدأ الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين هجومه على سلاجقة الروم في الأناضول. وبعد أن استرد منهم الإمبراطور بضعة مواقع، اضطر إلي العودة إلى البلقان ^(١).

والى جانب الخلاف بين سلاجقة قونية وبني دانشمند، نشب خلاف داخلي بين أمراء السلاجقة داخل سلطنة قونية حوالي سنة ١١٢٦ عندما ثار عرب على أخيه السلطان مسعود، واضطر الأخير إلى الإلتجاء إلى بلاط القسطنطينية حتى تمكن بمساعدة البيزنطيين من استرداد عرشه؛ وعندئذ لجأ عرب بدوره إلى الأرمن في قيليقية ثم إلى الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية ^(٢). وهكذا أدى الشقاق الداخلي في سلطنة سلاجقة الروم إلى إضعاف تلك السلطنة ووقوف الإمبراطورية البيزنطية من أمرائها موقف الحكم والمعين، في حين ظل التركمان من بني دانشمند في كبادوقيا محتفظين بقوتهم ويمثلون خطراً على الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ^(٣).

لذلك اختار الإمبراطور حنا كومنين أن يوجه في تلك المرة جهوده ضد أولئك التركمان، فقاد حملة ضدهم على شاطئ البحر الأسود للإستيلاء على مدينة قسطنطينية سنة ١١٣٠ - ١١٣٢ ^(٤). ولم يلبث بعض الأمراء المحليين أن اعترفوا بولائهم للإمبراطور البيزنطي، مثل ألب أرسلان أمير كنغرى وطغرل أمير أماسيا. ثم إن هذه لم تكن آخر حملات حنا كومنين ضد بني دانشمند، إذ لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى عندما استولوا على قسطنطينية فاستردها منهم سنة ١١٣٤، كما استولى على كنغرى ^(٥). وبذلك يكون الإمبراطور حنا كومنين قد استرد للإمبراطورية البيزنطية الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود إلى ما بعد طرابيزون شرقاً.

وكانت الخطوة التالية أمام حنا كومنين هي استرداد إقليم قيليقية في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى من الأرمن، تمهيداً لاسترداد أنطاكية من الصليبيين. وقد

(1) Vasiliev : op. cit., II, pp. 415 - 416.

(2) Michel Le Syrien, pp. 219 - 224.

(3) Grousset : op. cit., II, p. 84.

(4) Brehier : op. cit., p. 323.

(5) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 85.

حشد الإمبراطور لذلك الغرض حملة كبيرة ضمت صفوة جنوده وفرسانه، سار على رأسها مخترباً آسيا الصغرى حتى وصل إلى مرسين سنة ١١٣٧، ثم استولى في غير صعوبة على المدن الرئيسية الثلاث في سهول قيليقية، وهي طرسوس وأذنه والمصيصة. وبعد ذلك اتجه الإمبراطور نحو الشمال حيث استولى في يولية سنة ١١٣٧ على عين زربة بعد حصار عنيف، ثم على بعض الحصون الأخرى المجاورة مثل تل حمدون^(١). أما الأمير الأرمني ليون الأول (ابن لاوون) فقد استمر يقاوم البيزنطيين عدة أشهر حتى سقط أخيراً في يد الإمبراطور البيزنطي سنة ١١٣٧، وأرسل وأسرته أسرى إلى القسطنطينية^(٢). ولم يلبث أن استولى حنا كومنين بعد ذلك على الاسكندرونة وحصنها وعمر ميناءها، وبذلك دخل أراضي إمارة أنطاكية^(٣).

حنا كومنين وأنطاكية :

كانت دولة الأرمن التي قامت في قيليقية في الربع الأول من القرن الثاني عشر بمثابة حاجز بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية. ولكن انهيار هذا الحاجز على يد الإمبراطور حنا كومنين، جعل الحدود مباشرة بين البيزنطيين والنورمان في أنطاكية، وبالتالي فإن الخطوة التالية أمام الإمبراطور البيزنطي بعد استرداده قيليقية ووصوله إلى مشارف الشام، صارت المطالبة من جديد بأنطاكية^(٤).

والواقع أن الإمبراطور حنا كومنين كان قد حاول من قبل حل مشكلة أنطاكية حلاً سليماً، فأرسل في السنة التالية لإعتلائه عرش الإمبراطورية (سنة ١١١٩) مبعوثاً إلى روجر دي سالرنو أمير أنطاكية عندئذ، يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومنين، على أمل أن يؤدي هذا الحل - ولو مع مضي الزمن - إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية. ويبدو أن روجر كان لا يعارض هذا الرأي، ولكن حدث قبل أن يبت فيه برأى حاسم أن خرقتيلاً في موقعة البلاط سنة ١١١٩، ومن ثم قام بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بالوصاية على إمارته ليتخذ موقفاً عدائياً حازماً تجاه الدولة البيزنطية.

على أن فشل ذلك المشروع لم يمنع حنا كومنين من محاولة إعادة الكرة، وذلك حوالي سنة ١١٣٦ عقب وفاة بوهيموند الثاني أمير أنطاكية ومحاولة أرملة

(1) Chalandon : Comnènes, II, pp. 115 - 116.

(2) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p. 94.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

(4) Setton : op. cit., p. 439.

أليس السيطرة على أنطاكية ^(١) . ذلك أن الأميرة أليس لم تكثف بطلب المساعدة من زنكى وإنما لجأت - كما سبق أن أشرنا - إلى الإمبراطور حنا كومنين فعرضت عليه زواج ابنه وولى عهده مانويل كومنين من ابنتها كونستانس، الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية ^(٢) . وقد عقدت اتفاقية سرية فعلا بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية، ولكن مجيء ريموند دى بواتيه وزواجه من الأميرة كونستانس سنة ١١٣٦، قطع الأمل نهائياً فى تنفيذها. وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية، فخرج على رأس جيوشه فى يوليو سنة ١١٣٧ قاصداً أنطاكية ^(٣) .

ولم يكن لدى ريموند دى بواتيه - أمير أنطاكية عندئذ - من القوة ما يمكنه من الصمود فى وجه الجيوش البيزنطية الضخمة، فأرسل يستنجد بفولك ملك بيت المقدس وبقية أمراء الصليبيين. ولكن شاء سوء حظ الصليبيين أن تتعرض إمارة طرابلس فى ذلك الوقت - كما سبق أن أشرنا - لهجوم زنكى مما جعل الملك فولك يتجه أولاً لنجدة قلعة بعيرين، على أن يذهب إلى أنطاكية بعد ذلك. ولم يدر فولك عندئذ أنه سيبتلى بالهزيمة وحصار المسلمين له فى بعيرين. وكان أن انقلب الوضع فاستنجد الملك فولك بأمير أنطاكية ريموند دى بواتيه ليفك حصاره، وعندئذ أسرع ريموند إلى بعيرين دون أن يبالي بالبيزنطيين الذين صاروا على مشارف مدينة أنطاكية نفسها ^(٤) . وعندما عاد ريموند دى بواتيه إلى أنطاكية فى أواخر أغسطس سنة ١١٣٧، كان حنا كومنين قد بدأ فعلا حصار المدينة وضيق على أهلها، ومع ذلك فقد استطاع ريموند دخول مدينته للدفاع عنها ^(٥) .

وسرعان ما اكتشف حنا كومنين أن اقتحام أنطاكية والاستيلاء عليها بالقوة ليس بالمهمة السهلة. هذا فضلا عن أن الإمبراطور خشى تحطيم قوة الصليبيين فى الوقت الذى كان زنكى يعمل فى نشاط ضد الصليبيين والبيزنطيين جميعاً. لذلك لم تلبث أن تغلبت روح الاعتدال على ريموند وحنا جميعاً، فدخل الطرفان فى مفاوضات انتهت بعقد إتفاقية وافق فيها مندوبو ريموند على الاعتراف بسيادة الامبراطورية على أنطاكية، على أن يحكما الصليبيون نيابة عن الإمبراطور ^(٦) . وكان أن قدم ريموند دى بواتيه ولاءه وأعلن تبعيته للإمبراطور البيزنطى، وذلك

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثالث من الباب التاسع.

(2) Chalandon : Comnènes, II, p. 122.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 324.

(4) Guillaume de Tyr, p. 646.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.
ابن القلانسي، ص ٢٦٢.

(6) Vasiliev : op. cit., II, p. 416.

بعد موافقة الملك فولك الذي رأى هو الآخر أنه من الأفضل كسب ود البيزنطيين ومعونتهم ضد المسلمين، وبخاصة زنكي^(١).

وبعد عقد الاتفاقية السابقة، أقسم ريموند يمين الولاء للإمبراطور، الذي لم يتشدد بدوره في ضرورة دخول أنطاكية، واكتفى برفع العلم الإمبراطوري فوق قلعة المدينة^(٢).

ولم يلبث أن أدى تفاهم الصليبيين والبيزنطيين بصدد أنطاكية سنة ١١٣٧ إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين، فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى في الربيع التالي، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة ضد المسلمين في الشام. وقد حددت أهداف تلك الحملة في تحطيم قوة زنكي في حلب، وإمارة بني منقذ في شيزر، وانتزاع حمص من أتاكه دمشق، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة من الأجزاء السابقة تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام، بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص. وكذلك تم الاتفاق على أن يكون ريموند دي بواتيه أميراً على تلك الإمارة الجديدة، ويترك إقليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي^(٣).

حنا كومنين ومحاربة المسلمين :

وفي فبراير من العام التالي - سنة ١١٣٨ - نفذت تعليمات الإمبراطور، فألقى القبض في أنطاكية فجأة على جميع التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمناطق المجاورة، حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية^(٤). ثم كان أن وصل الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين إلى أنطاكية في أواخر مارس سنة ١١٣٨، حيث انضمت إليه القوات الصليبية التابعة لأنطاكية والرها، ثم زحف الجميع على حلب في أبريل سنة ١١٣٨ وفي الطريق استولى المسيحيون على حصن بزاعة (بزاعاً) بين حلب ومنبج^(٥).

ولا شك في أن الوقت الذي أضاعه المسيحيون في الإستيلاء على بزاعة سبب لهم خسارة كبيرة، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة والمباغتة، وأتاح للمسلمين - وزنكي بوجه خاص - فرصة طيبة للاستعداد، فتحرر الناس وتحفظوا وكاتبوا أتاك زنكي بذلك^(٦). وكان زنكي عندئذ على رأس جيشه عند حمص يعمل لطرده الدماشقة منها، وعندما علم بحملة الصليبيين أرسل بعض قواته تحت

(1) Setron : op. cit., I, p 439.

(2) Brehier : op. cit., p. 324.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 652.

(4) Runciman : op. cit., II, p. 215.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٦٥.

(٦) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

قيادة الأمير سيف الدين سوار لتقوية حلب والدفاع عنها. وهكذا ضاعت على الإمبراطور البيزنطي فرصة أخذ حلب على غرة، فلم ينتبه إلى غلطته إلا بعد فوات الأوان. وأخيراً أدرك الإمبراطور أن سياسة التباطؤ أتاحت لحلب فرصة الحصول على إمدادات قوية من زنكي، وأنه لا فائدة بعد ذلك من حصارها، فانصرف عنها بعد أن أقام عليها ثلاثة أيام، واتجه إلى الأثارب التي هرب من بها من المسلمين بعد أن أشعلوا فيها النار، فاستولى عليها المسيحيون في ٢١ أبريل سنة ١١٣٨ (١).

وبعد أن حبس الإمبراطور أسرى بزاعة في قلعة الأثارب، اتجه على رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان، ولكن دون أن يترك حامية كافية في الأثارب، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب حيث أخبروا الأمير سوار نائب زنكي بضعف الحامية المسيحية في الأثارب. وهكذا استطاع سوار أن يغير بدوره على الأثارب، ويطلق سراح بقية أسرى المسلمين فسر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيماً (٢).

أما الجيوش المسيحية فقد واصلت زحفها، فاستولت في ٢٧ أبريل على كفر طاب التي كان زنكي قد أخذها من الصليبيين سنة ١١٢٥، ثم اتجه الإمبراطور حنا كومنين بعد ذلك على رأس الجيوش المسيحية المتحالفة إلى شيزر، القلعة الإسلامية الكبرى التي تسيطر على أواسط حوض نهر العاصي. وقد أخذ المسيحيون يهاجمون شيزر في عنف منذ ٢٩ أبريل سنة ١١٣٨، فاستنجد صاحبها - أبو العساكر سلطان على بن منقذ - بزنكي. وكان أن أتى زنكي مسرعاً لنجدة شيزر، فنصب معسكرة على ضفة نهر العاصي بينها وبين حماة (٣). ولم يشأ زنكي أن يغامر بشن هجوم عام على المسيحيين بسبب تفوقهم العددي. فاكتمى بالخروج كل يوم هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم (٤). وفي الوقت نفسه تبدو عبقرية زنكي في تلك المرحلة في أنه استغل مباديء علم النفس الحربي أتم استغلال، فعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين، وأخذ يرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يقول :

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٧٨.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٧٨.

وجدير بالذكر أن الروم في تلك الفترة أمعنوا في مطاردة المسلمين الفارين من وجوههم. من ذلك أنهم استخدموا الدخان في تدخين الكهوف لاجبار أولئك الذين فروا إليها واختبئوا فيها على الظهور والخروج (ابن القلانسي ، ص ٢٦٥).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٢ هـ.

« إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال، فأنزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، وهنا يعترف النويرى أن زنكى لم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه (١) .

وفى تلك الأثناء أيضاً أرسل زنكى القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى السلطان مسعود السلجوقي، فتقاعس السلطان فى أول الأمر، وأظهر قلة اهتمام. ولكن ثورة الأهالى فى بغداد ورغبتهم فى الجهاد، واستغاثتهم وقت الصلاة يوم الجمعة « وإسلاماه .. وأدين محمداه » أخافت السلطان فأمر بأعداد حملة سريعة، كما تعهد الأمير الأرتقى داود بارسال حملة من الجزيرة من خمسين ألف من التركمان (٢) .

وفى انتظار وصول تلك المساعدات، لجأ زنكى إلى العمل على تفرقة صفوف المسيحيين، وإثارة النفور بين البيزنطيين والصليبيين، فكان يرسل إلى ملك الروم، يوهمه أن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام بخوفهم من ملك الروم ويقول لهم أن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها، فاستشعر كل من صاحبه .. (٣) . وسرعان ما أفلحت سياسة زنكى وآتت أكلها، فلم يلبث أمير الرها وأنطاكية أن غيرا سياستهما وأحجما عن مشاركة الإمبراطور فى مهاجمة شيزر، ووقفت قواتهما من الجيوش البيزنطية المحاربة موقف المتفرج (٤) .

ويلاحظ أن ريموند بالذات أخذ يعمل حساباً لنجاح خطة الصليبيين وما يترتب على ذلك النجاح من إعطائه حلب وشيزر تنفيذاً للاتفاقية بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطى، مما يجعله فى موقع متطرف على خط النار أمام المسلمين، بعيداً عن أنطاكية وموقعها، فى حين كره جوسلين الثانى أن يرى ريموند قريباً منه فى حلب (٥) . وهكذا أدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى فشل الحملة المشتركة، إذ قبل الإمبراطور حنا كومنين العروض التى عرضها عليه أبو العساكر

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٢٦ (تحقيق المؤلف).

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٨١، وكذلك ابن الأثير : الكامل سنة ٥٢٢ هـ.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٢ هـ.

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ١٣٦ (تحقيق المؤلف).

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ.

(4)Guillaume de Tyr, p. 644 - 645.

(5) Runciman : op. cit., II, p. 216.

سلطان صاحب شيزر، والتي تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية رمزاً للتبعية للأمبراطور البيزنطي، فضلاً عن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمينة^(١). ولم ينته شهر مايو سنة ١١٣٨ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماماً من أمام شيزر متجهة إلى أنطاكية عن طريق قامية^(٢).

تفكك الحلف الصليبي البيزنطي :

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي أن يغفر للصليبيين موقفهم منه أمام شيزر، فرد على ذلك الموقف رداً عملياً بأن دخل أنطاكية، ومن حوله جنوده، دخول السيد صاحب الحق الشرعي في ملكية المدينة. ثم استدعى أمامه ريموند دي بواتيه وجوسلين الثاني ووبخهما على موقفهما وتقاعسهما عن الحرب، وطالبهما بتسليم قلعة أنطاكية^(٣). وكان أن ساء موقف ريموند ووجد نفسه في قبضة الإمبراطور البيزنطي الذي سيطرت جيوشه على المدينة. ولكن زميله جوسلين الثاني أمير الرها أنقذ الموقف، فاتصل سراً بفرسان أنطاكية، ومن بها وحولها من الفرنجة، وأثار نفوسهم ضد البيزنطيين الأرثوذكس، وخوفهم من نوايا الإمبراطور البيزنطي واتجاهاته ضد الصليبيين^(٤). ولم تلبث أن شبت ثورة عارمة في أنطاكية ضد حنا كومنين ورجاله، فتجمع الناس في الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطي الذي أخذ على غرة. ولم يستطع الإمبراطور عندئذ سوى أن يخلق على نفسه أبواب قصره ليحمي نفسه من غضب الجماهير الثائرة، في الوقت الذي سمع بأن سلاجقة الروم في آسيا الصغرى غزوا قيليقية وأغاروا على أذنه - بايحاء من زنكي - الأمر الذي جعل الإمبراطور ينسحب من أنطاكية عائداً إلى القسطنطينية بعد أيام^(٥).

ولا يخفى علينا أن تلك النهاية الفاشلة التي آل إليها أمر الحملة الصليبية - البيزنطية الفرنجية - سنة ١١٣٨، كان لها أثرها بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين في الشام من ناحية وفي تقوية جبهة المسلمين من ناحية أخرى^(٦). ذلك أن الخلاف الذي دب بين البيزنطيين والفرنجة أمام شيزر، وما تبع ذلك من انسحاب الصليبيين، جعل زنكي يشعر بأنه في غير حاجة إلى المساعدة التي وعده بها سلطان السلاجقة. والمعروف أن عماد الدين زنكي كان - كما وصفه ابن

(1) Setton : op. cit., I, p. 440.

(2) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٢هـ،

ابن القلانسي، ص ٢٦٦، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ١١٣ - ١١٤.

(3) Guillaume de Tyr, p. 658.

(4) Brehier : op. cit., p. 324.

(5) Guillaume de Tyr, pp. 662 - 665.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, II, pp. 121 - 122.

واصل - عنده من الدهاء والمكر شيء كثير^(١). فأدرك بسرعة أن مصالحه بالشام تتعارض ومجيء حملة كبرى من قبل السلطان السلجوقي يقوى بها نفوذ السلطان - على حساب زنكى نفسه بالشام. لذلك أرسل زنكى على الفور يلغى طلبه السابق ويعلن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان، بسبب رحيل ملك الروم^(٢).

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل زنكى قواته فاستولت على كفر طاب (حوالي ٢١ مايو سنة ١١٣٨) وفي شهر سبتمبر من العام نفسه استولى زنكى على حصن بزاعة^(٣)، ثم على الأثارب في أوائل شهر أكتوبر، وبذلك ضاعت جميع المكاسب التي حققتها الحملة البيزنطية الفرنجية^(٤).

تجدد العداء بين حنا كومنين والصليبيين :

على أن الإمبراطور حنا كومنين لم يلبث أن عاد إلى الشام عن طريق قيليقية، ومعه جيش كبير سنة ١١٤٢ ليستولى على أنطاكية استيلاء فعلياً. وعند وصوله في أواخر سبتمبر إلى قلعة بغراس - وهي قلعة كانت بيد الداوية تسيطر على الطريق بين قيليقية وأنطاكية - أرسل انذاراً نهائياً إلى ريموند بواتيه بتسليمه أنطاكية فوراً^(٥). وكان هذا الانذار ضربة قاسية لأمير أنطاكية، لاسيما في الوقت الذي لم تفتأ جيوش المسلمين تغير على إمارته^(٦). لذلك استشار ريموند فرسانه في أنطاكية، فأجمعوا على رفض الإنذار وعدم تسليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي^(٧). وكان أن أقبل الشتاء ببرده، وصار الوقت غير مناسب للقيام بعمل حربي كبير، فاكتمل الإمبراطور بالإغارة على الأقاليم والقرى المجاورة لأنطاكية، ثم عاد ليقضى فترة الشتاء في قيليقية قرب المصيصة.

وفي فترة الانتظار هذه، أخذ حنا كومنين يعيد النظر في موقفه من الصليبيين وموقف الصليبيين منه، وانتهى تفكيره إلى أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام ثابتة لها سندها التاريخي، فضلاً عن اعتراف الصليبيين أنفسهم بها في المعاهدات والاتفاقات التي عقدها مع الإمبراطورية سنة ١٠٩٧، ١١٠٨، ١١٣٧ ثم إن الإمبراطورية البيزنطية ليس لها الحق في السيادة على أنطاكية وحدها، بل على بيت المقدس أيضاً^(٨). لذلك فكر الإمبراطور في إثبات

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٩١.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٢ هـ.

(٣) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ٢٦٩.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٣.

(5) Guillaume de Tyr, p. 689.

(٦) ابن العديم : زبدة الطب ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(7) Guillaume de Tyr, pp. 690 - 691.

(8) Vasiliev : op. cit., II, p. 416.

سيادته على بيت المقدس، فأرسل إلى الملك فولك مبعوثاً يخبره بأن الإمبراطور سيأتي على رأس جيوشه للحج^(١). ولكن فولك رد على الإمبراطور البيزنطي رداً لبقاً أنكر فيه أي حق للإمبراطور البيزنطي في بيت المقدس. وقال إن الأحوال الاقتصادية في المملكة لا تسمح بايواء جيش الإمبراطور الضخم، وأنه إذا كان هناك ضرورة لحج الإمبراطور فليأت على رأس عشرة آلاف فقط من رجاله^(٢). ولم يعجب ذلك الرد الإمبراطور حنا كومنين، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبيرة شاملة على الشام عندما توفي فجأة في قيليقية في ٨ أبريل سنة ١١٤٢، وبذلك تخلص الصليبيون بالشام من خطر جائم^(٣).

على أنه يلاحظ أن العداوة بين البيزنطيين والصليبيين لم تنته بوفاه حنا كومنين، وإنما استمرت طالما قامت للصليبيين قائمة في الشام. من ذلك أن ريموند أمير أنطاكية أسرع إلى إرسال جيش إلى قيليقية عند سماعه بوفاه حنا كومنين، للاستيلاء على المراكز البيزنطية هناك. ولكن الإمبراطور البيزنطي الجديد - مانويل كومنين أرسل جيشاً وأسطولا لطرده الصليبيين من قيليقية. ثم هاجم أنطاكية نفسها وأنزل الهزيمة بريموند^(٤).

وهكذا ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، مما حال دون اشتراك الطرفين في عمل سريع ضد زنكي. هذا وإن كان سقوط الرها في يد زنكي سنة ١١٤٤، واستفحال قوة الأخير في شمال الشام، جعل ريموند دي بواتيه يؤمن بأنه من المتعذر الاحتفاظ بأنطاكية في وجه ذلك الخطر الجديد دون محالفة البيزنطيين ومساعدتهم. لذلك ذهب ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية إلى القسطنطينية سنة ١١٤٥، ليطالب مساعدة الإمبراطور البيزنطي، وهناك أعلن توبته وندمه عما بدر منه من قبل، وزار قبر الإمبراطور الراحل حنا كومنين ليترحم عليه ويشيد بمحاسنه! وبعد أن أعلن ريموند ولاءه للإمبراطورية البيزنطية وتبعية له للإمبراطور القائم ما نويل كومنين، عفا مانويل عنه ووعد بمساعدته ضد زنكي^(٥).

وليس معنى ذلك أن القلوب صفت وأن العلاقات غدت ودية بين البيزنطيين والصليبيين بالشام، وإنما استمر العداء بين الطرفين يخبى حيناً ويظهر أحياناً، حتى كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية في أوائل القرن الثالث عشر، كما سنرى فيما بعد.

(1) Guillaume de Tyr, pp. 691 - 692.

(2) Brehier : op. cit., II, p. 325.

(3) Runciman, op. cit., II, p. 224.

(4) Brehier : op. cit., p. 328.

(5) Michel Le Syrien III, p. 367.

الباب العاشر

بداية النهاية

[أفمن أسس بنيانه على تقوى من
الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه
على شفا جرف هار فانهار به في نار
جهنم والله لا يهدي القوم
الظالمين.]

(التوبة : ١٠٩)

الفصل الأول

التحالف بين الصليبيين

وحكام دمشق

زنكي وأتابكية دمشق :

ازدادت أهمية عماد الدين زنكي في نظر المسلمين بعد ثباته أمام البيزنطيين والصليبيين . وهو ذلك الثبات الذي ترتب عليه عودة الإمبراطور البيزنطي فاشلا إلى بلاده سنة ١١٣٨ . وحسبنا أن الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي والسلطان مسعود السلجوقي بادرا بارسال الخلع إلي زنكي فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما بظاهر مدينة حمص يوم عرفة ^(١) .

علي أن زنكي ظل يعتقد أن توحيد قوي المسلمين في الشام هي الخطوة الأولى التي يجب أن تسبق أية محاولة للقضاء علي الكيان الصليبي . لذلك لم تكد تنتهي الحملة ، الصليبية - البيزنطية الفرنجية - حتي أخذ زنكي يوجه جهوده نحو ضم الإمارات الإسلامية المجاورة ، وبخاصة أتابكية دمشق . وقد اتبع زنكي سياسة مأكرة ، فتقدم للزواج من صفوة الملك زمرد خاتون أرملة بوري أتابك دمشق السابق ووالدة شهاب الدين محمود الأتابك القائم بالحكم عندئذ ، واشترط زنكي أن يأخذ حمص لنفسه ، مقابل إتمام تلك الزيجة ^(٢) . وكان أن تم مشروع ذلك الزواج السياسي في أوائل يونية سنة ١١٣٨ ؛ وحصل زنكي علي حمص ، وعوض حاكمها معين الدين أنر باعطائه عدة حصون صغيرة ، مثل بعرين (بارين) واللكمة والحصن الشرقي .

ولم يلبث زنكي أن اقترب خطوة أخرى من تحقيق أطماعه في دمشق ، بعد مقتل شهاب الدين محمود بن بوري أتابك دمشق في أواخر يونية ١١٣٩ بأيدي بعض غلمانه . علي أن معين الدين أنر تدخل في تلك اللحظة ليفسد علي زنكي أطماعه ، فقبض أنر علي زمام الأمور في دمشق ، وأعدم القتلة ، ثم أسرع باستدعاء جمال الدين محمد بن بوري أمير بعلبك ليحل محل أخيه القتيل . وكان أن حضر جمال الدين محمد بسرعة ففوض أمر دولته إلي معين الدين أنر ، وزاد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٨٢ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦٦ .

ابن العديم زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٦٩ .

في علو مرتبته وزوجه بأمه (أرملة بوري الثانية)^(١) . ثم إن أنر لم يشأ أن يبتعد عن مسرح الأحداث في دمشق ، فأناوب عنه في حكم بعلبك أحد رجاله - مثلاً فعل عندما تولي حمص وبعرين - وظل هو في دمشق يرقب الأحداث عن كثب . وهكذا أدت تلك التطورات إلي ازدياد نفوذ أنر ، حتي أصبح الحاكم الفعلي لدمشق ، مما جعل ابن الأثير بصفة بأنه صار هو الجملة والتفصيل^(٢) .

علي أن الأمور لم تنتظم في دمشق بسهولة ، إذ كان للأتابك الجديد جمال الدين محمد بن بوري أخ يدعي بهرام شاه ، عز عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود ، فلجأ إلي حلب ، ومنها إلي الموصل ، طالباً مساعدة زنكي . هذا في الوقت الذي عز علي زمرد خاتون - عروس زنكي - أن يقتل ولدها شهاب الدين ، ويحل محله في دمشق ابن ضرته التي تزوجت أنر ، فطلبت هي الأخرى من زنكي أن يتدخل ، لطلب الثأر من غير تلوم ولا إغفال^(٣) . أما زنكي فقد وجد في كل ذلك فرصته السانحة للتدخل في شئون دمشق ، فأتي من الموصل مسرعاً وفي نيته مهاجمة دمشق . ولكنه أدرك أن مهاجمتها ليست بالأمر الهين ، وهي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري . وعندما علم زنكي بالاستعدادات التي أخذ أنر يجريها في دمشق غير رأيه واتجه إلي بعلبك - التي كانت مقطعة لأنر - واستولي عليها في ٢١ أكتوبر سنة ١١٣٩^(٤) . ويلاحظ أن زنكي لم يحترم العهد الذي منحه لأهل قلعة بعلبك بعد أن أمنهم ، فعذبهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، الأمر الذي أضرب به ضرراً بالغاً . ذلك أن أهالي المدن الإسلامية القريبة أخذوا يتخوفون من زنكي فقاوموا أطماعه وسياسته . من ذلك مايرويه ابن واصل من أن أهل دمشق عندما سمعوا بما فعله زنكي بأهل بعلبك قالوا : لو ملكنا لفعل بنا كذلك ، فجدوا في مقاومته^(٥) .

وقبل أن يهاجم زنكي مدينة دمشق نفسها ، حاول أن يغري الأتابك جمال الدين محمد بتسليم المدينة مقابل إعطائه حمص أو بعلبك ، ولكن محمد - ومن ورائه أنر - رفضا ذلك العرض ، مما جعل زنكي يستعد لمهاجمة دمشق . ولم يكد زنكي يحاصر المدينة حتي توفي جمال الدين محمد بن بوري في ٢٩ مارس سنة

(١) التويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ص ٨٧ - ٨٨ (تحقيق المؤلف) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(٣) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨٦ .

١١٤٠ (١) . وأمام هجمات زنكي التي اشتدت علي دمشق ، وفي وسط النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق ، برز أنر في صورة الرجل الأول في المدينة فارتفعت رتبته ونفذت أوامره في الدولة في الوقت الذي اختير مجير الدين أبق - ابن جمال الدين محمد - أتابكاً علي دمشق (٢) .

التحالف بين دمشق والملك فولك :

وعندما اشتدت هجمات زنكي علي دمشق ، لم يجد معين الدين أنر حرجاً في أن يستعين بمملكة بيت المقدس الصليبية ، فأرسل أسامة بن منقذ - ابن أخ عز الدين أبو العساكر سلطان علي بن منقذ صاحب شيزر - مبعوثاً إلي الملك فولك (٣) . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يوفد فيها أنر أسامة بن منقذ إلي الصليبيين لإجراء مفاوضات تستهدف إنشاء تحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، فقد سبق أن أرسله لذلك الغرض سنة ١١٣٧ - ١١٣٨ ثم مرة أخرى في أوائل سنة ١١٤٠ ، قبل وفاة الأتابك جمال الدين محمد ، لاستئناف المفاوضات التي بدأها في المرة السابقة (٤) .

ويروي ابن العديم وابن الأثير أن أنر لجأ - لكي يحصل علي مساعدة الصليبيين - إلي تجسيم خطر زنكي عليهم وخوفهم من زنكي إن ملك دمشق . وأنه إن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام (٥) . وهنا أدرك الصليبيون أن زنكي الذي صار يمتلك فعلاً الموصل وحلب وحماه وحمص وبعبك ، لا ينبغي بأي حال أن يمتلك دمشق ، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمال العراق ، سيكون معناه القذف بالصليبيين في البحر . ولما كان فولك يعمل حساباً لنفقات الحرب ضد زنكي ، فإن معين الدين أنر تعهد له بدفع عشرين ألف دينار شهرياً طيلة مدة الحملة ؛ هذا فضلاً عن مساعدة الصليبيين في الاستيلاء علي بانياس التي أخذها المسلمون من الصليبيين سنة ١١٣٢ (٦) .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٩ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

(3) Guillaume de Tyr. I. 668. &

وكذلك كتاب الإعتبار لأسامة بن منقذ ، ص ٨١ .

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٩ ، ١٩٦ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٧٣ .

وكذلك الكامل لابن الأثير ، حواشي ٥٣٤ هـ .

(6) Guillaume de Tyr. p. 668 - 669

ويقول ابن القلانسي عن تلك الإتفاقية : " وقد كان تقرر الأمر مع الفرنج على الاتفاق والاعتضاد والموازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه (زنكي) والاختلاط في صده عن مراده ومنعه ووقعت المعاهدة على ذلك بالإيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا على ذلك مالا معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوة وrehina تسكن بها نفوسهم ، وأجبيوا إلي ذلك، وحمل المال والرهائن من أقارب المقدمين" (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢) .

وهكذا تمت الصفقة ، وعقد التحالف بين أتابكية دمشق الإسلامية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، وأخذ فولك يستعد لنجدة دمشق علي عجل ، مما جعل زنكي يترك حصار دمشق وينصرف عنها في أوائل مايو سنة ١١٤٠^(١) . ولكن بقي بعد ذلك أن يساعد أنر الصليبيين في الاستيلاء علي بانياس ، حسب وعده لهم . وكان حاكم بانياس - إبراهيم بن طرغت - قد أعلن تبعيته لزنكي منذ أواخر سنة ١١٣٧ ؛ فخرج معين الدين أنر علي رأس جيش دمشق لمساعدة الصليبيين في الاستيلاء علي بانياس . وقاومت بانياس الحصار طويلا ، رغم مقتل حاكمها إبراهيم بن طرغت بواسطة النورمان الذين حضروا بقيادة ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية لمساعدة فولك ، فضلا عن أمير طرابلس الذي خف إلي بانياس أيضاً لمساعدة فولك . وأخيراً اضطرت بانياس إلي الإستسلام في يونيه سنة ١١٤٠ ، فأحدث الصليبيون مذبحه شنيعة بين أهلها المسلمين رغم الأمان الذي أعطوه لهم قبل الإستسلام^(٢) .

ولم يلبث التحالف بين أنر وفولك أن ازداد قوة عندما قام أنر بزيارة ملك بيت المقدس في بلاطه ، بناء علي اقتراح أسامة بن منقذ . وقد تمت الزيارة في جو مشبع بروح الود وحسن التفاهم وتبادل عبارات الإخلاص من الجانبين ، فضلا عن تبادل الهدايا . ولم يكتف أنر بمصاحبة أسامة بن منقذ في زيارته لعكا ، بل زار معه كثيراً من المدن الصليبية الأخرى فضلا عن بيت المقدس ، مثل نابلس وحيفا وطبرية وسبسطية (سبسطية) ؛ حيث قوبل أنر بالحفاوة والترحيب في جميع تلك البلاد^(٣) .

أما زنكي فقد ظل يرقب تحركات جيوش دمشق والصليبيين حتي افترقت عن بعضها عقب الاستيلاء عن بانياس ، وعندئذ أغار علي حوران ثم انتقل إلي غوطة دمشق ، وقام ليلة ٢٢ يونيه سنة ١١٤٠ بغارة علي دمشق نفسها^(٤) . ويروي ابن واصل أن أهل دمشق خافوا «وارتج البلاد» لرؤية عسكر زنكي ، ولكنه لم يستطع مواصلة هجومه علي المدينة لغلبة أكثر عسكره وتفرقهم^(٥) . وفيما عدا

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .

(2) Guillaume de Tyr. p. 671 - 675

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) وقد روى أسامة بن منقذ كثيراً من أخبار مشاهداته في المدن الصليبية وضمنها معلومات طريفة عن حياة الصليبيين وعاداتهم . (أنظر كتاب الاعتبار ص ١٣٥ - ١٣٩) .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣ ،

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٨٩ .

ذلك لم تشهد الأشهر التالية سوى عدة حروب محلية بين زنكي وإمارة أنطاكية بوجه خاص^(١).

وهكذا يمكن القول بأن التحالف الذي تم بين الصليبيين وحكام دمشق سنة ١١٤٠ قد جمد الموقف في بلاد الشام ، وشل حركة زنكي إلي مدي بعيد .

نهاية الملك فولك :

وفي طوال تلك الأثناء لم يكف فولك ملك بيت المقدس عن مواصلة نشاطه لرعاية مصالح الصليبيين وتحسين بلادهم والدفاع عن كيانهم . من ذلك أنه بنى قلعة صفد سنة ١١٤٠ جنوبي دمشق علي جبل مرتفع . وقد صار لهذه القلعة شأن كبير في الحرب الصليبية نظراً لموقعها الفذ الذي يشرف علي الجزء الشمالي من إقليم الجليل ، وعلي الطريق بين دمشق وعكا ، ولذلك كانت تلك القلعة من آخر المعاقل الصليبية التي استطاع المسلمون الاستيلاء عليها في القرن الثالث عشر^(٢).

وإذا كان الملك فولك قد استطاع - بالاستيلاء علي بانياس وبناء قلعة صفد - أن يحمي إقليم الجليل من ناحية الشمال ، أي من ناحية دمشق ، فإنه لم يلبث أن شرع في إقامة عدة قلاع في جنوب مملكته ليحميها من ناحية مصر . ومن أهم هذه القلاع يبني (يبنا) علي الطريق بين عسقلان من جهة واللد والرملة من جهة أخرى ؛ ثم قلعة تل الصافية بين بيت لحم وعسقلان ، وقلعة بيت جبرين جنوبي القلعة السابقة - وتشرف علي الطريق بين غزة وعسقلان من ناحية والخليل من ناحية أخرى . وقد عهد فولك بهذه القلعة الأخيرة إلي الاسبتارية^(٣).

وفي الوقت الذي أبدي فولك هذا الاهتمام بالجبهة الجنوبية الغربية لمملكة بيت المقدس ، اهتم أيضاً بالجبهة الجنوبية الشرقية ، فحصد مواقع الصليبيين في الجنوب الشرقي من البحر الميت ، وحرص علي أن يحتفظ بسيطرة الصليبيين علي طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، وشيد حصن الكرك سنة ١١٤٢^(٤). ولا شك في أن حصن الكرك هذا - بالإضافة إلي حصن الشوبك - مكنا الصليبيين من بسط سيطرتهم علي المناطق وطرق التجارة والقوافل الواقعة جنوبي البحر الميت وشرقيه ، مما اضطر البدو الرحل في تلك الجهات إلي

(١) ابن العديم (زبدة الحلب) ج ٢ ص ٢٧٤ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 138 .

(3) King : The Knights Hospitallers p. 34 .

(4) Stevenson : op. cit. p. 146.

الخنوع للصليبيين ودفع مقررات ثابتة لهم ^(١).

وأخيراً توفي فولك ملك بيت المقدس في عكا في نوفمبر سنة ١١٤٣ ، بعد أن نهض بواجبه كاملاً في تدعيم مركز الصليبيين في بلاد الشام وحمايتهم من الأخطار التي هددتهم ، سواء من جانب المسلمين أو البيزنطيين . وقد خلف فولك من زوجته مليزاند طفلين : بلدين في الثالثة عشر من عمره ، وعموري في السابعة ، فأعلن الأول ملكاً علي بيت المقدس تحت وصاية أمه ^(٢).

(1) Runciman : op. cit. II. p. 230 .

(2) Qesant, Palmer : Jerusalem, p. 296 .

الفصل الثاني

سقوط الرها

اضمحلال إمارة الرها :

إذا كان فولك ملك بيت المقدس قد اهتم اهتماماً خاصاً بتحسين الحدود الجنوبية للصليبيين في الشام ، إلا أن الخطر الذي هدد الصليبيين عند منتصف القرن الثاني عشر زحف من الشمال لا من الجنوب . ففي الوقت الذي نجح ملوك بيت المقدس في حماية دولتهم عن طريق محالفة الدماشقة ، في حين كان الفاطميون لا يشكلون خطراً جدياً على الصليبيين ؛ إذا بالصليبيين في الرها وأنطاكية يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام زنكى أتاك الموصل وحلب . وإذا ذكرنا زنكى فإنما نعني الرجل الذي أخذ نفوذه يتسع وخطره يزداد وضوحاً في تلك المرحلة يوماً بعد آخر .

حقيقة إن جهود زنكى ضد الصليبيين قد تعثرت بسبب تحالف البيزنطيين مع الصليبيين ضد المسلمين بالشام ، ولكن هذا الحلف لم يلبث أن تصدع ، حتى تحول الموقف إلى عدااء مكشوف بين البيزنطيين والصليبيين سنة ١١٤٣ ، مما أتاح الفرصة لزنكى كي يستأنف جهاده ضد الصليبيين من جديد ^(١) .

وقد ساعد زنكى على تحقيق أهدافه في تلك المرة التنافس الشديد بين ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية وجوسلين الثاني أمير الرها ، وهو التنافس الذي لم يلبث أن انقلب إلى عدااء مرير ^(٢) . وإذا كان أميراً أنطاكية والرها قد اضطرا إلى التعاون لدفع خطر المسلمين ، فإن ذلك التعاون إنما تم تحت ضغط ملوك بيت المقدس الأقوياء ، مثل بلدوين الثاني وفولك . ولكن وفاة الملك فولك وقيام صبي قاصر في عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، جعل أميراً أنطاكية والرها في حل من أن يكشف النقاب عن حقيقة شعورهما نحو بعضهما البعض ، دون أن يخافا سطوة ملك كبير .

وفي تلك الظروف بالذات ، نهض زنكى ليوجه ضربته ضد الرها ، تلك الإمارة التي أحاط بها المسلمون من كل ناحية والتي فصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في الشام . ولا يخفى علينا أن الرها الصليبية كانت تشكل خطراً

(1) Setton : op. cit. I, p. 459 .

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 709 .

كبيراً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ^(١) .

ثم إن هناك عامل واضح أدى إلى إضعاف إمارة الرها ومكن زنكي من الإستيلاء عليها في نهاية الأمر ، هو أن أميرها جوسلين الثاني لم يشبه أباه في شجاعته وقوة بلائه ضد المسلمين ^(٢) . هذا إلى أن أم جوسلين الثاني كانت أرمنية ؛ فنشأ يميل إلى الأرمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين كالسريان ، ويفضلهم على المسيحيين الغربيين ؛ مما سبب قلقاً بين فرسانه الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الرها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن جوسلين الثاني كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية ، حتى أنه في الوقت الذي هاجم زنكي الرها ، اختار أن يترك مدينته ليقوم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات ؛ استطعنا أن نكون فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوط إمارة الرها في قبضة زنكي ^(٣) .

زنكي يستولي على الرها :

وكان أن التمس زنكي عذراً لمهاجمة الرها في أن جوسلين الثاني تحالف ضده مع بني أرتق في ديار بكر لذلك بدأ زنكي بمهاجمة الأراتقة ، وانتزع منهم عدة قلاع في ديار بكر ^(٤) . ويبدو أن اتجاه زنكي ضد الأراتقة أولاً كان خدعة منه ليطمئن أهل الرها فيأخذهم على غرة . يؤيد ذلك ما ذكره النويري من أن زنكي «اشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم ، فاطمأنوا ، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية» ^(٥) . وهكذا لم يكد زنكي يتجه إلى ديار بكر حتى اطمأن جوسلين الثاني أمير الرها ، واتجه إلى أملاكه غربي الفرات (تل باشر) ليقطع الاتصال بين زنكي وحلب . وفي الحال جاءت عيون أتاك (زنكي) إليه وأخبرته الخبر ، فنادى في العسكر بالرحيل ، وانقض فوراً على الرها ^(٦) .

وقد بدأ حصار الرها في ٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤ ، في الوقت الذي كان جوسلين الثاني متغيباً في تل باشر . وعلى الرغم من استغاثة رئيس الأساقفة الكاثوليكي هيو الثاني ، إلا أن جوسلين الثاني قنع بالبقاء حيث هو واعتقد أن قوته

(1) Stevenson : op. cit. p. 153 .

(2) Cam. Med. History. Vol. 5. p. 307 .

(3) Grousset : Histoire des Croisades, I, p. 172 - 173 .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٢٩ (تحقيق المؤلف) .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢٧ ص ١٤٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

لا تسمح له بمنازلة زنكى ، فاكتفى بأن أرسل إلى أمير أنطاكية والوصية على مملكة بيت المقدس طالباً المساعدة ، ومع ذلك فإن أحداً من هؤلاء لم يتحرك لإنقاذ الرها ^(١) . وإذا كانت مليزاند الوصية على بيت المقدس قد أرسلت نجدة ، فإن تلك النجدة وصلت بعد فوات الأوان وسقوط الرها في يد زنكى . على أنه يلاحظ أن أهل الرها من الأرمن والسريان لم يحاولوا خيانة الصليبيين في تلك المرة ، وإنما أظهروا تضامناً قوياً مع الصليبيين الغربيين في الدفاع عن أسوار المدينة وقلعتها ^(٢) . ومع ذلك فإن كل تلك الجهود لم تفلح في إنقاذ الرها من هجوم زنكى ، فاستولى عليها في ٢٣ ديسمبر سنة ١١٤٤ رغم ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبائها ^(٣) .

ويذكر المؤرخون أن زنكى عندما استولى على الرها أعجبه البلد ، ورأى أن ذلك البلد ، لا يحوز في السياسة تخريب مثله ^(٤) . لذلك لم يتبع في الرها السياسة نفسها التي سبق أن اتبعها في كثير من المدن التي استولى عليها من قبل ، وبخاصة بعلبك التي ذبح حاميتها الدمشقية بعد أن منحها الأمان . وإنما لجأ زنكى في الرها إلى سياسة حكيمة ليضمن بقاء المدينة في قبضته ، فلم تكذ تنتهي موجة الاضطراب الأولى التي أعقبت تدفق المسلمين داخل المدينة ، حتى أمر زنكى رجاله بالكف عن العدوان والقتل ، وشمل أهل الرها من المسيحيين المحليين بحمايته ، فلم يمكن أحداً من جنوده من الاعتداء عليهم ، وأمر عساكره برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره ^(٥) .

وهنا يبدو أن زنكى لجأ إلى سياسة بعيدة النظر - هي السياسة نفسها التي اتبعها صلاح الدين فيما بعد - أعنى تشجيع المسيحيين المحليين من السريان والأرمن وغيرهم ، وإحاطتهم بعطفه ورعايته ، والسماح لمن غادر منهم المدينة تحت تأثير الاضطهاد الذي تعرضوا له من الصليبيين الكاثوليك بالعودة إلى مدينتهم ، وبذلك أوجد لنفسه دعامة محلية تؤيده ويستند إليها في حكم الرها ^(٦) . وقد اتضحت أركان هذه السياسة وتأكدت عندما استسلمت قلعة الرها - التي ظلت تقاوم حتى ٢٥ ديسمبر سنة ١١٤٤ - إذ عفا زنكى عن رجالها من السريان

(1) Stevenson : op. cit. p. 149 .

(2) Nerses Shnorhali : Elegie Sur la Prise d'Edesse (Doc. Arm; I. p. 247 - 255) .

(٣) ابن القلانسي : نيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ،

ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٣٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .

(6) Michel Le Syrien . III, pp. 262 - 268 .

والأرمن والأرثوذكس ، ولم ينتقم إلا من الصليبيين الكاثوليك ^(١) . كذلك احتفظ زنكى للأرمن والسريان بكنائسهم ، في حين دمر بعض كنائس الصليبيين الكاثوليك ^(٢) . وهكذا لم يلبث أن اطمان أهل الرها الأصليين على مصيرهم وعاد البلد إلى حاله الأول ، واكتفى زنكى بأن ترك فيها حامية صغيرة للدفاع عنها ^(٣) . وبعبارة أخرى فقد عادت الرها إلى ما كانت عليه قبل استيلاء الصليبيين عليها في نهاية القرن الحادى عشر ؛ مدينة مسيحية الطابع معظم سكانها من المسيحيين الشرقيين - الأرمن والسريان - وتدين بالتبعية للأتراك ^(٤) .

ولم يكن من الصعب على زنكى بعد سقوط الرها أن يستولى على بقية المعاقل الصليبية شرقى الفرات ، فاستولى على سروج فى يناير سنة ١١٤٥ ، بحيث لم يتبق لجوسلين الثانى فى تلك الجهة غير البيرة ، وهو حصن حصين مطل على الفرات ، ويقع على الضفة الشرقية للنهر ^(٥) . وقد شرع زنكى فى محاصرة البيرة فعلا عندما علم بمقتل نائبه فى الموصل ، فاضطر إلى رفع الحصار والذهاب إلى الموصل لإقرار الأمور فيها . أما الحامية الصليبية فى البيرة ، فقد رأت سنة ١١٤٥ أنه من الأسلم أن تضع القلعة تحت حماية حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى أمير ماردين ، وإبنة نجم الدين ^(٦) .

وهكذا لم يتبق لجوسلين الثانى من حطام إمارته سوى تل باشر ، وسميساط ومرعش ، ودلوك ، وعينتاب ، وعزاز ، والراوندان .

نهاية زنكى :

والواقع أنه كان من الممكن أن يستأنف زنكى حروبه ضد الصليبيين غربى الفرات، لولا ما حدث فى الموصل من محاولة لعزله عن حكمها ^(٧) . وعندما سمع زنكى بمقتل نائبه نصير الدين جقر، ترك حصار البيرة - بعد أن كان أشرف

(1) L'Anonyme Syriacque, p. 282 .

(2) Runciman : op. cit. II. p. 237 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 190 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٩٤ & ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٠ .

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٧) قام بهذه المحاولة ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان ألب أرسلان عندئذ بالموصل وعماد الدين أتابكا له بالموصل، وإن كانت السلطة الفعلية بيد عماد الدين زنكى. وقد حسن البعض لآل أرسلان قتل نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل ليستأثر بالسلطة كلها دون عماد الدين زنكى.
(ابن واصل : مفرج الكروب. ج ١ ص ٩٥).

على أخذها - وأسرع إلى الموصل ليتمكن لنفسه فيها^(١).

وعلى الرغم مما كان يجرى في جوف العالم الإسلامي عندئذ من إنقسامات وحزازات سببها الخلاف بين أمراء السلاجقة بعضهم وبعضهم، ورغبة الخلافة العباسية في استعادة سلطتها الزمنية التي سلبها إياها سلاطين السلاجقة، إلا أن أحوال الصليبيين أنفسهم، سواء في مملكة بيت المقدس حيث كان بلدوين الثالث لا يزال قاصراً تحت وصاية أمه، أو في أنطاكية حيث كان ريموند دي بواتيه أضعف من أن يقوم بعمل جدي ضد المسلمين ؛ هذه الأحوال حالت دون اتخاذ إجراء فعال من جانب الصليبيين رداً على سقوط الرها. ولعل الصليبيين بالشرق الأدنى عندئذ لم يدركوا مغزى استيلاء المسلمين على الرها، ولم يدروا أن هذه الخطوة في نظر التاريخ جاءت بالنسبة للمسلمين فتح الفتوح وبالنسبة للصليبيين الخطوة الأولى في هدم البناء الذي شيده الفرنج بالشرق^(٢).

وكل ما هنالك هو أن الصليبيين بالشام اكتفوا ببعض الإجراءات السياسية للحد من خطر زنكي عليهم، فبالإضافة إلى محالفة الدماشقة، لجئوا أيضاً إلى محالفة الأراتقة في الشمال، أي في ماردين. وكان للأراتقة مصلحة فعلية في الحد من نفوذ زنكي بعد أن صار خطراً يهددهم في الشمال. وازدادت قوة هذا التحالف بين الأراتقة والصليبيين عندما سلم الصليبيون البيرة للأراتقة عقب جلاء زنكي عنها. ومهما يكن من أمر فإن استيلاء صاحب ماردين - من بنى أرتق على البيرة - جعل ملكية هذه القلعة الهامة تنتقل من الصليبيين إلى المسلمين، وبذلك لم يبق شيء مما هو شرقي الفرات بيد الفرنج^(٣).

على أن زنكي لم يكد يفرغ من إخماد فتنة الموصل حتى أعد حملة كبيرة وزودها بالآلات الحصار برسم محاربة الصليبيين ؛ وإن كان يبدو - كما لاحظ المؤرخ ابن العديم نفسه - أن زنكي كان ينوي مهاجمة دمشق لا الصليبيين. وقبل أن تتضح نية زنكي من تلك الحملة الجديدة، علم بتآمر الأرمن في الرها وأنهم استدعوا جوسلين الثاني بنية الإيقاع بمن فيها من المسلمين، والتخلص من الحامية الصغيرة التي تركها زنكي في المدينة. لذلك أسرع زنكي إلى الرها وأعدم المتآمرين. وفي تلك المرة اضطر زنكي إلى طرد جزء من سكان الرها الأرمن،

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

(2) Gam. Med. Hist, vol. 5, p. 307.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٩٦.

ويقول ابن واصل عندما انصرف عماد الدين زنكي عن البيرة، خاف من فيها من الفرنج أن يعود إليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فكتبوا صاحب ماردين وسلموها إليه.

وأحل محلهم ثلثمائة أسرة من اليهود، لأن هؤلاء كانوا ألد أعداء المسيحيين عموماً^(١).

ثم كان أن اختار زنكي بعد ذلك أن يقوم باخضاع قلعة جعبر علي الفرات بين بالس والرقعة، وكانت هذه الإمارة العربية الصغيرة تابعة لبني عقيل (العقيليين)^(٢)، ولكن وضعها صار محشوراً داخل أملاك زنكي الجديدة، الأمر الذي دفعه إلى الاستيلاء عليها قبل أن يقوم بحملته على دمشق. ولكن زنكي طالبت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يتيسر له فتحها ؛ ومع ذلك فقد استمر زنكي مرابطاً أمامها، حتى قتله فجأة أحد خصيائه - ويدعى يرناقش (بيرناقش) - في منتصف سبتمبر سنة ١١٤٦.

ولاشك في أن خسارة المسلمين جاءت فادحة بقتل زنكي، حتى لقد صاح أهل قلعة جعبر أنفسهم في القاتل ؛ لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله^(٣). ولم يلبث أن تبدد الجيش الكبير الذي جمعه زنكي، فرجع الحلبيون إلى حلب ومعهم نور الدين محمود بن زنكي وبصحبه شيركوه^(٤) ؛ في حين عادت قوات الموصل من حيث أتت ومعها سيف الدني غازي الإبن الثاني لزنكي، وبصحبه الوزير جمال الدين محمد الأصفهاني^(٥).

نور الدين محمود والرها :

ولم يصادف أبناء زنكي صعوبة في الاحتفاظ بملك أبيهم بفضل معونة إثنين من رجال زنكي الأوفياء، هما جمال الدين محمد الأصفهاني، رئيس ديوان زنكي، وصلاح الدين محمد الياغيساني أمير حاجب. وبفضل معونة صلاح الدين

(١) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢ ص ٢٨١.

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢.

Michel Le Syrien, p. p. 267 - 268.

(٢) كان صاحب جعبر عندما هاجمها زنكي هو شهاب النولة مالك بن علي بن سالم.

(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٦ - ترجمة أستاذنا المرحوم زكي محمد حسن).

(٣) ابن العديم : زبدة الطلب ج ٢، ص ٢٨٢.

ويروى ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤) أن يرناقش هذا كان من أصل فرنجي ؛ وذكر ابن العديم (زبدة الطلب، ج ٢ ص ٢٨١) أن زنكي كان يهدده في النهار، فخاف منه، فقتله في الليل في فراشه.

(٤) كان شيركوه هذا أخا أيوب الذي سبق أن أنقذ حياة زنكي سنة ١١٣٢، كما سبق أن أشرنا

(٥) ذكر النويري أن عماد الدين زنكي "خلف من الأولاد : (١) سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده

(٢) نور الدين محمود وهو الملك العادل. (٣) قطب الدين موبود وهو أبو الملوك بالموصل.

(٤) نصرة الدين أمير ميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ، ونور الدين من

الذكور، وبقي في عقب قطب الدين.

(نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٤٨) (تحقيق المؤلف).

محمد الياغيسيانى نجح نور الدين محمود - ابن زنكى البكر - فى تثبيت قدمه فى حلب، فى حين تمكن أخوه سيف الدين غازى من تثبيت قدمه فى الموصل بفضل مساعدة ورعاية جمال الدين محمد الأصفهانى^(١). وبذلك انقسمت دولة عماد الدين زنكى بين ولديه، نور الدين محمود وسيف الدين غازى، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور^(٢).

على أن وفاة زنكى وتقسيم ملكه بين ولديه أتاح فرصة طيبة لأعداء الدولة الزنكية من المسلمين والمسيحيين سواء^(٣). ففى الجنوب أسرع معين الدين أنر إلى إرسال قوة من دمشق احتلت بعلبك، وأخضعت حكام حمص وحماه. وفى الشرق استرد الأراتقة المدن التى سبق أن سلبهم إياها زنكى فى ديار بكر. وفى الوسط - أى فى شمال الشام - قام ريموند أمير أنطاكية بحملة على حلب حتى وصل إلى أسوار المدينة. أما جوسلين الثانى الذى كان ما زال قابلاً فى تل باشر، فقد أتاح له كل هذه الظروف فرصة طيبة ليعمل على استرداد الرها^(٤). ولعل جوسلين الثانى كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكى لأن أخذ الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به زنكى فى حياته، وهو العمل الرئيسى الذى أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة فى التاريخ، فكان معنى نجاح الصليبيين فى استرداد الرها أن أبناء زنكى سيفقدون المجد الذى حققه والدهم^(٥).

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن زنكى تسامح مع أهل الرها من المسيحيين المحليين - السريان والأرمن - وتركهم يحيون حياتهم العادية فى المدينة، فى حين اكتفى بوضع حامية صغيرة فى قلعة الرها لحراستها. وهنا نلاحظ أن شعور السريان تجاه زنكى وحكم السلاجقة اختلف عن شور الأرمن. فبينما تحمس السريان لحكم السلاجقة ورأوه أفضل من حكم الأرمن ثم الصليبيين، إذا بالأرمن يتحينون الفرص للتخلص من حكم السلاجقة والعودة بالمدينة إلى حكم الصليبيين. وربما كان من العوامل التى قربت جوسلين الثانى إلى نفوس الأرمن فى الرها أن أمه كانت أرمنية، وبالتالي فقد كان ذلك الأمير - فى نظرهم - نصف أرمنى^(٦).

ولم يلبث أن تم الاتصال سراً بين الأرمن فى الرها وجوسلين الثانى، الذى نجح فى الإستيلاء على الرها - ومعه بلدين حاكم مرعش - فى أواخر أكتوبر

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٤ - ٨٥.

(2) Stevenson : op. p. cit 154.

(٣) يصف ابن الأثير موقف دولة زنكى بقوله "كان الأعداء محققين ببلاده، وكلهم يقصدها ويريد أخذها، (الكامل، حوادث سنة ٥٤١ هـ).

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨.

(5) Runciman : op. cit., II, p. p. 239 - 240.

(6) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 198.

سنة ١١٤٦^(١). على أن جوسلين الثاني لم يستطع الاستيلاء على قلعة الرها التي احتمت بها الحامية السلجوقية، فامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين^(٢)، مما جعله يسارع بطلب النجدة من أميرى أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش بيت المقدس. ولكن نور الدين محمود - ابن عماد الدين زنكى - كان أسرع حركة من الصليبيين، فلم يكد يعلم باستيلاء جوسلين الثاني على الرها، حتى خف علي رأس جيش كبير وحاصر المدينة^(٣). وهكذا وجد جوسلين الثاني نفسه ومعه أعوانه من الصليبيين والأرمن - وقد وقعوا بين شقى الرحي، فالسلاجقة داخل الرها محتمين بقلعتها، ونور الدين محمود يحاصر المدينة من الخارج.

ومن الواضح أن أقصى ما كان يستطيع جوسلين الثاني أن يفعله في ذلك الموقف هو محاولة الخروج سالماً من المدينة. وكان أن نجح جوسلين الثاني وفرسانه في الهروب^(٤)؛ ولو أن العملية لم تتم في سهولة لأن فرسان السلاجقة لاحقوهم وقتلوا ثلاثة أرباعهم. وكان من جملة القتلى بلدوين حاكم مرعش في حين أصيب جوسلين الثاني بجرح في رقبته، واستطاع في صعوبة بالغة الفرار إلى سميساط^(٥). أما أهل الرها من المسيحيين فقد لاقوا جزاء غدرهم، ولم ينفعهم جوسلين الثاني الذي لاذ بالفرار وتركهم يأخذون درساً قاسياً على أيدي قوات نور الدين. ولم يفرق السلاجقة في تلك المرة بين الصليبيين والمسيحيين المحليين، أو بين السريان والأرمن، وإنما أعملوا السيف في الرجال وساقوا النساء والأطفال أسرى إلى حلب^(٦)، وبذلك دخلت (الرها) من أهلها ولم يبق منهم بها إلا القليل^(٧). وهكذا انتهت محاولة جوسلين الثاني لاسترداد الرها بكارثة حلت بالصليبيين والأرمن والسريان جميعاً، وفاقت في وقعها كارثة سقوط الرها لأول

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 728 - 729.

(٢) ابن الأثير : لاكامل، حوادث سنة ٥٤١ هـ.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٦.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١١.

(٥) يلاحظ أن الرها كانت تقع في منطقة نفوذ سيف الدين غازي ابن الأتابك زنكى، لأن سيف الدين امتلك الموصل وما يتبعها من أملاك أبيه شرقي الفرات. والواقع أن سيف الدين لم يتقاعس عن إنقاذ الرها عندما علم باستيلاء جوسلين الثاني عليها. ولكن عساكره وصلت بعد أن كان أخوه نور الدين قد استولى عليها فعلاً. وعندما وجد سيف الدين غازي أن أخاه نور الدين محمود صاحب حلب استولى على الرها فعلاً، تركها له "ولم يعارضه فيها". (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١١١).

(6) Michel Le Syrien III, p.p. 270.

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ & Guillaume de Tyr, I, p.p. 731 - 732
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤١ هـ & النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ١٥٢
(تحقيق المؤلف).

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٧.

مرة في يد زنكي سنة ١١٤٤ . حقاً إن العالم المسيحي تأثر لضيق الرها سنة ١١٤٤ ، ولكن رد الفعل الذي أحدثه استيلاء المسلمين عليها للمرة الثانية سنة ١١٤٦ كان أشد وأقوى بكثير، نظراً لما حل بمختلف الطوائف المسيحية في المدينة من قتل وتشريد، مما أثار شعور الغرب الأوروبي وأدى إلى الدعوة للحملة الصليبية الثانية^(١).

أما نور الدين محمود، فلم يعد يفتن باسترداد الرها، وإنما جرفه تيار الجهاد إلى توجيه هجماته من حلب ضد إمارة أنطاكية. وهكذا بدأ نور الدين محمود كفاحه بداية طيبة تبشر بالأمل في استمرار سياسة أبيه، فنجح في سنة ١١٤٧ - ١١٤٨ في الاستيلاء على عدة قلاع، مثل بسرفوث وأرتاح والأثارب وكفر لاثا^(٢).

وهكذا إذا كان الصليبيون قد ظنوا أنهم ارتاحوا من كابوس ثقيل بوفاة زنكي، وأن ابنه نور الدين لا يمتلك من الخبرة والكفاية ما يجعله خطراً عليهم فإن ظنهم سرعان ما خاب، إذ لم تمض على مقتل زنكي أشهر قليلة حتى أثبت لهم ابنه نور الدين أن هذا السبل من ذاك الأسد^(٣).

(1) Setton : op. cit., I, p. 400.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث ٥٤٢ هـ.

(3) Runciman : op. cit II, p.p. 240 - 241.

الفصل الثالث

تصدع الحلف بين دمشق والصليبيين

سياسة معين الدين أنر :

أثبتت الأحداث التي أعقبت وفاة عماد الدين زنكي أن سياسة ابنه نور الدين محمود استهدفت محاربة الصليبيين - وبخاصة في أنطاكية - وفي الوقت نفسه استمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمال العراق وفي الشام واكتساب ودها وصادقتها^(١) . وهكذا اختص نور الدين إمارة أنطاكية بهجماته سنة ١١٤٧ - ١١٤٨ ، حتى سلبها معظم أملاكها تقريباً شرقاً نهر العاصي ، كما سبق أن ذكرنا . وفي الوقت نفسه حرص نور الدين على استرضاء أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، فأظهر له الاحترام ، وترجل له وقبل الأرض بين يديه ؛ وذلك كله حرصاً على وحدة الصف ، وحتى «تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا»^(٢) .

ولم يكتف نور الدين محمود بذلك ، بل حاول استمالة حكام دمشق إلى جانبه وكسب ودهم ، وبدأت السفارات تتردد بين حلب ودمشق بغية تهدئة النفوس ولم الشمل ، حتى انتهى الأمر باتفاقية صلح بين نور الدين ومعين الدين أنر ، عقدت في دمشق في مارس سنة ١١٤٧^(٣) .

وكان المفروض أن يفيق الصليبيون ويأخذوا حذرهم من سياسة نور الدين ، لاسيما بعد أن أخذ يسعى لدعم الإتفاقية السابقة مع دمشق عن طريق الزواج من ابنة أنر^(٤) . ولكن قيام ملك قاصر تحت وصاية امرأة على عرش مملكة بيت المقدس ، لم تتح لهم فرصة لتقدير خطر التقارب بين نور الدين محمود ودمشق ، في الوقت الذي أخذ نور الدين ينهض ليجمع كلمة المسلمين على الجهاد ؛ مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين في بلاد الشام^(٥) .

وكان معين الدين أنر - شيخ دمشق العتيد وصاحب السلطة العليا فيها - لا يزال يباشر توجيه سياسة تلك الأتابكية باسم الأتابك مجير الدين أبق ، الذي كان

(1) Setton : op. cit, I. p. 513 - 514

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١١ - ١١٢ ،
النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٠

(3) Stevenson op. cit. p. 157 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٨ - ٢٨٩

(5) Grousset : Hist. des Groisades . II p.p. 209 - 210 .

لا يزال صغيراً . وعلى الرغم من الصلح بين نور الدين والدماشقة ، فقد ظل أنر محافظاً على حسن العلاقة مع الصليبيين ، كما أبقى على التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، لأن هذا التحالف في نظره كان بمثابة حجر الزاوية في حفظ ميزان القوى في بلاد الشام أمام ازدياد نفوذ الدولة الزنكية في حلب . ولم يكن يخفى على أنر أن دمشق ما فتئت دائماً موضع أطماع زنكي ثم ابنه نور الدين ، ولذلك تمسك أنر باخلاصه لبلدوين الثالث الصغير وأمه مليزاند الوصية عليه ، وحرص على أن يستمر معهما بالروح نفسها التي بدأ بها تحالفه مع الملك فولك (١) .

والواقع إن سياسة معين الدين أنر في تلك الفترة تدل على دهاء واضح وتسترعى منا انتباهاً خاصاً . ذلك أنه في الوقت الذي استرد أنر مدينة بعلبك بعد مقتل زنكي (٢) - كما سبق أن أشرنا - اكتفى بذلك ولم يشأ أن يغامر بارسال حملة للاستيلاء على حمص وحماه ، وإنما فضل أن يتصل سراً بحكام هاتين المدينتين من قبل الزنكيين ، ويعقد معهما إتفاقيات تجعلهما يعترفان بالسيادة لدمشق (٣) . على أن الذي يسترعى الانتباه في كل ذلك هو أن معين الدين أنر أخذ ينفذ سياسته الخاصة باسترداد متعلقات دمشق دون أن يستثير نور الدين ، بل على العكس تم زواج ابنته من نور الدين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة ، وبذلك وجد نور الدين نفسه بعد تلك الزيجة لا يستطيع أدبياً التوسع جهة الجنوب (٤) . هذا كله في الوقت الذي حرص أنر على الاحتفاظ بتحالفه مع مملكة بيت المقدس . وهكذا استهدفت سياسة أنر في تلك الفترة إنشاء علاقات ودية مع جميع القوى المجاورة في بلاد الشام ، سواء من المسلمين أو الصليبيين (٥) .

مسألة حوران

على أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس لم يدم طويلاً ، وسرعان ما تفككت عراه بسبب جهل حكام بيت المقدس بمنعطفات السياسة وموقفهم من مسألة حوران موقفاً معادياً لمعين الدين أنر . والمعروف أن حوران وتوابعها كانت تابعة لدمشق في الوقت الذي أراد ألتونناش - حاكم صرخد وبصرى - أن يستقل ،

(١) Guillaume de Tyr, I, p. 716 .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٤
ابن القلانسي ؛ ض ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٣) يذكر أبو شامة (المصدر السابق ، ص ١٢٥) أن معين الدين أنر أرسل إلى الوالي بحمص وتقرررت بينه وبينه مهانة وموادة يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال . ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماة ، وتقرر بينهما مثل ذلك .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ هـ .

(٥) Grousset : op. cit. II, p. 211 .

فذهب إلى بيت المقدس سنة ١١٤٧ يطلب معونة الصليبيين . وكان العرض الذي تقدم به ألتونناش للصليبيين سخياً ، يتضمن استيلائهم على صرخد وبصرى مقابل معونتهم له في الاستقلال بحوران^(١) . وسرعان ما قبل بارونات بيت المقدس هذا العرض واستعدوا لإرسال جيش إلى طبرية لتنفيذ الخطة المتفق عليها^(٢) .

وعندما علم معين الدين أنر بذلك ، حاول أن يذكر المسؤولين في بيت المقدس بالحلف المعقود بين الطرفين ، ويحذرهم من أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى مخالفة نور الدين ، مما يوقعهم في خطر جسيم . ولكن الصليبيين لم يفقهوا حقيقة الموقف وأصموا آذانهم عن ذلك التحذير^(٣) .

وكان أن زحف الصليبيون وعلى رأسهم بلدوين الثالث - الذي بلغ السادسة عشر من عمره - من طبرية إلى حوران في مايو سنة ١١٤٧ . ولم يقف أنر مكتوف الأيدي أمام ذلك التحدى من جانب الصليبيين ، وإنما خرج على رأس جيش كبير من سلاجقة دمشق لسد طريق بصرى وصرخد في وجوههم ، فضلاً عن أنه أرسل يستنجد بنور الدين الذي أسرع من حلب لنجدة ومعه جيشه . وفي الوقت الذي وصل الصليبيون إلى بصرى ، كان معين الدين أنر قد اجتمع بنور الدين عند صرخد ، ومن هناك أسرعاً أولاً للاستيلاء على بصرى قبل أن يستولى عليها الصليبيون ، وبعد أن تم لهما ذلك استسلمت لهما صرخد^(٤) .

وهكذا لم يستطع الصليبيون تحقيق أي هدف من أهداف حملتهم الفاشلة ، وبقي عليهم أن ينسحبوا من بصرى إلى طبرية تحت تهديد جيوش نور الدين ومعين الدين أنر^(٥) . وفي وسط تلك المحنة ، أخذ الصليبيون يترحمون على التحالف مع أنر ويبدون الندامة على خيانتهم له ، فأرسلوا مبعوثاً إليه يطلبون منه مجرد السماح لهم بالعودة سالمين إلى فلسطين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يتمكنوا من العودة إلى بيت المقدس إلا بعد أن تحملوا كثيراً من المصاعب والمتاعب^(٦) . ويبدو أن معين الدين أنر كان لا يرغب عندئذ في توسيع الفجوة مع الصليبيين ؛ وكذلك فإن الصليبيين لم يرغبوا في إثارة شقاق مع دمشق . وفي الوقت الذي صار من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها بين دمشق وبيت المقدس ، إذا بالحملة الصليبية الثانية تصل إلى الشرق لتثير في نفوس الصليبيين

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(2) Stevenson : op. cit. p. 158 .

(3) Guillaume de Tyr p.p. 710 - 718 .

(٤) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(5) Guillaume de Tyr I. p. 723 - 724 .

(6) Stevenson : op. cit. p. 158 .

النزعة التعسفية ، وتجعلهم يفرطون في الاعتداد بأنفسهم والابتعاد عن روح التسامح والوثام مع جيرانهم المسلمين ^(١) .

مكانة نور الدين :

أما نور الدين محمود فقد ساعدت تلك الأحداث على إظهار كفايته في نظر المسلمين وخطره على الصليبيين . وكان نور الدين محمود قد بلغ عندئذ التاسعة والعشرين من عمره ، ولكنه أظهر من العقل وبعد النظر والكفاية كما لو كان في الخمسين ، حتى قال عنه النويري أنه «ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها» ^(٢) هذا إلى أنه لم يتصف بما اتصف به أبوه زنكي من قسوة وغلظة في بعض المواقف . وقد وجد إلى جانبه بطانة من الأوفياء الذين أخلصوا له النصيح والعمل . حقيقة إن نور الدين محمود كان أقل من أبيه في موارده المالية لأنه لم ينعم بحكم الموصل والجزيرة مثل أبيه ، ولكن نور الدين الذي حرم من أموال الجزيرة ومواردها استراح أيضاً من مشاكلها ومتاعبها ، وترك أخاه سيف الدين غازي ينعم بموارد الموصل وفي الوقت نفسه يقاسي كثيراً من عديد المشاكل من جانب الأراتقة والخلافة العباسية ، فضلاً عن سلطنة السلاجقة .

وهكذا ركز نور الدين محمود معظم نشاطه في ذلك الدور في ميدان الشام . وربما كان من العوامل الأساسية التي ساعدت نور الدين محمود في ذلك الوقت عدم حدوث منازعات خطيرة بين أبناء زنكي حول تركة أبيهم ، واستعداد الإخوة لمساعدة بعضهم بعضاً ضد ما واجههم من خطر مشترك ، فقنع نور الدين محمود بحلب ، وقنع سيف الدين غازي بالموصل ، أما أخوهما الثالث نصرة الدين محمد فقد حكم حران تابعاً لأخيه نور الدين ، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين لايزال في رعاية أخيه غازي بالموصل ^(٣) .

(1) Grousset : op. cit, Tome II, p. 225 .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ، ص ١٦٨ .

(3) Runciman : op. cit. II, p. 243 - 244 .

والأخ الثالث كما ذكره ابن القلانسي هو نصرة الدين أمير ميران أو أمير أميران (ذيل تاريخ ، دمشق ، ص ٢٢٨) إنظر أيضاً
ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٦ ، ابن الموصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٠ وكذلك زلباور : معجم الأنساب ، ص ٢٤٢ .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الثانية

مقدمة الحملة :

كان لسقوط الرها في يد المسلمين رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ المسيحية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق، فجاء سقوطها إيذاناً بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجحت الحملة الصليبية الأولى في أقامته بالشرق. لذلك أدرك الغرب الأوروبي أنه إن لم يسرع إلى ترميم ذلك البناء ومساندته، فإنه لن يلبث أن ينهار بأكمله ^(١).

ويبدو أن فكرة الحملة الصليبية الثانية نبتت في بلاط لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٤٥، وهو الملك المعروف بورعه وتقواه، ثم تأكدت هذه الفكرة في مجمع فزلاي Vezelay في آخر مارس سنة ١١٤٦، واستجاب لها إمبراطور الغرب كونراد الثالث في ديسمبر من العام نفسه ^(٢). وهكذا إكتسبت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ طابعاً مختلفاً في أساسه عن الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦، فبينما اتخذت الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر طابعاً جماهيرياً ضخماً إذ تألفت من جموع مختلفة من المسيحيين الغربيين الذين انتموا إلى أجناس وطبقات ودول متعددة، إذا بالحملة الصليبية الثانية قرب منتصف القرن الثاني عشر تتألف من جيشين نظاميين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي ؛ وهما كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ^(٣).

وقد أراد روجر الثاني ملك صقلية أن يجنب لويس السابع أخطار الطريق البري عبر آسيا الصغرى، فعرض عليه أن يقدم له ولجيشه السفن اللازمة لنقله إلى الشام مباشرة، فضلاً عن استعداده لتزويد الصليبيين بالمؤن والزاد أثناء رحلتهم البحرية ^(٤). ولكن ذلك العرض من جانب ملك صقلية النورماني كان لا يمكن أن يأتي لوجه الله والكنيسة، لاسيما وأن أطماع النورمان كانت معروفة جيداً في

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 307.

(2) Setton : op. cit. I, p. 467 - 469.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, ps. 307 , 353.

(4) Fletcher : The Making of Western Europe, p. 157.

لغرب والشرق جميعاً ، فقبل عرضه بالرفض . والحقيقة أن روجر الثاني كان يطالب بحقه الوراثي في إمارة أنطاكية ، مما أوقعه في عدااء شخصي مع ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية الذي ربطته بالعائلة المالكة في فرنسا روابط عائلية وثيقة ، أهمها أن ريموند نفسه كان عم ملكة فرنسا إليانور ، التي كان في النية أن تصحب لويس السابع في حملته الصليبية ^(١) .

وفي الوقت نفسه فإن كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا لا يمكن أن يقبل وضع يده في أيدي النورمان ، حتي ولو كان ذلك من أجل التعاون في خدمة الحركة الصليبية ، نظراً لما ساد العصر الذي اشتد فيه النزاع بين البابوية والإمبراطورية المقدسة ، من عدااء بين الإمبراطورية المقدسة من ناحية – والنورمان من ناحية أخرى ^(٢) . ولذلك تمسك كونراد الثالث أيضاً بالطريق البري إلى الشام ، وتم الاتفاق علي أن يسبق كونراد وجيشه ثم يلحق بهم الفرنسيون إلى القسطنطينية ، حتي لا يؤدي مسير الجيشين معاً إلي صعوبة في التموين ^(٣) .

وعند وصول الجيوش الصليبية إلي حدود الدولة البيزنطية في صيف سنة ١١٤٧ تكررت نفس المشاهد التي حدثت من قبل ذلك بنصف قرن عند زحف الحملة الصليبية الأولى إلي الشرق ، وذلك من ناحية عدوان الصليبيين علي أهالي البلاد التي مروا بها . ومهما يكن من أمر ، فقد وصل الصليبيون إلي القسطنطينية ، في سبتمبر – أكتوبر سنة ١١٤٧ ، وكان كل جيش من الجيشين الألماني والفرنسي يتألف من حوالي سبعين ألف رجل ، مما أثار مشاكل جديدة بين الصليبيين والبيزنطيين ، مثلما حدث بالضبط سنة ١٠٩٧ ^(٤) .

وفي تلك المرة أيضاً أعلن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين استعداداه للسماح للصليبيين بعبور أراضيهم ، وإمدادهم بالزاد ، بشرط تعهدهم بالولاء له من جهة ، وتسليمه ما يستولون عليه من مواقع في آسيا من جهة أخرى ^(٥) . ولكن المشكلة سنة ١١٤٧ بدت في أن زعماء الحملة الثانية كانوا من كبار ملوك الغرب الأوروبي وليسوا مجرد أمراء محليين كما كان الحال في الحملة الصليبية الأولى . وكيف كان منتظراً من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا أن

(1) Cam. Med. Hist. vol 5, p. 374 - 375.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور . أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢ - ٢٩٢ .

(3) Runciman : op. cit : II, p. 259.

(4) Vasiliev : op. cit. II, p. 419 - 420.

(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 339.

يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا أتباعاً للإمبراطور البيزنطي؟^(١).

أما الإمبراطور البيزنطي فكان متخوفاً من حدوث تطورات في مشكلة أنطاكية، لاسيما بعد أن أعلن أميرها ريموند دى بواتيه تويته في القسطنطينية سنة ١١٤٥ وتعهد بالولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي، كما مر بنا. فهل يظل ريموند علي موقفه الجديد من الإمبراطورية البيزنطية بعد وصول الحملة الصليبية الثانية إلي الشرق؟ لا شك في أن هذا الأمر كان مشكوكاً فيه، لاسيما وأن أحد زعماء الحملة الصليبية الثانية وهو لويس السابع ربطته بريموند روابط عائلية قوية جعلت من الممكن أن يعتمد عليه ريموند في تأييده ضد البيزنطيين^(٢).

وكان الإمبراطور مانويل كومنين قد شن حرباً علي سلاجقة الروم في آسيا الصغرى (١١٤٤ - ١١٤٦) واستطاع أن ينزل الهزيمة بجيوش مسعود بن قلع أرسلان سلطان قونية ويحرق ويدمر بعض مدنه، ولكن الإمبراطور عاد بعد ذلك إلي عاصمته دون أن يعقد صلحاً مع السلاجقة^(٣). ولم يلبث أن وصل الصليبيون الألمان بعد قليل إلي أسوار القسطنطينية، وساءت العلاقات بينهم وبين البيزنطيين، فأسرع الإمبراطور البيزنطي إلي عقد صلح مع مسعود سلطان قونية الذي أو شك الصليبيون أن يسلكوا أراضيه إلي الشام^(٤).

ومن الواضح أن هذه الخطوة الخطيرة التي إتخذها الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين كان لها أسوأ الأثر بالنسبة للحملة الصليبية الثانية. ولعلنا نذكر أن السبب الرئيسي في نجاح الحملة الصليبية الأولى ووصلوها الي بلاد الشام كان التحالف بين زعمائها والبيزنطيين، وهو التحالف الذي مكن الصليبيين سنة ١٠٩٧ من شق طريقهم وسط جموع السلاجقة بآسيا الصغرى. ولو كان البيزنطيون الذين استطاعوا سنة ١١٤٦ التوغل في بلاد سلاجقة الروم حتي وصلوا الي قونية نفسها، قد شاركوا الصليبيين في العالم التالي - سنة ١١٤٧ - في محاربة السلاجقة أو حتي اسهموا في مساعدتهم بتقديم مرشد وأدلاء كافين لهم^(٥)، لامكن القضاء علي تلك العقبة التي ظلت تعترض الطريق البري للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب، ولنجت الحملة الصليبية الثانية من المصير الفاشل الذي تعرضت له، ولتخلصت الدولة البيزنطية نفسها من خصم عنيد ظل رابضاً علي قلبها في آسيا الصغرى، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث نتيجة لاشتراطات إمبراطور

(1) Grousset : op. cit, Tome II, p. 226.

(2) Ostrogorsky : , op. cit., p 338 - 339.

(3) Ghalandon : Comnenes, II, p. 249 - 256.

(4) Runciman : op. cit, II. p. 266.

(5) Archer : The Crusades, p. 212.

الشرق مانويل كومنين، وتمنع إمبراطور الغرب كونراد الثالث ^(١).

فشل حملة الألمان في آسيا الصغرى :

ثم كان أن عبر كونراد الثالث البوسفور إلى آسيا الصغرى علي رأس قواته وشرع في الزحف شرقاً. وبدلاً من أن يتخذ الإمبراطور الألماني طريق الشاطيء الجنوبي لآسيا الصغرى ليحتمي بالقلع والمدن البيزنطية العديدة الواقعة علي ذلك الشاطيء، اختار أن يشق طريقه في جوف البلاد مخترقاً أراضي السلاجقة؛ ولم يتبع الطريق الساحلي سوى قسم من الجيش الألماني يبلغ الخمس ^(٢).

وفي منتصف أكتوبر سنة ١١٤٧ غادر الإمبراطور كونراد نيقية في طريقه الي قونية، عندما دب النزاع بين الألمان ودليلهم البيزنطي، فتركهم الدليل وتخلي عنهم في ٢٥ أكتوبر، مما عرض الصليبيين الألمان لأسوأ النتائج ^(٣). ذلك أنه لم يكد الألمان يقتربون من أسكي شهر حتي دهمهم السلاجقة في ٢٦ أكتوبر سنة ١١٤٧ وأعملوا فيهم قتلاً وأسرأ، فاضطر كونراد إلي التراجع في صعوبة بالغة نحو نيقية، مع من بقي من فلول جيشه، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم ^(٤).

وهكذا عاد الإمبراطور كونراد الثالث إلي نيقية في أوائل نوفمبر وهو في حال يرثي له من الإنهاك والذلة، ليلتقي في تلك المدينة بلويس السابع ملك فرنسا ^(٥).

وصول لويس السابع إلى الشام :

أما لويس السابع ملك فرنسا فقد وصل أمام أسوار القسطنطينية في ٤ أكتوبر سنة ١١٤٧، حيث صدمه نبأ الصلح المنفرد الذي عقده الإمبراطور البيزنطي مع سلاجقة قونية، والذي اعتبره بمثابة خيانة عظمي في حق الفكرة الصليبية بوجه عام وفي حق الحملة الصليبية الثانية علي وجه الخصوص ^(٦). لم تكن العلاقات بين لويس السابع ومانويل كومنين في تلك المرحلة أفضل مما كانت عليه بين كونراد الثالث ومانويل كومنين، بل لقد زاد الموقف سوءاً أن الإمبراطور البيزنطي لم يكد يعلم بعبور لويس السابع وجنوده البسفور إلي شاطئ آسيا الصغرى، حتي

(1) Grousset : op. cit, Tome II, p. 233 - 234.

(2) Setton : op. cit. I, p. 495.

(3) Guillaume de Tyr p. 739 - 741.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 745 & Michel Le Syrien.. p. 276.

(5) Michel Le Syrien. p. 276.

(6) Michaud : Hist. des Croisades, II, p. 158 .

اطمأن علي عاصمته ، فأمر بوقف إمداد الصليبيين بما لزمهم من تموين ، إلا إذا أقسم له جميع الأمراء الفرنسيين المشتركين في الحملة يمين الولاء والتبعية عما يفتحونه من أراض آسيوية ^(١) . وكان أن أذعن الملك لويس السابع لتلك الرغبة ، وتم للإمبراطور البيزنطي ما أراد أواخر شهر أكتوبر ، وما هي إلا بضعة أيام حتي وصلت حملة لويس السابع إلي نيقية لتفاجئ بالكارثة التي حلت بالألمان وإمبراطورهم كونراد الثالث ^(٢) .

ولم يشأ لويس السابع أن يعرض نفسه وجنوده للمصير السيئ الذي تعرض له كونراد الثالث ، فاختر أن يسلك الطريق الجنوبي المحاذي لساحل البحر المتوسط ، بعيداً عن جوف سلطنة الروم السلاجقة . لذلك اتجه لويس السابع - ومعه كونراد وقلوب جيشه - إلي أزمير ومنها إلي إفسوس (نوفمبر ١١٤٧) . وفي إفسوس أحس كونراد الثالث بحرج موقفه وضعف مكانته بعد أن فقد معظم جيشه وتسببت هزيمته أمام السلاجقة في تلطيخ كرامته . ويقال إنه أصيب بمرض مفاجئ جعله يترك جانب الفرنسيين ويعود مع جنوده الألمان إلي القسطنطينية ^(٣) . وقد مضى الإمبراطور الألماني بضعة أشهر في القسطنطينية ، حظي فيها بعطف مانويل كومنين ، حتي كان شهر مارس ١١٤٨ ، وعندئذ اتجه كونراد الثالث ومعه جنوده إلي فلسطين علي سفن بيزنطية ^(٤) .

وفي تلك الأثناء واصل لويس السابع وجنده تقدمهم من إفسوس صوب أنطاليا دون أن يصطدموا بالسلاجقة اصطداماً مباشراً خطيراً . وكانت أنطاليا مدينة حصينة تتبع الإمبراطورية البيزنطية ، وتقع علي الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، ولذلك أدي وصول الصليبيين إليها في يناير سنة ١١٤٨ إلي إتاحة فرصة طيبة لهم للراحة والاستجمام ، وإن استمروا يتعرضون لهجمات السلاجقة بين فينة وأخرى ^(٥) . وبوصول لويس السابع ورجاله إلي أنطاليا أصبح أمامهم طريقان للوصول إلي الشام ، إما طريق البحر إلي السويدية وأنطاكية ، وإما طريق البر بحذاء الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى إلي قيليقية وأنطاكية ، وقد انتصر الطريق الأول نظراً لبعد طريق البحر عن خطر السلاجقة . وإن كانت الصعوبة في ذلك الطريق قد تبلورت في كيفية الحصول علي السفن اللازمة لنقل الصليبيين إلي شاطئ الشام ^(٦) . وهنا أظهر البيزنطيون عداءهم مرة أخرى ، فامتنعوا عن تقديم

(1) Ostrogorsky : op. cit p. 339 & Brehier : op. cit. p. 330 .

(2) Chalandon : Comnenes. II. p. 301 - 304 .

(3) Fletcher : op. cit. p. 381 .

(4) Guillaume de Tyr, I, 744 - 747 .

(5) Setton : op. cit. I. p. 499 .

(6) Runciman : op. cit; II, p. 272 - 273 .

السفن اللازمة للصليبيين ، بل إنهم حرصوا علي إثارة المتاعب والعقبات في وجه الصليبيين ، مما أثار نقمة الغرب الأوروبي علي الأباطرة البيزنطيين ، ودولتهم ، وهي النقمة التي عبرت عن نفسها تعبيراً عملياً فيما بعد في الحملة الصليبية الرابعة (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت السفن التي اجتمعت في أنطاليا لنقل الصليبيين غير كافية ، فركب لويس السابع وحاشيته وبعض فرسانه ، وأبحروا إلي ميناء السويدية ليصلوا إليه في ١٩ مارس سنة ١١٤٨ . أما بقية رجال الحملة فقد ظلوا في أنطاليا يقاسون الأمرين من سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة حتي تم نقلهم علي دفعات إلي الشام (٢) .

لويس السابع في أنطاكية :

قوبل لويس السابع وزوجته إليانور في أنطاكية بالتهليل والفرح العظيم ، إذ رأي ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية وعم الملكة إليانور في تلك الحملة أداة طيبة تمكنه من استرداد أراضي المفقودة شرقي نهر العاصي ، والقضاء علي قوة نور الدين في حلب (٣) . والواقع إن ريموند كان محقاً في تفكيره إلي حد بعيد ، لأن الحملة الصليبية الثانية إنما أتت إلي الشام للقضاء علي قوة الزنكيين في شمال العراق والشام ، وبالتالي تأمين الأوضاع الخاصة بامارتي الرها وأنطاكية ، وهما الإمارتان اللتان تعرضتا أكثر من غيرهما لضربات الزنكيين بحكم تطرفهما جهة الشمال (٤) .

ولم يكن ريموند دي بواتيه وحده هو الذي حاول أن يستغل الحملة الصليبية الجديدة لصالحه ، بل رأي كل واحد من الأمراء الصليبيين في الشرق في حملة لويس السابع فرصة يمكنه استغلالها لتحقيق مصالحه الخاصة . فجوسلين الثاني اعتقد أن سقوط الرها هو المحرك الأول لتلك الحملة . وعلي ذلك يجب أن يتجه الصليبيون أولاً نحو الرها لاستردادها من المسلمين . وريموند الثاني أمير طرابلس أراد أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي عن طريق أمه الفرنسية لتسخير الحملة في استرداد قلعة بعيرين من المسلمين . وفي أبريل سنة ١١٤٨ وصل إلي أنطاكية بطرق بيت المقدس نفسه موقداً من قبل الملك ليحث لويس السابع علي الاتجاه فوراً نحو مدينة المسيح ، وليعلمه أن الإمبراطور الغربي كونراد الثالث

(1) Grousset : op. cit: Tome II, 243 - 244 .

(2) Michaud : op. cit. p. 170 - 171 .

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 752 .

(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٥٢ .

وصل فعلا إلى بيت المقدس ^(١) . وهكذا وجد لويس السابع نفسه فجأة وسط تيارات متعارضة ، يحاول كل منها جذبه في ناحية معينة ، فأدرك أن أسلم الطرق هو طريق بيت المقدس ^(٢) .

وبعبارة أخرى فإن لويس السابع ورجاله نسوا عند وصولهم إلى أنطاكية الهدف الأساسي لحملتهم ؛ فلم يوافقوا ريموند علي رأيه الخاص بالاتجاه أولا ضد حلب والاستيلاء عليها لطعن الدولة النورية في قلبها ، وآثروا الاتجاه جنوباً صوب بيت المقدس . وقد برر لويس السابع وأيه هذا بأنه إنما قبل أن يحمل الصليب ويأتي إلى الأراضي المقدسة للحج وزيارة بيت المقدس والدفاع عن تلك المدينة ، لا لغزو حلب ^(٣)

والواقع أنه من الصعب تفسير ذلك الموقف الغريب الذي اختاره لويس السابع ، فقد يكون سببه إعراض الملك الفرنسي عن تلبية رغبة عم زوجته ، نظراً لما كان هناك من نفور بين إليانور وزوجها لويس السابع ^(٤) . وقد يكون السبب هو تخوف لويس السابع من الزج بنفسه وبجيوشه في مغامرة لا يضمن نتائجها ضد نور الدين . ومهما يكن من أمر فقد أخذ لويس السابع زوجته - عنوة - واتجه صوب بيت المقدس دون أن يستأذن ريموند أمير أنطاكية في السفر ^(٥) .

— الحملة الصليبية الثانية ودمشق :

وقد وصل لويس السابع إلى بيت المقدس ليجد الإمبراطور الألماني كونراد الثالث في إنتظاره في منتصف أبريل سنة ١١٤٨ . وسرعان ما اتضح أن أمراء أنطاكية والرها وطرابلس لم يكونوا وحدهم هم الذين طمعوا في إستغلال حملة لويس السابع في تحقيق مكاسب خاصة ، بل إن مملكة بيت المقدس نفسها طمعت في أن تستغل تلك القوة الجديدة في الاستيلاء علي دمشق ذاتها ^(٦) .

(1) Guillaume de Tyr. I, p. p. 722 - 756 .

(2) Runciman op. cit, II, p. 279 .

(3) Guillaume de Tyr p. 752 .

(٤) سعيد عاشور . أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٥٢ .

(٥) تشير المصادر إلى أن الفترة التي قضاها لويس السابع في أنطاكية صحبتها إشاعات عديدة عن وجود علاقات سرية بين الملكة إليانور وزوجها لويس السابع وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية ، حتى شوهد الاثنان في خلوة أكثر من مرة . ويقال إنه عندما خشي لويس السابع على سمعته وعرضه ، قرر السفر فجأة ، فامتنعت زوجته وأعلنت أنها تطلب الطلاق من زوجها . ولكن لويس السابع أخذها بالقوة من قصر عمها ، وساقها أمامه إلى بيت المقدس . أنظر .

Runciman op. cit, II, p. 279 .

(6) Setton : op. cit, i, p. 505 .

وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الأساسي الذي أتت من أجله إلى الشرق ، وهو القضاء على الزنكيين واسترداد شمال الشام واستعادة الرها ، وجنحت نحو مساعدة مملكة بيت المقدس التي كانت في حقيقة أمرها أقل الوحدات الصليبية في الشرق تعرضاً لضغط المسلمين عندئذ^(١) . ومن هذا كله يتضح مدي التغيير الذي طرأ على أوضاع الصليبيين ببلاد الشام ومثلهم ومبادئهم ، فبعد أن كان ملوك بيت المقدس السابقون - مثل بلدوين الأول ، وبلدوين الثاني ، وفولك الأنجوي - يضحون بأنفسهم وبمصالحهم ويتحملون الأخطار في سبيل نجدة الرها أو أنطاكية أو طرابلس ، إذا بمملكة بيت المقدس في عهد ملكها القاصر بلدوين الثالث وأمه الوصية مليزاند تسعى لحرمان الإمارات الصليبية في الشمال من حق مشروع في المساعدة والنجدة ، لتستغل حملة صليبية في تحقيق مكاسب إضافية لنفسها^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل لويس السابع في بيت المقدس استقبالا حافلا . وفي ٢٤ يونية سنة ١١٤٨ عقد مجلس صليبي كبير في عكا حضره لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا والملك القاصر بلدوين الثالث ومعه أمراء مملكة بيت المقدس ، فضلا عن عدد آخر كبير من كبار رجال الدين والأمراء الصليبيين في الشرق والغرب^(٣) . علي إنه يلاحظ علي ذلك المؤتمر أنه لم يضم أعضاء يمثلون أنطاكية والرها وطرابلس ، وهي الإمارات الصليبية الثلاث التي كانت مهددة تهديداً مباشراً بخطر نور الدين ، والتي رأي أمراؤها أنه من العبث تبديد قواهم من أجل تحقيق مطامع ثانوية لمملكة بيت المقدس^(٤) . وقد ترتب علي ذلك أن تناسي المؤتمر خطر نور الدين والزنكيين ، واتجهوا - تحت تأثير أمراء بيت المقدس - إلي مهاجمة معين الدين أنر ، الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام^(٥) .

ولم تلبث أن تجمعت الجيوش الصليبية لمهاجمة دمشق في أوائل يولية سنة ١١٤٨ ؛ وكان اجتماعها عند طبرية ومنها زحف الصليبيون عن طريق بانياس

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p.p. 46 - 47 .

(2) Stevenson : op. cit. p. 159 .

(3) Guillaume de Tyr, I, p.p. 758 - 759 .

(٤) وقد يكون سبب إحجام أمير طرابلس بالذات عن مشاركة بقية الصليبيين في غزو دمشق هو اتهامه بدس السم لألفونس جوردان أمير تولوز الذي وفد مع لويس السابع ملك فرنسا ، والذي كان صاحب الحق الشرعي في حكم طرابلس بوصفه ابن ريموند دي تولوز مؤسس إمارة طرابلس . أنظر

(Runciman : op. cit, II. p. 280) .

(5) Grousset : op. cit Tome II. p. 255 .

إلى الغوطة ^(١) . وعندما بدأ الصليبيون بمهاجمة الغوطة في ٢٤ يولية سنة ١١٤٨ احتلوا بعض المراكز والقرى الأمامية خارج سور دمشق ، مثل المزة والريوة ، في حين جمع المسلمون جمعهم واشترك الزهاد والفقهاء في القتال ^(٢) ، واجتمع عليهم من الأعمال والأجناد والأترار وأحداث البلاد والمطوعة والغزاة الجم الغفير ، واستظهر الكفار علي المسلمين بكثرة الأعداد ^(٣) . وقد أخذ المسلمون يهاجمون الصليبيين في الجهة الغربية للمدينة ، وهي الجهة التي أسماها المؤرخون المسلمون الميدان الأخضر ^(٤) . مما جعل كونراد ولويس وبلدوين يفكرون في سحب قواتهم إلى الجهة الشرقية الخالية من الأشجار ، حتي لا يجد المسلمون ستاراً يحتمون خلفه أثناء مهاجمتهم المعسكر الصليبي . ولكن تلك الخطوة التي تمت في ٢٧ يوليو لم تكن موفقة لأن الموضع الجديد كان بعيداً عن مياه الشرب مما عرض الصليبيين لمتاعب جمة ^(٥) .

وفي تلك الأثناء أخذت قوات معين الدين أنر تتزايد تزايداً مستمراً ، لأنه عندما تأكد من أن الصليبيين قصدوا دمشق فعلاً - وهو آخر ما كان يتوقعه - بادر بارسال الرسل إلي نوابه في المدن والقلاع التابعة لدمشق ، فضلاً عن نور الدين محمود في حلب ، يطلب منهم النجدة . وهكذا تدفقت النجادات علي دمشق من الأبواب الشمالية ، مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع ، وأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار ^(٦) .

وزاد الطين بلة انقسام الصليبيين علي أنفسهم ، وهم في ذلك الموقف الحرج أمام دمشق ، إذ بدت البغضاء من بعضهم بسبب التنافس حول مصير الغنيمة ، وذلك قبل أن يتمكنوا من الفوز بالغنيمة ذاتها . فبينما طمع أمراء بيت المقدس في أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة للمملكة ، إذا ببعض الأمراء - يؤيدهم لويس السابع نفسه - يطمعون في الفوز بدمشق ليقيموا فيها إمارة صليبية جديدة مستقلة ^(٧) . وهكذا دب الشقاق بين الأمراء الصليبيين بعضهم وبعض كما ظهر الخلاف واضحاً بين الصليبيين الجدد الوافدين صحبة ملك فرنسا وإمبراطور

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٤ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١٢ .

النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ص ١٥٠ (تحقيق المؤلف)

(5) Guillaume de Tyr. I, p.p. 766 .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١٣٦ .

(6) Runciman. op. cit; II, p. 238.

المانيا، والصليبيين القدامى في الشام^(١)؛ حتي اتهم بعض المؤرخين الصليبيين أمراء بيت المقدس بأنهم حصلوا علي رشاوي سخية من معين الدين للتضليل بالصليبيين وإفساد الحملة^(٢). وقوي هذا الاتهام أن أمراء بيت المقدس كانوا هم الذين أشاروا علي الصليبيين بالجلء عن الغوطة الغربية، حيث الماء متوفر والهجوم أيسر، وحثوهم علي الانتقال إلي الجانب الشرقي من دمشق بعيداً عن الماء، وحيث الهجوم أصعب وأشد تعرضاً للخطورة^(٣).

انسحاب الصليبيين وفشل الحملة :

وفي تلك الأثناء وصلت استغاثة أنر إلي الزنكيين : سيف الدين غازي أتابك الموصل، ونور الدين محمود أتابك حلب، فانتهزا الفرصة وزحفا مباشرة علي دمشق. علي أنه كان لابد للأميرين الزنكيين من أن يفكروا في الثمن قبل محاربة الصليبيين، لذلك توقفوا في حمص وأرسل غازي إلي معين الدين أنر يشترط عليه «أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقي الفرنج، فان انهزمت دخلت أنا وعسكري إلي البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه^(٤)».

وكان أنر يعرف جيداً نية الأخوين ابني عماد الدين زنكي، ويدرك أنه إذا احتلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للأبد. لذلك تجاهل أنر الرد علي غازي وأخيه، وماطله لينظر ما يكون من الفرنج، وفي الوقت نفسه أرسل معين الدين أنر رسالة عاجلة إلي الصليبيين يهددهم بأن «ملك الشرق قد حضر فان رحلتكم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون^(٥)». كذلك شرح أنر للصليبيين مدي الخطر الذي سيحيق بهم لو استولي سيف الدين غازي علي دمشق لأنه في تلك الحالة «لن يبقي لكم معه مقام بالشام^(٦)». ثم إن معين الدين أنر عرض علي أمراء بيت المقدس إعطائهم حصن بانياس مقابل الجلء عن دمشق وهو عرض مغري^(٧).

(1) Cam. Med Hist, vol. 5, p. 307.

(2) Michel Le Syrien, p 206.

(3) Grousset : op. cit. Tome II, p.p. 263 - 264.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ٨٩. الكامل، حوادث سنة ٥٤٣ هـ.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١١٣.

ويلاحظ أن ابن واصل يذكر أن معين الدين أنر أرسل رسالته هذه إلي (الفرنج الغرياء). وفي ذلك تفرقة واضحة بين الصليبيين الجدد الوافدين، والصليبيين القدامى المستقرين علي أرض الشام (أبو شامة، ص ١٢٨).

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٣ هـ.

(٧) التويرى : نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ١٥٠.

ولم يلبث أن أخذ الصليبيون يعملون حساباً لاقترب القوات الإسلامية المتحدة من جهة الشمال^(١)، فأدركوا أخيراً أن حملتهم لم تتجه وجهتها الصحيحة وأن حلب لا دمشق كانت أولى بجهود الصليبيين. وعندما وجد الصليبيون أنفسهم مهددين بين لحظة وأخرى بانقضاض قوات الزنكيين - غازي ونور الدين - عليهم، في الوقت الذي ساء وضعهم في مركزهم الجديد شرقي دمشق بسبب نقص الأقوات وعدم توافر ماء، قرر لويس السابع وكونراد الثالث - في نهاية يوليو - الانسحاب ورفع الحصار عن دمشق، ولما يمضي علي وصولهم إليها سوي بضعة أيام^(٢).

وكان الوقت صيفاً والحرارة قاسية عندما أخذ المسلمون يطاردون الصليبيين أثناء انسحابهم، فضاق الصليبيون ذرعاً بمرارة الفشل وحرارة الجو وقلة الماء، وأخذ المحاربون الوافدون من الغرب يتبادلون مع بارونات التهم مملكة بيت المقدس. ولم يلبث الإمبراطور كونراد الثالث أن أبحر من عكا عائداً إلى أوروبا في ٨ سبتمبر سنة ١١٤٨، في حين بقي لويس السابع ستة أشهر أخرى، ولم يغادر فلسطين إلى أوروبا إلا في سنة ١١٤٩، بعد أن استولي الصليبيون في مملكة بيت المقدس علي بانياس حسب وعد أنزلهم^(٣).

نتائج الحملة الصليبية الثانية :

أتت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق لتثبيت دعائم الإمارات الصليبية واسترداد الرها والحد من ضغط المسلمين الذي تزايد علي يد زنكي وولديه. ولكن فشل هذه الحملة أمام دمشق، وعجزها عن تحقيق هدف واحد من أهدافها، أدت إلي عكس النتائج التي رمت إليها، فانهطت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية^(٤).

ذلك أن أمراء المسلمين في آسيا الصغرى والشام والعراق، ظلوا منذ سنة ١٠٩٩ في خوف دائم من وصول حملة صليبية جديدة من الغرب تنكل بهم وتستولي علي حلب ودمشق، مثلما استولت الحملة الأولى علي الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس. فلما وصلت الحملة الصليبية الثانية إلي الشام وتعرضت للخيبة والفشل، اتضح للمسلمين أنهم كانوا يخشون أوهاماً كاذبة^(٥) وأن الصليبيين

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٩.

(2) Stevenson : op. cit. p. 160.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١٣.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ص ١٤٢ - ١٤٣.

(5) Stevenson : op. cit. p. 164.

أضعف من أن يقوموا بجهد جدي ضد المسلمين . وعندئذ تشجعت القوي الإسلامية في الشرق الأدنى وبدأت تغير علي ما جاورها من أملاك الصليبيين وتسترد ما سبق أن فقده المسلمون ^(١) . لذلك لا عجب إذا قرر بعض المؤرخين أن فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية وفي تاريخ الصليبيين في الشرق الأدنى ^(٢) .

وكانت أولى الإمارات الصليبية تعرضا لهجمات المسلمين عقب فشل الحملة الصليبية الثانية، هي إمارة أنطاكية التي طالما نادي أميرها ريموند دي بواتيه بأن تتجه الحملة الصليبية الثانية ضد حلب بالذات . ويبدو أن عدم استجابة الصليبيين لدعوته جعل ريموند يبدأ بالعدوان علي حلب لتنفيذ ما خشي لويس السابع القيام به ، فلم يكذب يتم انسحاب الصليبيين من الشام ، حتي جمع ريموند رجاله عند بحيرة العمق ، استعداداً للانقضاض علي حلب ^(٣) . وقد اعتمد ريموند دي بواتيه عندئذ علي مساعدة الباطنية الذين أضمرؤا كرهاً دفيناً لنور الدين محمود ^(٤) .

ولكن حدث قبل أن ينفذ ريموند مشروعه ضد حلب ، أن بادره نور الدين محمود بالانقضاض عليه ، فدارت المعركة بين الطرفين سنة ١١٤٩ عند مكان يعرف باسم يغري - إلي الشمال الشرقي من بحيرة العمق - وفي تلك الموقعة كسر الصليبيون كسرة قبيحة ؛ وقتل المسلمون عدداً كبيراً من فرسانهم وزعمائهم ، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأساري إلي أخيه سيف الدين غازي وإلي الخليفة ببغداد وإلي مسعود وغيرهم ^(٥) .

ازدياد نفوذ نور الدين بالشام :

وزاد من نفوذ نور الدين وسلطانه بالشام نجاحه في الاستيلاء علي حمص سنة ١١٤٩ . ذلك أن سيف الدين غازي أتابك الموصل توفي في نوفمبر من السنة السابقة ، فقام نزاع قصير بين أخويه نور الدين أتابك حلب وقطب الدين الذي آلت إليه الموصل . وقد دار ذلك النزاع حول سنجار ، حتي انتهى الأمر بأن أخذ قطب

(1) Grousset; op. cit. Tome II, p. 271.

(2) Runciman : op. cit. II, p. 291.

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٤ .

(٤) يروي أبو شامة أن نور الدين أمر بإبطال بعض شعائر الشيعة في حلب ، ومنعهم من التظاهر بسب الصحابة (وأنكر ذلك إنكار شديداً ، وساعده علي ذلك جماعة من أهل السنة بحلب فعظم ذلك الأمر علي الإسماعيلية وأهل التشيع ، وضاعت له صدورهم وهاجوا وماجوا...) .

(كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٧) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ . وفي النويري (نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٤) يغرا بالآلف ، وهي بلدة قريبة من دريساك .

الدين سنجار مقابل تنازله لنور الدين عن حمص. وهكذا خطا نور الدين خطوة جديدة نحو توحيد بلاد الشام تحت سيادته^(١).

ولم يكد نور الدين يفرغ من حل مشكلة الموصل ويستولي علي حمص، حتي أخذ يوجه جهوده من جديد ضد إمارة أنطاكية، فاغار في صيف سنة ١١٤٩ علي الإقليم المحيط بقلعة حارم علي الضفة الشرقية لنهر العاصي. ويذكر ابن القلانسي أن نور الدين طلب عندئذ المعونة من معين الدين أنر فأمدته بقوة من فرسانه^(٢)؛ وعندئذ ترك نور الدين حارم مكتفياً بتدمير ما حولها من ضياع وأخذ يحاصر قلعة إنب علي الضفة الشرقية لنهر العاصي أيضاً قرب معرة النعمان. وعندما علم ريموند دي بواتيه صاحب أنطاكية بمحاصرة نور الدين لقلعة إنب، خرج علي رأس قوة من رجاله لصد نور الدين^(٣). وعندئذ ارتكب ريموند الغلطة نفسها التي وقع فيها روجر كي سألرنو من قبل، مما أوقعه في المصير نفسه^(٤).

ذلك أن ريموند لم ينتظر اجتماع كل فرسانه، وإنما تسرع في الخروج لملاقاة نور الدين وليس معه سوي أربعمائة من الفرسان وألف من المشاة، في حين بلغت قوة نور الدين ستة آلاف من الفرسان سوي «الأتباع والسواد»^(٥). وكان أن أحاط نور الدين بريموند ورجاله قرب إنب في ٢٩ يونيه سنة ١١٤٩ وأبادهم أولاً عن آخر، وكان من جملة القتلي ريموند أمير أنطاكية نفسه وريثو صاحب كيسوم ومرعش، فضلاً عن علي بن وفا زعيم الباطنية الذي كان مرافقاً للصليبيين^(٦). ويصور لنا المؤرخون مدي فرح المسلمين بمقتل ريموند الذي كان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم^(٧)؛ فقطع رأسه في الحال وحملت إلي نور الدين «فوصل حامله بأحسن صلة»^(٨). ويضيف المؤرخ وليم الصوري أن نور الدين أرسل رأس ريموند وذراعه الأيمن إلي الخليفة العباسي في بغداد في

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٦.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ ص ٢٠٤.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١.

(4) Grousset : op. cit. Tome II, p. 274 - 275.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ص ١٥٠.

(6) Michel le Syrien, p 289.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢١.

(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٥.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ص ١٥٠.

صندوق من الفضة ^(١) . ولم يلبث المسلمون أن أقاموا الأفراح في كل مكان ابتهاجاً بمقتل ريموند ورينو، ونظمت القصائد للتغني بذلك النصر المبين ^(٢) .

ولم يضع نور الدين فرصة النصر تلك المرة، وإنما أوغل في إمارة أنطاكية يدمر وينتقم من الصليبيين حتي وصل إلي السويدية، ميناء أنطاكية. بل يذكر ابن القلانسي أنه هدد أنطاكية نفسها، فوقع أهلها في حيرة شديدة وخيم عليهم الرعب حتي أنهم عرضوا علي نور الدين كل ما يمتلكون من أموال ومتاع ليترك مدينتهم. وعندئذ ترك نور الدين فرقة من جيشه أمام أنطاكية لتبقي علي حصارها، والإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها، وانصرف هو إلي قامية ^(٣) .

ويبدو أن نور الدين أدرك أن حصار مدينة كبري مثل أنطاكية والاستيلاء عليها يتطلب منه وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً؛ في الوقت الذي ستسرع قوات بيت المقدس وطرابلس لنجدها. لذلك آثر نور الدين أن يستغل فرصة الاضطراب الذي ساد إمارة أنطاكية عقب مقتل ريموند أميرها ليستولي علي ما تبقي لتلك الإمارة من معاقل قوية شرقي نهر العاصي. فعلاً بدأ نور الدين بحصار حارم في يوليو سنة ١١٤٩، ولكن الصليبيين صالحوه علي نصف أعمال حارم ^(٤) لذلك إنصرف نور الدين إلي أقامية واستطاع الاستيلاء عليها في أواخر الشهر نفسه ^(٥) . وبذلك نجح نور الدين في الاستيلاء علي جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي، مما جعله يقنع بما حققه من مكاسب في تلك المرحلة فاستدعي قواته التي تركها أمام مدينة أنطاكية.

أما أنطاكية عندئذ فقد غدت تحت حكم كونستانس أرملة ريموند، التي

(١) Guillaume de Tyr, p. 774.

(٢) ومن ذلك القصيدة التي نظمها القيسراني وذكرها النويري وابن الأثير :

هذي العزائم لا ما تدعى القضب	وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
أغررت سيوفك بالافرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب

(ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٤ هـ.)

النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) ابن القلانسي : بيل تاريخ دمشق ص ٢٠٥.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٠.

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٥.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٩.

وقد وصف ابن الأثير حصن أقامية بأنه "حصن منيع على تل مرتفع من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على مدينة حماة وشيزر وينهبونها".
(التاريخ الباهر، ص ١٠٠)

حكمت الإمارة باسم ولدها الطفل بوهيموند الثالث^(١). ولم يكن في استطاعة كونستانس - وهي امرأة شابة في الثانية والعشرين من عمرها - أن تنهض بجميع شئون الحكم والدفاع عن الإمارة، فقام بطرق أنطاكية إيмери Aymeri بدور كبير فعال في شئون الحكم والدفاع في تلك المرحلة^(٢). كذلك أسرع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إلى أنطاكية عقب الكارثة التي حلت بها، فأدي حضوره إلى تهدئة مخاوف الاهالي ورفع روحهم المعنوية^(٣).

خاتمة إمارة الرها :

وفي الوقت الذي أصاب الحملة الصليبية الثانية ما أصابها من فشل وخيبة أمل، كان جوسلين الثاني لا يزال مقيماً في قاعدته تل باشر، يشرف على بقية البلاد التابعة لإمارته، وهي سميساط وقلعة الروم ودلوك والرواندان وقورس ؛ ثم مرعش وعزاز من ناحية الشمال أي على حدود إمارة أنطاكية^(٤).

ومن الواضح أنه لم يبق للصليبيين - بعد مقتل ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية - رجل يتولى الدفاع عن مصالحهم في الأطراف الشمالية من العراق والشام سوى جوسلين الثاني، ولكن جوسلين لم يكن الرجل الذي يستطيع النهوض بذلك العبء نظراً لما عرف عنه من حب الترف والدعة^(٥). وبدلاً من أن يقوم جوسلين باسترداد ممتلكات الصليبيين - وعلى رأسها مدينة الرها ذاتها - أخذ يوجه إغاراته نحو نهب الأديرة المسيحية المتطرفة، كما فعل سنة ١١٤٨ عندما أغار على أحد الأديرة الواقعة عن أطراف نهر الفرات^(٦). وكان مفروضاً أن

(1) Guillaume de Tyr, p 774.

(2) Runciman : op. cit. II, p. 328.

(3) Guillaume de Tyr, p. 775.

(4) Grousset : op. cit Tome II, p 284.

(٥) أجمعت المصادر الغربية - المعاصرة وغير المعاصرة - على وصف جوسلين الثاني بالخمول وضعف الهمّة، في حين وصفه المؤرخون المسلمون بأنه "أشدّ الفرنجة شجاعة وأقواهم بأساً وأصحبهم رأياً، وأعظمهم مكيدة".

(ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٣).

كذلك وصفه النويري بأنه "فارس الفرنج وطاغيتهم ؛ صاحب رأى وشجاعة" ، (النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٦).

ونحن لا نجد تفسيراً لهذا التناقض بين أحكام المؤرخين الصليبيين والمسلمين على جوسلين سوى أن الفريق الأول حكم عليه في ضوء ما صاحب حكمه من ضياع الرها وكثير من أملاكها. وفي الوقت نفسه قد يكون سبب مبالغة المسلمين في امتداح قوته وشجاعته هي الرغبة في إبراز أهمية الانتصارات التي أحرزها المسلمون عليه.

(6) Michel Le Syrien, p. 283 - 287.

يسرع جوسلين الثاني لنجدة إمارة أنطاكية، عقب مقتل أميرها سنة ١١٤٩ ولكنه لم يفعل ذلك، بل علي العكس أسرع ليفوز بشيء من حطام إمارة أنطاكية، ويرث أميرها القتل في بعض ممتلكاته. وفعلًا زحف جوسلين علي مرعش ودخلها، ولكنه لم يلبث أن انسحب منها عندما علم باقتراب مسعود سلطان سلاجقة الروم^(١).

وهكذا أتاحت فرصة طيبة للأتراك - من سلاجقة وتركماني - لاقتسام حطام إمارتي الرها وأنطاكية، فانتهمز مسعود سلطان سلاجقة الروم (١١١٦ - ١١٥٥) فرصة النصر الذي حققه نور الدين محمود علي أنطاكية ليستولي علي مرعش في سبتمبر ١١٤٩، بل لقد حاصر مسعود تل باشر نفسها ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها بعد قليل^(٢).

ولم يلبث قرا أرسلان الأرتقي - صاحب خرتبرت وحصن كيفا - أن تقدم للحصول علي نصيبه من الغنيمة، فأخذ يهاجم الأجزاء الشمالية من إمارة الرها حتي نجح في الاستيلاء علي كركر - شمالي سميساط - وحصن منصور^(٣) أما جوسلين الثاني نفسه فقد وقع في قبضة التركمان (٤ مايو سنة ١١٥٠) فسلموه لنور الدين الذي سجنه في حلب، حيث ظل تسع سنوات معتقلاً حتي توفي سنة ١١٥٩. وقد أبدى المؤرخون المسلمون فرحهم بأسره؛ واعتبروا أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً علي المسلمين، قاسي القلب، وأصيب النصرانية كافة بأسره^(٤).

ومن الواضح أن أسر جوسلين الثاني ترك ما تبقي من حطام إمارة الرها دون مدافع أو زائد، فقام مسعود سلطان سلاجقة الروم بغزو كيسوم (كسيون) في صيف ١١٥٠، واستولي بعد ذلك علي بهسني ورعبان (مرزيان)، ثم اتجه بعد ذلك لحصار تل باشر نفسها. وفي الوقت الذي كان مسعود يحاصر تل باشر استطاع حليفه وزوج ابنته نور الدين محمود أن يستولي علي قلعة عزاز التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية وتقع إلي الشمال الشرقي من مدينة أنطاكية ذاتها^(٥).

(1) Runciman : op. cit. II, p. 327.

(2) Gregoire Le Pretre (Doc. Ar. I), p. 162.

(3) Michel Le Syrien; III, p. 294 - 295.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (III p. 122) &

إبن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٦ هـ.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨١.

وعندما رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن الإماراتين الصليبيتين في الشمال - الرها وأنطاكية - وصلتا إلى تلك الدرجة المهولة من التدهور - بعد أسر أمير الأولي ومقتل أمير الثانية - أسرع إلى الشمال لتدارك الموقف هناك. وفي الوقت الذي كان بلدوين الثالث في أنطاكية، تقدم الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين بعرض إلى بيتريس Beatrice - زوجة جوسلين الثاني والوصية علي إمارة الرها - لشراء كل ما تبقي من حطام تلك الإمارة، أي تل باشروسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان، فضلاً عن حقوقها في الأماكن الأخرى التي كانت تابعة لإمارة الرها واستولي عليها المسلمون^(١). وعندما تلقت بيتريس هذا العرض أرسلت فوراً إلى الملك بلدوين الثالث - الذي كان في أنطاكية - تخبره به وتسأله رأيه.

وقد صادف ذلك العرض البيزنطي معارضة من بعض أعوان بلدوين الثالث، ولكن رسل الإمبراطور البيزنطي أقنعوا ملك بيت المقدس أن استيلاء البيزنطيين علي تلك البلاد عن طريق الشراء أفضل من ضياعها نتيجة لاستيلاء المسلمين عليها بلا ثمن^(٢). لذلك وافق بلدوين الثالث علي العرض وصرح للأميرة بيتريس باتمام صفقة البيع للإمبراطور البيزنطي، فتمت الصفقة فعلاً سنة ١١٥٠، وكلما استولي البيزنطيون علي مدينة انسحب منها فرسانها وسكانها من الصليبيين^(٣).

ولكن إذا كان الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين قد فرح بالاستيلاء علي تل باشرودلوك وعينتاب والراوندان، وظن أن هذه المراكز ستمكنه من استرداد النفوذ البيزنطي القديم في تلك الأطراف الشرقية، إلا أن فرحته لم تدم طويلاً. وسرعان ما اتضح للإمبراطور أن مشترياته الجديدة ثقيلة العبء وتحتاج إلى جهد كبير للاحتفاظ بها وحمايتها لبعدها عن قلب الإمبراطورية من ناحية وتطرفها وسط أراضي المسلمين وبلادهم من ناحية أخرى. هذا في الوقت الذي كانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني تهديداً مستمراً من جانب النورمان في صقلية، مما جعلها عاجزة عن توجيه جهودها صوب أطراف العراق لحماية مشترياتها الجديدة^(٤).

ولم يلبث أن تم تحالف بين نور الدين محمود صاحب حلب ومسعود سلطان سلاجقة الروم وتمرناش الأرتقي صاحب ماردين، بشأن اقتسام تلك الممتلكات

(1) Guillaume de Tyr, p. 786.

(2) Setton : op. cit. I, p. 534.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 334.

(4) Grousset : op. cit. II, p. 306.

البيزنطية الجديدة سنة ١١٥١^(١). وهكذا تم تقسيم الغنيمة قبل أن يمضي عام واحد على شراء الإمبراطور البيزنطي لتلك الصفقة الخاسرة، فاستولي مسعود علي عينتاب ودلوك واستولي تمرناش الأرتقي علي سميساط والبيرة، واستولي نور الدين علي الراوندان ثم علي تل باشر التي استسلمت في يوليو سنة ١١٥١^(٢). وبذلك تبخرت إمارة الرها الصليبية وذهبت مع الريح، مما يعتبر بداية النهاية بالنسبة للبناء الصليبي بالشام.

(1) Richard : op. cit. p. 47.

Michel Le Syrien, III, p. 297.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٥ &

الفصل الخامس

عصر بلدوين الثالث

بلدوين الثالث ملك بيت المقدس :

أجمع المؤرخون الصليبيون على دماثة خلق بلدوين الثالث وكرمه واحترامه للكنيسة ورجالها. ثم إن بلدوين الثالث امتاز بصفة ميزته عن ملوك بيت المقدس السابقين، وكانت لها أهميتها في نظر معاصرة من الصليبيين، هي أنه أول ملك من ملوك بيت المقدس يولد على أرض المملكة الصليبية نفسها، ولذا فهو يمثل في شخصه الابن الحقيقي البكر لمملكة بيت المقدس الصليبية. هذا كله بالإضافة إلى ثقافته الواسعة، إذ جمع بين آداب الفروسية الغربية وقواعدها، وبين معرفة القانون وأصول المعاملات، الأمر الذي جعل منه ملكاً صليبيّاً نموذجياً في القرن الثاني عشر^(١).

وقد شاءت الظروف أن يتعرض الصليبيون في الفترة التي كان بلدوين الثالث قاصراً تحت وصاية أمه ميليزاند، لكثير من المصائب والخسائر، مثل سقوط الرها وفشل الحملة الصليبية الثانية، وتصدد الحلف بين بيت المقدس ودمشق، ومقتل ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية، وأسر جوسلين الثاني، وضياع جميع الأراضي الصليبية التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية شرقي العاصي، ثم استيلاء المسلمين على بقية أنقاض إمارة الرها بأكملها^(٢). لذلك كله كانت التركة التي ورثها بلدوين الثالث مثقلة بالهموم والمتاعب، إذ كان عليه أن يعمل - وهو لا يزال شاباً صغيراً في التاسعة عشر من عمره - لحماية ما تبقى للصليبيين في شمال الشام، وأن يحمي انسحاب الصليبيين من تل باشرو عين تاب بعد تسليم تلك المراكز للبيزنطيين، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يحل المشاكل العديدة الداخلية في بيت المقدس، وهي مشاكل تخلفت عن فترة طويلة من وصاية استبدت أثناءها أمه ميليزاند بالأمور^(٣).

ثم كان أن بلغ بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره، ومع ذلك لم توافق أمه على أن تتنازل له عن سلطة الحكم، حتى اضطرت تحت ضغط الرأي

(1) Guillaume de Tyr, p. 705 - 706.

(2) Setton : op. cit. p. 532 - 535.

(3) Grousset : op. cit. II; 313.

العام إلى الموافقة على تتويجه ، وحدد لذلك يوم الأحد ٣٠ مارس سنة ١١٥٢ .
ويبدو أن الملكة الأم عز عليها أن تتخلى عن سلطانها الذي مارسته في السنوات السابقة فاتفقت مع بطريرك بيت المقدس على أن يعاد تتويجها هي الأخرى مع ولدها، إشارة إلى مقاسمتها له النفوذ والسلطان، بل إن بعض أشياع مليزاند وضعوا مشروعاً لتقسيم المملكة بين بلدوين الثالث وأمه، فتأخذ مليزاند بيت المقدس ونابلس ومتعلقاتهما، وتترك لولدها - الملك الشرعي - الأطراف الساحلية مثل صور وعكا وملحقاتهما^(١) . ولكن بلدوين الثالث رفض ذلك الحل، وصمم على أن تكون مملكة بيت المقدس وحدة واحدة، لا يحكمها غيره . ولذلك أجل الموعد الذي حدد لتتويجه، حتى إذا مضت بضعة أيام دخل خلسة كنيسة القيامة فجأة، وطلب من البطريرك تتويجه بمفرده . وقد استاءت مليزاند لذلك التصرف من جانب ولدها، مما أدى إلى غضب أشياعها ثم إلى قيام حرب أهلية في المملكة سنة ١١٥٢ وقف فيها الملك والأمراء في جانب ، والملكة والبطريرك فوشيه (فلشر) وماناسيس Manasses كند اسطبل المملكة في جانب آخر، وانتهت تلك الحرب بانتصار بلدوين الثالث وعقد صلح بينه وبين أمه^(٢) .

بلدوين الثالث وإمارة طرابلس :

ولم يكد بلدوين الثالث يفرغ من إقرار الأمور الداخلية في مملكة بيت المقدس، حتى أخذ يعمل للنهوض بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه بوصفه ملكاً على الصليبيين، ألا وهي إنقاذ إمارتي طرابلس وأنطاكية من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية^(٣) .

وكانت أولى المشاكل الداخلية في طرابلس النزاع بين ريموند الثاني وزوجته هوديرن Hodieme، الابنة الثالثة لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس وأخت الملكة الأم مليزاند. وقد بلغت العلاقة الزوجية درجة من السوء في أوائل سنة ١١٥٢ استوجبت تدخل بلدوين الثالث وأمه مليزاند - بحكم الصلة العائلية - لفض النزاع بين أمير طرابلس وزوجته^(٤) . وكان أن سافر ملك بيت المقدس وأمه إلى طرابلس، ولكن نصائحهما لم تجد مع ريموند الثاني، وعندئذ صحبت مليزاند أختها هوديرن لتقيم معها في نابلس، في حين ظل بلدوين الثالث بعض الوقت في طرابلس، حيث ترددت بعض الإشاعات بأن نور الدين يستعد للإغارة عليها . ولم تكد الأميرتان يتبعدان كثيراً عن طرابلس، حتى قتل ريموند الثاني بأيدي جماعة

(1) Besant : Jerusalem, p. 300.

(2) Guillaume de Tyr I, p. 782 - 783.

(3) Setton : op. cit I, p. 535.

(4) Guillaume de Tyr. p. 789 - 790.

من الإسماعيلية الباطنية. وعلى الرغم من أن هوديرن عادت بسرعة لتذرف الدمع على زوجها القتيل، إلا أن ذلك لم يعفها من بعض الاتهامات والشكوك في تأمرها على قتل زوجها.

وقد ترك ريموند الثاني إيناً صغيراً - هو ريموند الثالث - في الحادية عشر من عمره، فقام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بتنظيم شئون الوصاية على الطفل الصغير. وكان من الطبيعي أن تسند هذه الوصاية إلى هوديرن^(١).

وفي ذلك الوقت أسرع نور الدين إلى استغلال فرصة الخلافات والفوضى التي سادت طرابلس قبل مقتل أميرها وبعد مقتله، فأغار على أنطربطوس واحتلها فترة من الزمن ولكنه اضطر إلى إخلائها، وعندئذ منحها الملك بلدوين الثالث للداوية للدفاع عنها^(٢).

بلدوين الثالث وإمارة أنطاكية :

وبينما بلدوين الثالث ملك بيت المقدس يعالج مشاكل إمارة طرابلس كان عليه أيضاً ألا يغض البصر عن أنطاكية ومشاكلها. ويبدو أن مشاكل أنطاكية كانت أخطر بكثير من مشاكل طرابلس. لأن الإمارة الأولى كانت بحكم موقعها أكثر تعرضاً من الثانية لهجمات نور الدين والبيزنطيين جميعاً، في حين أدى قرب طرابلس من بيت المقدس إلى تمكين الملك بلدوين الثالث من الأشراف عليها ومساعدتها وقت اللزوم^(٣).

ولم يجد بلدوين الثالث حلاً لمشكلة أنطاكية سوى البحث عن عريس جديد للأميرة كونستانس - أرملة ريموند دي بواتيه والوصية على الوريث الشرعي للإمارة وهو بوهيموند الثالث الصغير - وبهذه الوسيلة يصبح في أنطاكية رجل يعول عليه في رعاية شئون الإمارة والدفاع عنها. ولكن الأرملة الشابة التي ذاقت طعم السلطان رفضت مبدأ الزواج حتى لا يسلبها أحد سلطتها، وحرصت على أن تظل قابضة على زمام الأمور في إمارتها^(٤). ويقول المؤرخ وليم الصوري إن اصرار الأميرة كونستانس على رفض مبدأ الزواج، إنما مرجعه تحريض أمير (عموري) دي ليموج بطرق أنطاكية لها، حتى يظل هو الآخر متمتعاً بسلطانه

(1) Idem, p. 791 - 792.

(2) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٨.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٥ - ٢١٦.

(3) Grousset : op. cit. Tome II, p. 324.

(4) Setton : op. cit. I, p. 790.

الواسع تحت وصايتها^(١).

ولم يلبث الإمبراطور البيزنطي أن وجد في أحوال أنطاكية بعد مقتل أميرها ريموند دي بواتيه فرصة للاستيلاء على الإمارة عن طريق المصاهرة بعد أن فشل عن طريق القوة. وكان أن وضع الإمبراطور مانويل كومنين مشروعاً لتزويج كونستانس - أرملة ريموند - من حنا روجر، أخى زوجة الإمبراطور^(٢). وفعلاً حضر حنا روجر إلى أنطاكية ولكنه فشل في أن يغزو قلب الأرملة الشابة.

وأخيراً حدثت المعجزة، إذ فتحت كونستانس باب قلبها على مصراعيه لفارس فرنسي شاب وصل إلى الشام في أعقاب الملك لويس السابع وحملته الصليبية، ثم تخلف في فلسطين بعد فشل الحملة الثانية وعودة رجالها إلى الغرب. أما هذا الفارس فهو رينو دي شاتيون - الذي عرفه العرب باسم أرناط - وهو صاحب الدور المشهور، مع صلاح الدين، كما سيلي فيما بعد. وكان أن وافق الملك بلدوين الثالث - بعد إلحاح شديد من العاشقين - على مشروع الزواج الذي تم فعلاً في أوائل سنة ١١٥٣^(٣). وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على محارب قوى وفارس صليبي قام بدور بارز في محاربة المسلمين ببلاد الشام، ولكنه كان للأسف مغامراً خطيراً، اتصف في كثير من تصرفاته بالبطش والتهور وعدم مراعاة العهود، والجهل بأحكام السياسة وأصولها، مما سبب متاعب لا حد لها للصليبيين بالشام^(٤).

ولم تلبث أن ظهرت خشونة رينو وتطرفه في مسلكه مع أميرى (عموري) دي ليموج بطرق أنطاكية. ذلك أن رينو - أرناط - لم يكدر يعلم بأن البطرق كان يحرض الأميرة كونستانس على عدم الزواج منه - حفاظاً على نفوذ البطرق - حتى أنزل به أقسى ألوان العذاب الذي بلغ حد الضرب والقائه وهو عريان تماماً في نار الشمس المحرقة^(٥). وعندما علم بلدوين الثالث بتلك التصرفات الوحشية، أرسل إنذاراً إلى أرناط يأمره بالإفراج عن البطرق المحبوس وإعادته إلى كرسيه فوراً. ولكن البطرق أميرى لم يستطع البقاء في أنطاكية إلى جانب ذلك الطاغية

(1) Guillaume de Tyr; p 790.

(2) Chalandon : Comnenes, p. 197.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 802.

وقد ذكر وليم الصوري أن الزواج تم فعلاً بطريقة سرية بين كونستانس ورينو قبل موافقة الملك.

(4) Grousset : op. cit. Tome II, p. 329.

(5) Guillaume de Tyr p. 316.

القاسي، فنزح إلى بيت المقدس حيث قضى بقية حياته إلى أن مات (١).

ثم إن أرناط لم يلبث أن زج بنفسه في النزاع القائم في قيليقية بين الأرمن والبيزنطيين، بدلا من أن يوجه جهوده نحو استرداد حارم وغيرها من أملاك إمارة أنطاكية التي استولى عليها نور الدين شرقى العاصي. وكانت جيوش الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين قد عجزت سنة ١١٥١ عن إخضاع الأرمن الذين سيطروا على مدن قيليقية الكبرى، مثل سيس وعين زربة وأذنة وطرسوس. وعندما استعان الإمبراطور مانويل كومنى بمسعود سلطان سلاجقة الروم، فشل السلاجقة أيضا سنة ١١٥٤ في إخضاع الأرمن، وعندئذ لم يجد الإمبراطور البيزنطي أمامه سوى إمارة أنطاكية (٢). وكان أرناط يهيمه أن يحصل على موافقة الإمبراطور البيزنطي علي وضعه في أنطاكية وزواجه من أميرتها، لأن أنطاكية كانت - من وجهة النظر البيزنطية على الأقل - تابعة للقسطنطينية ولو تبعية إسمية. لذلك استعان أرناط بالدواية، ودخل حرباً قصيرة ضد الأرمن سنة ١١٥٥ حتى طردهم من إقليم إسكندرونة التي استولى عليه الدواية. وأخيراً انتهت تلك الحرب باستيلاء فرسان الدواية على قلعة بغراس، وبالصالح بين الطرفين (٣).

وتتضح أخلاق أرناط ومدى انتهاكه للعهود والمواثيق في أنه لم يكد يعقد الصلح مع الأرمن حتى حالفهم ضد الإمبراطورية البيزنطية. فاشترك مع خصمه السابق ثوروس الأرمني في القيام بحملة ضد الممتلكات البيزنطية، في أطراف آسيا الصغرى (٤)، كما أرسل أرناط بضع سفن إلى جزيرة قبرص أغارت عليها ونهبتهما وعادت محملة بالغنائم (٥). وقد أفاضت المصادر فيما فعله أرناط بأهل قبرص من قتل وتخريب، حتى أنه جدع أنوف رجال الكنيسة وقطع آذانهم وأسنتهم إمعاناً في التشفى والانتقام.. وأثارت هذه الأعمال إستنكار المسيحيين بوجه عام وحنق الإمبراطور البيزنطي بوجه خاص (٦).

بلدوين الثالث والمسلمون :

كان الاتجاه الطبيعي لتوسع الصليبيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر هو الشمال الشرقي، حيث لم توجد قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع. ولكن ظهور قوة الزنكيين في شمال العراق والشام،

(1) Schlumberger : Renaud de Chatillon, p. 42.

(2) Gregoire Le Prêtre (Doc. Arm 1,0 p.p. 169 - 171.

(3) Michel Le Syrien, III, p. 314.

(4) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. 98.

(5) Guillaume de Tyr p. 835.

(٦) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٢٢.

جعلت حركة التوسع الصليبي تتخذ منذ منتصف ذلك القرن إتجاهاً آخر ، هو الإتجاه الجنوبي الغربي ، أى على حساب مصر والفاطميين ^(١) .

على أن غزو مصر- وهى السياسة التى اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يدى عمورى الأول فيما بعد - كان لابد له من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان ، وهى القاعدة الوحيدة التى بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ما قام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بعد أن تم تتويجه وأخذ يفكر فى القيام بعمل حربي هام يضيف عليه وعلى حكمه هالة من الأهمية فى نظر معاصريه ^(٢) .

وقد مهد بلدوين الثالث لغزو عسقلان بعدة ترتيبات حربية وسياسية . ففي الجانب الحربي بدأ فى أواخر سنة ١١٤٩ وأوائل سنة ١١٥٠ بإعادة تحصين غزة؛ فهدم أسوارها القديمة وبنى لها سوراً جديداً ، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية ^(٣) . وفى الجانب السياسى كان لابد لبلدوين الثالث أن يشرع فى مهاجمة عسقلان لكى يؤمن مملكة بيت المقدس ويمكنها من مواجهة أى خطر من جانب دمشق . والواقع أن تجديد الحلف مع دمشق لم يكن أمراً صعباً ، رغم الحماسة الكبرى التى ارتكبتها الحملة الصليبية الثانية . ذلك أن الصلح الذى عقد بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس فى أوائل يونية سنة ١١٤٩ أعقبته مباشرة محاولات مهد لها معين الدين أنر قبل وفاته (ت ٢٨ أغسطس ١١٤٩) لمخالفة بيت المقدس ضد نور الدين ^(٤) .

ولم يلبث نور الدين أن هاجم مدينة دمشق فى مايو سنة ١١٥١ ، بعد أو

(1) Michaud : op. cit. 11, p. 217 .

(2) Setton : op. cit. 1. p. 536.

(3) Gullaume de Tyr, p. 778. &

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٨

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، وما بعدها .

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٨ .

ويقول ابن القلانسي إن الدماشقة «عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يداً واحدة علي من يقصدهم من المسلمين» في حين ذكر أبو شامة إن حكام دمشق «راسلوا الإفرنج بخبره (نور الدين) وقرروا معهم الاتحاد عليه»

وجه إنذاراً شديداً إلى أتاكها مجير الدين أبق^(١) ولكن الصليبيين بزعامة بلدوين الثالث خفوا بسرعة لنجدة حلفائهم ، مما جعل نور الدين يتخلى عن حصار دمشق في أوائل يونية سنة ١١٥١^(٢) . ثم كان أن أعاد نور الدين الكرة ضد دمشق في يولية من العام نفسه ، ولكن محاولته انتهت تلك المرة أيضاً إلى لا شيء ، فأكتفى بالصلح مع أرباب دمشق ، ثم انصرف بعد أن وقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرضى به ،^(٣) . ولعل هذه الأحداث وغيرها مثل اشتراك الدماشقة مع الصليبيين (١١٥٠ - ١١٥١) في الحد من نفوذ نور الدين في إقليم حوران ، قوت صلات التحالف بين الطرفين ، ومكنت بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين في عسقلان وهو آمن من جانب أتاكها دمشق^(٤) .

والواقع أن الخلافة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثاني عشر ؛ بعد أن انتزع الوزراء كل ما للخليفة الفاطمي من سلطان . وعندما يئس الخلفاء من وزرائهم ، عين الخليفة الفاطمي الحافظ (١١٣١ - ١١٤٩) ابنه وزيراً له ، ولكن الإبن تأمر هو الآخر على أبيه ، واستبد بالأمر دونه وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر كثيراً ، مما جعل الأب يدس السم لإبنه ليتخلص منه (سنة ١١٣٥)^(٥) . ولم يلبث أن توفي الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩ ليخلفه ابنه الظافر (١١٤٩ - ١١٥٤) ، الذي استبد بالسلطان في عهد الوزير العادل ابن السلار ، حتى

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٩ .

وقد ورد في الرسالة التي أرسلها نور الدين إلى مجير الدين أبق . «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايه المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، لايسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولايحل لي القعود عنه والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالهم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلي الاستصراخ بالإفرنج علي محاربتي ... »

وقد جاء في الرد علي هذه الرسالة (ليس بيتنا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا علي دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا) .

(2) Stevenson : op. cit. p. 166.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢١٦ .

(4) Grousset : op. cit. Tome 11. p.p. 342 - 351 .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

قتل ذلك الوزير سنة ١١٥٣^(١) . وهكذا ظلت الدولة الفاطمية تعيش أيامها الأخيرة في جو مشبع بالمؤامرات ، لا يتورع الأب فيه أن يقتل ابنه وصار الخلفاء «اسم لا معنى» ؛ على قول المؤرخ ابن الأثير^(٢) . وكان ذلك في الوقت الذي أخذ الصليبيون يتأهبون لغزو عسقلان .

ويبدو أن الفاطميين أحسوا بالاستعدادات التي قام بها عندئذ بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، بدليل ما لجأ إليه الوزير الفاطمي ابن السلار من إرسال أسامة ابن منقذ في سفارة إلى نور الدين سنة ١١٥٠ . للحصول على مساعدته بمشاة الفرنج حتى يتمكن الفاطميون من هدم القلعة التي بناها الصليبيون أخيراً في غزة ، ومن الدفاع عن عسقلان^(٣) . وعندما تمت المقابلة بين نور الدين وأسامه عند بصرى في إبريل سنة ١١٥٠ ، اعتذر نور الدين عن تقديم المساعدات المطلوبة ، وقال لأسامة «أهل دمشق أعداء ، والأفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما»^(٤) .

وهكذا ساعدت جميع العوامل بلدون الثالث ، فشرع في حصار عسقلان في أواخر يناير سنة ١١٥٣ ، منتهزاً فرصة الاضطرابات الداخلية في مصر «واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان»^(٥) . وقد استمر الحصار بضعة أشهر ، حاولت حكومة القاهرة خلالها أن تمد أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ؛ فأرسلت أسطولاً كبيراً من سبعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن ؛ ونجح ذلك الأسطول في اختراق الحصار الذي فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحية البحر^(٦) . وكان وصول هذه النجدة إلى حاملة عسقلان حافزاً لها على مواصلة المقاومة في صبر وشجاعة . ولكن الحصار طال وازداد هجوم الصليبيين عنفاً ، فلم تجد حامية عسقلان بداً من طلب الأمان ، ودخل الصليبيون المدينة في ١٩ أغسطس سنة ١١٥٣ ليحولوا جامعها الكبير إلى كنيسة باسم القديس بولس . ومع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٤ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ ، ٢٢٠ وقد قال ابن السلار لأسامة بن منقذ «تأخذ معك مالا وتمضي إليه (نور الدين) لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من ها هنا ونخرب غزة» .

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٠ .

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

(6) Guillaume de Tyr, p. 801.

ذلك فقد امتدح ابن القلانسي سلوك الصليبيين تجاه أهل عسقلان إذ سمحوا لهم بالخروج سالمين ، وفخرج منها من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها ، (١) .

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان ، يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من إسكندرونه في الشمال حتى غزة في الجنوب ، الأمر الذي حرم المسلمين من قاعدة بحرية طالما استغلوها في مهاجمة الممتلكات الصليبية في فلسطين . على أننا لانميل إلى المبالغة في أهمية استيلاء الصليبيين على عسقلان بالنسبة للموقف بينهم وبين المسلمين . حقيقة أن سقوط عسقلان كان آخر نصر حربي كبير أحزره ملوك بيت المقدس ، وحقيقة أن عسقلان ظلت أمداً طويلاً قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة من جنوب فلسطين . ولكتنا يجب أن نتذكر أن الدولة الفاطمية في الوقت الذي فقدت عسقلان لم تعد مصدر خطر كبير أو صغير على الصليبيين ، وأنها أمست عندئذ في حال من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأي عمل حربي ضد الصليبيين (٢) .

دمشق تحت الحماية الصليبية :

على أن هجوم بلدوين الثالث على عسقلان واستيلائه عليها لم يتم دون أية محاولة إيجابية لإنقاذ المدينة من جانب القوى الإسلامية بالشام . ومن ذلك أن نور الدين أتابك حلب ومجير الدين أتابك دمشق حاولا أن يتناسيا ما بينهما من خصومات واتفقا في أبريل سنة ١١٥٣ ، للتعااضد على الجهاد ، (٣) . ولكنهما بعد أن هاجما مدينة بانياس في ١٦ مايو ، دب بينهما الشقاق ، واصطدم الفريقان في معركة كبيرة ، افترق بعدها العاهلان ، من غير سبب ولا موجب ، ، فاتجه نور الدين إلى حمص وعاد مجير الدين إلى دمشق (٤) .

والواقع أن البيت البوري في دمشق تعرض للانحلال السريع والتدهور الشديد بعد وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ . ذلك أن مجير الدين أبق كان ضعيفاً ، منحللاً قاسياً ، ضيق الأفق . وسرعان ما انكشف ذلك الجانب المظلم من شخصيته

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢٥ .

ابن القلانسي : ص ٢٢١ .

(2) Runciman. op. cit. 11, p. 340.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ص ٢٢٤ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

عندما باشر الحكم بنفسه عقب وفاة أنر (١١٥٠ - ١١٥٤) ^(١) . ولا شك في أن دمشق كانت أحوج ما تكون عندئذ إلى شخصية قوية تحميها من أطماع نور الدين في الشمال والصليبيين في الجنوب ، ولكن ضعف مجير الدين جعله يتغاضى عن الأخطار التي هددته من جانب الصليبيين ، ولم يعد يبالي إلا بحماية نفسه من أطماع نور الدين .

ويؤكد المؤرخ ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء على عسقلان على جانب كبير من البأس «فقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارات على أعماله» ^(٢) . وهكذا انحدر موقف دمشق إلى أن دخلت تحت حماية الصليبيين فعلا ، فصار الدماشق يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم ، وصار رسل الصليبيين يترددون على دمشق فعلا لجمع الضريبة المفروضة على أهلها من المسلمين ^(٣) .

(1) Grousset : op. cit. Tome 11, p. 362.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ .

(٣) «وجعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجيبها من أهل البلد» .

ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٦ .

الباب الحادى عشر الجبهة الإسلامية المتحدة

" واعتصموا بحبل الله جميعا ولا
تفرقوا. واذبحوا نعمة الله عليكم إذ
مكنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبتم
بنعمته أخوانا. ومكنتم علج شفا ففرة
من النار فأنقذكم منها. مكنكم يمين
الله لكم آياته لعلكم تهتدون".

(آل عمران : ١٠٣)

الفصل الأول

وحدة المسلمين في بلاد الشام

استيلاء نور الدين محمود على دمشق :

تعرض حركات الوحدة وجمع الصف في تاريخ مختلف الأمم والشعوب لبعض العقبات والمصاعب التي تثيرها دائماً حفنة من أصحاب المصالح الفردية يعز عليهم التضحية بأطماعهم الخاصة في سبيل الصالح العام لأمتهم، ولا يتخرجون في سبيل تلك الأطماع من محالفة عدو أو أعداء يهددون كيان أمتهم ويتخذون من ذلك الانشقاق أداة لتحقيق مكاسب غير مشروعة علي حساب أبناء الأمة الواحدة.

وقد تعرضت الأمة الإسلامية بوجه عام والعربية بوجه خاص لهذا الداء في العصور الوسطى بل الحديثة، ولكن التجارب أثبتت دائماً أن الشعوب لا يمكن أن يطول صبرها علي الحكام الذين يحاولون الانحراف بها إلي طريق الخيانة، وإذا نجحت حفنة من أولئك الحكام الذين أعمتهم الأحقاد الشخصية عن رؤية الخطر الجاثم الذي يهدد أمتهم التي أراد لها الله عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس. فإن نجاحهم في الحكم يظل مؤقتاً يعتمد علي أساليب الضغط والإرهاب والاستعانة بالانتهازيين والمتسلقين، حتي تقول الشعوب كلمتها، وتثور لكرامتها وكرامة تاريخها الأصيل، وعندئذ تتلاشي فقاقيع الخيانة، ويقف الجميع صفاً واحداً أمام أعدائهم وأعداء الله كأنهم بنيان مرصوص.

وكان هذا هو موقف دمشق وحكامها الخونة من أبناء البيت البوري عند منتصف القرن الثاني عشر. ولكن إذا كانت دمشق قد وقعت عندئذ تحت حماية الصليبيين، وإذا كان الخضوع لتلك الحماية أفضل - في نظر مجير الدين أبق وأعوانه من الانفصاليين ذوي المطامع الشخصية - من الاتحاد مع نور الدين محمود، فإن سائر أهل دمشق - وهم الذين عرفوا دائماً بنخوتهم وصدق عقيدتهم - كانوا لا يمكن أن يرضوا عن ذلك الوضع. ذلك أن خضوع مجير الدين أبق للصليبيين أساء إلي شعور أهل دمشق وكرامتهم إساءة بالغة، حتي فقدوا كل إحترام للبيت البوري وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق. وفي وسط تلك الأزمة لم

يجد أهل دمشق رجلاً يلتفون حوله سوي الرئيس مؤيد الدين بن الصوفي، ولكن أبق قبض عليه وسجنه في قلعة المدينة، مما أثار حالة من الغليان في دمشق.

هكذا أتاحت الفرصة لنور الدين محمود، الذي أدرك أن دمشق لن تؤخذ بالقوة فعدل إلى أعمال الحيلة (١). ولم يلبث نجم الدين أيوب - نائب نور الدين في بعلبك - أن استغل ذلك الشعور الذي ساد أهل دمشق، فأرسل بعض رسله خفية إلى تلك المدينة لمساعدة أهلها ضد مجير الدين الخائن. وكان ذلك في الوقت الذي ساءت الحالة الاقتصادية في المدينة فقلت المؤن والأقوات في دمشق، مما سبب ضيقاً كبيراً واستياء بالغاً من مجير الدين وسياسته. وكان أن أدرك نور الدين محمود أن الأحوال في دمشق باتت مهيأة لتنفيذ مشروعه الكبير الخاص بالجبهة الإسلامية المتحدة، ولكنه ظل يؤمن دائماً - من واقع تجاربه السابقة - بأن دمشق لن تؤخذ بالعنف وإلا تدخل الصليبيون للقيام بدور حماة حكامها الخونة (٢).

وقد أخذ نور الدين يستخدم أساليب السياسة، «فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتي وثق إليه (٣)». ثم بدأ نور الدين يبعث برسائله الودية بين حين وآخر إلى أتابك دمشق مجير الدين، يخبره فيها أنه تلقي عروضاً عديدة من بعض أمراء دمشق طالبين مساعدتهم ضده، ولكنه أبي فعل ذلك، حرصاً على الثقة المتبادلة بين الطرفين (٤). وعن طريق تلك النغمة، استطاع نور الدين أن يوسع شقة الخلاف بين أبق وأمرائه، إذ ازداد تشككه فيهم وتنكيله بهم حتي فقد ثقة العامة والخاصة من أهل دمشق. ولم يبق مخلصاً لأبق سوي عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وهو رجل عرف بالمكر والجرأة، كما كان شهماً شجاعاً فأدرك نور الدين أنه من المتعذر عليه تنفيذ سياسته مع وجود ذلك

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ. &

التاريخ الباهر ص ١٠٧.

(٢) "فعلم (نور الدين) إنه إن رام ملكه (ملك دمشق) بالقوة والحصار تعذر عليه، لأن صاحبه (أبق) كان متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم، وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق".

ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٠٧، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٠٧.

(٤) يروي ابن واصل أن نور الدين كان يكتب في بعض الأحيان إلى مجير الدين أبق يقول له : "إن فلاناً من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إلى، فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه، وفعل ذلك مراراً حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الأمراء وصفوة أعوانه. (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٦).

الرجل، وأنه لا يتمكن معه مما يريد^(١). لذلك سعي نور الدين للإيقاع بعطاء السلمي عند أبق الذي لم يحجم عن قتله^(٢)، وبذلك خسر أخلص أعوانه. ويقال إن آخر ما نطق به عطاء السلمي هو قوله لأبق : إن الحيلة قد تمت عليك ..^(٣). وكان ذلك في الوقت الذي منع نور الدين تموين دمشق من ناحية الشمال، مما أوقع المدينة في حالة خطيرة من الجوع والفوضى والشعور بالاستياء من ذلك الحاكم المتشكك البغيض، فخلا من البلد الخلق الكثير ولقوا من البؤس والشدة والضعف ما أوجب موت جماعة وافرة في الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات^(٤).

وعندما تأكد نور الدين من نجاح خطته، ومن أن الأمور داخل دمشق باتت مهياة لتنفيذ الحلقة الأخيرة من تلك الخطة، لجأ إلي استمالة حرس المدينة وبعض رجالها «وأحداث البلد وزناطرتة». وكذلك لجأ نور الدين إلي إرسال أسد الدين شيركوه في سفارة إلي دمشق، ولكن أبق لاحظ علي تلك السفارة أنها جاءت مصحوبة بمظاهرة عسكرية ضخمة خلاف ما جري عليه الوضع في السفارات الدبلوماسية، لذلك رفض مقابلة السفير بل رفض مجرد السماح له بدخول المدينة. وكان أن اعتبر نور الدين ذلك التصرف إهانة له، فزحف فوراً علي دمشق في ١٨ أبريل سنة ١١٥٤ هـ^(٥).

أما أبق فلم يجد قوة أمامه يستعين بها لدفع نور الدين سوي الصليبيين، فأرسل إليهم يستصرخهم لنجدته وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن هم رحلوا نور الدين عنه^(٦). وفي الوقت الذي تلكأ الصليبيون في إنقاذ أبق، كان نور الدين - عن طريق أعوانه من حرس دمشق وأهلها - قد دخل المدينة في ٢٥ أبريل عن طريق الباب الشرقي. ولم يستطع مجير الدين أبق المقاومة طويلاً فاحتمي بقلعة دمشق بضع ساعات إلي أن أستسلم، وعندئذ أطلق نور الدين سراحه وأقطعه حمص وأعمالها. وبعد بضعة أسابيع أشيع أن أبق يتآمر ضد نور الدين وأنه راسل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٥) P. Jacin, op. cit., II, p. 341 &

وقد ذكر ابن القلانسي (ص ٢٢٧) أن أسد الدين شيركوه رسول نور الدين وصل إلي ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستيحاش منه وإهمال الخروج اليه وتلقيه. انظر أيضاً : أبو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٢٩ - ٢٤٠.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ . & التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ .

أهل دمشق ليسلموا إليه فعزله نور الدين عن حمص وعرض عليه بالس علي الفرات، ولكنه رفضها وأثر الانسحاب إلي بغداد حيث توفي هناك (١).

أما أهل دمشق فسرعان ما أحسوا بالفارق الكبير بين حكم نور الدين وحكم مجير الدين أبق، إذ لم يكد نور الدين يستقر في دمشق حتي عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلاً عاماً. كذلك أسرع نور الدين إلي توفير المؤن، وألغى المكوس المفروضة علي الخضروات والغلال، ومنع جنوده من النهب والسلب، مما جعل الدماشقة يركنون إليه ويطمئنون إلي حكمه (٢).

وهكذا صفت الممالك بالشام لنور الدين علي قول ابن واصل (٣)، «وألقي الاسلام بدمشق جرائه وثبت أوتاده»، علي قول ابن الأثير (٤)، إشارة منه إلي أن دمشق في عهد البيت البوري كانت من الناحية الواقعية تحت حماية الصليبيين ونفوذهم. ومن الواضح أن استيلاء نور الدين علي دمشق كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، نظراً لما ترتب علي هذه الخطوة من وحدة بلاد الشام الإسلامية، تحت زعامة نور الدين. فمن الرها شمالاً حتي حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها مدينة دمشق علي نهر بردي. وبعبارة أخرى فإن استيلاء نور الدين علي دمشق حقق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، فإذا كان الصليبيون باستيلائهم علي عسقلان قد ضمنوا لأنفسهم السيطرة علي جميع ساحل بلاد الشام من الأسكندرونة حتي غزة، فإن استيلاء نور الدين علي دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتي بردي في قبضة قوة إسلامية واحدة لا انقسام في صفوفها ولا فرقة بين أعضائها. وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء علي قلعة حارم علي الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من قبضة المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية الحربية والمعنوية لاستيلاء نور الدين علي دمشق (٥).

ثم إنه لا يخفي علينا أن استيلاء نور الدين علي دمشق جاء خطوة كبرى

(١) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٨ ،

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٤٩ هـ.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٨.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ،

التاريخ الباهر، ص ١٠٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٤١.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٥١ هـ،

التاريخ الباهر، ص ١٠٧ - ١٠٨.

نحو تحقيق الجبهة الإسلامية المتحدة في الشرق الأدنى، وهي الجبهة التي امتدت من الفرات إلى النيل والتي كان قيامها بمثابة ضربة مميتة للصليبيين. فحتي ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى منقسمين إلى وحدتين منفصلتين، وحدة في الجنوب - أي في مصر - ووحدة في الشمال - أي في شمال الشام والعراق. وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق الانفصاليين توجيه الضربات لكل وحدة من هاتين الوحدتين علي انفراد، دون أن تتمكن الوحدة الأخرى من دفع خطر الصليبيين المشترك. ومصادق ذلك ما يقوله النويري من أن نور الدين لم يستطع مهاجمة الصليبيين عندما غزوا عسقلان في العام السابق لأن دمشق تحول بينه وبينهم ^(١) كذلك ذكر ابن واصل ما نصه « وكان نور الدين لما نازل العدو (الصليبيون) عسقلان يتأسف، إذ لا يمكنه الوصول إليهم ودفعهم عنها، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ... » ^(٢) .

الحرب بين نور الدين والصليبيين حول بانياس :

ولم تلبث أن نشبت حرب طويلة بين نور الدين والصليبيين سببها خيانة الصليبيين وعدم مراعاتهم للعهد، في الوقت الذي امتازت سياسة المسلمين دائماً - طوال نضالهم ضد الصليبيين - بالحرص علي الوفاء بالعهد واحترام الكلمة والتمسك بمبادئ الشرف والأخلاق ^(٣) .

ذلك أن جماعة من رعاة التركمان، حصلوا علي إذن من بلدوين الثالث برعي ماشيتهم وخيولهم وجمالهم في منطقة الأردن حول بانياس. ويبدو أن الخيول الكثيرة التي امتلكها أولئك الرعاة أثارت مطامع بلدوين الثالث، فنسي الأمان الذي أعطاه لأصحابها وفكر في سلبهم إياها متجرباً مع أبسط مبادئ الأخلاق التي حرص عليها المسلمون دائماً في معاملاتهم مع الصليبيين ^(٤) . وكان أن هاجم الصليبيون أولئك الرعاة المسلمين في فبراير سنة ١١٥٧ وأعملوا فيهم السيف، فقتل منهم من قتل وأسر من أسر، وتحقق للصليبيين ما أرادوا من أسلاب واستاقوا جميع ما وجوده وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا غانمين آثمين، ^(٥) .

(١) النويري . نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٦٠ (تحقيق المؤلف).

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٦.

(3) Grousset : op. cit., II, p. 368.

(4) Guillaume de Tyr, p.p. 837 & ٢٣٩ - ٢٣٧

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٧.

علي أنه إذا كان الصليبيون قد نجحوا في تحقيق بعض المكاسب المادية فانهم فعلوا ذلك علي حساب سمعتهم الأدبية، وعلي حساب التضحيات التي كان عليهم أن يتحملوها في حرب طويلة شنها عليهم نور الدين نتيجة لغدرهم. ذلك أنه إذا جاز للمسلمين أن يصبروا علي قيام دولة المشركين، فانهم كانوا لا يطيقون قيام دولة من اللصوص في أراضيهم، وذلك علي حد تعبير أحد المؤرخين الأوربيين المحدثين ^(١) ولم يكد نور الدين يسمع بما فعله الصليبيون حتي خرج لمحاصرة بانياس في مايو سنة ١١٥٧ بعد أن أمر أسد الدين شيركوه بأن يسبقه علي رأس قوة استطلاعية ليوهم الصليبيين بأن الجيش الإسلامي المهاجم محدود الإمكانيات لا يتعدى تلك القوة الصغيرة. ثم كان أن انقض المسلمون علي الصليبيين فتحكمت من رؤوسهم ورقابهم مرهفات السيوف، علي قول ابن القلانسي، ولم يستطع الفرار منهم سوي القليل، حتي صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير ^(٢)، في حين لاذ بلدوين الثالث نفسه بالفرار إلي صفد. ولم يلبث ذلك النصر أن قوي عزيمة المسلمين وقت في عضد الصليبيين، فاشتد الحصار علي بانياس، ووثب المسلمون علي خصومهم كالليوث إلي فرائسها، حتي سقطت في أيدي المسلمين في ٢١ مايو سنة ١١٥٧ ^(٣).

علي أن الموقف لم ينته بالنسبة لبانياس عند ذلك الحد، إذ سرعان ما تمكن الصليبيون بزعامة بلدوين الثالث من استرداد بانياس حوالي منتصف الشهر التالي (يونيو) فانسحب منها المسلمون بعد أن دمروها وأحرقوها. وهكذا ظلت بانياس كالكرة تتلاقفها أيدي الصليبيين حيناً والمسلمين أحياناً طوال سنوات عديدة.

خطورة موقف نور الدين :

ولم يبت أن ساء موقف نور الدين عندما أخذ سلاجقة الروم بزعامة السلطان قلق أرسلان الثاني يهددون إقليم حلب في صيف ١١٥٧، في الوقت الذي حدثت هزة أرضية سببت كثيراً من الأضرار في بعض المدن الإسلامية، مثل حماة وشيزر وكفر طاب ومعرة النعمان وأقامية وحمص ^(٤). وفي تلك الظروف

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ٨٩.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٩.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٦٩.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ - ٢٤١.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٧٠.

(٤) وقد أثر هذا الزلزال تأثيراً بالغاً في تلك البلدان "أزعج أهلها وأقلقهم" وقال بعض الشعراء المعاصرين فيه : =

القاسية اجتمعت كلمة الملك بلدوين الثالث وأمير أنطاكية أرناط (رينو دي شاتيون) وأمير طرابلس ريموند الثالث علي مهاجمة نور الدين. وكان أن جمع نور الدين قواته عند أنب استعداداً لمواجهة الصليبيين، عندما دهمه مرض خطير أشرف بسببه علي الموت في أكتوبر سنة ١١٥٧، حتي أنه أوصي لأخيه نصرة الدين محمد بحلب ولقائده أسد الدين شيركوه بدمشق نائباً عن نصرة الدين محمد، في حين حمل نور الدين نفسه في المحفة إلي قلعة حلب وهو أقرب إلي الموت منه إلي الحياة (١).

ولم تكد تنتشر هذه الأخبار حتي هلك الصليبيون فرحاً لا اعتقادهم أن خصمهم اللدود نور الدين قد مات فعلاً، وأن الوحدة الإسلامية لن تلبث أن تنقسم عراها (٢). ولم يكتف ملك بيت المقدس بجمع أميري أنطاكية وطرابلس بل حرص أيضاً علي أن يحشد جميع القوي المسيحية المجاورة للإنتقام، فاستدعي ثوروس الثاني Thoros II أمير قيليقية الأرمني الذي حضر علي رأس جيش كبير إلي أنطاكية للمشاركة في عملية نحر الدولة النورية. وكان أن اتجه الصليبيون نحو شيزر فاستولوا عليها في أكتوبر سنة ١١٥٧ (٣). وقد رغب بلدوين الثالث في إعطاء شيزر للأمير تيري الألزاسي Thierry d' Alsace كونت فلاندرز الذي كان قد وصل إلي الشام منذ أمد قريب، علي أن يكون تيري تابعاً في حكمه شيزر لملك

= روعتا زلازل حادتا

بقضاء قضاء رب السماء
أهلك أهله بسوء القضاء
وثغوراً موثقات البناء

هدمت حصن شيزر وحماة
وبلاداً كثيرة وحصوناً

هذا، ويستفاد مما ذكره المؤرخون أن ذلك الزلزال أحدث أيضاً كثيراً من الأضرار ببعض المدن الصليبية مثل أنطاكية وطرابلس. (أنظر ابن القلانسي : ص ٢٤٣ - ٢٤٤، ابن الأثير : الكامل سنة ٥٥٢ هـ).

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٧٤، ابن القلانسي، ص ٢٤٩.

(2) Cuillaume de Tyr, p. 848.

(٣) ذكر ابن الأثير أن حصن شيزر هذا قريب من حماة وأنه يقع علي جبل عال منيع وقد ظل آل منقذ يتوارثونه حتى ولي حكمه سلطان بن علي فشرّد أبناء أخيه مرشد بن علي سنة ١١٣٦ (٥٣١ هـ) وطردهم من شيزر ؛ فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا إليه ما لقوه من عمهم ؛ ولكنه لم يستطع الأخذ بثأرهم لانشغاله بأمر الصليبيين، وعند وفاة سلطان بن علي بلغ نور الدين أن أولاده راسلوا الصليبيين فاشتد حنقه عليهم. وكان ذلك في الوقت الذي استولى الصليبيون علي شيزر سنة ١١٥٧ م.
(ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٥٢ هـ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

بيت المقدس . ولكن هذا الرأي لم يعجب أرناط الذي قال إن بني منقذ في شيزر كانوا يدفعون الجزية رمزاً للتبعية لإمارة أنطاكية، وبناء علي ذلك يجب أن يكون كونت فلاندرز في شيزر تابعاً له (١) . وقد إنتهت المشكلة بأن ترك الصليبيون شيزر واتجهوا إلي قامية (أقامية) لاحتلال أنقاضها، ثم حاصروا حصن حارم واستولوا عليه في فبراير سنة ١١٥٨ (٢) . ولاشك في أن استيلاء الصليبيين علي حارم ثبت أقدامهم من جديد شرقي نهر العاصي، فأخذوا من ذلك المكان الحصين يواصلون إعتداءاتهم علي القرى والضيايع المجاورة ، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية وإطلاق الأيدي في العبث والفساد في معاقلها وضيايعها (٣) .

وبعد أن عاد بلدوين الثالث إلي بيت المقدس لفض بعض المشاكل الداخلية استأنف في مارس سنة ١١٥٨ إغاراته علي إقليم دمشق في منطقة حوران وداريا . وفي تلك الأثناء كان نور الدين قد شفي من مرضه، فانتقل إلي دمشق في أوائل أبريل سنة ١١٥٨ حيث ابتهج الناس بشفائه ، واستبشر العالم بمقدمه وابتهجوا وبالغوا في شكر الله تعالى علي سلامته وعافيته (٤) . وفي الحال أمر نور الدين قائده شيركوه بالإغارة علي منطقة صيدا (مايو ١١٥٨) حيث قتل كثيراً من الصليبيين وعادوا بالأسري والغنائم (٥) . وبعد ذلك اصطحب نور الدين قائده شيركوه في مهاجمة إقليم الجليل جنوبي بانياس . وفي الموقعة التي دارت بين نور الدين وبلدوين الثالث قرب مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية، انتصر الصليبيون في منتصف يوليو سنة ١١٥٨ واستطاعوا أن يأخذوا إقليم السواد من المسلمين (٦) .

(1) Guillaume de Tyr, p. 850 - 851.

(٢) ابن القلائسي : ديل تاريخ دمشق ص ٢٥٠ .

(٣) المصدر السابق، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٧ .

(٤) ابن القلائسي ، ص ٢٥١ .

(٥) ابن شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٠٠ .

(٦) المصدر السابق .

الفصل الثاني

عودة البيزنطيين إلى الشام

تجديد التحالف بين البيزنطيين والصليبيين :

أدرك الملك بلدوين الثالث أن الصليبيين لم يستطيعوا الإفادة علي الوجه الأكمل من الفرصة التي أتاحها لهم مرض نور الدين و زلزال الشام الكبير سنة ١١٥٧ ، ووجد أنه لابد من قوة خارجية تسند الصليبيين وتشد أزرهم ضد نور الدين الذي استولي علي شيزر وأخذ يعد نفسه ودولته من جديد لاستئناف الجهاد^(١) . وفي الوقت نفسه كان بلدوين الثالث مستاء من سلوك أرناط (رينودي شاتيون) أمير أنطاكية ، فرأي في البيزنطيين قوة كبرى تساعد الصليبيين ضد المسلمين من ناحية وتؤدب أرناط من ناحية أخرى ، لاسيما وأن الإمبراطورية البيزنطية لم تنس الإغارة التي قام بها أرناط علي قبرص سنة ١١٥٦^(٢) .

وكانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاسترضاء الامبراطور البيزنطي والحصول علي مساعدته هي مصاهرة الأسرة الحاكمة في القسطنطينية . ولهذا الغرض أرسل سفارة عظيمة إلي العاصمة البيزنطية في صيف سنة ١١٥٧ لطلب يد الأميرة تيودورا ، ابنة أخ الإمبراطور . وكان أن تمت الصفقة ، علي أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وملحقاتها . ووصلت العروس إلي عكا في سبتمبر ١١٥٨ ومنها انتقلت إلي بيت المقدس مباشرة حيث تم الزواج^(٣) . ومن المحتمل أن يكون الحديث قد تطرق أثناء عملية الخطوبة إلي المساعدة التي يمكن أن يقدمها الإمبراطور مانويل كومنين للصليبيين ، كما يظن أن يكون الإمبراطور قد وعد فعلا بمساعدة الصليبيين حربياً ضد نور الدين^(٤) .

(1) Setton : op. cit., p. 542.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 349 .

(3) Guillaume de Tyr, p. 858 .

وتشير المصادر إلى أن بلدوين الثالث كان وقتئذ في السابعة والعشرين من عمره في حين كانت عروسه البيزنطية في الثالثة عشر من عمرها فقط ، ومع هذا فقد كانت مكتملة الأنوثة والبناء .

(4) Cregoire Le Prêtre, p. 186 .

مانويل كومنين فى قيليقية :

ومن الواضح أن الإمبراطور مانويل كومنين وجد فى تلك المصاهرة الجديدة فرصة طيبة للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الإمبراطورية فى قيليقية أولاً ثم فى أنطاكية بعد ذلك . وكان أرناط أمير أنطاكية قد حالف ثوروس أمير قيليقية الأرمني ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية جميعاً ، فى الوقت الذى اتخذ الإمبراطور مانويل كومنين من سلاجقة الروم حاجزاً يحول دون تضخم نفوذ ذلك الأمير الأرمني (ثوروس)^(١) . لذلك لم تكذ الأميرة تيودورا تغادر القسطنطينية إلى بيت المقدس فى صيف سنة ١١٥٨ ، حتى خرج الإمبراطور البيزنطي علي رأس جيش كبير لغزو قيليقية واستردادها من الأرمن ومعاقبة أرناط فى أنطاكية^(٢) .

وكان أن عبر مانويل كومنين آسيا الصغرى من شمالها الغربى إلى جنوبها الشرقى حتى وصل قيليقية فى أكتوبر سنة ١١٥٨ ، ففر ثوروس الثانى من وجهه ، واحتل الإمبراطور مدن قيليقية وقلاعها الكبرى ، وإن كان قد عامل أهلها معاملة طيبة^(٣) . وقد اتخذ الإمبراطور البيزنطي مقامه فى المصيصة ، ومنها أرسل إلى أرناط فى أنطاكية يستدعيه لمحاسبته علي ما فعله بقبرص .. وعندما وجد أرناط نفسه أمام الإمبراطور البيزنطي الذى يربط علي حدود إمارته بجيشه العظيم ، استنجد بملك بيت المقدس بلدوين الثالث ، ونسي أن بلدوين الثالث نفسه كان لا يقل استياء منه عن الإمبراطور البيزنطي^(٤) .

وهكذا رفض ملك بيت المقدس أن يشفع لأرناط عند الإمبراطور البيزنطي ، فذهب أمير أنطاكية وحيداً للمثول بين يدي الإمبراطور فى المصيصة . وتصف المصادر كيف دخل أرناط علي الإمبراطور عاري الرأس حافي القدمين لينحني ، وهو يمسك سيفه من طرفه ليتناول الإمبراطور من مقبضه^(٥) ، وكان ذلك فى حضور الوفود العديدة التى قدمت إلى المصيصة لتحية الإمبراطور^(٦) . وأخيراً عفا الإمبراطور عن أرناط بثلاثة شروط : أولها اعترافه بسيادة الإمبراطورية البيزنطية

(1) Stevenson : op. cit. p. 180 .

(2) Vasiliev : op. cit., vol. 2, p. 426 .

(3) Grégoire Le Prêtre p. 187 .

(4) Guillaume de Tyr, p. 860 .

(5) Ostrogorsky : op. cit., p. 343 .

(٦) وقد ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أنه كان بين هذه الوفود وفد من قبل نور الدين محمود ، وآخر من قبل الخليفة العباسي (p. 860) .

علي أنطاكية وتعهد بتسليمها فوراً متى طلب منه الإمبراطور ذلك ، ثم تقديم فرقة من محاربي أنطاكية للعمل في الجيش الإمبراطوري ، وأخيراً عزل بطرق أنطاكية الكاثوليكي وإحلال آخر أرثوذكسي بدلاً منه . وبعد أن تعهد أرناط بهذه الشروط سمح له بالعودة إلى أنطاكية^(١) .

ولم يلبث الملك بلدوين الثالث أن ذهب هو الآخر إلى المصيصة ليجري مباحثات سرية مع الإمبراطور البيزنطي ، وهي المباحثات التي تم فيها الاتفاق علي الحلف بين الطرفين ، وعلي المساعدة التي يقدمها الإمبراطور مانويل كومنين للصليبيين . علي أنه لا يوجد نص صريح في الوثائق المعاصرة يثبت أن بلدوين الثالث إعترف في تلك المقابلة بسيادة الإمبراطور البيزنطي علي الصليبيين بالشام^(٢) . وكذلك قبل الإمبراطور شفاعة ملك بيت المقدس في ثوروس الثاني أمير قيليقية (أرمينية الصغرى) ، وعفا عنه بشرط أن يظل تابعاً للإمبراطورية .

مانويل كومنين في الشام :

وبعد ذلك اتجه الإمبراطور مانويل كومنين لزيارة أنطاكية في أبريل سنة ١١٥٩ ، فدخل المدينة في موكب فخم حافل ، ممتطياً فرسه ، وإلي جانبه أرناط ماشياً ممسكاً بلجام فرس الإمبراطور البيزنطي . وخلف الإمبراطور كان الملك بلدوين علي فرسه ، ولكن بدون تاج علي رأسه أو سلاح بيده . وهكذا قضي الإمبراطور مانويل كومنين ثمانية أيام في أنطاكية وسط مظاهر التبجيل والاحترام، وأعلامه الإمبراطورية ترفرف علي أسوار المدينة^(٣) . ولاشك في أن الإمبراطور إنما قصد بتلك المظاهرة إظهار عظمته وعظمة إمبراطوريته من ناحية، ثم تأكيد سيادته علي أنطاكية من ناحية أخرى^(٤) .

وكان أن تم الاتفاق بين الإمبراطور مانويل كومنين من جهة والملك بلدوين الثالث وأرناط من جهة أخرى علي القيام بحملة كبرى ضد المسلمين ، علي أن تكون وجهة هذه الحملة مدينة حلب مباشرة ، حتي يتجنب الإمبراطور الخطأ الذي وقع فيه أبوه سنة ١١٣٨^(٥) . وفعلًا بدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك ،

(1) Chalandon : Comenes II, p. 445 .

(2) Grousset : op. cit., II. p. 307 .

(3) Vasiliev : op. cit., II, p. 427 .

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 860 - 864 .

(5) Gregoire Le Pretre. p. 189 - 190 .

مما أثار مخاوف نور الدين ، فأرسل إلي «ولاة الأعمال والمعاقل بأعلامهم ما حدث من الروم ويبعثهم علي استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم»^(١) .

علي أن نور الدين لم يقدر أن الحشود البيزنطية الصليبية ستتجه تلك المرة إلي حلب ، فخرج علي رأس قواته إلي حوض العاصي لحماية حمص وحماة وشيزر ، ظناً منه أن تلك النواحي ستكون موضع هجوم الصليبيين كما حدث سنة ١١٣٨ (٢) .

ولكن يبدو - كما قال جيرارد أسقف اللاذقية عندئذ - أن الإمبراطور البيزنطي كان لا يقصد بمجيئه إلي الشام حرب المسلمين بقصد ما أراد إظهار عظمته واستعراض عضلاته أمام الصليبيين . ومصادق ذلك أن الإمبراطور لم يكذب تحرك علي رأس الجيوش الصليبية من أنطاكية حتي وصلته سفارة من نور الدين للدخول في مفاوضات حقناً للدماء . وقد عرض نور الدين علي الإمبراطور استعداداه لعقد هدنة ، وإطلاق سراح جميع من لديه من أسري الصليبيين ، وكان عددهم يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف^(٣) . وهنا وافق الإمبراطور علي العرض الذي تقدم به نور الدين ، وأمر بإيقاف الحملة في الحال (نهاية مايو سنة ١١٥٩)^(٤) .

ويبدو أن الإمبراطور مانويل كومنين ظن أن نور الدين يمكن أن يكون حليفاً طيباً للإمبراطورية البيزنطية في حروبها ضد سلاجقة الروم ، فضلاً عن أن تجارب الإمبراطورية البيزنطية مع الصليبيين علمت أباطرة القسطنطينية أن الصليبيين عدو خطير للإمبراطورية ، وأنهم لا يتجهون إليها إلا في أوقات الحاجة والشدة^(٥) .

ولم يلبث أن عاد الإمبراطور مانويل كومنين إلي القسطنطينية مباشرة ليقوم سنة ١١٦٠ - ١١٦١ بحملة ضد السلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وهي الحملة

(١) ابن القلانسي : ذيل التاريخ دمشق ص ٣٥٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٤ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٦ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٨ ، ومن جملة هؤلاء الأسرى كان برترام الذي أسر عند العريمة قبل ذلك بنحو عشر سنوات ، وقائد فرسان الداوية الذي أسر في معركة الحولة قبل ذلك بنحو عامين (Stevenson. op. cit., p. 181) .

(4) Stevenson : op. cit., p. 181 .

(5) Runciman : op. cit., II, p. 355 .

التي أنزل فيها الهزيمة بقلج أرسلان الثاني سلطان السلاجقة . وهنا نلاحظ أن نور الدين اشترك في مهاجمة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، مما أثار الظن بأن الاتفاقية السابقة - بينه وبين الإمبراطور البيزنطي - تضمنت نصاً سرياً يقضي بتحالف الطرفين ضد السلاجقة في آسيا الصغرى . هذا وإن كانت المصادر العربية والصليبية لم تشر إطلاقاً إلى مثل هذا الاتفاق ^(١) . ولم يلبث قلج أرسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ حيث قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطي وأعلن تبعيته له ، وذلك قبل أن ينقضي قرن علي موقعة مانزكرت ^(٢) .

خاتمة بلدوين الثالث :

وهكذا باءت بالفشل فكرة التحالف بين الإمبراطورية البيزنطية والصليبيين بالشام للقيام بعمل حاسم مشترك ضد نور الدين محمود . ولم يبق إلا أن يعتمد الصليبيون علي أنفسهم ، وعلي ما عساه يأتيهم من مساعدات من غرب أوروبا ، للاحتفاظ بوضعهم في بلاد الشام أمام التهديد المستمر من جانب نور الدين .

وكان أن انتهز الملك بلدوين الثالث فرصة تغيب نور الدين محمود في آسيا الصغرى لمحاربة السلاجقة ، وقام سنة ١١٦٠ باغارات علي منطقتي حوران ودمشق ^(٣) . وفي تلك الأثناء سمع الملك بلدوين بأمر أرناط الذي جره طمعه ورغبته في السلب إلي الإغارة علي مناطق المراعي في الجزيرة ، ولكنه وقع عند عودته - ومعه أسلابه من الأغنام والمواشي والخيول - في أسر مجد الدين أبي بكر بن الداية نائب نور الدين في حلب (نوفمبر ١١٦٠) ^(٤) . وقد ظل أرناط أسيراً في حلب ستة عشر عاماً (١١٦٠ - ١١٧٦) دون أن يظهر ملك بيت المقدس ، أو حتي أهل أنطاكية أنفسهم أسفاً علي أسره أو يقوموا بمحاولة لإطلاق سراحه . وبذلك غدت إمارة أنطاكية مرة أخرى دون رجل قوي يدافع عنها ، حيث أن بوهيموند الثالث - ابن كونستانس من زوجها الأول والوريث الشرعي للإمارة - كان لا يزال في السادسة عشر من عمره ^(٥) .

وقد رغبت الأميرة كونستانس في أن تسيطر علي زمام الأمور بنفسها مرة أخرى ، ولكن بلدوين الثالث أسرع إلي أنطاكية حيث قرر المحافظة علي حقوق

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ، ص ٢٠٨ & Grousset : op. cit., p. 420 - 421 (1)

ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٦٠ هـ & Gregoire Le Pretre, p. 193 - 194. (2)

(3) Guillaume de Tyr, p. 866 .

(4) Idem, p. 868 - 869 & ويلاحظ أن مجد الدين هذا كان أخاً في الرضاة لنور الدين

(5) Setton : op. cit., I, p. 546 - 547 .

بوهيموند الثالث الشرعية في الحكم ، علي أن يساعده في شئون الحكم - إلي أن يبلغ سن الرشد - البطرق أيمري . ويبدو أن هذا الحل لم يعجب كونستانس فاستنجدت بالإمبراطور البيزنطي^(١) . ولم يلبث الإمبراطور البيزنطي الذي توفيت زوجته سنة ١١٥٩ - أن تزوج من الأميرة ماري ابنة كونستانس الأنطاكية في ديسمبر سنة ١١٦١ ، وبذلك انتصرت كونستانس وتمكنت من تثبيت سلطانها في أنطاكية^(٢) .

أما الملك بلدوين الثالث فقد اتجه بعد ذلك صوب بيت المقدس ، ولكنه مرض في الطريق وتوفي في بيروت في فبراير سنة ١١٦٢ . ولم يترك بلدوين الثالث وريثاً يرثه في ملك بيت المقدس سوى أخاه عموري حاكم يافا وعسقلان الذي لم يلبث أن توج ملكاً في كنيسة القيامة باسم عموري الأول^(٣) .

(1) Guillaume de Tyr, p. 874 .

(2) Chalandon : Commenes, II, p. 523 .

(3) Besant & Palmer : Jerusalem, p. 332 .

الفصل الثالث

مصر بين نور الدين وعموري الأول

الملك عموري الأول وسياسته

توج عموري الأول ملكاً على بيت المقدس في ١٨ فبراير سنة ١١٦٢ ، أي بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث بثمانية أيام . وكان عموري قد تزوج قبل ذلك بأربع سنوات من آجني دي كورتناي ابنة جوسلين الثاني أمير الرها السابق ؛ ولكنه عاد فطلقها بعد أن أنجب منها طفلين هما بلدوين (الرابع) والأميرة سبيل^(١) .

وعلى الرغم من أن عموري لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عند اعتلائه عرش مملكة بيت المقدس ، إلا أنه امتاز بالمهارة السياسية الفائقة ، والقدرة على انتقاء خيرة الوسائل لتنفيذ أغراضه ، فضلاً عن حيويته ونشاطه وشجاعته . ولعل هذا كله مما دفع المؤرخين المسلمين أنفسهم إلى امتداح شجاعته ودهائه^(٢) . ومع ذلك فإن عموري الأول لم يحظ بالشعبية الكافية ، ولم يتمتع بمحبة الناس مثل أخيه بلدوين الثالث ، وربما كان مرجع ذلك تباعده ومغالاته في الصمت ، فاذا تكلم فإنه كان لا يحسن مجاملة محدثيه من الناس^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن عموري الأول تولى عرش بيت المقدس ليجتبه بالحروب الصليبية وجهة جديدة ، أعنى في الاتجاه الجنوبي الغربي داخل الأراضي المصرية^(٤) . ذلك أن قيام الدولة النورية في الشام ، ونجاح هذه الدولة في تحقيق الوحدة بين حلب وحماه وحمص ودمشق ، أغلق الباب أمام الصليبيين أمام أي توسع في الاتجاه الشمالي الشرقي ، فلم يبق أمامهم سوى مصر في الجنوب الغربي . وكانت مصر عندئذ تبدو غنيمة سهلة نتيجة لانحلال الخلافة الفاطمية واختلال أحوال البلاد الداخلية^(٥) .

(1) Guillaume de Tyr. p. 882 - 884 .

(٢) " ولم يكن للفرنج منذ ظهوروا بالشام مثله شجاعة ومكرأ ودهاء " .

ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ق٢ ص ٢٩٠ (تحقيق محمد حلمي أحمد) .

(3) Grousset : op. cit., II, p. 438 - 442 .

(4) Grousset : L'Empire du Levant. p. 231 .

(5) Schlumberger; Campagnes du Roi Amaury I, 19 .

الدولة الفاطمية فى أواخر أيامها :

أما مظاهر الانحلال الذى كانت تعانيه الخلافة الفاطمية فكثيرة ، ومتعددة ، أهمها عدم استقرار الحكم ، حتى صار من الأمور الشائعة أن يموت الخليفة أو الوزير مقتولا . من ذلك أن الخليفة الظافر مات مقتولا سنة ١١٤٥ بسبب شذوذه الخلقى فاستبد بالسلطة الوزير طلائع بن رزيك - وهو من أصل أرمنى - طوال سبع سنوات (١١٥٤ - ١١٦١)^(١) . وعندما توفى الخليفة الفائز - ابن الظافر - وهو فى الحادية عشر من عمره سنة ١١٦٠ ، أقام ابن رزيك فى الخلافة الخليفة العاضد الذى كان (مرافقاً قارب البلوغ) ، فزوجه الوزير طلائع ابنته ، مما مكنته من إحكام سيطرته على الخليفة^(٢) .

وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلك أهل القاهرة للخليفة الجديد إذ قال (كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون مامات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم)^(٣) . وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك ، وتمت المؤامرة بنجاح فى سبتمبر سنة ١١٦١^(٤) .

وقد خلف ابن رزيك ابنه العادل الذى لقب بمجد الإسلام ، ولكنه لم يظل فى الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣ . على أن شاور عامل العاضد بأفعال قبيحة وأساء السيرة فى الرعية ، وأخذ أمر مصر فى وزارته فى إدبار . ولذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣^(٥) . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتركب كثيراً من المظالم وأعمال الإضطهاد وقتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع^(٦) . وسرعان ما عم الاستياء والخوف الناس جميعاً فى مصر ، وكان ذلك فى الوقت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٤٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ &

Wiet : L'Egypte Arabe p. 289 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .
(٤) المصدر السابق .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٨ هـ &

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ . ويلاحظ أن لفظ (المصريين) استخدم بمعنى (الفاطميين)

الذي أخذ عموري الأول ملك بيت المقدس يفكر جدياً في غزو مصر .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين - مثل وليم الصوري وميخائيل السرياني - أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ م منتهزاً فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز. ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائه وستين ألف دينار^(١). وقد تحجج الملك عموري الأول بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها ليغزو الدلتا في سبتمبر سنة ١١٦٣ حتي وصل إلى بلبيس وحاصرها. ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه في الأراضي ليحجر عموري الأول على الانسحاب إلى فلسطين^(٢).

ولكن إذا كان عموري الأول قد عاد إلى فلسطين فاشلاً، فإن تلك الحملة الإستطلاعية كانت لها فائدة كبرى بالنسبة له وللصليبيين. ويكفي أنها أطلعتهم على مدى ضعف مصر وعظيم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها، مما جعل عموري الأول يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر^(٣). ومن ناحية أخرى فإن جرأة عموري في مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين الذي لجأ إلى القيام بعدة حملات قوية في الشام سنة ١١٦٢ - أي عقب وفاة بلدوين الثالث مباشرة - لتحويل نظر الصليبيين عن مصر من جهة والاستفادة من الموقف الناتج داخل بيت المقدس عن وفاة ملك وقيام آخر من جهة أخرى^(٤). وقد بدأ نور الدين غزواته في تلك المرحلة بمهاجمة حارم، فحاصرها وجد في قتالها ولكنها امتنعت لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجاعتهم ومقاتليهم^(٥). وكان أن ترك نور الدين إمارة أنطاكية ليهاجم إمارة طرابلس في العالم التالي (١١٦٣). ولكنه لم يكد يشرع في مهاجمة حصن الأكراد، حتى اجتمعت القوات الصليبية المتباينة ضده، فأنزلوا به ورجاله الهزيمة واضطر نور الدين إلى الفرار إلى حمص^(٦).

وفي تلك الأثناء كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود في الشام، وأخذ يستنجد به وأطمعه في الديار المصرية وقال له «أكون نائبك بها، وأقنع بما تعين

(1) Michel Le Syrien, III, p. 317 & Guillaume de Tyr p. 890.

(2) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury P. 38 - 48.

(3) Setton : op. cit, I, p. 550 - 551.

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢، ص ٣٣٩ وما بعدها.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٣٤.

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ - ١١٧.

لى من الضياع والباقى لك^(١) . كذلك تعهد شاور لنور الدين - إذا ساعده الأخير فى العودة إلى الوزارة بمصر - أن يدفع له ثلث دخل البلاد ويتصرف على أمره ونهيه وإختياره^(٢) .

ولكن نور الدين تردد كثيراً فى إرسال حملة الى مصر خوفاً من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى الشام . وأخيراً استخار نور الدين القرآن، وأرسل حملة مع شاور الى مصر سنة ١١٦٤ بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحب شركوه فى تلك الغزوة ابن أخيه صلاح الدين وكان فى السابعة والعشرين من عمره . وعندئذ استنجد ضرغام بالصلبيين، وتعهد لعمورى - مقابل مساعدته - أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصلبيين^(٣) . على أن مهارة القائد الكردى شيركوه وإسراعه فى قطع الصحراء - رغم كبر سنه - جعلته يكسب قصب السبق، فوصل الدلتا قبل الصليبيين، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ إلا وكان شيركوه - وبصحبه شاور - قد وصلا إلى أسوار القاهرة . ولم يلبث أن تخلى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة^(٤) .

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان خبيثاً سفاكاً للدماء ، فأساء معاملته الناس، ونسى وعوده المعسولة لنور الدين، بل سرعان ما ظهرت منه إمارات الغدر بأسد الدين شيركوه ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب منه الخروج من مصر^(٥) . ولكن شيركوه رد على موقف شاور باحتلال بلبيس والشرقية، مما جعل شاور يفعل فعل سلفه ضرغام فاستنجد بالصلبيين، وأرسل يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر^(٦) .

ولم يلبث أن عاد عمورى الأول على رأس جيش كبير إلى مصر مرة أخرى لاسيما بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال^(٧) . وعندما وصل ملك بيت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٢٢٢ .

(3) Wiet : L'Egypte Arabe p. 264.

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل، حواشي سنة ٥٥٩ هـ .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٢٢٥ .

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٩

Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury ; p. 58.

المقدس إلى فاقوس، لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة، وإنما اختار أن يقوى مركزه في بلبس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة. وكان ذلك في الوقت الذي حضر شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع عموري في حصار شيركوه في بلبس، حتي تم الاتفاق أخيراً على أن يغادر شيركوه وعموري الأول مصر، وتم ذلك في أواخر سنة ١١٦٤، بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف ديناراً أخرى^(١). وربما كان عموري الأول أكثر تلهفاً على تلك الاتفاقية، حيث أن هجمات نور الدين اشتدت على الصليبيين في غيابه مما تطلب عودته إلى بلاد الشام على وجه السرعة^(٢).

نور الدين وإمارة أنطاكية :

والواقع أن نور الدين كان لا يمكن أن تفوته فرصة تغيب عموري الأول في الميدان المصري وخلو الشام من الفرنج دون أن يهاجم الصليبيين في غياب الملك لينتقم من الكسرة التي حلت به قرب حصن الأكراد سنة ١١٦٣^(٣). وكان أن اختار نور الدين أن يهاجم إمارة أنطاكية، أو حصن حارم علي وجه التحديد. ولم يكن نور الدين وحده تلك المرة، وإنما اشترك معه في الجهاد الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرمني صاحب حصن كيفا في ديار بكر، ونجم الدين ألبى صاحب ماردين، فضلاً عن الأخ الثالث لنور الدين وهو قطب الدين مودود أتابك الموصل^(٤).

أما الصليبيون فلم يوقفوا مكتوفي الأيدي أمام تهديد نور الدين وحلفائه، وإنما جمعوا شملهم - في غياب عموري الأول - لمواجهة نور الدين. وهكذا اشترك مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ريموند الثالث أمير طرابلس، وحاكم قيليقية البيزنطي، وثوروس الثاني الأمير الأرمني. وسارت قوات ذلك الحلف المسيحي الكبير صوب حارم، وعندئذ ترك نور الدين حصارها واتجه صوب أرتاح^(٥). ويبدو أن نور الدين استهدف من تلك الحركة استدراج الصليبيين، حتى اقترب

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٥٩ هـ أبو شامة، ج ١ ص ٢٢٦.

(2) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 458.

ويوضح ابن الأثير الأسباب التي جعلت عموري الأول يقبل الصلح عندئذ بسرعة فيقول : "قبيما هم (الصليبيون) كذلك، أتاها خبر بهزيمة الفرنج بحارم، وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيدهم ولات حين مناص، فأراد الفرنج العودة إلى بلادهم ليحفظوها، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها .." (التاريخ الباهر، ص ١٢٢).

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢، ص ٢٢٩ (تحقيق محمد حلمي أحمد).

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ١٤٤ (تحقيق جمال الدين الشيال).

الفريقان من بعضهما، فدارت بينهما معركة حامية فى ١١ أغسطس سنة ١١٦٤. وفى تلك الموقعة كانت مصيبة الصليبيين فادحة، إذ قتل منهم بضعة آلاف، وأسر المسلمون ما لا يحد. وعلى رأس أسرى الصليبيين الذين سيقوا إلى حلب كان جميع أمراء الصليبيين الذين اشتركوا فى المعركة، باستثناء الأمير الأرمنى ثوروس الثانى، فأسر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس - وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين - وجوسلين الثالث دى كورتناي، وهيو الثامن لوزجنان، فضلاً عن حاكم قيليقية البيزنطى الذى تشير إليه المصادر العربية بعبارة الدوك مقدم الروم^(١).

وفى تلك المرة لم يضع نور الدين الوقت عقب انتصاره، وإنما استولى على حارم فى ١٢ أغسطس سنة ١١٦٤، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى أنطاكية، لولا حرصه على عدم استئثاره عداء الإمبراطور البيزنطى الذى كانت أنطاكية تحت حمايته^(٢). لذلك اتجه نور الدين نحو بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس، واستولى عليها فى أكتوبر سنة ١١٦٤، وملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا^(٣).

أما الملك عمورى الأول فقد عاد من مصر فى أوائل نوفمبر سنة ١١٦٤ ليجد الموقف فى بلاد الشام جد خطير بالنسبة للصليبيين، وذلك بعد أن استولى نور الدين على حارم من إمارة أنطاكية، وبانياس من مملكة بيت المقدس، وكلا الموقعين له أهميته الاستراتيجية. هذا بالإضافة إلى ما كان من أسر أميرى أنطاكية وطرابلس وزملائهما. وإذا كان عمورى الأول قد نجح فى حمل نور الدين على إطلاق سراح بوهيموند الثالث، فإنه يغلب على الظن أن نور الدين لم يقبل ذلك إلا تحت تأثير الخوف من تدخل الإمبراطور البيزنطى الذى كان متزوجاً من الأميرة مارى الأنطاكية أخت بوهيموند الثالث^(٤).

ولم يكد يتم إطلاق سراح بوهيموند الثالث فى صيف سنة ١١٦٥، حتى قصد القسطنطينية لزيارة أخته الإمبراطورة وزوجها الإمبراطور. وفى تلك الزيارة

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤٢.

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٥٩ هـ.

(٢) يروى ابن الأثير أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بمهاجمة أنطاكية ليملكها ؛ لكنه رفض، وقال : "إذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيموند (بوهيمند) أحب إلى من جوار ملك الروم".

(التاريخ الباهر ص ١٢٥).

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢١ ، الكامل - حوادث سنة ٥٥٩ هـ.

(4) Grousset : Hist des Croisades, II, p. 469 - 470.

رضى بوهيموند الثالث أن يعين بطرقاً أرثوذكسياً على أنطاكية، الأمر الذي أغضب رجال الدين الكاثوليك فيها وأحدث فتنة داخلية، وحالة من القلق، طوال الفترة التي شغل البطرق الأرثوذكسي أنثاس الثاني كرسي أنطاكية (١١٦٥ - ١١٧١) ^(١). وفي تلك الفترة دأب بوهيموند الثالث على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن إمارته، فأعطى هيئة الفرسان الاسبتارية مجموعة من القلاع في إمارته للدفاع عنها ^(٢).

أما نور الدين، فقد قنع مؤقتاً بالاستيلاء على حارم وبانياس. وفيما عدا استيلائه (١١٦٥ - ١١٦٦) على بعض مواقع صغيرة مثل شقيف تيرون وحصن المنيطرة - على الطريق بين جبيل وعلبك ^(٣)، لم يقم بأي جهد آخر جديد، حتى بدأت مسألة مصر تستوعب فكره وجهده من جديد.

تجدد التنافس بين نور الدين والصليبيين حول مصر سنة ١١٦٧ :

خرج نور الدين والصليبيون جميعاً من تجربتهم العملية على أرض مصر، بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء، لولا تريض كل طرف للآخر ورغبة كل جانب في أن ينفرد بالغنيمة دون خصمه.

ويذكر أبو المحاسن أن شيركوه غادر مصر وهو في غاية من القهر ^(٤). كما يذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطع عقب عودته إلى بلاد الشام أن ينسى مصر، فظل بعد عودته منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير ^(٥). ولو ترك الأمر لشيركوه لعاد إلى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦، ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر في هاتين السنتين خوفاً من تشتيت جهوده وتقسيم قواته، في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعي شيئاً من اليقظة والانتباه ^(٦).

ومن ناحية نور الدين يلاحظ أن الطمع في ثروة مصر أو الخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربياً ومادياً لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمامه بأمر مصر. وإنما كان هناك - بالاضافة إلى ما سبق - دافع آخر مذهبى له أهميته في توحيد

(1) Michel Le Syrien; p. 332 - 333.

(2) King : The Knights Hospitallers in The Holy Land, p. 93.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦١ هـ.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

(6) Schlumberger : Campagnes du Roi Amury, p. 101 - 102.

الجهة الإسلامية ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت فى نظره مصدراً من مصادر الفرقة فى العالم الإسلامى، لأن قيامها فى القاهرة كان كفيلاً ببقاء المذهب الشيعى حياً - على الأقل فى مصر - فى حين ساد المذهب السنى بلاد الشام ومعظم بلاد العراق. ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخرى، وذلك قبل أن يعهد نور الدين إلى شيركوه بمهمة غزو مصر^(١).

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن جلعت نور الدين يرسل شيركوه للمرة الثانية إلى مصر، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى استبداد شاور، وأنه غلب عليه، أرسل إلى نور الدين يستنجد به، ويعلمه أن شاور قد استبد بالأمم وظلم وسفك الدم. هذا إلى أنه كان فى قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج^(٢).

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى يناير سنة ١١٦٧ فى طريقها إلى مصر تحت قيادة شيركوه، وبصحبه أيضاً ابن أخيه صلاح الدين^(٣). وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حساباً لاستنجد شاور بالصليبيين، فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة، واختار أن يعبر النيل عند أطفح إلى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل^(٤).

وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس، الذى أسرع فى نهاية سنة ١١٦٧ ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة. ويبدو أن ظروف الصليبيين فى بلاد الشام كانت تستدعى بقاء عمورى عندئذ، ولكنه اضطر إلى قبول دعوة شاور طمعاً فى ملك مصر، وخوفاً من أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم (الصليبيين) فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين. وهكذا خرج الصليبيون إلى مصر، الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، وفق تعبير ابن الأثير^(٥)، فساروا فى الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترقوا الصحراء إلى بلبس، حيث خف شاور للقاء حلفائه وقادهم إلى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، فى حين كان شيركوه لا يزال مرابطاً على الضفة الغربية^(٦).

(١) Grousset : Hist des Croisades II, p. 478 - 479.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨.

(٣) يشير ابن شداد إلى أن صلاح الدين خرج إلى مصر تلك المرة على كراهية منه : وأن نور الدين الزم به بذلك. (النوادر السلطانية ص ٦٥).

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ١ ص ١٤٢ & Wiet : op. cit. p. 295

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

(٦) المصدر السابق

وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائه ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف هذا المبلغ فوراً^(١). وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية. ولدعم الاتفاقية وإعطائها صبغة رسمية، أرسل عموري الأول سفارة إلى الخليفة الفاطمي، زارته في قصره الفخم حيث تم إبرام الاتفاق في صورته النهائية، وعاد رسل الصليبيين ولا حديث لهم إلا عظمة البلاط الفاطمي^(٢).

وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه، وجدوا أنه لا بد لهم من عبور النيل إلى الضفة الغربية، فأخذوا يعبرون إلى جزيرة الروضة، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه، فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عموري الأول وشاور^(٣). وقرب الأشمونين في المنيا دارت معركة البابين في مارس سنة ١١٦٧ واشترك فيها صلاح الدين^(٤). وقد هزم الصليبيون في تلك المعركة وإن كان انتصار شيركوه غير حاسم، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل، أما عموري فقد قفل راجعاً ومعه بقية جيشه، حيث عسكر قرب القسطنطين على الضفة الشرقية للنيل^(٥).

وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه في امتلاك القاهرة في الحال لو ساق خلفهم^(٦). ولكنه أثر أن يتجه شمالاً على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية، في الوقت الذي ظل الصليبيون قابعين أمام القسطنطين. وإذا كان عسف شاور وجوره لم يمكن أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكاهم مع الصليبيين، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ذلك الوضع، فضلاً عن أن بعدهم عن العاصمة وملاستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر، جعلهم أكثر إحساساً بالخطر وأكثر حرية في التعبير عن شعورهم. لذلك لم يكد شيركوه يقترب من الاسكندرية حتى تلقاه أهلها طائعين وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال. على أنه يبدو أن شيركوه خشي أن يحصره الصليبيون وجميع قواته داخل الاسكندرية

(1) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury ; p. 116.

(2) Guillaume de Tyr, p. 909 - 913

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٦٤.

(٤) عن تفاصيل موقعة البابين وأسباب هزيمة الصليبيين فيها، أنظر ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٥٠ وكذلك حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١١٤.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، التاريخ الباهر : ص ١٢٣.

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٩.

وقال أنا لا يمكننى أن أحصر نفسي ، فترك ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فى الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائداً إلى صعيد فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله ^(١) .

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين وليس معه إلا ألف جندي داخل المدينة ^(٢) . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الإسكندرية ، ومع ذلك فقد صبر أهلها على ذلك ^(٣) . وعندما رأى صلاح الدين إصرار الصليبيين على حصار الإسكندرية وخشى عاقبة ذلك الحصار أرسل إلى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالاً فى أواخر يونيو سنة ١١٦٧ . وفى الطريق أدرك شيركوه صعوبة الاستيلاء على مصر ، فأرسل إلى الصليبيين يطلب عقد الصلح ، وتم الاتفاق - مثل المرة السابقة - على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد ^(٤) .

تدهور موقف الصليبيين بالشام :

والواقع إن الذى شجع عمورى الأول على قبول عرض شيركوه فى سرعة ، تلك الأخبار التى أخذت تترى عليه باستمرار عن سوء الموقف فى الشام ، بعد أن اشترك نور الدين مع أخيه قطب الدين أتابك الموصل فى القيام بغارة عنيفة على إمارة طرابلس سنة ١١٦٧ . ذلك أن نور الدين استغل سوء الأوضاع فى إمارة طرابلس - التى كان أميرها ريموند الثالث لا يزال أسيراً - فأغار على الجهات المحيطة بحصن الأكراد ، ثم اتجه لحصار عرقة إلى الشمال الشرقى من طرابلس ^(٥) . ويذكر ابن الأثير أن نور الدين فتح فى تلك الغزوة قلعتى العريمة وصافيتا ^(٦) . وبعد أن عاد نور الدين إلى حمص خرج مرة أخرى لمهاجمة مملكة بيت المقدس من جهة الشمال الشرقى ، فحرب قلعة هونين ثم اتجه لمهاجمة بيروت ^(٧) .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٢٧٠ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) وقد حفظ صلاح الدين لأهل الاسكندرية جميلهم وحسن إستقبالهم له وصبرهم على الحصار الذى فرضه عليهم الصليبيون ، "فلما ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم" .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٤٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٢٧٠ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

ولعل هذه الأخبار كان فيها الكفاية لتجبل عموري الأول يتعجل العودة إلى الشام بعد أن عقد الصلح مع شيركوه . وفي أوائل سبتمبر سنة ١١٦٧ وصل شيركوه إلى دمشق في حين تأخر عموري الأول في مصر بضعة أسابيع لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية . وكانت أهم مظاهر تلك الحماية دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين ، وبقاء قوة من الفرسان تحمي أبواب القاهرة ، فضلاً عن إقامة مندوب عن الملك الصليبي (شحنة) في القاهرة ، يشارك في شئون الحكم ^(١) .

والواقع إن عموري كان لا يمكنه تحقيق أطماعه في مصر إلا بعد أن يطمئن على مصير الصليبيين بالشام . وكانت المشكلة الكبرى أمام عموري والصليبيين هي قلة الموارد البشرية بعد أن قتل وأسر كثير من الصليبيين بالشام وتناقصت أعداد الحجاج والوافدين من الغرب . ولم يجد عموري في تلك الظروف معيناً سوى منظمات الفرسان ، فأخذ يتوسع منذ سنة ١١٦٧ في منحهم كثيراً من القلاع والمدن للدفاع عنها . وهكذا سيطر الداوية علي انطرطوس ومعظم الأجزاء الشمالية من إمارة طرابلس ، في حين عهد إلى الاسبتارية بحماية البقاع وحصن الأكراد ^(٢) . أما في مملكة بيت المقدس ذاتها فقد أعطى الداوية صفد في الشمال بالإضافة إلى غزة التي كانت بأيديهم في الجنوب ، في حين أخذ الاسبتارية قلعة كوكب . وسرعان ما حذا بوهيموند الثالث أمير أنطاكية حذو ملك بيت المقدس ، فتوسع في إعطاء الداوية كثيراً من المناطق حول بغراس في حين منح الاسبتارية أجزاء واسعة في جنوب الإمارة . وهكذا أخذ فرسان الداوية والاسبتارية يبدون عندئذ في صورة القوة الكبرى التي نهضت بعبء حراسة الأراضي والممتلكات الصليبية ببلاد الشام ^(٣) .

على أنه إذا كان عموري الأول قد غادر مصر مضطراً سنة ١١٦٧ ، فليس معنى ذلك أنه عدل عن فكرة الاستيلاء على مصر . ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما حضروا إلى مصر في المرات السابقة اطلعوا على عوراتها

(١) وأما الفرنج فانهم قد استقر بينهم وبين المصريين أن يكون بالقاهرة شحنة ، ويكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ العسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٩ ،

ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ١٢٤) .

(2) King : The Knights Hositallers, p. 93.

(3) Runciman : op. cit II, p. 376 - 377.

وطمعوها فيها^(١)، ولم يعد فى وسعهم أن يتخلوا عن فكرة الاستيلاء على تلك البلاد طمعاً فى ثروتها وحماية لكيانهم فى الشام ولكن عمورى أدرك أنه فى حاجة إلى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء على مصر، وبذلك فكر من جديد فى تقوية الرابطة مع الإمبراطورية البيزنطية. ولم يحجم - مثلاً فعل بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من قبل - عن الزواج سنة ١١٦٧ من الأميرة مارى كومنين قريبة الإمبراطور^(٢) وهكذا تعاقبت ملكتان بيزنطيتان على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، هما تيودورا كومنين زوجة بلدوين الثالث، ومارى كومنين زوجة عمورى الأول^(٣).

والواقع أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية، وتنافس نور الدين وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل. ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ إلى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك، فتقوم القوات البيزنطية الصليبية بفتح مصر^(٤)، على أن يكون الثمن الذى يتقاضاه الإمبراطور لقاء مساعدة الصليبيين هو إعطاؤه جزء من مصر، فضلاً عن أنطاكية^(٥). وقد وافق عمورى الأول على تلك الشروط، وأرسل مبعوثاً - هو المؤرخ الشهير وليم الصوري - إلى القسطنطينية، حيث تم عقد اتفاقية بين الطرفين فى سبتمبر ١١٦٨ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين^(٦).

انتصار الوحدة :

على أن الاتفاقية السابقة بين البيزنطيين والصليبيين لم تنفذ، إذ لم يشأ الملك عمورى الأول أن ينتظر فراغ الإمبراطور من مشاغله فى البلقان، وأنفرد - دون شركائه البيزنطيين - بالهجوم على مصر. وقد يبدو لأول وهله أن السبب فى ذلك التحول إنما يرجع إلى عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه البيزنطيون فى إقتسام مصر، فأراد أن ينفرد بالصيد وحده، ولكن الواقع هو أن عمورى الأول وجد نفسه مضطراً إلى الإسراع فى العمل نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين^(٧). ويروى ابن الاثير وابن واصل أن جماعة من الفاطميين من أعداء شاور، كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصر، عداوة منهم لشاور.

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٥٠.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 344.

(3) Grousset : Hist des Croisades, II, p. 504.

(4) Guillaume de Tyr p. 954.

(5) Schulmberger : Campagnes du Roi Amaury I. p. 185.

(6) Guillaume de Tyr. p. 955 - 957.

(7) Chalandon : Comnenes, II, p. 547 - 538.

حقيقة إن شاور كان هو الباديء دائماً بطلب مساعدة الصليبيين ؛ ولكنه أخذ يتخوف عندما وجد أن هذه المساعدة تحولت إلى حماية . هذا إلى أن الضريبة السنوية التي فرضها عموري الأول على شاور - وهي مائة ألف دينار - أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية، في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها. ثم إن وجود مندوب عن الصليبيين - أو شحنة - ^(١) في القاهرة يشارك في شئون الحكم، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة، كل ذلك أزعج الفكر الإسلامي ^(٢). وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أساءوا معاملة أهل البلاد، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبواهم بالأذى ... ^(٣). وهكذا لم يجد شاور مفرأ - أمام شعور الإشتياء العام في القاهرة - من أن يقلب سياسته رأساً على عقب، فاتصل بنور الدين طالباً المساعدة للتخلص من الحماية الصليبية ^(٤).

وبعد أن فرغ نور الدين من بعض المشاكل التي نشبت في أواخر سنة ١١٦٧ وأوائل سنة ١١٦٨ مع بعض الأمراء المسلمين في العراق والشام، بدأ يوجه جهوده من جديد تجاه المسألة المصرية ^(٥). وفي ذلك الوقت بلغ الصليبيين أن شاور أرسل ابنه - الكامل شجاع - إلى نور الدين ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين. كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة، فيتزوج الكامل شجاع من أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور ^(٦).

على أنه يبدو أن تدخل عموري مرة أخرى في شئون مصر لم يكن مرجعه تبدل سياسة شاور فحسب، وإنما تعرض ملك بيت المقدس لضغط من جانب فرسانه وأمرائه الذين وجدوا في مصر لقمة سائغة، فظلوا يدفعون ملكهم للإستيلاء عليها. ويروي ابن الأثير أن رجال الحامية الصليبية في مصر أرسلوا إلى عموري يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه، ولكن عموري

(١) الشحنة هو نائب السلطان في البلد، ومن يقوم مقامه في ضبطها وتصريف شئونها.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٧ - ١٣٨. ويذكر ابن الأثير أن الخليفة العاضد الفاطمي

أرسل إلى نور الدين محمود يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في

الكتب شعور النساء، وقال : هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

(٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠،

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٢ هـ ،

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٥٢.

تردد كثيراً قبل القيام بتلك الخطوة، إذ أدرك أنه لن يتعرض لمقاومة الحكام بل لمقاومة الأهالى أنفسهم، وأن المسألة ليست مسألة شاور والخليفة إنما هى مقاومة شعب بأسره . لذلك قال عمورى لأصحابه أنه لو أقدم على تلك الخطوة فإن صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلمونها إلينا ويقاقلوننا دونها ولعله مما يشرف مصر وتاريخها أن عمورى والصليبيين عملوا حساباً لعامة أهل مصر وفلاحها، في الوقت الذى كانوا يعلمون جيداً مدى انحلال حكام مصر وضعفهم^(١) .

ولم يلبث أن دب الخلاف بين الصليبيين سنة ١١٦٨ حول السياسة الواجب اتباعها تجاه المسألة المصرية، فرأى الملك عمورى الأول الاكتفاء بسياسة الحماية التى يتبعها الصليبيون، فى حين نادى كثير من أمراء الصليبيين بأنه لا بد من غزو مصر وإخضاعها للصليبيين وقالوا إن مصر لا مانع لها ولا حافظ^(٢) . وكان أن انتصر الرأى الأخير، فأعد عمورى جيشاً كبيراً أسهم فيه فرسان الاسبتارية مساهمة فعالة^(٣) .

وفى أواخر أكتوبر ١١٦٨ غادر عمورى الأول عسقلان متجهاً نحو دلتا النيل لغزو مصر للمرة الرابعة، فوصل بلبيس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨ . ولكن عمورى لاحظ تغييراً فى موقف المصريين منه عندئذ ، بدليل أن بلبيس أغلقت أبوابها فى وجهه تلك المرة . وعندما طلب عمورى من طى بن شاور الذى كان بالمدينة أن يسمح له ولجنده من الصليبيين أن يعسكروا داخل بلبيس أجابه طى «على أسنة الرماح ... أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟ » فرد عليه عمورى ، نعم هى جبنة والقاهرة زيدة ...^(٤) . وكان أن اضطر عمورى إلى محاصرة بلبيس ومهاجمتها للاستيلاء عليها عنوة فى ٤ نوفمبر سنة ١١٦٨ . وعند دخول الصليبيين بلبيس ارتكبوا حماقة كبرى، إذ نهبوا وسبوا أهلها وقتل (عمورى) من أهلها خلفاً عظيماً وخرب أكثرها وأحرق جل دورها مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الناس^(٥) .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٢٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج ١ ق ٢، ص ٣٩٠ .

(3) King : op. cit, p. 94.

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٢١ .

(5) Guillaume de Tyr p. 951 &

ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس للكو مصر والقاهرة فى سرعة، (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٩٠).

ولم يلبث أن اقترب عموري الأول من القاهرة في ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ حيث عسكر عند بركة الحبش جنوبى الفسطاط. وهنا يذكر ابن الأثير أن أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرضون للمصير السيء الذى تعرض له أهل بلبيس، كما يؤكد أنه لو كان الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة^(١).

أما شاور فقد أحس فى ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه فأشعل النار فى الفسطاط وأحرقها أولاً عن آخر، بعد أن أئذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم ، وعندئذ نقل عموري معسكره أمام القاهرة قرب باب البرقية^(٢). ولكن القاهرة التى امتلأت باللاجئين من الفسطاط عازمت على المقاومة، فى الوقت الذى وصل الأسطول الصليبي إلى بحيرة المنزلة وتئيس. ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوباً صوب القاهرة، بسبب العقبات التى وضعها المصريون فى مجرى النيل^(٣). وهكذا أخذ عموري يتراجع عن القاهرة بعد أن أعطاه شاور مائه ألف دينار^(٤)، فاتجه إلى سرياقوس عن طريق المطرية ، وهناك سمع بأن شيركوه اقترب من مصر على رأس جيش كبير، فأمر عموري الأسطول الصليبي بالعودة إلى عكا^(٥).

وكان الخليفة الفاطمي عندما رأى الخطر المحيط ببلاده قد أرسل إلى نور الدين يعرض عليه ثلث بلاد مصر إذا هو أنقذه من الصليبيين^(٦). والواقع أن نور الدين محمود كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر، فلم يكذب يسمع بعودة عموري والصليبيين إلى مصر إلا وأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر كذلك يروى أبو شامة أن نور الدين أخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر. بين حين وآخر، وأدرك أن شاور يلعب بهم تارة وبالإفرنج أخرى. ولذلك قرأه على أن يتخذ موقفاً حاسماً من المسألة المصرية^(٧).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٢٢.

(3) Guillaume de Tyr. p. 953.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٥٠.

(5) Schlumberger : Campagnes du Roi Amauri, p. 208 - 209.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٢٩٧، ٤٣٥.

وقد سحب صلاح الدين عمه شيركوه فى تلك الحملة الجديدة على مصر، وإن كانت المصادر تشير أيضا إلى تمنعه وعدم رغبته فى الخروج حتى أجبره نور الدين على ذلك وقال له : لا بد من خروجك ، وعندئذ لم يستطع صلاح الدين مخالفة مخدومه نور الدين^(١). وفى الوقت الذى اقتربت جيوش نور الدين من حدود مصر الشرقية، اتخذ عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس إلى بلبيس - حيث ترك هناك قوة تحمي الطريق المؤدى إلى القاهرة - ثم التقدّم نحو فاقوس لمباغنة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة من الصحراء الشرقية ، والقضاء عليها قبل أن تتمكن من الاتحاد مع القوات المصرية (ديسمبر سنة ١١٦٨)^(٢) ولكن هذ الخطة التى وضعها عمورى الأول انهارت من أساسها عندما علم أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة، وأنه أدرك عاصمة مصر فعلا حيث التف حوله الأهالى بوصفه المدافع عنهم وعن الإسلام ؛ فى حين لم يستطع شاور نفسه - الذى كان الدعامة التى اعتمد عليها عمورى فى المرتين السابقتين - أن يفعل شيئا. وهكذا لم يبق أمام عمورى الأول سوى أن يسحب حاميته التى تركها فى

(١) تحرص المصادر العربية على أظهار صلاح الدين فى صورة المتمنع عن المجيء إلى مصر صحبة عمه شيركوه فى الحملتين السابقتين وفى الحملة الثالثة بوجه خاص. من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن صلاح الدين قال لعمه : "والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً". (الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ). كذلك يروى أبو المحاسن أن نور الدين قال لصلاح الدين : "أخرج مع عمك أسد الدين، فامتنع وقال يا مولاي يكفى ما لقيناه من شدائد فى تلك المرة". فأجبره نور الدين على الخروج. (النجوم ج ٥ ص ٢٥٠).

أما ابن شداد فيروى عن صلاح الدين أنه قال بنفسه : "كنت أكره الناس للخروج فى هذه الواقعة، وما خرجت مع عمى باختياري". (ص ٦٧).

وفى رأينا أن المؤرخين قصصوا من تلك الإشارات إيضاح أهمية الدور الذى يلعبه القدر والنصيب المكتوب ؛ وكيف أن نور الدين ألح على صلاح الدين فى الحضور إلى مصر دون أن يدرى أن صلاح الدين هذا سيكون منافسه فى المستقبل وأنه سيستغل ثروة مصر للوقوف فى وجهه وأنه سيرثه فى دولته. كذلك كيف أتى صلاح الدين الى مصر كارهاً دون أن يدرى أنه على موعد مع القدر، وأن نجمة لن يلبث أن يتألق فى تلك البلاد. ويؤكد القاضى ابن شداد هذا المعنى الأخير عندما يعقب على تمنع صلاح الدين عن الحضور إلى مصر، بالآية الكريمة : "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم".

(النوادر السلطانية، ص ٦٧).

(2) Guillaume de Tyr. p. 955.

بلبس وينسحب ومعه رجاله فوراً (يناير ١١٦٩) «عائدين إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا»^(١).

أما شيركوه، فقد فرح به أهل مصر واستقبل استقبال البطل المخلص عند وصوله إلى القاهرة. وقد عسكرت قواته عند أرض اللوق على باب القاهرة، فاستدعاه الخليفة العاضد الفاطمي إلى القصر، وخلع عليه خلة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم^(٢). وكان من الطبيعي أن يحقد شاور على شيركوه، وبخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله إليه، فأرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويقول لهم « يكون مجيئكم في دمياط في البحر والبر »^(٣)، بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها، ولما عارضه ابنه الكامل في ذلك رد شاور على ابنه قائلاً « لئن لم نفعل هذا لنقتلن كلنا ».

وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يعاقل في انتظار وصول الصليبيين لنجدته. وأخيراً اجتمع أعيان الدولة بمصر عند شيركوه وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الإسلام »، وطالبوا بقتله^(٤).

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩؛ وقيل إن الخليفة العاضد الفاطمي شارك في المؤامرة التي عصفت بشاور. وبعد ذلك دخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة دخول الظافرين، حيث أباحوا للأهالي نهب قصر شاور^(٥). أما شيركوه فلم يلبث أن توفي بمرض التخممة بعد شهرين (٢٣ مارس ١١٦٩)، وعندئذ خلفه صلاح الدين ليبنى ثمرة غرسه^(٦).

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٩١، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٢٨، الكامل : حوادث ٥٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠.

(٢) اختلفت الأقوال في أن الخليفة العاضد الفاطمي خلع على شيركوه بخلعه الوزارة قبل مقتل شاور أو بعده ويرجح أبو المحاسن الرأي الأخير. (النجوم الزاهرة ٥ ص ٣٥١).

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ & أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٥١.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ، التاريخ الباهر، ص ١٤١.

تم الجزء الأول من كتاب
الحركة الصليبية
ويليه الجزء الثاني

 Bibliotheca Alexandrina



0434034